الدكتور فاضل صالح السامرائي

على طريق التفسير البياني



دار ابن كثير

عَلَى طَرِيقِ التَّفْسِيرِ البَيَانِيِّ

الجُزْءُ الثَّانِي

• الموضوع: تفسير
• العنوان: على طريق التفسير البياني ٤/١
• تأليف: الدكتور فاضل صالح السامرائي

الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م
ISBN 978-614-415-267-6

ISBN 978-614-415-267-6
9 786144 152676

• الطباعة: مطابع يوسف بيضون - بيروت / التجليد: شركة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت
• الورق: كريم / الطباعة: لونان / التجليد: كرتونيه
• القياس: 17×24 / عدد الصفحات: 1656 / الوزن: 3200 غ

دمشق - سورية - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
تلفاكس: 2225877 11 963+
2228450 11 963+

بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حيدر - شارع أبو شقرا
تلفاكس: 817857 1 961+
705701 1 961+
جوال: 204459 3 961+

website: www.ibn-katheer.com / e-mail: info@ibn-katheer.com

 /daribnkatheer  @daribnkatheer  daribnkatheer  daribnkatheer

عَلَى طَرِيقِ التَّفْسِيرِ البَيَانِيِّ

تأليف

الدكتور فاضل صالح السامرائي

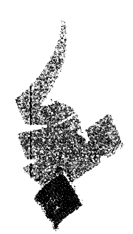
الجُزْءُ الثَّانِي

سُورَةُ يس سُورَةُ لُقْمَانَ






بسم الله الرحمن الرحيم



سُورَةُ يسٓ



﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ [يس: ١ ـ ١١]

* * *

﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾

﴿ يسٓ ۝١ ﴾

قيل في الأحرف المقطعة كلام كثير ، وأنا لا أستطيع أن أذكر أكثر مما ذكروا ، غير أني أودّ أن أقول هنا : إن هذه الأحرف مهما قيل فيها فإنها تلفت انتباه السامع وتجعله يصغي إلى ما يقال بعدها ، فكأنها وسيلة تعبيرية تشدّ الذهن ، ولذا قال قوم : إنها فواتح للتنبيه واستئناف الكلام . وقال آخرون : إنها إشارة الى حروف المعجم ، كأنه قال للعرب : إنما تحديتكم بنظم هذه الحروف التي تعرفونها فأنا أجعل منها كلامًا معجزًا

يعجز عن مثله الإنس والجن ولو تظاهروا عليه. وقال قوم: إن المشركين لما أعرضوا عن سماع القرآن بمكة نزلت ليستغربوها فيفتحون لها أسماعهم فيستمعون القرآن بعدها فتجب عليهم الحجة(١).

وأريد أن أشير إلى أمر آخر بخصوص (يس) ؛ فقد ذهب بعضهم إلى أنه اسم من أسماء محمد ﷺ بدليل قوله بعدها: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾(٢).

ولا أرى هذا الاستدلال سديدًا، فقد ورد خطاب الرسول ﷺ بعد غيرها من الأحرف المقطعة مما يعلم يقينًا أنه ليس من أسماء الرسول. فقد قال تعالى: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ١ ـ ٣]، وقال: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: ١ ـ ٢]، وقال: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم: ١ ـ ٣]

ولم يقل أحد إنَّ ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ أو ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ أو ﴿نٓ﴾ من أسماء الرسول.

جاء في (التبيان في أقسام القرآن): «والصحيح أن يس بمنزلة حم والم ليست من أسماء النبي ﷺ»(٣).

* * *

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾.

أقسم ربنا سبحانه بالقرآن الكريم، والقرآن علم على الكتاب الذي أنزله على سيدنا محمد ﷺ، وهو مأخوذ من لفظ القراءة، فإن القرآن في

---

(١) انظر البحر المحيط ١/ ٣٤.

(٢) انظر البحر المحيط ٧/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣، فتح القدير ٤/ ٣٤٨.

(٣) التبيان في أقسام القرآن ٢٦٧

الأصل مصدر للفعل (قرأ) والمصدر الآخر (قراءة).

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨]؛ أي اتبع قراءته[١].

ويسمىٰ أيضًا (الكتاب) وأقسم به ربنا أيضًا فقال: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ والكتاب من (الكتابة).

والتسمية بالقرآن والكتاب إشارة إلى أنه يُقرأ ويكتب، فهو كتاب لكونه مكتوبًا وقرآن لكونه مقروءًا. فأقسم به ربنا مكتوبًا ومقروءًا.

﴿ٱلْحَكِيمِ﴾

يحتمل عدة معان كلها يمكن أن تكون مرادة.

فهو يمكن أن يكون (فعيل) بمعنى اسم المفعول أي (مُحكَم)، والمحكَم هو الذي لا يتناقض ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[٢]، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود: ١]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، تقول: أحكمت الشيء فهو محكم وحكيم.

والحكيم أيضًا صاحب الحكمة، فيكون القرآن حكيمًا بمعنى أنه ذو حكمة، أي متضمن إياها ومتصف بها، فيكون الإسناد مجازيًّا، وحقيقة الإسناد إلى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧] فنسب عدم الرشد إلى أمره والحقيقة نسبة ذلك إلى فرعون، وهو كما تقول: رأي حكيم وقول حكيم. أو إنه حكيم لأنه ينطق بالحكمة، فجعله كالحي المتكلم، وهو من باب الاستعارة[٣].

---

(١) لسان العرب (قرأ) ١/ ١٢٣.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٦٣، فتح القدير ٤/ ٣٤٩، البحر المحيط ٧/ ٣٢٣.

(٣) انظر الكشاف ٢/ ٥٨١، التفسير الكبير ٢٦/ ٤٠ روح المعاني ٢٢/ ٢١١.

والحكيم أيضًا صيغة مبالغة من الحكم[١] فهو بمعنى الحاكم، والمعنى أنه قرآن حاكم، وهو كذلك، فهو الحكَم العدل والقول الفصل، وحكمه يعلو على جميع الأحكام، فهو يحكم ويهيمن على غيره من الأحكام والكتب كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]

وهذه المعاني كلها مرادة مطلوبة، فهو كتاب محكم وحكيم متصف بالحكمة ناطق بها، وحاكم مهيمن على الكتب والشرائع والأحكام.

فجمع بقوله: (الحكيم) عدة معان كلها مرادة مطلوبة، وجمع بين الحقيقة والمجاز، وجمع بين المجاز العقلي والاستعارة، ولا تؤدي كلمة أخرىٰ هذا المؤدىٰ.

* * *

﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾

جواب القسم، فهو قد أقسم بالقرآن الكريم إنه لمن المرسلين.

وقد تقول: كيف يقسم بالقرآن والمفروض أن يقسم بشيء أجمع المقسِم والمقسَم له على تعظيمه وقبوله مقسَمًا به، والقوم لا يرون أن القرآن كلام الله فلا يتعدّون بالقسم به، فما قيمة هذا القسم؟

والجواب: أن القرآن جعله الله معجزة الرسول والدليل الأكبر على رسالته والبرهان الأعظم عليها. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠ ـ ٥١].

---

(١) انظ البحـ المحيط ٧/ ٣٢٣.

وقد سماه الله برهانًا فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١٧٤].

وقد تحداهم به أكثر من مرة ووصفه بأنه قرآن حكيم. فهو قد أقسم بما تقوم به الحجة عليهم. فكأنه قال لهم: تدبروا هذا القرآن وتأملوه، فإنه أُحْكِم إحكامًا لا إحكام بعده، وأنه حكيم ينطق بالحكمة وهو حاكم يعلو ولا يعلى عليه، فلو تدبرتموه لعلمتم علم اليقين أنه أنزل من عند الله. فهذا من أحسن القسم.

جاء في(التفسير الكبير): «إن هذا ليس مجرد الحلف، وإنما هو دليل خرج في صورة اليمين لأن القرآن معجزة، ودليل كونه مرسلاً هو المعجزة والقرآن كذلك» [١].

ومثل هذا القسم يستعمل في حياتنا العامة لإقامة الدليل، وذلك كأن ينكر شخص إحسان شخص عليه وأنت تعلم أن قميصه الذي يلبسه هو مما أحسن به عليه فتقول له: (ورب لابس هذا القميص إنه لمحسن) أو (ورب هذا القميص إنه لجواد) بل قد يقولون: (وحق هذا القميص إنه لكريم). فتقسم بما تقوم عليه الحجة والدليل الذي لا يتمكن من إنكاره.

ثم إن هذا القرآن هو البرهان وهو موضوع الرسالة في آن واحد. فإنه أحيانًا تختلف المعجزة عن موضوع الرسالة فتكون المعجزة لتأييد الرسالة، وذلك كمعجزة موسى في قلب العصا حية أو جعل اليد بيضاء للناظرين أو نحوهما، فإن هذه المعجزات ليست موضوع الرسالة وإنما الرسالة هي التوحيد والتعاليم التي أمر بها ربنا سبحانه. وهذه المعجزات لتأييد الرسول وتصديقه بما يقول. ونحو ناقة صالح فإنها معجزة وآية على

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٤١

صدق سيدنا صالح ، ولكنها ليست هي موضوع الرسالة ، فإنه أرسل بعبادة الله وحده والأوامر والنواهي التي أرادها ربنا وبلغها نبي الله . أما القرآن الكريم فهو المعجزة والآية الدالة على صدقه ﷺ وإنه هو موضوع الرسالة ، وبذلك جمع الفضلين وحاز الشرفين فاستحق بذلك أن يقسم به .

وقد أكد الجواب بـ (إن) واللام ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وذلك لشدة إنكار قومه لرسالته كما بينت ذلك الآيات التي بعدها ، فقد ذكر أنهم غافلون وأنه حَقَّ القولُ على أكثرهم فهم لا يؤمنون . وأنه جعل من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدًّا فأغشاهم فهم لا يبصرون ، وأنه سواء عليهم الإنذار وعدمه فهم لا يؤمنون على أية حال . فاستدعى ذلك الزيادة في التوكيد .

وقال : ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ولم يقل : (إنك رسول) ذلك أن قوله : (من المرسلين) يدل على أنه واحد من جماعة يشتركون معه في الوصف . وأما قوله : (إنك رسول) فإنه إخبار بصفته بغض النظر عما إذا كان يشاركه أحد في الوصف أم لا . فأنت تقول : (هو ناجح) فتخبر عن نجاحه سواء كان ثمة ناجح غيره أم لا . وتقول : (هو من الناجحين) وذلك إذا كان معه آخرون . وكذلك تقول : (هو ناجٍ) وقد لا يكون معه ناجٍ آخر ، وتقول : (هو من الناجين) إذا كان معه ناجون . وتقول : (هو مُغرَق) و(هو من المغرقين) . فقوله : ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ يشير إلى إنه ليس بدعًا من الرسل ، وإنما هو واحد من جماعة لهم مثل صفته .

﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾

يحتمل أن يكون هذا الجار والمجرور خبرًا بعد خبر ؛ أي : إنك على صراط مستقيم ، كما تقول : (إنه من أهل بغداد من أصحاب الثراء) فأخبرت أنه من أهل بغداد ، وأنه من أصحاب الثراء .

كما يحتمل أن يكون متعلقًا بالمرسلين ؛ أي: إنك من الذين أرسلوا على صراط مستقيم.

وقد تقول: وما الفرق بين التقديرين؟

والجواب: إنك إذا جعلته خبرًا بعد خبر فإنه يصح أن تستغني بأحد الخبرين ويتم الكلام، فإنه يصح أن تقول: (إنك لمن المرسلين) وتكتفي، كما قال تعالى في موطن آخر ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٢].

وتقول: (إنك على صراط مستقيم) وتكتفي كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف:٤٣]. أما إذا جعلته متعلقًا بالمرسلين فإنك تجعل الكلام لا يتم إلا بمتعلقه، فقوله: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يكون مرتبطًا بما قبله متعلقًا به كما تقول: (أنت من المرسلين بهذا الأمر) أو (أنت من المرسلين إلى هؤلاء القوم) و(أنت من المرسلين على نفقة الدولة).

وقد تقول: ولم لم يكتف بأحد الخبرين كما فعل في موطن آخر؟

والجواب: أنه لو قال: (إنك لمن المرسلين) لدلّ على أنه على صراط مستقيم تضمنًا لا تصريحًا، فإن كونه من المرسلين يدل على أمور كثيرة، منها: أنه صادق. ومنها: أنه على حق. ومنها: أنه على صراط مستقيم. ومنها: أنه يأمر بالخير. ومنها: مجرد الإخبار أنه من المرسلين لا إلى إرادة معنى متضمن، فقوله: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ حدد أمرًا معينًا مما تضمنه كونه من المرسلين ولم يدعْ ذلك للذهن الذي قد ينصرف إلى أمور غير معينة. وقد يقتضي المقام أن يصرح بأمور مما تقتضيه الرسالة.

أما إذا قال: (إنك على صراط مستقيم) فقط فإنه لا يدل على أنه من المرسلين، فكون الشخص على الصراط المستقيم لا يعني أنه رسول من

عند الله . فجمع بين الأمرين لإفادة المعنيين تصريحًا .

وقد تقول: إذا كان الأمر كذلك فَلِمَ اكتفى إذن بأحد الخبرين في موطن آخر من القرآن ، فقال في موطن: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ وقال في موطن آخر : ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ؟

والجواب: أن كل موطن يقتضي ما ذكر فيه ، وإليك إيضاح ذلك :

قال تعالى : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٤٣] .

وإذا نظرنا في سياق آية البقرة لم نر فيه ذكرًا للدعوة إلى دين الله وهو الصراط المستقيم ، وإنما وردت في سياق القصص القرآني ، فقد وردت في سياق قصة طالوت وجالوت ثم ذكر بعدها بعضًا من الرسل .

لقد وردت في سياق إثبات نبوة الرسول بإخباره عما لم يعلم من أخبار الماضين ، فإنه لما ذكر قصة طالوت قال بعدها: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أي أن إجراء هذه الأخبار على لسانك وأنت لا تعلمها دليل على أنك من المرسلين .

وأما آية الزخرف فإنها وردت في سياق الدعوة إلى الله وهداية الخلق إلى صراطه المستقيم ، قال تعالى : ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٠ ـ ٤٥] .

فقوله: ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ يعني هداية الخلق إلى صراطه المستقيم ودينه القويم. وقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ يعني ما أوحاه فاقتضى ذلك ذكر الصراط المستقيم.

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى أن قوله: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾ يعني أنه نبي مرسل، وكذلك قوله: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾، فجمع بين كونه مرسلاً وأنه على صراط مستقيم كما فعل في آية (يس) فاقتضى كل موطن ما ذكر فيه.

ووصفُ الصراط بأنه مستقيم يدل على أنه أقرب الطرق الموصلة إلى المطلوب وأنه طريق قويم وشرع مستقيم.

جاء في (الكشاف): ﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ خبر بعد خبر، أو صلة للمرسلين. فإن قلت: أي حاجة إليه خبرًا كان أو صلة وقد علم أن المرسلين لا يكونون إلا على صراط مستقيم؟.

قلت: ليس الغرض بذكره ما ذهبت إليه من تمييز من أرسل على صراط مستقيم من غيره ممن ليس على صفته، وإنما الغرض وصفه ووصف ما جاء به من الشريعة، فجمع بين الوصفين في نظام واحد، كأنه قال: إنك لمن المرسلين الثابتين على طريق ثابت.

وأيضًا فإن التنكير فيه دال على أنه أرسل من بين الصرط المستقيمة على صراط لا يكتنه وصفه»[1].

وجاء في (التفسير الكبير): ﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ خبر بعد خبر، أي إنك على صراط مستقيم. والمستقيم أقرب الطرق الموصلة إلى

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨١.

المقصد ، والدين كذلك فإنه توجه إلى الله تعالى وتولّي[١] عن غيره ، والمقصد هو الله ، والمتوجه إلى القصد أقرب إليه من المولّي عنه والمنحرف منه.

ولا يذهب فهم أحد إلى أن قوله: إنك منهم على صراط مستقيم مميز له عن غيره كما يقال: إن محمدًا من الناس مجتبى ؛ لأن جميع المرسلين على صراط مستقيم. وإنما المقصود بيان كون النبي ﷺ على الصراط المستقيم الذي يكون عليه المرسلون»[٢].

وقد تقول: ولم قَدَّم ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾على قوله: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ولم يقل: (إنك لعلى صراط مستقيم من المرسلين)؟

والجواب أنه فعل ذلك لعدة أمور:

منها: أن قوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أفضل من كونه على صراط مستقيم ؛ لأن كونه مرسلاً يعني أنه على صراط مستقيم وأنه نبي.

ومنها: أن قوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يتضمن أنه على صراط مستقيم.

ومنها: أن هذا من باب تقديم السبب على المسبَّب ، فإن كونه على صراط مستقيم إنما هو بسبب أنه مرسل أوحي إليه بهذا الصراط فهو أسبق في الرتبة.

ومنها: أن تقديم المرسلين يمكن أن يعلق به ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فيكون من تمام معناه كما بينا ، أي إنك أرسلت على طريق مستقيم.

ولو أنا قلنا: (إنك على صراط مستقيم من المرسلين) لم يصح تعليق (من المرسلين) بما قبله فينقطع الكلام ولا يتصل.

---

(١) كذا ورد ، والصواب: وتولٍّ.

(٢) التفسير الكبير ٢٦/ ٤١.

فإن هذا التقديم أولى من كل ناحية.

* * *

﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ ﴾

بعد أن عظم القرآن بأن أقسم به ووصفه بالحكمة عظمه بإضافته إلى ذاته العلية، فإن الكتاب يعظم ناحيتين:

١ ـ من حيث ما أودع فيه، وهو تعظيم لذاته.

٢ ـ ومن حيث مرسله.

فقد يكون الكتاب ليس بذي قيمة في ذاته وإنما يعظم بسبب مرسله وصاحبه.

ثم إن صاحبه يكون معظمًا بسببين: أن يكون مرهوبًا مخوفًا أو أن يرجى خيره ويطمع في نعمته. وقد جمع الله ذلك بقوله: ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فجمع بين الترغيب والترهيب وهما مصدر التعظم للذات وما يتصل بها. فقوله: (العزيز) يفيد أنه نافذ أمره، و(الرحيم) يفيد أنه ذو رحمة وليس متجبرًا عاتيًا.

ففخم الكتاب وعظمه من الناحيتين: من حيث ذاته، ومن حيث مرسله.

جاء في (روح المعاني): ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ نصب على المدح أو على المصدرية لفعل محذوف، أي نزل تنزيل... وأيًّا ما كان ففيه إظهار لفخامة القرآن الإضافية بعد بيان فخامته الذاتية بوصفة بالحكمة.

وفي تخصيص الاسمين الكريمين المعربين عن الغلبة الكاملة والرحمة الفاضلة حثٌّ على الإيمان به ترهيبًا وترغيبًا وإشعارًا بأن تنزيله



ناشئ عن غاية الرحمة حسبما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾»[١].

وهناك تعظيم آخر للقرآن وهو مكانه المحفوظ فيه، فإن الشيء إذا كان ثميناً حفظ في مكان أمين لا تمسّه الأيدي ولا يعبث به العابثون. وقد أشار إلى مكانه المحفوظ فيه فذكر أنه في مكان عالٍ وقد نزّل إلى الرسول تنزيلاً. فالتنزيل إنما يكون من المكان العالي المرتفع، وهذا يدل على رفعة القرآن ورفعة مكانه.

وعلى هذا يكون أشار إلى تعظيم القرآن من عدة نواح:

١ ـ الإقسام به.

٢ ـ وصفه بأنه حكيم

٣ ـ وأنه في مكان عالٍ وقد نزله العزيز الرحيم بأمره.

٤ ـ وأن الله أضافه إلى نفسه بوصفي الترهيب والترغيب. فلم يترك جهة من جهة التعظيم إلا أشار إليها وذكرها.

واختيار العزيز الرحيم له أكثر من دلالة في السورة.

فإن العزيز هو الغالب وفي ذكره ترهيب للعباد، والرحيم هو المتصف بالرحمة على وجه الثبات، وفي ذكره ترغيب لهم، فجمع بين الترغيب والترهيب.

وقد طبعت السورة بطابع هذين الاسمين الكريمين، فإن جو السورة يشيع فيه العزة والرحمة.

فقد تظهر العزة بنصر أوليائه ومحق أعدائه، فقد أهلك أصحاب القرية

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ٢١٢ ـ ٢١٣.

بصيحة واحدة: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس: ٢٩].

وذكر أن آلهتهم التي يعبدونها من دون الله لا تغني شفاعتهم شيئًا، ولا يتمكنون من إنقاذ من أراده الرحمن بضر، فهي ليست لها وجاهة، وليس لها قوة، وهذا من أظهر الأمور على عزته سبحانه ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣].

وقد ذكر أنه إن شاء أغرقهم فلا معين لهم ولا يتمكن أحد من إنقاذهم إلا إذا أراد هو ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يس: ٤٣ ـ ٤٤].

وذكر أنهم ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم جميعًا فلا يبقى منهم أحد وأنه يحييهم ويجمعهم بصيحة واحدة ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٩]، ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣].

وذكر أنه لو شاء أن يطمس على أعينهم أو يمسخهم على مكانتهم لفعل ولا رادّ لمشيئته: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٦٦ ـ ٦٧].

وذكر أن أمره ينفذ بكلمة واحدة، يفعل ما يشاء ويكون ما يريد، وأنه بيده ملكوت كل شيء وليس لأحد سواه شيء ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٢ ـ ٨٣].

فهل هناك أكبر من هذه العزة؟!.

وكذلك جو الرحمة فإنه يشيع في السورة أيضًا.

فقد تردد ذكر الرحمة والرحمن في السورة أكثر من مرة وذلك نحو قوله:

١ ـ تنزيل العزيز الرحيم.

٢ ـ وخشي الرحمن بالغيب.

٣ ـ وما أنزل الرحمن من شيء.

٤ ـ إن يردن الرحمن بضر.

٥ ـ ولاهم ينقذون إلا رحمة منا.

٦ ـ لعلكم تُرحمون.

٧ ـ هذا ما وعد الرحمن.

٨ ـ سلام قولاً من رب رحيم.

ثم ذكر عددًا من مظاهر رحمته سبحانه منها:

١ ـ ما جعل في الأرض لعباده من جنات وأنهار، وما أخرج لهم من حب يأكلون منه.

٢ ـ وأنه حمل ذريتهم في الفلك المشحون، وخلق من مثله ما يركبون.

٣ ـ وأنه خلق لهم أنعامًا فهم مالكون لها، وأنه ذللها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون. وجعل لهم فيها منافع ومشارب تستوجب شكره سبحانه.

٤ ـ وأنه جعل لهم من الشجر الأخضر نارًا يوقدون منه.

٥ ـ وأنه أرسل إليهم رسلاً حذرهم من عبادة الشيطان وهداهم الصراط المستقيم.

وغير ذلك من مظاهر رحمته التي ذكرها في السورة.

وكما لاحظنا أن لهذين الاسمين الكريمين ارتباطاً بجو السورة فإن لهذين الاسمين الكريمين ارتباطاً بما بعد هذه الآية وهو قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

إذ من الملاحظ في مواطن عديدة من القرآن الكريم ذكر هذين الاسمين بعد ذكر عدم إيمان الأكثرين من الخلق. فقد عقب في سورة الشعراء بعد قصة كل نبي مع قومه بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

كما ذكرت تعقيبًا على موقف أهل مكة من الرسول ﷺ وذلك قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٦ ـ ٩].

فقد تكرر ذكر هاتين الآيتين في هذه السورة ثماني مرات.

ومن أسرار هذه الذكر في هذه السورة وفي سورة الشعراء أنه من مقتضيات اسمه العزيز أن يعز المؤمنين وينصرهم ويذل الكافرين ويهلكهم، فتكون العزة في حق المؤمنين نصرًا وتأييدًا وفي حق الكافرين محقًا وإهلاكًا.

ومن مقتضيات اسمه (الرحيم) أن يرحم المؤمنين ويكرمهم وينجيهم ويدخلهم الجنة، ويرحم الكافرين بإلزامهم الحجة وإقامة البينة عليهم وإنذارهم المخوف ليتقوا ناره ويأمنوا عذابه، وأنه أبلغهم رسالته كما أبلغ المؤمنين وأنه لا يعاقبهم إلا بعد إقامة الحجة عليهم وهذا من رحمته بهم. هذا علاوة على أنه يرزقهم وأنهم يتقلبون في نعمه تعالى على محاربتهم له. وأنت إذا نظرت في هذا التعقيب وجدته يذكر بعد ذكر

عقوبة الكافرين وإهلاكهم ورحمته بالمؤمنين وتنجيتهم ، وذلك بعد ذكر قصة كل نبي في سورة الشعراء ، فكان ذكرهما أنسب شيء هنا والله أعلم .

لقد ذكر ثلاثة أسماء لربنا سبحانه ، واحدًا بالتضمن واثنين تصريحًا .

أما المذكور بالتضمن فهو قوله : (الحكيم) فإنه وصف به القرآن وهو كلامه ، وإذا كان الكلام حكيمًا فصاحبه حكيم أيضًا بكل معاني الوصف .

وأما الاسمان المصرح بهما فهما العزيز الرحيم . وكمال الاتصاف بهما أن تكون الحكمة معهما ، فإن العزيز إذا لم يكن حكيمًا كان متهورًا في عزه فتكون عزته من صفات نقصه . وإذا لم يكن رحيمًا كانت عزته شدة وكانت وبالاً على عباده .

والرحمة من دون عزة ضعف ، وهي من دون حكمة نقص ؛ لأنه لا يعلم كيف يضعها ، ولا أين يضعها .

فهذه الصفات يكمل بعضها بعضًا ويزين بعضها بعضًا . فلا خير في رحمة من دون عزة ولا حكمة . ولا خير في عزة من دون حكمة ولا رحمة . ولا خير في حكم بلا عزة ولا رحمة .

جاء في (التفسير الكبير) : «﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إشارة إلى أن الملك إذا أرسل رسولاً فالمرسل إليهم إما أن يمانعوا المرسل ويهينوا المرسل وحينئذ لا يقدر الملك على الانتقام منهم إلا إذا كان عزيزًا ، أو يخافوا المرسل ويكرموا المرسل وحينئذ يرحمهم الملك ، أو نقول : المرسل يكون معه في رسالته منع عن أشياء وإطلاق لأشياء ، فالمنع يؤكد العزة والإطلاق يدل على الرحمة»[1] .

* * *

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٤ .

﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ ﴾

يحتمل أن يكون (لتنذر) متعلقًا بقوله: (تنزيل) أو بالفعل المضمر (نزل) فيكون التقدير: تنزيل العزيز الرحيم لتنذر، أو: نزله العزيز الرحيم لتنذر.

كما يحتمل أن يكون متعلقًا بـ (المرسلين) أي: إنك لمن المرسلين لتنذر قومًا بمعنى: أنك أرسلت لتنذر قومًا[1].

والظاهر أن (ما) نافية، والمعنى: لتنذر قومًا لم ينذر آباؤهم ولذلك هم غافلون، فإن عدم الإنذار هو سبب غفلتهم المستحكمة. فإن هؤلاء القوم لم يأتهم من نذير، كما قال تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [القصص: ٤٦]، [السجدة: ٣].

كما أن آباءهم لم ينذروا فاستحكمت الغفلة فيهم إلى درجة أن الإنذار وعدمه سواء عليهم وأنهم كما وصفهم ربنا بقوله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا... إلخ ﴾.

وقد جوز بعض المفسرين أن تكون (ما) موصولة أو مصدرية فيكون المعنى (لتنذر قومًا الشيء الذي أُنذره آبائهم) أو (لتنذر قومًا مثل إنذار آبائهم). وبذا يكون إثبات الإنذار لآبائهم، والمقصود بالآباء آباؤهم الأقدمون.

وقد تقول: إن قوله تعالى: ﴿ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ يردّ هذا المعنى.

والجواب: كلا، إنه لا يرد على هذا المعنى، ذلك أن المعنى أن آباءهم الأقدمين أُنذروا ولكنهم غفلوا عن ذلك الإنذار لتقادم العهد كما

---

(١) انظر روح المعاني ٢٢/ ٢١٣.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [المائدة: ١٩]، وهذا نحو قولنا: (انصح فلانًا كما نصحت أباه فإنه غافل عن ذلك) أو (قل لفلان أن يعمل بنصيحتنا لأبيه فإنه غافل عنها) فإنك أثبت النصيحة وأثبتّ الغفلة عنها.

جاء في (الكشاف) في قوله تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ ﴾ «قومًا غير منذر آباؤهم، على الوصف، ونحوه قوله تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ ﴾ [القصص: ٤٦]، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ﴾ [سبأ: ٤٤].

وقد فسر ﴿ مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ ﴾ على إثبات الإنذار، ووجه ذلك أن تجعل (ما) مصدرية، لتنذر قومًا إنذار آبائهم، أو موصولة منصوبة على المفعول الثاني: لتنذر قومًا ما أنذره آباؤهم من العذاب كقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾ [النبأ: ٤٠].

فإن قلت: أي فرق بين تعلقي قوله: ﴿ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ على التفسيرين؟.

قلت: هو على الأول متعلق بالنفي، أي لم ينذر آباؤهم فهم غافلون، على أن عدم إنذارهم هو سبب غفلتهم. وعلى الثاني بقوله: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ لتنذر، كما تقول: أرسلتك إلى فلان لتنذره فإنه غافل، أو فهو غافل.

فإن قلت: كيف يكونون منذرين غير منذرين لمناقضة هذا ما في الرأي الآخر؟

قلت: لا مناقضة؛ لأن الآي في نفي إنذارهم لا في نفي إنذار آبائهم. وآباؤهم القدماء من ولد إسماعيل وكانت النذارة فيهم.

فإن قلت: ففي أحد التفسيرين أن آباءهم لم ينذروا وهو الظاهر، فما تصنع به؟

قلت: أريد آباؤهم الأدنون دون الأباعد»[١].

وجاء في(التفسير الكبير): «فعلى قولنا: (ما) نافية تفسيره ظاهر، فإن من لم ينذر آباؤه وبعد الإنذار عنه فهو يكون غافلاً. وعلى قولنا: هي للإثبات كذلك؛ لأن معناه: لتنذرهم إنذار آبائهم فإنهم غافلون. وفيه مسائل:

(المسألة الأولى): كيف يفهم التفسيران وأحدهما يقتضي أن لا يكون آباؤهم منذرين، والآخر يقتضي أن يكونوا منذرين وبينهما تضادّ؟.

نقول على قولنا: (ما) نافية معناه، ما أنذر آباؤهم، وإنذار آبائهم الأولين لا ينافي أن يكون المتقدمون من آبائهم منذرين، والمتأخرون منهم غير منذرين»[٢].

وجاء في (روح المعاني): «﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ هو على الوجه الأول متفرع على نفي الإنذار ومتسبب عنه والضمير للفريقين، أي لم ينذر آباؤهم فهم جميعًا لأجل ذلك غافلون.

وعلى الأوجه الباقية: متعلق بقوله تعالى: (لتنذر) أو بما يفيده ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وارد لتعليل إنذاره عليه الصلاة والسلام أو إرساله بغفلتهم المحوجة إليه، نحو: اسقه فإنه عطشان، على أن الضمير للقوم خاصة، فالمعنى فهم غافلون عنه، أي: عما أنذر آباؤهم.

وقال الخفاجي: يجوز تعلقه بهذا على الأول أيضًا، وتعلقه بقوله

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨١ ـ ٥٨٢ وانظر البحر المحيط ٢٦/ ٤٢.

(٢) [illegible]

تعالى: (لتنذر) على الوجوه، وجعل الفاء تعليلية والضمير لهم أو لآبائهم. اهـ، ولا يخفى عليك أن المنساق إلى الذهن ما قرر أولاً»(١).

والذي يترجح عندي المعنى الأول وهو الذي يسبق إلى الذهن. أما إذا أريد بالآباء الآباء الأقدمون فإن إسماعيل عليه السلام أبوهم وكان رسولاً نبيًّا ولا شك أنه أنذر قومه، بل إن إبراهيم عليه السلام أبوهم كما قال: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ فلا يتناقض الأمران على ذلك. ولا أرى أنه يعني بذلك إبراهيم أو إسماعيل عليهما السلام أو من هو ممن دونهما ممن كان بعيدًا جدًّا عن قوم الرسول ﷺ.

إن أقرب رسول إلى نبينا محمد ﷺ عيسى عليه السلام وبينهما أكثر من خمسمائة عام فما بالك بمن قبله، ولا شك على هذا أن آباءهم لم ينذروا، والله أعلم.

* * *

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾

معنى (حق القول) في القرآن الكريم ثبت لهم العذاب ووجب، والقول هو قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

جاء في (الكشاف): «(القول) قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ يعني تعلق بهم هذا القول وثبت عليهم ووجب؛ لأنهم ممن علم أنهم يموتون على الكفر»(٢).

وجاء في (فتح القدير): «ومعنى (حق) ثبت ووجب القول، أي العذاب

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ٢١٣.
(٢) الكشاف ٢/ ٥٨٢.

على أكثرهم. . . وقيل المراد بالقول المذكور هنا هو قوله سبحانه: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۝٨٤ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ [ص: ٨٤ ـ ٨٥]» [١].

وجاء في (التفسير الكبير): «في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ وجوه: (الأول): وهو المشهور، أن المراد من القول هو قوله تعالى: ﴿فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۝٨٤ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾.

(الثاني): هو أن معناه: لقد سبق في علمه أن هذا يؤمن وأن هذا لا يؤمن فقال في حق البعض: إنه لا يؤمن، وقال في حق غيره: إنه يؤمن (فحق القول) أي وجد وثبت بحيث لا يبدل بغيره.

(الثالث) هو أن يقال: المراد منه لقد حق القول الذي قاله الله على لسان الرسل من التوحيد وغيره وبان برهانه، فأكثرهم لا يؤمنون بعد ذلك. . . (على أكثرهم) فإن أكثر الكفار ماتوا على الكفر ولم يؤمنوا» [٢].

ولاشك أن سَبْقَ قولِه لسبق علمه فلا اختلاف بين القولين الأول والثاني مما ذكره الرازي.

وكذلك أن المعنى الذي ذكره في القول الثالث صحيح، لكن الذي يظهر أن المراد من معنى (حق القول) في القرآن هو ثبوت العذاب ووجوبه كما ذكرت. والذي يرجح ذلك أنه لم يرد في القرآن الكريم (حق القول) إلا لهذا المعنى، وكذلك (حقت كلمة ربك) فإسناد الفعل (حق) إلى القول أو إلى الكلمة لا يعني إلا ثبوت العذاب ووجوبه، وذلك في

---

(١) فتح القدير ٤/ ٣٩٤.

(٢) التفسير الكبير ٢٦/ ٤٣، وانظر البحر المحيط ٧/٣٢٣ ـ ٣٢٤، روح المعاني ٢٢/ ٢١٣

ثلاثة عشر موضعاً. قال تعالى:

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ ﴾ [القصص: ٦٣].

وقال: ﴿ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٥].

وقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٨].

وقال: ﴿ وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴾ [السجدة: ١٣].

وقال: ﴿ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يس: ٧].

وقال: ﴿ فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾ [الإسراء: ١٦].

وقال: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [يس: ٧٠].

وقال: ﴿ فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴾ [الصافات: ٣١].

وقال: ﴿ أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴾ [الزمر: ١٩].

وقال: ﴿ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر: ٧١].

وقال: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يونس: ٣٣].

وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٩٦ ـ ٩٧].

وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ [غافر: ٦].

وبذا يترجح ما ذكرناه.

وذكر في آية (يس) أنه حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ، وهذا ما حصل فإن أكثر الكفار لم يؤمنوا وماتوا علىٰ الكفر[1] وبذا تحقق ما أخبر به القرآن. وهو من الإعجاز لأنه أخبر بالشيء قبل حصوله فحصل.

وقد تقول: وما أدرانا أن هذا الأمر قد تحقق وأن أكثرهم ماتوا على الكفر؟

والجواب: يكفي وروده في القرآن الكريم ، فإن القرآن أصدق وثيقة تاريخية عما أخبر في وقته. ولو لم يتم هذا الأمر لكان ذلك دليلاً على كذب ما أخبر به ولاعترض عليه الكفار بأن ما أخبر به لم يحصل. فإن القرآن يتلى عليهم ليل نهار وهذه الآية يسمعونها دومًا ، فلو لم يحصل ذلك لكذبوه ولارتدوا عنه.

ثم لنلاحظ أن الآية مصدرة بـ (لقد) وهذه اللام واقعة في جواب قسم عند النحاة سواء كان القسم مذكورًا أم مقدرًا. و(قد) حرف تحقيق وقد دخلت على الفعل الماضي ، ومعنى ذلك أن ما أخبر به قد حصل وتحقق فعلاً.

وقال: ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ولم يقل: (فهم لم يؤمنوا) ليدل على أنهم سيموتون على الكفر وأنهم لا يؤمنون في مستقبل حياتهم ، ولو قال: (فهم لم يؤمنوا) لكان إخبارًا عن أمر قد مضى.

وكذلك لو قال: (فهم غير مؤمنين) لاحتمل أنه يخبر عن حالتهم التي هم عليها وقت نزول الآية ، وقد يتغير ذلك في المستقبل ، فقد يكون

أشخاص غير مؤمنين وقت نزول هذه الآية وسيؤمنون بعد ذلك، فلا يكون عند ذاك إخبارًا عن أمر غيب. فكان قوله الذي قاله أمثل شيء وأنسبه.

وقد تقول: ولم قدم (القول) على الجار والمجرور فقال: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ مع أنه في مواطن أخرى يقدم الجار والمجرور على القول وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٩٦].

والجواب: أن التقديم والتأخير إنما هو لغرض معنوي كما هو مقرر في علم البلاغة، فما كانت العناية به أكثر قدم في الكلام.

فإذا كان الاهتمام بالقول أكثر قُدّم، وإذا كان الاهتمام بمن حق عليهم القول أكثر قُدموا، وإليك إيضاح ذلك:

قال تعالى: ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾. فقدم (عليهم) على (القول)، ذلك أن السياق فيمن حق عليهم القول، أي على الأقوام الذين حق عليهم العذاب، ذلك أن الكلام على أعداء الله ابتداء من الآية التاسعة عشرة إلى الآية التاسعة والعشرين. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ [فصلت: ١٩ ـ ٢٩].

فناسب تقديم ضمير هؤلاء على (القول) لأن الكلام يدور عليهم.

في حين قال: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾، فقدم الكلمة على (الذين فسقوا) لأن الاهتمام ليس منصرفاً إلى هؤلاء، وإنما الكلام على الله ونعمه واستحقاقه للعبادة، فناسب تقديم كلمته سبحانه.

قال تعالى: ﴿ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [يونس: ٢٩ ـ ٣٥].

فأنت ترى أنّ الكلام على الله واستحقاقه للعبادة.

والأمر كذلك في آية (يس) فإن العناية بقول الله عليهم أكثر من الكلام على القوم وأفعالهم فإنه لم يذكر عن القوم إلا أنهم غافلون لأن آباءهم

لم ينذروا. ولم يذكر شيئًا عن أفعالهم وإنما ذكر تفسير استحقاق القول عليهم ، فذكر أنه سبحانه جعل من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدًّا . . . إلخ ، فذكر ما فعله ربنا ولم يذكر ما فعلوه هم فقال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ [يس: ٨] ، فجاعل الأغلال هو الله.

﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ ، وجاعل السد هو الله ، ﴿ فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ والذي أغشاهم هو الله.

فناسب تقديم قوله عليهم وهو المناسب للسياق.

فالجعل جعله ، والإغشاء إغشاؤه ، والقول قوله.

هذا من حيث السياق والمقام.

وهناك أمر آخر لفظي في هذه الآيات وهو: أنه إذا كان حرف الجر داخلاً على الضمير نحو (عليهم) و(علينا) تقدم الجار والمجرور على القول وإلا تأخر. وهذا لم يتخلف في جميع هذه الآيات.

قال تعالى: ﴿ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ ، في ثلاث آيات: [القصص: ٦٣] ، [فصلت: ٢٥] ، [الأحقاف: ١٨].

وقال: ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ [الإسراء: ١٦].

وقال: ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ [الصافات: ٣١].

وقال: ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ [الزمر: ١٩].

وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٩٦].

بتقديم الجار والمجرور على الفاعل في كل ذلك.

في حين قال: ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ [يس: ٧].

وقال: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ ﴾ [يونس: ٣٣] ، وقال: ﴿ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

وقال: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس: ٧٠].

بتقديم الفاعل على الجار والمجرور.

فناسب تقديم القول في سورة يس من ناحية اللفظ إضافة إلى المعنى.

وأود أن أشير إلى أمر آخر وهو: أن كل تعبير قدم فيه ما قدم إنما كان لغرض تقتضيه البلاغة ويقتضيه السياق والمقام إضافة إلى اللفظ، فليس اللفظ وحده الداعي إلى التقديم. فازداد ذلك حسناً على حسن.

* * *

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾﴾

الأغلال: جمع غُلّ، وهو حلقة من حديد تحيط بالعنق أو باليد أو تجمع بينهما وتسمى الجامعة[١]، وذلك بقصد التعنيف والتضييق والتعذيب والأسر[٢].

والمقمح: الذي يرفع رأسه ويغض بصره[٣].

والمعنى: أنه سبحانه جعل في أعناقهم أغلالاً ثقالاً غلاظاً عراض المساحة لا واسعة الفتحة تحيط بالعنق كله بحيث تبلغ إلى الذقن فلا تدع أحدهم يطأطئ رأسه أو يبصر ما تحته، بل يبقى رافعًا رأسه غاضًّا بصره، فلا يتمكن من رؤية ما قدامه ولا ما تحته ولا ما خلفه، بل لا يتمكن من الالتفات يمينًا أو يسارًا لعرض الغل الذي يحيط بعنقه وضيقه فكيف يبصر أو يهتدي؟.

وهذا تمثيل لحال هؤلاء الكفرة وبقائهم على ضلالهم فلا يتمكنون

---

(١) انظر لسان العرب ١٤/ ١٣ ـ ١٧، تاج العروس ٨/ ٤٩.
(٢) انظر البحر المحيط ٧/ ٣٢٤.
(٣) الكشاف ٢/ ٥٨٢.

من الهدى ولا يعرفونه ، وربما كان هذا حالهم أيضًا في الآخرة .

جاء في (الكشاف): «ثم مثل تصميمهم على الكفر وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ، ولايطأطئون رؤوسهم له ، وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم في أن لا تأمل لهم ولا تبصر ، وأنهم متعامون عن النظر في آيات الله .

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿ فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ ﴾؟ .

قلت: معناه: فالأغلال واصلة إلى الأذقان ملزوزة إليها ، وذلك أن طوق الغل الذي في عنق المغلول يكون ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود نادرًا من الحلقة إلى الذقن فلا تخليه يطأطئ رأسه ويوطئ قذاله فلا يزال مقحمًا .

والمقمح: الذي يرفع رأسه ويغض بصره. يقال: قمح البعير فهو قامح إذا روي فرفع رأسه» [١] .

وجاء في(التفسير الكبير): «معناه: إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ثقالاً غلاظاً بحيث تبلغ إلى الأذقان فلم يتمكن المغلول معها من أن يطأطئ رأسه .

(المسألة الثالثة): كيف يفهم من الغل في العنق المنع من الإيمان حتى يجعل كناية؟

فنقول: المغلول الذي بلغ الغل إلى ذقنه وبقي مقمحًا رافع الرأس لا يبصر الطريق الذي عند قدمه. وذكر بعده أن بين يديه سدًّا ومن خلفه سدًّا فهو لا يقدر على انتهاج السبيل ورؤيته. وقد ذكر من قبل أن المرسل

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨٢ .

على صراط مستقيم فهذا الذي يهديه النبي إلى الصراط المستقيم العقلي جعل ممنوعًا كالمغلول الذي يجعل ممنوعًا من إبصار الطريق الحسي.

ويحتمل وجهًا آخر وهو أن يقال: الأغلال في الأعناق عبارة عن عدم الانقياد، فإن المنقاد يقال فيه: إنه وضع رأسه على الخط وخضع عنقه، والذي في رقبته الغل الثخين إلى الذقن لا يطأطئ رأسه ولا يحركه تحريك المصدّق»[1].

وإسناد هذا الأمر إلى نفسه سبحانه وتأكيده بـ (إنّ) دال على استحكام هذا الأمر وأنه لا يتمكن أحد من فك هذا الغل فلا يتحررون منه، وهو تأكيد لقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فإنه هو الذي جعل الأغلال في أعناقهم فحق قوله عليهم لما علم من عدم اهتدائهم. ولو قال: (لقد جُعلت في أعناقهم أغلال) لكان ثمة أمل في فك الأغلال، ولكن لا يستطيع أحد أن يغير ما قدره الله وحكمه فلا يفك أحد ما أغلقه ربنا ولا يغلق ما فتحه.

وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ فقدم (أعناقهم) على الأغلال ولم يقل: (إنا جعلنا أغلالاً في أعناقهم) لأن الكلام عليهم وهم مدار الحديث فكان تقديم ما تعلق بهم أولى.

* * *

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾

بعدما ذكر أنه جعل في أعناقهم أغلالاً، ذكر أنه جعل من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدًّا.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٤٤ ـ ٤٥.

وقال: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ و﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ ولم يقل: (وجعلنا بين أيديهم سدًّا وخلفهم سدًّا) ذلك أن (من) تفيد ابتداء الغاية، ومعنى ذلك أنه جعل السد ابتداء من بين أيديهم ولم يترك بينه وبينهم فراغًا، وكذلك من خلفهم، فإن السد ملتصق بهم من الأمام وكذلك من الخلف فلا يستطيعون أن يخطوا خطوة واحدة أو حركة. بخلاف ما إذا لم يذكر (من) فإنه يحتمل أن يكون بينهم وبين السد مسافة بعيدة أو قريبة وذلك نحو قوله: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ﴾ [ق: ٦]، فإن بينهم وبين السماء مسافة بعيدة، وكذلك قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ﴾ [الملك: ١٩]، فإن بينهم وبين الطير مسافة غير قليلة. في حين قال عن الأرض: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا﴾ [فصلت: ١٠] فجاء بـ (من) ليدل على أن الرواسي ملتصقة بالأرض ليس بينها وبينها فراغ.

ثم قدم الجار والمجرور على السد فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا﴾ ولم يقل: (وجعلنا سدًّا من بين أيديهم وسدًّا من خلفهم) وذلك لأن الكلام عليهم لا على السد فكان تقديم ما تعلق بهم أولى. ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا﴾ كما ذكرنا.

وقد تقول: هذا أمر السد من أمامهم فلماذا جعل من خلفهم سدًّا؟ وما الغرض منه؟

فنقول: كما أنه منعهم من السير إلى أمام منعهم من العودة والرجوع إلى أماكنهم الأولى. فإن الشخص إذا قطع عليه الطريق عاد إلى مكانه الأول ومقامه الذي كان فيه. وهنا قد منعه من ذلك فبقي في مكانه من الطريق في غير مأمن وفي غير مقام فهلك.

ثم أغشى أبصارهم وغطاهم فمنعهم من الرؤية فهم لا يبصرون ولا يتحركون فكيف يهتدون؟.

وقوله: ﴿ فَأَغْشَيْنَٰهُمْ ﴾ يحتمل أنه أغشاهم بالسدين ، أي غطاهم فلا يستطيعون الإبصار ولا الحركة ، أو أغشى أبصارهم علاوة على السدين. وفي كلتا الحالتين لا يستطيعون الحركة ولا الإبصار.

وقد تقول: ولم ترك الجانبين وهما جهتا اليمين واليسار ، فلم يذكر أنه جعل فيهما سدين؟

فنقول:

١ ـ إن قوله: ﴿ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا ﴾منعهم من الحركة البتة إلى أية جهة كانت ؛ ذلك لأن السدين ملتصقان بهم.

٢ ـ قوله: ﴿ فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ ﴾ أي غطيناهم ، والتغطية تشمل جميع الجسم وليس جانبًا منه أو جانبين فلا يستطيعون الحركة لإغشائهم.

٣ ـ قوله: ﴿ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴾ يمنعهم من معرفة ما هم عليه من السبيل.

٤ ـ إذا اتجهوا إلى جهة اليمين كان السد من بين أيديهم أيضًا ومن خلفهم ، لأن هذه الجهة ستكون هي الأمام فتكون مسدودة عليهم ، وإن أية جهة سيتجهون إليها ستكون هي ما بين أيديهم فيجعل سدًّا من بين أيديهم ومن خلفهم. فقوله: (من بين أيديهم ومن خلفهم) يشمل جميع الجهات ؛ لأن أية جهة يتجهون إليها ستكون ما بين أيديهم فلا حاجة إلى ذكر جهتي اليمين واليسار ، فما ذكره يغني عن ذكرهما.

وإسناده الجعل والإغشاء إلى الله تعالى بيان أنه لا يمكن لأحد أن يزيل السدين أو يرفع الغشاوة.

جاء في (التفسير الكبير): «وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴾ يكون متممًا لمعنى

جعل الله إياهم مغلولين ، لأن قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ إشارة إلى أنهم لا ينتهجون سبيل الرشاد ، فكأنه قال: لا يبصرون الحق فينقادون له لمكان السد ولا ينقادون لك فيبصرون الحق فينقادون له لمكان الغل. . .

وفيه وجه آخر وهو أن يقال: المانع إما أن يكون في النفس وإما أن يكون خارجًا عنها. ولهم المانعان جميعًا من الإيمان. أما في النفس فالغل وأما من الخارج فالسد. ولا يقع نظرهم على أنفسهم فيرون الآيات التي في أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت: ٥٣] ، وذلك لأن المقمح لا يرى نفسه ولا يقع بصره على يديه ، ولا يقع نظره على الآفاق ؛ لأن من بين السدين لا يبصرون الآفاق فلا تبين لهم الآيات التي في الآفاق. وعلى هذا فقوله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا ﴾ ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ إشارة إلى عدم هدايتهم لآيات الله في الأنفس والآفاق.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ مسائل:

(المسألة الأولى) السَّدُّ من بين الأيدي ذكره ظاهر الفائدة ، فإنهم في الدنيا سالكون وينبغي أن يسلكوا الطريقة المستقيمة (ومن بين أيديهم سدًّا) فلا يقدرون على السلوك. وأما السَّدُّ من خلفهم فما الفائدة فيه؟

فنقول: الجواب عنه من وجوه:

(الأول): هو أن الإنسان له هداية فطرية والكافر قد يتركها ، وهداية نظرية والكافر ما أدركها ، فكأنه تعالى يقول: (جعلنا من بين أيديهم سدًّا) فلا يسلكون طريقة الاهتداء التي هي نظرية (وجعلنا من خلفهم سدًّا) فلا يرجعون إلى الهداية الجبلّية التي هي الفطرية. . .

(الثالث): هو أن السالك إذا لم يكن له بد من سلوك طريق فإن انسدّ الطريق الذي قدامه يفوته المقصد ولكنه يرجع ، وإذا انسد الطريق من خلفه ومن قدامه فالموضع الذي هو فيه لا يكون موضع إقامة لأنه مهلك،

فقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ إشارة إلى إهلاكهم.

(المسألة الثانية): قوله تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ بحرف الفاء يقتضي أن يكون للإغشاء بالسد تعلق، ويكون الإغشاء مرتبًا على جعل السد فكيف ذلك؟.

فنقول: ذلك من وجهين:

أحدهما: أن يكون ذلك بيانًا لأمور مترتبة يكون بعضها سببًا للبعض، فكأنه تعالى قال: (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا) فلا يبصرون أنفسهم لإقماحهم (وجعلنا من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدًّا) فلا يبصرون ما في الآفاق، وحينئذ يمكن أن يروا السماء وما على يمينهم وشمالهم فقال بعد هذا كله: (وجعلنا على أبصارهم غشاوة) فلا يبصرون شيئًا أصلاً.

وثانيهما: هو أن ذلك بيان لكون السد قريبًا منهم بحيث يصير ذلك كالغشاوة على أبصارهم، فإن من جعل من خلفه ومن قدامه سدين ملتزقين به بحيث يبقى بينهما ملتزقًا بهما تبقى عينه على سطح السد فلا يبصر شيئًا. أما غير السد فللحجاب، وأما عين السد فلكون شرط المرئي أن لا يكون قريبًا من العين جدًّا.

(المسألة الثالثة): ذكر السدين من بين الأيدي ومن خلف، ولم يذكر من اليمين والشمال ما الحكمة فيه؟... لأنهم إن قصدوا السلوك إلى جانب اليمين أو جانب الشمال صاروا متوجهين إلى شيء وموّلين عن شيء، فصار ما إليه توجههم ما بين أيديهم فيجعل الله السد هناك فيمنعه من السلوك. فكيفما يتوجه الكافر يجعل الله بين يديه سدًّا.

ووجه آخر أحسن مما ذكرنا، وهو أنا لما بينا أن جعل السد صار سببًا للإغشاء كان السد ملتزقًا به، وهو ملتزق بالسدين فلا قدرة له على

الحركة يمنة ولا يسرة ، فلا حاجة إلى السد عن اليمين وعن الشمال. وقوله تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ يحتمل ما ذكرنا أنهم لا يبصرون شيئًا ، ويحتمل أن يكون المراد هو أن الكافر مصدود ، وسبيل الحق عليه مسدود ، وهو لا يبصر السد ولا يعلم الصد ، فيظن أنه على الطريقة المستقيمة وغير ضال»(1).

وقد تقول: ولِمَ لَمْ يقل كما قال في سورة البقرة: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]؟

فنقول: إن كل موطن اقتضى ما ذكر فيه ، علاوة على أن ما ذكر في سورة (يس) يفيد ما أفاده في سورة البقرة. ذلك أن قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ هو بمعنى قوله: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ ، وأن قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ يفيد أنهم لا يسمعون ، فإن من كان بين سدين مغطى بهما لا يسمع. وإذا كان كذلك فهو لا يفقه ؛ لأن منافذ العلم مسدودة ، فأفاد أنهم لا يبصرون ولا يسمعون ولا يفقهون.

ثم إن ما ذكره في كل موطن هو المناسب من جهة أخرى ، ذلك أنه قال في سورة يس: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ والصراط إنما يكون للسير فيه وسلوكه ، فذكر ما يمنع الكفرة من سلوك الصراط المستقيم والسير فيه ، وهو الأغلال في أعناقهم ، والسد من بين أيديهم ومن خلفهم. والسد إنما هو لمنعهم من السير. أما المؤمنون فإنهم على الصراط المستقيم يسلكونه ويتخذونه سبيلاً. ولم يذكر مثل ذلك في البقرة ، فكان ذكر السد مناسبًا في سورة (يس).

---

(1) التفسير الكبير ٢٦/ ٤٥ ـ ٤٦.

وأما في سورة البقرة فقد قال: إن هذا الكتاب لاريب فيه وهو هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله ، الذين يؤمنون بما أنزل إلى محمد وما أنزل من قبله ويوقنون بالآخرة.

فالمسألة متعلقة بالإيمان والتقوى ، فذكر أن الكفرة مختوم على قلوبهم وعلى سمعهم وأن على أبصارهم غشاوة فانسدت منافذ الإيمان والتقوى. ومنافذ الإيمان والتقوى والعلم لدفع الريب هي السمع والبصر والقلب ، فذكر أن هذه كلها مغلقة.

فأغلق منافذ السير على الصراط المستقيم في سورة (يس) وأغلق منافذ الإيمان والهدى في سورة البقرة ، فناسب كل تعبير مكانه الذي هو أليق به.

وقد تقول: ولِمَ لَمْ يكرر (جعلنا) من الخلف فيقول: (وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَجَعَلْنَا مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا) كما قال في سورة النبأ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١٠ ـ ١١]؟

والجواب: أن التكرار يفيد التأكيد. والسدان ليسا بمنزلة واحدة ، فإن السد الذي من بين أيديهم يمنعهم من السير إلى أمام ، وهو أهم ؛ لأنه هو الموصل إلى الهدى وإلى الفلاح ، وأما السد من خلف فهو مانع من الرجوع ، والعود ليس أحمد.

ولما لم يكن السدان بمنزلة واحدة من حيث الأهمية لم يجعلها في التعبير بمنزلة واحدة ، فذكر الفعل في المهم وحذفه مما هو أقل أهمية.

وأما تكراره في سورة النبأ فإن الليل والنهار كلاهما مهم للإنسان وحياته ، فلا تصلح الحياة بليل لانهار فيها ، ولا تصلح بنهار لا ليل فيها. قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ

عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧١ - ٧٢].

فلما كانت الحياة إنما تستقيم بالليل والنهار معًا جعلهما بمنزلة واحدة في التعبير فكرر الجعل مع كل واحد منهما، والله أعلم.

* * *

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾

بعد أن ذكر الموانع التي تمنعهم من الإيمان بيّن أن الإنذار وعدمه في حقهم سواء فهو لا ينفع معهم شيئًا.

وقد تقول: إذا كان الأمر كذلك فما الغرض من إنذارهم؟ ولمَ ينذرهم؟

والجواب: أن ذلك للإعذار ولتقوم عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إذا كان الإنذار وعدمه سواء بالنسبة إليهم فليس ذلك سواء بالنسبة إليه. فإنه وإن كان الإنذار لا يجدي معهم شيئًا لا يكون ذلك مسوغًا لترك الإنذار. فإنه مأمور بالإنذار لمن علم أنه لا يستجيب ولمن لم يعلم. ثم إن الدعوة إلى الله مطلوبة في كل الأحوال، حتى إن أخبره ربنا أن المدعوين لا يستجيبون، وذلك يدل على عظم مكانة الدعوة إلى الله، وأنها لا تسقط بحال من الأحوال. ثم إن كان هؤلاء لا يستجيبون فربما يؤمن من غيرهم من يسمع، ولو كان هذا السمع جاء على طريق الإخبار أو الاستهزاء أو الاستبعاد فيكون ذلك وسيلة لنقل الدعوة من حيث لم يريدوا. ثم إن هذا الإنذار يكتب في صحيفة أعمال الداعي الصالحة مثقلاً لميزانه، ولذا قال تعالى: ﴿وَسَوَآءٌ

﴿عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ ، ولم يقل: (سواء عليك أأنذرتهم أم لم تنذرهم).

جاء في (التفسير الكبير): «بيّن تعالى أن الإنذار لا ينفعهم مع ما فعل الله بهم من الغل والسد والإغشاء والإعماء بقوله: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي الإنذار وعدمه سواء بالنسبة إلى الإيمان منهم، إذ لا وجود له منهم على التقديرين. فإن قيل: إذا كان الإنذار وعدمه سواء فلماذا الإنذار؟

نقول: قد أجبنا في غير هذا الموضع أنه تعالى قال: (سواء عليهم) وما قال: (سواء عليك)، فالإنذار بالنسبة إلى النبي ﷺ ليس كعدم الإنذار؛ لأن أحدهما مخرج له عن العهدة وسببٌ في زيادة سيادته عاجلاً وسعادته آجلاً. وأما بالنسبة إليهم على السواء فإنذار النبي ﷺ ليخرج عما عليه وينال ثواب الإنذار وإن لم ينتفعوا به لما كتب عليهم من البوار في دار القرار»[1].

* * *

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ١١﴾

والمعنى: إذا كان إنذارك لا ينفع من حق عليه القول فإن الإنذار ينفع من يتبع الذكر ويخشى الرحمن بالغيب، أي ينفع من كان حيًّا يؤثر فيه الإنذار، وينفع أيضًا من اتبع الذكر وهو القرآن والوعظ وخشي الرحمن بالغيب وهم المؤمنون.

فالإنذار ينفع طائفتين:

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/٤٦ ـ ٤٧.



طائفة المؤمنين المتبعين للذكر الخاشين للرحمن ، فإن الإنذار يزيدهم إيمانًا وتمسّكًا وحذرًا وخوفًا مما تنذرهم إياه.

وطائفة أخرى وهي التي لها قلب وسمع وبصر فتدخل في زمرة أهل الإيمان ، وهذا شأن كثير ممن أنذروا ، فإنهم فارقوا دينهم وآمنوا بدين الله.

وعلى هذا يكون المعنى: إنما تنذر إنذارًا نافعًا من اتبع الذكر ، فمع هؤلاء يحصل المطلوب من الإنذار ومقصوده.

والذكر هو القرآن والمواعظ وكل ما يذكر به المرء.

وقد تقول: إنه عبر بالفعل الماضي فقال: ﴿ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ ﴾ فهذا يخص طائفة المؤمنين ولا يشمل من لم يدخل الإيمان قلبه بعد.

فنقول: إن الفعل الماضي قد يعبر به عن المستقبل كقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [البقرة: ١٥٠] أي تخرج ، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٥٩ ـ ١٦٠].

أي إلا الذين يتوبون ويصلحون ويبينون بعد الكتمان ، فعبر عن الكتمان بالفعل المضارع فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ ﴾ ، وعبر عن التوبة والإصلاح والتبيين بعد الكتمان بالفعل الماضي فقال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ ﴾ ، فإذا كان الكتمان مضارعًا فلا شك أن التوبة منه والتبيين يكونان بعده ، ولكنه عبر عن ذلك بالفعل الماضي.

جاء في (الكشاف) أن قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ ﴾:

«على معنى: إنما تحصل البغية بإنذارك من غير هؤلاء المنذرين وهم المتبعون للذكر، وهو القرآن أو الوعظ، الخاشون ربهم» (١).

وجاء في (البحر المحيط): «إنما تنذر، أي إنذارًا ينفع من اتبع الذكر وهو القرآن. قال قتادة: أو الوعظ» (٢).

وجاء في (التفسير الكبير): «قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾.

والترتيب ظاهر، وفي التفسير مسائل:

(المسألة الأولى): قال من قبل (لتنذر) وذلك يقتضي الإنذار العام على ما بينا.

وقال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ وهو يقضي التخصيص فكيف الجمع بينهما؟

نقول من وجوه:

(الأول): هو أن قوله (لتنذر) أي كيفما كان، سواء كان مفيدًا أو لم يكن. وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ أي الإنذار المفيد لا يكون إلا بالنسبة إلى من يتبع الذكر ويخشى.

(الثاني): هو أن الله تعالى لما قال إن الإرسال والإنزال، وذكر أن الإنذار وعدمه سيان بالنسبة إلى أهل العناد، قال لنبيه: ليس إنذارك غير مفيد من جميع الوجوه فأنذر على سبيل العموم، وإنما تنذر بذلك الإنذار العام من يتبع الذكر، كأنه يقول: يا محمد إنك بإنذارك تهدي ولا تدري من تهدي فأنذر الأسود والأحمر ومقصودك من يتبع إنذارك وينتفع بذكراك» (٣).

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨٣.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٢٥.

(٣) التفسير الكبير ٢٦/ ٤٧.

وجاء في (روح المعاني) أن «﴿ٱتَّبَعَ﴾ بمعنى (يتبع)، والتعبير بالماضي لتحقق الوقوع، أو المعنى: إنما ينفع إنذارك المؤمنين الذين اتبعوا. ويكون المراد بمن اتبع المؤمنين، وبالإنذار: الإنذار عما يفرط منهم بعد الاتباع فلا يلزم تحصيل الحاصل.

وقيل: المراد من اتبع في علم الله وهم الأقلون الذين لم يحق القول عليهم» (١).

وقال: ﴿ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ ولم يقل: (تبع) للدلالة على المبالغة في الاتباع والاجتهاد فيه، ولذا أتبعه بقوله: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ فإن الذي يخشى الرحمن بالغيب هو متبع اتباعًا جادًّا وليس اتباعًا على ضعف. والذي يبشر بمغفرة وأجر كريم هو المتّبع لا مجرد التابع.

فهؤلاء هم الذين يحصل معهم المقصود من الإنذار.

* * *

﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾

هذا فيه معان وأوجه:

منها: أنه يدل على أنه خشي الرحمن وإن لم يشاهده، فكما آمن به بالغيب خشيه بالغيب. وهذا من تمام الإيمان، ذلك أن الناس عادة يخشون من يشاهدهم ويشاهدونه ويعلمونه أنه مراقب أفعالهم، فإن غاب عن أعينهم ذهبت الخشية منه. أما هذا فإنه يخشى الرحمن بالغيب لأنه يعلم أنه حاضر معه شاهد عليه يراقب أفعاله وإن غاب عن بصره.

ومن معاني هذا التعبير أيضًا أنه خشي عقاب الرحمن الذي حذر عباده

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ٢١٧.

يوم القيامة وهو غيب. ومعنى خشية الرحمن: خشية عقابه، وهذا من معاني خشية الرحمن بالغيب أيضًا.

ومن معانيه أيضًا أنه يخشى الرحمن إذا غاب عن أعين الناس والمشاهدين له. فكثير من الناس يفعلون أفعالاً إذا خلوا إلى أنفسهم لا يفعلونها إذا شاهدهم الناس. والمعنى أنه إذا أمن مراقبة الناس واطلاعهم عليه خشي الرحمن فلا يفعل إلا ما يرضيه.

فهذا كله من معاني خشية الرحمن بالغيب، وباستكمالها تكون خشيته بالغيب.

جاء في (التفسير الكبير): «وقوله: (بالغيب) يعني بالدليل وإن لم ينته إلى درجة المرئي المشاهد، فإن عند الانتهاء إلى تلك الدرجة لا يبقى للخشية فائدة.

والمشهور أن المراد به بالغيب ما غاب عنا وهو أهوال القيامة، وقيل: إن الوحدانية تدخل فيه»[1].

وجاء في (البحر المحيط): «﴿بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ أي الخلوة عند مغيب الإنسان عن عيون البشر»[2].

وجاء في (روح المعاني): «﴿بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ حال من المضاف المقدر في نظم الكلام... أي خشي عقاب الرحمن حال كون العقاب ملتبسًا بالغيب، أي غائبًا عنه، وحاصله خشي العقاب قبل حلوله ومعاينة أهواله.

ويجوز أن يكون حالاً من فاعل (خشي) أي خشي عقاب الرحمن غائبًا

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٤٧.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٢٥.

عن العقاب غير مشاهد له ، أو خشي غائبًا عن أعين الناس غير مظهر الخشية لهم لأنها علانية قلما تسلم عن الرياء» [١] .

قالوا: وذكر اسمه (الرحمن) مع الخشية دون غيره من أسمائه الحسنى لأكثر من سبب ، منها:

١ ـ أنه قد يسبق إلى الذهن أن الرحمن لا يعاقب لأن رحمته واسعة وأنها سبقت غضبه ، فيسبق إلى نفسه الرجاء وينسى الخشية ، فذكر ذلك لئلا يغتر مغترّ برحمته.

٢ ـ أن الرحمة تورث الاتّكال ، فقرنه بالخشية لئلا يتكل على رحمته وينسى عقابه.

٣ ـ أن من كانت نعمته بسبب رحمته أكثر ينبغي أن يكون الخوف منه أتم وذلك لئلا يقطع عنه نعمته.

٤ ـ وهناك أمر آخر ، وهو أن جو السورة تشيع فيه الرحمة وذكرها ، وقد بنيت السورة على العزة والرحمة كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ والعزيز ينبغي أن يخشى ، فقوله: ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ جمع بين العزة والرحمة.

٥ ـ وفيه توجيه إلى أن الرحمة ينبغي أن تكون مقرونة بخشية الراحم ، فلا يصح الاتصال بالرحمة وحدها. فالرحمة وحدها قد تكون ضعفًا وقد يكون الاتصاف بها ذمًّا ونقصًا ، فهو توجيه إلى المربين ليجمعوا بين الرحمة والخشية من الراحم ، وبين الربوبية والخشية من الرب ، وبين الرحمة والعقوبة. ولذا قال تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [مريم: ٤٥] ، وقال: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ٢١٧.

﴿ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠].

جاء في (التفسير الكبير): «وقوله: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ﴾ فيه لطيفة وهي أن الرحمة تورث الاتكال والرجاء فقال مع أنه رحمن ورحيم فالعاقل لا ينبغي أن يترك الخشية، فإن كل من كانت نعمته بسبب رحمته أكثر فالخوف منه أتم، مخافة أن يقطع عنه النعم المتواترة.

و(تكملة اللطيفة): هي أن من أسماء الله اسمين يختصان به هما الله والرحمن كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠]، حتى قال بعض الأئمة: هما علمان إذا عرفت هذا فالله ينبئ عن الهيبة والرحمن ينبئ عن العاطفية، فقال في موضع: (يرجو الله) وقال ههنا: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ﴾ يعني: مع كونه ذا هيبة لا تقطعوا عنه رجاءكم، ومع كونه ذا رحمة لا تأمنوه» [١].

وجاء في (البحر المحيط): «و﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ﴾ أي المتصف بالرحمة مع أن الرحمة قد تعود إلى الرجاء ولكنه مع علمه برحمته هو يخشاه خوفًا من أن يسلبه ما أنعم به عليه» [٢].

وجاء في (روح المعاني): «و﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ﴾ أي عقابه ولم يغتر برحمته عز وجل، فإنه سبحانه مع عظيم رحمته أليم العذاب كما نطق به قوله تعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠].

ومما قرر يعلم سر ذكر الرحمن مع الخشية دون القهار ونحوه» [٣].

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٤٧ ـ ٤٨.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٢٥.

(٣) روح المعاني ٢٢/ ٢١٧.



وقد تقول: ولم قال ههنا: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ مع أنه قال في أكثر من موطن: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ من دون ذكر للغيب؟.

والجواب أن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ مطلق أي يخشونه خشية مطلقة على كل حال سواء كانت بالغيب أم لا. وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ مقيد، أي أن الخشية تكون بالغيب، أي عند غيبتهم عن عيون الناس. وإيضاح ذلك أنه إذا كان المقصود بالغيب أنه يخشى ربه وإن لم يشاهده أو أنه يخشى عذابه يوم القيامة فإن الخشية كلها فيه سواء قال: (بالغيب) أم لم يقل. وإذا كان المقصود بالغيب بمعنى الغيبة عن عيون الناس فإن هذه الخشية تكون مقيدة، وقوله: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ من دون ذكر للغيب يكون مطلقًا عامًّا، أي سواء كان الخشي أمام الناس أم لا.

وعلى هذا يكون قوله: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ هي حالة من حالات الخشية العامة، وهي جزء منها، فتلك خشية عامة مطلقة سواء كانت أمام الناس أم لا، وهذه مقيدة.

فالخشية العامة هي الخشية بالغيب وزيادة.

فإذا كان المقام يقتضي ذكر الخشية العامة من دون تقييد ذكرها مطلقة ولم يقيدها. وإليك إيضاح ذلك:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٨ ـ ٤٩].

وقال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].

وقال: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٢ ـ ٣٣].

وقال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

فهذه كلها ذكر فيها الخشية بالغيب.

في حين قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

وقال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

فلم يذكر الخشية بالغيب وإنما أطلقها في الموطنين.

أما آية الزمر فإن الأمر فيها واضح، إذ لا داعي فيها للتقييد، فإنه قال: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ واقشعرار الجلود ولينها ولين القلوب أمر غائب عن الآخرين ولا يشعر به إلا صاحبه أما الآخرون فلا يعلمونه، ولا يختلف الأمر سواء كان ذلك وحده أم مع الآخرين فلا داعي لتقييد الخشية بالغيب.

وأما آية الرعد فإننا نذكر السياق الذي وردت فيه.

قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟

ﭐبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ١٩ ـ ٢٤].

ومن النص يظهر ما يأتي:

١ ـ أنه وصفهم بأنهم أولو الألباب وقصر عليهم التذكر فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، والمعنى أنه لا يتذكر إلا أولو الألباب.

٢ ـ ذكر أنهم يوفون بعهد الله، وهو وصف عام يشمل الالتزام بجميع الفروض وتجنب جميع المعاصي[١].

٣ ـ وأنهم لا ينقضون الميثاق.

٤ ـ يصلون ما أمر الله به أن يوصل.

٥ ـ يخشون ربهم.

٦ ـ يخافون سوء الحساب.

٧ ـ أنهم صبروا ابتغاء وجه ربهم.

٨ ـ أقاموا الصلاة.

٩ ـ أنفقوا مما رزقهم الله سرًّا وعلانية، وهذا يدل على الخشية بالغيب وزيادة.

١٠ ـ يدرؤون بالحسنة السيئة.

وذكر جزاءهم على النحو الآتي:

١ ـ أن لهم عقبى الدار وهي جنات عدن يدخلونها هم.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٣٨٢.



٢ ـ ويدخلها معهم من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم.

٣ ـ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب.

٤ ـ يحيونهم بقولهم: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار.

وإذا نظرنا في جميع الآيات التي ورد فيها قوله: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ وجدنا أنها تشمل جزءًا مما ذكر في آيات الرعد. فكما أن الخشية بالغيب جزء من الخشية العامة المطلقة أدرج في مواطن الخشية بالغيب جزءاً مما ذكر في الخشية العامة، فناظر بينهما في الإطلاق والتقييد، والجزئية والكلية، وإليك إيضاح ذلك:

١ ـ ذكر في سورة الأنبياء أنه مما آتى موسى وهارون:

- ذكرًا للمتقين.
- الذين يخشون ربهم بالغيب.
- من الساعة مشفقون.

فما في آية الأنبياء جزء مما ذكر في آيات الرعد، والخشية في الرعد تشمل الخشية بالغيب وزيادة.

٢ ـ ذكر في آية فاطر أمرين:

- يخشون ربهم بالغيب.
- أقاموا الصلاة.

٣ ـ ذكر في آية الملك:

يخشون ربهم بالغيب.

٤ ـ ذكر في سورة ق:

- أزلفت الجنة للمتقين.
- وهم كل أواب.

● حفيظ.

● من خشي الرحمن بالغيب.

● جاء بقلب منيب.

ومن الملاحظ في آيات (ق) هذه أنه لم يذكر أعمالاً بدنية ظاهرة كالصلاة والإنفاق ودرء السيئة بالحسنة وغيرها.

وأن الجزاء أقل مما في الرعد.

٥ ـ ذكر في سورة يس:

● اتبع الذكر.

● خشي الرحمن بالغيب.

وقوله ﴿ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ أمر عام يشمل عموم الاتباع. ونظيره في آيات الرعد ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ فإنه يشمل جميع ما عهد الله في كتبه. فما ذكر في الرعد أكثر تفصيلاً، وقد شمل ما في آية (يس) تفصيلاً على جهة الإحسان في الاتباع وليس مجرد الاتباع.

يوضح ذلك أن الله تعالى قال في صفات المتقين: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، وهذا اتباع.

وقال ههنا: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ [الرعد: ٢٢]، وهذا من الإحسان في الاتباع وليس مجرد الاتباع.

وقال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠] وهذا اتباع، وقال: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠] وهذا أمثل في الاتباع وأحسن. وقال ههنا: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: ٢٢] وهذا أعلى وأكمل وأمثل في الاتباع وأحسن مما قبله، ذلك أنه لم يعف فقط وإنما درأ السيئة بالحسنة.

ثم إن الجزاء في آيات الرعد أعلى مما ذكر في سورة (يس) ، فقد قال في سورة (يس): ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ وذكر في سورة الرعد: أنَّ لهم عقبى الدار جنات عدن. . . إلخ.

وهذا أعلى مما ذكر في سورة (يس) فإنه ذكر في سورة (يس) الأجر ولم يذكر الجنة ، والأجر لا يعني الجنة نصًا ، وإنما هو الجزاء على العمل ويكون الأجر على حسب العمل. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦ ـ ٦٨] ، فالأجر العظيم هنا لا يعني الجنة ، وإنما هو الثواب على العمل ، ولذلك قال بعدها: ﴿ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ .

وقال: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ [المزمل: ٢٠] ، إذ لا يصح أن يقال هنا إن الأجر هو الجنة ، ألا ترى أنه لا يقال (هو خيرًا وأعظم جنة)؟

فما ذكر في آيات الرعد من الصفات والجزاء أعلى وأكمل.

من هذا يتضح أن قوله: ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الرعد: ٢١] أعم وأشمل من قوله: ﴿ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾.

قد تقول: إنك تعني أن الذين قيل فيهم: ﴿ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أعلى وأمثل ممن قيل فيهم: ﴿ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ ونحن لا يبدو لنا هذا الأمر.

فنقول: هذا أشمل لأنه يشمل الخشية بالغيب وغيرها. وقد تكون الخشية بالحضور أعلى من الخشية بالغيب عن الناس ، ذلك أن قسمًا من الناس ضعاف النفوس لا يحبون أن يُتَّهموا بالتدين والرجعية والجمود أو بالتعقيد، فيتهاون ويعمل أمام الملأ أعمالاً لا ترتضيها نفسه ، ولو خلي بينه وبين نفسه لم يفعلها. فمثلاً: إن هناك من يقول: أنا لست صائمًا

تدينًا وإنما لأمر يتعلق بالصحة لأنه يخجل أن يقول: أنا صائم تدينًا. وآخر يقول: أنا لا أمتنع عن الخمر تدينًا ولكن لأنها مذهبة للعقل والصحة.

وهناك آخرون يفعلون أفعالاً محرمة بدافع المجاملة ونفوسهم تشعر بالإثم والحرج، ولو تركوا وأنفسهم لم يفعلوها كشرب الخمر أو غيره من المعاصي، كما قال تعالى عن قسم من أهل النار: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٥]، وعن آخر يقول لصاحبه: ﴿يَـٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨]، ونحو ذلك.

فإظهار الخشية من الله أمام هؤلاء أكمل وأمثل وأعلى من الخشية بالغياب عن عيون الناس؛ لأن فيها إظهارًا وتعظيمًا لشعائر الله وتقوية لضعفاء الدين، وقمعًا للذين يجاهرون بمحاربة الله ورسوله.

وعلى هذا تكون الخشية المطلقة أشمل وأكمل. ومعنى الخشية المطلقة: الخشية بالغيب والخشية بالمشاهدة.

ثم لنلاحظ من ناحية أخرى في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ أنه ذكر نوعين من العبادة: عبادة ظاهرة وهي قوله تعالى: ﴿ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾، وعبادة قلبية وهي قوله: ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾، وذكر نوعين من الجزاء: المغفرة والأجر الكريم.

والمغفرة هي ما يتعلق بالذنوب.

والأجر الكريم ما يتعلق بالعمل الصالح.

فشمل ذلك كل أنواع العمل سواء كان سيئًا أم صالحًا.

فالعمل السيِّء مغفور لهؤلاء، والعمل الصالح مكافأ عليه بالأجر الكريم وهو أحسن تقسيم وأنسبه.

جاء في (البحر المحيط: «ولما أحدث فيه النذارة بشره بمغفرة لما سلف وأجر كريم على ما أسلف من العمل الصالح وهو الجنة»[(١)].

وجاء في (روح المعاني): ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ عظيمة لما سلف، وقيل: لما يفرط منه، ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ حسن لا يقادر قدره لما أسلف»[(٢)].

* * *

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ (١٢)﴾

* * *

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾

قالوا: إن أصول الإيمان ثلاثة:

التوحيد والرسالة والحشر[(٣)]، وقد ذكرها كلها في هذه الآيات. فإن الرسالة تقتضي مرسلاً وهذا يدل على التوحيد وقد نص على ذلك قوله: ﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾.

وقد ذكر الرسالة بقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ...﴾.

وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ يدل على الحشر.

وارتباط هذه الآية بما قبلها واضح، ذلك أن عاقبة الإنذار والتبشير اللذين ذكرهما قبل هذه الآية بقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ...﴾

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٢٥.

(٢) روح المعاني ٢٢/ ٢١٧.

(٣) انظر التفسير الكبير ٢٦/ ٤٨، البحر المحيط ٧/ ٣٢٥.

وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ إنما تكون في الحياة بعد الموت ، فكان ذكرها ترغيبًا وترهيبًا وهو أنسب شيء.

جاء في (التفسير الكبير): «في الترتيب وجوه:

أحدها: أن الله تعالى لما بين الرسالة وهو أصل من الأصول الثلاثة التي يصير بها المكلف مؤمنًا مسلمًا ذكر أصلاً آخر وهو الحشر.

وثانيها: وهو أن الله تعالى لما ذكر الإنذار والبشارة بقوله: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ ولم يظهر ذلك بكماله في الدنيا فقال: إن لم يرَ في الدنيا فالله يحيي الموتى ويجزي المنذرين ويجزي المبشرين.

وثالثها: أنه تعالى لما ذكر خشية الرحمن بالغيب ذكر ما يؤكده وهو إحياء الموتى»[١].

وجاء في (روح المعاني): «﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ إلخ تذليل عام للفريقين المصممين على الكفر والمشفقين بالإنذار ترهيبًا وترغيبًا ووعيدًا ووعدًا»[٢].

وقد أكد الضمير المتقدم بـ (إن) مع ذكر ضمير الفصل (نحن) لإفادة القصر وللتقوية ، ذلك أن الله وحده هو الذي يحيي الموتى لا غيره ولا يشاركه في هذا أحد فقدم الضمير لذلك ، وأعني الضمير المؤكد بـ (إن). وكان الأصل أن يقال من غير توكيد: نحن نحيي الموتى. ولكنه أكد الضمير بـ (إن) وجاء بضمير الفصل توكيدًا وتقوية ، ذلك أن الكفار لا يقرون بالحشر ولا يؤمنون بالحياة بعد الموت وكانوا يقولون: ﴿مَا هِيَ

---

(١) التفسير الكبير ٤٨/٢٦.

(٢) روح المعانى ٢١٨/٢٢.

﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]. فأكد هذا الحكم بـ (إن) وبضمير الفصل، فأفاد هذا التعبير حصرًا وتوكيدًا.

جاء في (روح المعاني): «وتكرير الضمير لإفادة الحصر أو للتقوية... وضمير العظمة للإشارة إلى جلالة الفعل. والتأكيد للاعتناء بأمر الخبر أو لرد الإنكار، فإن الكفرة كانوا يقولون: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧]؛ أي إنا نحن نحيي الأموات جميعًا ببعثهم يوم القيامة»[1].

وقد تقول: ولِمَ لَمْ يؤكد باللام أيضًا كما فعل في موطن آخر، فقد قال في سورة الحجر: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [الحجر: ٢٣]؟

والجواب: أن كل موطن يقتضي ما ذكر.

فإنه ذكر في سورة الحجر من مظاهر قدرته وفصل فيها ما لم يذكره في سورة (يس). فقد قال في سورة الحجر:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [الحجر: ١٦ - ٢٣].

في حين لم يذكر شيئًا من ذلك في سورة (يس)، فاقتضى ذلك أن يذكر اللام توكيدًا ومناسبة لمقام التفصيل. فناسب الإيجاز الإيجاز، والتفصيل التفصيل.

---

(١) روح المعاني ٢٢/٢١٨.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه فصل في ذكر الحشر في سورة الحجر ما لم يفصله في سورة (يس). فقد قال في الحجر: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ .

في حين لم يزد في سورة (يس) على قوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ ، ثم ينتقل إلى موضوع آخر.

فناسب مقام الحشر وذكره بصورة أوسع مما في (يس) أن يزيد في توكيده.

ومن ناحية ثالثة: أن الخطاب في سورة يس قبل وبعد الآية للرسول. ويبدأ ذلك بقوله: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ . . . لِتُنذِرَ قَوْمًا . . . وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ . . . إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ . . . فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ ثم تأتي الآية بعدها: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا . . . ﴾ .

في حين أن الخطاب في الحجر لعموم الخلق كما هو ظاهر ، ولا شك أن عموم الخلق بهم حاجة إلى تأكيد الحشر أكثر من الرسول ﷺ ، فناسب ذلك الزيادة في التأكيد في آية الحجر من كل وجه ، والله أعلم.

* * *

﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾ .

أي نكتب ما قدموا من الأعمال الصالحة وغيرها.

(وآثارهم) أي ما أبقوه بعدهم من أعمال البر أو غيرها من أعمال السوء. فإن الإنسان قد يعمل عملاً فيه فائدة للمسلمين يبقى بعده كتأليف

كتاب ، أو بناء مسجد ، أو تأسيس مدرسةٍ تُعلِّم الناس أمور دينهم ، أو تأسيس جماعة تدعو إلى الله ، أو سنّ سنة حسنة فتكتب له حسنات بقدر ما ينتفع بها حيث انتفع بها.

أو بالعكس فإنه قد يعمل عملاً فيه إضرار بالمسلمين من سنّ مظلمة ، أو ابتداع بدعة سيئة، أو نشر أفكار ضارة بالمسلمين، أو معادية للإسلام، أو إظهار معصية ، وما إلى ذلك من أعمال السوء ، فإنه تكتب عليه أوزار ذلك بقدر ما أحدثت من أضرار حيث أضرت. فإنه ليست الأعمال وحدها هي التي تكتب بل تكتب آثار تلك الأعمال من خير أو شر. قال ﷺ: (من سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا ، ومن سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أوزارهم شيئًا).

جاء في (الكشاف): «﴿وَنَكۡتُبُ مَا﴾ أسلفوا من الأعمال الصالحة وغيرها ، وما هلكوا عنه من أثر حسن كعلم علموه أو كتاب صنفوه أو حبيس حبسوه أو بناء بنوه من مسجد أو رباط أو قنطرة أو نحو ذلك ، أو سيء كوظيفة وظفها بعض الظلام على المسلمين ، وسكة أحدث فيها تخسيرهم ، وشيء أحدث فيه صدّ عن ذكر الله من ألحان وملاهٍ ، وكذلك كل سنة حسنة أو سيئة يستن بها. ونحوه قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣] ، أي قدم من أعماله وأخر من آثاره. وقيل: هي آثار المشائين إلى المساجد. . . وعن عمر بن عبد العزيز: لو كان الله مغفلاً شيئًا لأغفل هذه الآثار التي تعفيها الرياح» [١].

وجاء في (روح المعاني): «﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ﴾ ما أسلفوه من الأعمال الصالحة والطالحة ، (وآثارهم) التي أبقوها بعدهم من الحسنات

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨٣ ، وانظر البحر المحيط ٧/ ٣٢٥.



كعلم علموه. . . وغير ذلك من وجوه البر، ومن السيئات كتأسيس قوانين الظلم والعدوان. . . وغير ذلك من الشرور التي أحدثوها وسنوها بعدهم للمفسدين.

أخرج ابن أبي حاتم عن جرير بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا. ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئًا، ثم تلا ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾»[1].

وقد تقول: لقد قدم الله (إحياء الموتى) على كتابة ما قدموا وآثارهم فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ مع أن كتابة ما قدموا وآثارهم قبل إحياء الموتى فلم ذاك؟.

فنقول إن التقديم والتأخير لا يكون دائمًا مبنيًّا على السبق في الزمان أو على الأشرف وإنما هو مبني على العناية والاهتمام، وهذه تختلف بحسب السياق والمقام، فقد يقدم المتأخر أحيانًا أو بالعكس؛ ولذا نجد في القرآن تقديم الركوع على السجود مرة وتقديم السجود على الركوع مرة أخرى، وتقديم الحياة على الموت مرة وتقديم الموت على الحياة مرة أخرى، ونجد تقديم المتقدم في الزمن مرة وتقديم المتأخر مرة أخرى، قال تعالى: ﴿۞ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

فقدم عيسى على أيوب ويونس وغيرهما ممن ذكر، وهو بعدهم جميعًا. وذكر سليمان قبل أبيه داود. فليس التقديم والتأخير قائمًا على

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ٢١٨.

السبق في الزمان إذن ؛ وإنما مداره على العناية والاهتمام كما ذكرت. وأوجه العناية والاهتمام تختلف بحسب السياق.

وهنا قدم الإحياء على الكتابة لأنه أهم من عدة أوجه:

منها: أنه المناسب لما قبله من الإنذار والتبشير ، فإن ذلك يكون في الحياة بعد الموت.

ومنها: أن كتابة ما قدموا من الأعمال إنما هي لما بعد الموت ، وإلا فلا قيمة للكتابة ، فقدم الأهم لذلك.

ثم إنه رتب المذكورات بحسب الأهمية ، فإن أهم شيء فيما ذكر هو الإحياء بعد الموت ، ثم كتابة الأعمال التي تعرض على صاحبها في الحياة الثانية ، ثم كتابة الآثار وهي مستندة إلى ما قدم من الأعمال. فما قدم من العمل هو أساس كتابة الآثار.

ثم إنه قدم الأهم من ناحية أخرى وهو ما لا يستطيع فعله إلا الله وهو إحياء الموتى ، ولذا جاء به بأسلوب القصر المؤكد ليدل على أنه لا يفعله إلا الله. وأما الكتابة فإنه يمكن أن يفعلها المخلوقون وإن لم تكن بنفس الدرجة من الدقة والإحاطة ، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾ ولم يقل: (وإنا نحن نكتب ما قدموا).

ثم من ناحية أخرى قدم فعل الله على ما يفعله غيره ، والإحياء فعل الله. وأما الكتابة فهي فعل الملائكة الموكلين بها بأمره كما أخبر ربنا ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠] ، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

ثم إنه قدم إحياء الموتى لأن السورة مبنية على ذلك ، وأن جوها يشيع فيه ذكر الحياة بعد الموت. قال تعالى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٣٢] ، وهذا في الحياة الأخرى.



وقــال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣].

وهذا إحياء بعد الموت.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يس: ٤٨]، أي: الحشر.

وقال: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥١ ـ ٥٣].

ثم ذكر مشهدًا من مشاهد الحياة الآخرة في الجنة ومشهدًا آخر في النار.

وتختم السورة بقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

فالسورة يشيع فيها ذكر الحياة بعد الموت، فناسب تقديمه على الكتابة من كل وجه.

جاء في (التفسير الكبير): «الكتابة قبل الإحياء فكيف أخر في الذكر حيث قال: (نحيي ونكتب)، ولم يقل: (نكتب ما قدموا ونحييهم)؟ نقول: الكتابة معظمة لأمر الإحياء، لأن الإحياء إن لم يكن للحساب لا يعظم، والكتابة في نفسها إن لم تكن إحياء وإعادة لا يبقى لها أثر أصلاً. فالإحياء هو المعتبر والكتابة مؤكدة معظمة لأمره. فلهذا قدم الإحياء، ولأنه تعالى لما قال: (إنا نحن) وذلك يفيد العظمة والجبروت والإحياء عظيم يختص بالله والكتابة دونه، فقرن بالتعريف الأمر العظيم وذكر ما يعظم ذلك العظيم»[1].

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/٤٩.

وقال: (نكتب) ولم يقل: (نعلم) لغرض الاهتمام بها وتوثيقها وإطلاع صاحبها عليها بصغيرها وكبيرها. فإن الإنسان قد يعلم أشياء ولا يكتبها ، فإن كانت مهمة دوّنها.

وقال: (أحصيناه) ولم يكتف بالكتابة ؛ لأن الكتابة وحدها قد لا تكون كافية ، فإن كتبت أشياء ولم تحصها فربما ضاعت أو تلفت ، فإن الإحصاء يحدد عدد المكتوب فلا يضيع منه شيء. ولم يكتف بإحصائها بل جعلها في موضع واحد وهو الإمام المبين وهو اللوح المحفوظ ـ كما قيل ـ وسمي إمامًا لأن الملائكة تتبعه وتنفذ ما فيه فهو الإمام لها.

وقال: (نكتب) بالمضارع و(أحصيناه) بالماضي ، لأن الإحصاء في الإمام المبين سابق على الكتابة ، فإن الكتابة تكون لما يفعله المكلفون وهي متأخرة عما كتبه الله في اللوح ، فقد جف القلم بما هو كائن إلى يوم الدين.

جاء في (التفسير الكبير): «وقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ يحتمل وجوهًا:

أحدها: أن يكون ذلك بيانًا لكون ما قدموا وآثارهم أمرًا مكتوبًا عليهم لا يبدل فإن القلم جف...

وثانيها: أن يكون ذلك مؤكدًا لمعنى قوله: (ونكتب) لأن من يكتب شيئًا في أوراق ويرميها قد لا يجدها فكأنه لم يكتب فقال: نكتب ونحفظ ذلك في إمام مبين. وهذا كقوله تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾... وقوله: (أحصيناه) أبلغ من (كتبناه) لأن من كتب شيئًا مفرقًا يحتاج إلى جمع عدده ، فقال: هو محصى فيه. وسمى الكتاب إمامًا لأن الملائكة يتبعونه ، فما كتب فيه من أجل ورزق وإحياء وإماتة

اتبعوه. وقيل: هو اللوح المحفوظ»[(١)].

وقال: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ﴾ بنصب (كل) ولم يقل: (وكلُّ شيء) بالرفع، ذلك أن المعنى بنصب (كل) أننا أحصينا كل شيء في كتاب مبين.

وأما بالرفع فيحتمل معنيين:

المعنى الأول: وهو ما ذكرناه بالنصب فيكون (كل) مبتدأ، وجملة (أحصيناه) خبرًا له.

والمعنى الآخر: أن تكون جملة (أحصيناه) نعتًا لشيء، والخبر (في إمام مبين) فيكون المعنى (أننا كل شيء أحصيناه) (في إمام مبين) أي أن الشيء الذي أحصيناه إنما هو في إمام مبين. ومعنى ذلك أن الأشياء على قسمين: قسم محصى وهو في إمام مبين. وقسم غير محصى وهو ليس كذلك. وهذا المعنى باطل لا يمكن أن يراد.

فجاء بالعبارة ذات الدلالة القطعية التي لا تحتمل دلالة أخرى.

إن هذه الآيات من سورة (يس) بينت المقصد من هذه السورة وعليها بنيت، فكأنها تلخيص للسورة وبقية السورة تبيين لها. وقد ارتبطت آيات السورة بهذه الآيات ارتباطاً متيناً واضحًا.

فقد أجاب القسم بقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي إنك واحد منهم. وقد طبعت السورة بهذا الطابع وقد بنيت على هذا الأمر. فقد ضرب له مثلاً بأصحاب القرية إذ جاءها المرسلون وذكر قصتهم معهم.

وقال: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠]، فهذا يدل على كثرة الرسل وأنه واحد منهم.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٤٩ ـ ٥٠.

وذكر تصديق المكذبين لرسلهم في الآخرة ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢].

وقد ذكر في موطن آخر من السورة أن ما عهده الله إلى بني آدم على لسان رسله هو صراط مستقيم: ﴿ ۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١﴾، فانظر كيف وصف الرسول في أول السورة أنه على صراط مستقيم، ويأتي في بحر السورة أن هذا هو عهده إلى بني آدم.

ثم قال: ﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وكما بنيت السورة على ما ذكرت من أمر المرسلين وشاع فيها ذلك، بنيت أيضًا على العزة والرحمة وشاع ذلك فيها كما سبق أن ذكرنا في تفسير قوله: ﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ثم ذكر الغرض من هذا التنزيل وهو الإنذار فقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا﴾ وقد شاع أيضًا جو الإنذار فيها، وهو التحذير من مغبة التكذيب لرسل الله سبحانه وذلك بما يذكره من العقوبات في الدنيا والآخرة وذلك من نحو قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٣١ وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾.

وهذا كله إنذار وتخويف.

ونحو قوله: ﴿وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ﴾ [يس: ٤٣].

وقوله: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ٤٩ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [يس: ٤٩ ـ ٥٠].

وقوله: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣].



وذكر مشهدًا من مشاهد جهنم وفيه تحذير أي تحذير.

ومن ذلك قوله: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يس: ٧٠].

وقوله: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤ ـ ٧٥].

وهذا كله تحذير وإنذار لمن كان له قلب.

ثم ذكر القوم الذين سينذرهم وموقفهم من هذا الإنذار وأنهم سواء عليهم الإنذار وعدمه فهم لا يؤمنون على أية حال.

وبين لنا في السورة فيما ضرب من مثل وذكره أن هذا حال أكثر الأقوام الماضية وأن موقفهم من إنذار الرسل واحد ليتأسى رسول الله ﷺ وليعلم أن هذا ليس موقف قومه وحدهم، فقد ضرب له مثلاً بأصحاب القرية وموقفهم من رسلهم وذكر عاقبتهم ومآلهم، ثم بين أن هذا شأن عباد الله على العموم ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [يس: ٣٠]، ثم ذكر فيما بعد مؤكدًا هذا المعنى: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [يس: ٤٦]، ثم ذكر أن الشيطان أضل خلقًا كثيرًا من بني آدم: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴾ [يس: ٦٢]، ثم ذكر في خواتم السورة أن الله خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين.

وهذه الآية تؤكد ما بينه وقرره من حال الإنسان وموقفه من الله ورسالاته.

ثم ذكر أن جزاء من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب مغفرة وأجر كريم. وشاع هذا الأمر في السورة وقرره في أكثر من موطن، فذكر عاقبة الذين آمن بالرسل من أصحاب القرية وأنه قيل له: ﴿ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ

قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ فذكر المغفرة والإكرام وهما ما ذكره في قوله: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٍ وَأَجۡرٍ كَرِيمٍ﴾. ثم ذكر أصحاب الجنة ونعيمهم ٥٦ ـ ٥٨.

ثم ختم هذه الآيات بقوله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ وشاع في السورة أمر إحياء الموتى حتى صار طابعًا لها كما سبق أن ذكرنا.

فاتضح من هذا أن هذه الآيات هي المعاني التي بنيت عليها السورة وشاع فيها ذكرها، والله أعلم.

* * *

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝١٣ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ۝١٤ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ۝١٥ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ۝١٦ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝١٧ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١٨ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ۝١٩ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ۝٢١ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ۝٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٢٤ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ۝٢٥ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ [يس: ١٣ ـ ٢٧].

* * *

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝١٣﴾

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا﴾

يحتمل هذا التعبير معنيين :

المعنى الأول : أن المقصود اضربْ لأجلهم مثلاً ، أي بيّنْه لهم واذكره لهم ، وقصّ عليهم قصة أصحاب القرية ليتعظوا وليعلموا أنك لست بدعًا من الرسل ، وإنما أُرسل قبلك رسل وأنذروا قومهم وأن موقفهم من رسلهم كان التكذيب وإنكار الرسالات وأنهم آذوا رسلهم وعذبوهم فأهلكهم الله لعل قومك يتعظون .

والمعنى الآخر : أن المقصود مثّل لنفسك حال قومك بأصحاب القرية واجعلهم مثلاً لهم ، أي شبّه حالهم بحال أصحاب القرية ، فإن حال قومك شبيه بحال أصحاب القرية ، وإن مثَلَهم كمثلهم ، كما تقول مخاطبًا شخصًا : أنا أشبّه حالك بحال فلان إذ فعل كذا وكذا . أو تقول لشخص : أنا أضرب لزيد مثلاً خالدًا فإن كليهما قد خسر في تجارته ، أي اجعله شبيهًا به .

وعلى كلا هذين المعنيين يرتبط المثل بما قبله أحسن ارتباط .

فإنه على المعنى الأول : أي أن تضرب لهم المثل وتبينه لهم ، فإنه يقول له : بيّن لهم شأن أصحاب القرية وموقفهم من رسلهم فإنهم مثلهم في الاعتقاد والتكذيب ، وستكون عاقبتهم مثلهم إن أصرّوا على كفرهم وعنادهم لعلهم يتعظون ويرعوون .

وعلى المعنى الثاني : يكون المقصود أن قومك ليسوا بدعًا من الأقوام ، فهناك أقوام مثلهم في التعنت والكفر ، وأنه سواء عليهم الإنذار وعدمه ، وأنه حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ، وأنت لست وحدك تلاقي من العنت والإيذاء والتكذيب ما تلاقي ، فهؤلاء أصحاب القرية مثل قومك في موقفهم وعنادهم وإيذائهم رسلهم ، فقد أرسل إليهم ثلاثة رسل فكذبوهم وآذوهم فتصبّر وتأسّ بهم . وفي ذلك تصبير له وتأسية

فيكون ضرب المثل له ﷺ.

والمعنيان مرادان مرتبطان بما قبلهما أجل ارتباط وأحسنه.

جاء في (التفسير الكبير) في قوله: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا﴾: «وفيه وجهان. والترتيب ظاهر على الوجهين.

الوجه الأول: هو أن يكون المعنى: واضرب لأجلهم مثلاً.

والثاني: أن يكون المعنى: واضرب لأجل نفسك أصحاب القرية لهم مثلاً.

أي مثّلهم عند نفسك بأصحاب القرية.

وعلى الأول نقول: لما قال الله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ وقال: (لتنذر)، قال: قل لهم (ما كنت بدعًا من الرسل) بل قبلي بقليل جاء أصحاب القرية مرسلون وأنذروهم بما أنذرتكم وذكروا التوحيد وخوفوا بالقيامة وبشروا بنعيم دار الإقامة.

وعلى الثاني نقول: لما قال الله تعالى إن الإنذار لا ينفع من أضله الله وكتب عليه أنه لا يؤمن قال للنبي عليه الصلاة والسلام: فلا تأس واضرب لنفسك ولقومك مثلاً، أي مثّل لهم عند نفسك مثلاً حيث جاءهم ثلاثة رسل ولم يؤمنوا، وصبر الرسل على القتل والإيذاء، وأنت جئتهم واحدًا وقومك أكثر من قوم الثلاثة، فإنهم جاؤا قرية وأنت بعثت إلى العالم»[1].

وجاء في (روح المعاني): «فالمعنى على الأول: اجعل أصحاب القرية مثلاً لهؤلاء في الغلو في الكفر والإصرار على التكذيب، أي طبق حالهم بحالهم على أن (مثلاً) مفعول ثان لـِ (اضرب)، و(أصحاب القرية) مفعوله الأول أخر عنه ليتصل به ما هو شرحه وبيانه.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٥٠.

وعلى الثاني: اذكر وبين لهم قصة هي في الغرابة كالمثل. وقوله سبحانه: ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ بتقدير مضاف، أي مثل أصحاب القرية»[(١)].

وقال: ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ولم يقل: (إذ جاءهم) لأنه أراد أنهم أتوهم في مكانهم لينذروهم. ولو قال: (إذ جاءهم) لم يفد أنهم أتوهم إلى مكانهم، بل يحتمل أنهم كانوا في مكان ما فأتاهم الرسل إليه. فقد يجتمع أهل قرية في مدينة ما ويأتيهم شخص إلى مكان اجتماعهم فيقال: (جاء أهل القرية فلان وكلمهم) ولم يفد ذلك أنه ذهب إلى قريتهم. بخلاف قوله: (جاءها) فإنه يفيد أنهم ذهبوا إليهم في دارهم ليبلغوهم دعوة ربهم وينذروهم، وفي هذا من الاهتمام بأمر التبليغ ما فيه.

جاء في (روح المعاني): «وقيل: ﴿إِذْ جَآءَهَا﴾ دون (إذ جاءهم) إشارة إلى أن المرسلين أتوهم في مقرهم»[(٢)].

وقال: (جاءها) دون (أتاها) ذلك أن المجيء يكون لما فيه مشقة ولما هو أصعب من الإتيان[(٣)]. ويبدو أنه كان في المجيء إلى أهل القرية وتبليغهم مشقة وإيذاء وتهديد فاختار المجيء على الإتيان. ولذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفرقان: ٤٠]، لأنه كان إتياناً سهلاً وذلك أنهم مروا بها وهم في طريقهم. وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ [الكهف: ٧٧]، لأن إتيانها ودخولها كان ميسراً ولم يجدوا من أهلها مساءة أو مشقة فاستعمل (أتيا) دون (جاءا).

* * *

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ٢٢٠.

(٢) روح المعاني ٢٢/ ٢٢٠.

(٣) انظر المفردات في غريب القرآن ٦ و١٠٢ وانظر كتاب «لمسات بيانية» (قصة موسى في سورتي النمل والقصص).

﴿ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا . . . ﴿١٤﴾ ﴾

قال : ﴿ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ﴾ ولم يقل : (أرسلنا إليها) ، كما قال : (جاءها) ؛ لأن الإرسال في الحقيقة إلى أهل القرية لا إلى القرية ، أما المجيء فكان إلى القرية ، فإن القرية تطلق على المساكن والأبنية والضياع وإن كانت خالية ، قال تعالى : ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [البقرة : ٢٥٩] ، ولذلك قال بعد : ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ فنسب التكذيب إلى أهلها ولم ينسبه إلى القرية . لأنهم هم المرسل إليهم وهم المكذبون .

وقوله : ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ يدل على أنهما أنذرا أصحاب القرية وبلغاهم دعوة ربهم إلا أنهم كذبوهما ، وهذه الفاء تسمى فاء الفصيحة ، وهي التي أفصحت عن المحذوف وهو التبليغ ؛ لأن التكذيب لا يكون إلا مع التبليغ فحذف ما هو مفهوم من الكلام وما لا داعي له ؛ لأن العناية ههنا بموقف أهلها منهما .

وهو الموقف المشابه لموقف أهل مكة . جاء في (روح المعاني) : «وقيل : ﴿ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ﴾ دون (أرسلنا إليها) ليطابق ﴿ إِذْ جَآءَهَا ﴾ ، لأن الإرسال حقيقة إنما يكون إليهم لا إليها ، بخلاف المجيء . وأيضًا التعقيب بقوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ عليه أظهر . وهو هنا نظير التعقيب في قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ ﴾ [البقرة : ٦٠]» (١)

﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾

عزّزنا : قوينا ، والمعنى : فقويناهما ، غير أنه لم يذكر المفعول به ، فلم يقل : (فعززناهما) ؛ ذلك أن المقصود تقوية الحق الذي أرسلا به

---

(١) روح المعاني : ٢٢/ ٢٢١

علاوة على تقويتهما ، وليس المقصود تقوية الشخصين فقط ، فأخرج الفعل مخرج العموم ، ولو ذكر مفعولاً به لتقيد التعزيز بذلك المفعول. فنحن نرى فيما نرى أنك قد تنصر شخصًا وتقويه ولا تنصر فكره ، ونرى شخصين أو فريقين متخاصمين يحارب أحدهما الآخر أو يقتله وهما يحملان فكرًا واحدًا. فقال ههنا: ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ ليدل على أن التقوية عامة لهما ولدعوتهما. وقد ذهب الزمخشري وآخرون إلى أن الغرض من الحذف إنما هو لبيان أن المقصود ذكر المعزز به وهو الحق الذي أرسلا به. والذي يبدو لي ما ذكرت والله أعلم.

جاء في (الكشاف) في قوله: ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾:

«﴿ فَعَزَّزْنَا ﴾: فقوينا. . .

فإن قلت: لم ترك ذكر المفعول به؟

قلت: لأن الغرض ذكر المعزز به. . . وإذا كان الكلام منصبًّا إلى غرض من الأغراض جعل سياقه له وتوجهه إليه ، كأن ما سواه مرفوض مطرح ، ونظيره قولك: (حكم السلطان اليوم بالحق) الغرض المسوق إليه قولك: (بالحق) فلذلك رفضت ذكر المحكوم له والمحكوم عليه»(١).

وجاء في (التفسير الكبير): «وترك المفعول حيث لم يقل: (فعززناهما) لمعنى لطيف ، وهو أن المقصود من بعثهما نصرة الحق لا نصرتهما والكل مقوون للدين المتين بالبرهان المبين»(٢).

وأسند التعزيز إلى نفسه سبحانه فقال: ﴿ فَعَزَّزْنَا ﴾ كما قال: ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَآ ﴾

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨٤.

(٢) التفسير الكبير ٢٦/ ٥١.

للدلالة على أن المرسل والمعزّز واحد كل ذلك بأمره سبحانه.

* * *

﴿ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ١٤ ﴾

أسند القول إليهم جميعًا لأنهم يدعون بدعوة واحدة، وقد انضم الثالث إلى الاثنين في دعوتهما إلى الله سبحانه.

﴿ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴾ قالوها مؤكدة بـ (إنَّ) لأن الموقف يحتاج إلى توكيد، ذلك أن أصحاب القرية كذّبوا الرسولين كما أخبر تعالى: ﴿ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ ولذا قوّاهما بثالث فاحتاج الكلام بعد التكذيب والتقوية بالثالث إلى توكيد فقال: ﴿ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴾. وهذا القول إنما هو بعد التكذيب والتعزيز، يدل على ذلك (فقالوا) بالجمع، وقوله: ﴿ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴾ بالجمع.

* * *

﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ١٥ ﴾

﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا ﴾ أي فكيف اختصكم الله بالوحي دوننا، ونحن بشر وأنتم بشر؟

وفي هذا القول تكذيب لهم وإنكار للنبوات على العموم. وقد فصل ما تضمنته هذه العبارة من تكذيب للمرسلين وإنكار للنبوات بقوله بعد: ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ ﴾ فإن هذا القول يعني إنكار النبوات، وبقوله: ﴿ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴾ وهو تكذيب لهم خاصة.

فذكر الأمر العام الذي يتضمن الأمرين، ثم ذكر كل أمر مما تضمنته العبارة.

وهذا الإنكار شأن كثير من الأمم السالفة، فإنهم أنكروا أن ينزل الله على بشر من شيء.

جاء في (تفسير ابن كثير) في قوله: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾: «أي فكيف أوحي إليكم وأنتم بشر ونحن بشر، فلم لا أوحي إلينا مثلكم؟ ولو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة.

وهذه شُبَه كثير من الأمم المكذبة كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]، أي استعجبوا من ذلك وأنكروه، وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقوله تعالى حكاية عنهم في قوله جل وعلا: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]» (١).

وقد تقول: ولِمَ لَمْ يكتف بقوله: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ وقد ذكرت أنه يتضمن معنى ما بعده؟.

والجواب: أنه ليس المقصود من قولهم هذا إثبات الرسل، فإن هذا لم ينازعهم فيه أحد، وإنما المقصود إنكار النبوات وتكذيبهم، فأوضحوا المقصود وأبانوا عن معتقدهم.

ودفعًا لحجة الرسل الذين سيحتجون عليهم بقولهم: نعم نحن بشر مثلكم ولكن الله يمنّ على من يشاء من عباده فيختصه بالرسالة، وإن كوننا بشرًا لا يمنع من أن يوحي إلينا ربنا، وما إلى ذلك من الحجج التي تبين أنه لا مانع من أن يكون البشر رسولاً، وأنه لو أرسل ربنا ملكًا لجعله رجلاً ولالتبس عليهم الأمر أيضًا، فأبانوا عن معتقدهم بقولهم: ﴿وَمَآ

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٦٧.

﴿أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾. ثم بينوا رأيهم في هؤلاء الرسل فقالوا: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾.

وهذه العبارة الأخيرة تعني تكذيب الرسل وعدم الإيمان لهم حتى لو كان الرحمن أنزل شيئًا؛ لأنهم كاذبون فيما يرون.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾

هذا القول يعني أنهم يؤمنون بالله وينكرون النبوات. وهذا شأن كثير من المجتمعات البشرية التي حكي عنها في القرآن نحو قوله: ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [فصلت: ١٤]، وقوله: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]، ومثلهم قوم سيدنا محمد ﷺ فإنهم يؤمنون بالله وينكرون النبوات. قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [العنكبوت: ٦١].

وقال: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣].

وقال: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢].

جاء في (روح المعاني): «وظاهر هذا القول يقتضي إقرارهم بالألوهية لكنهم ينكرون الرسالة ويتوسلون بالأصنام» [١].

قال الفخر الرازي: «وقوله: (الرحمن) إشارة إلى الرد عليهم؛ لأن الله لما كان رحمن الدنيا والإرسال رحمة فكيف لا ينزل رحمته وهو رحمن؟ فقال: إنهم قالوا: ما أنزل الرحمن شيئًا، وكيف لا ينزل الرحمن مع كونه رحمن شيئًا، هو الرحمة الكاملة؟» [٢].

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ٢٢١.

(٢) التفسير الكبير ٢٦/ ٥٢.

وقد تقول: ولم قال ههنا: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ﴾ فأسند الفعل إلى الرحمن، وقال في سورة الملك: ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الملك: ٩].

وفي سورة الأنعام: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١] بإسناد الفعل إلى الله؟.

فنقول: إن كل تعبير هو الأنسب في مكانه.

فأما سورة الملك فإنه يشيع فيها ذكر العذاب ومعاقبة الكفار، فقد ذكر فيها مشهدًا من مشاهد الذين كفروا في النار وسؤالهم عن النُّذُر التي جاءتهم وذلك قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥ ـ ١١].

ثم حذر عباده من عقوبته وبطشه في الدنيا وألا يأمنوا عذابه من فوقهم أو من تحت أرجلهم، وأن يعتبروا بما فعله ربنا في الأقوام الهالكة ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ۝١٦ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ۝١٧ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: ١٦ ـ ١٨].

ثم حذرهم مرة أخرى وهددهم بقوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ۝٢٠ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢٠ ـ ٢١].

وعاد مرة أخرى فذكر إنكار الكفار ليوم النشور واستبعادهم له وحذرهم من عقوبات رب العالمين في الدنيا والآخرة فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٥ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٦ فَلَمَّا رَأَوْهُ

زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ [الملك: ٢٥ ـ ٣٠].

وإزاء كل هذا التحذير والتخويف وذكر مشاهد العذاب لم يذكر بخصوص المؤمنين وجزائهم إلا آية واحدة وهي قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].

فلا يناسب إزاء كل هذا التهديد والتحذير للكافرين وما أعده الله لعذابهم في جهنم أن يقرنه باسم الرحمن.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن القائلين لهذا القول إنما هم في أطباق النيران، وأنهم ألقوا فيها فوجًا بعد فوج وقد اشتد غضب الله عليهم ولم تدركهم رحمته فلا يناسب ذكر الرحمن هنا أيضًا.

ثم إن الله جعل العذاب بمقابل الرحمة فقال: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠]، ولما كان المشهد مشهد العذاب كان ذلك في مقابل الرحمة، فلا يناسب هذا العذاب ذكر الرحمة، وبخاصة أن هؤلاء كفروا بربهم فلا ترجى لهم رحمة ولا ينالهم من اسم الرحمن نصيب.

ومن ناحية أخرى أن القائلين في سورة (يس) إنما هم في الدنيا وهم يتقلبون في نعم الله ورحمته، أما القائلون في سورة الملك فإنما هم في جهنم وقد يئسوا من رحمته سبحانه، فناسب كل تعبير موطنه.

وأما سورة الأنعام فإنها يشيع فيها التحذير والتهديد والتوعد وليس فيها مشهد من مشاهد الجنة، وإنما فيها صور غير قليلة من مشاهد النار.

كما أن السورة لم يرد فيها اسم (الرحمن) على طولها، في حين ورد

فيها اسم (الله) تعالى (٨٧) سبعًا وثمانين مرة.

فناسب كل تعبير مكانه.

﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾

لقد واجهوهم بالتكذيب صراحة بعد أن ذكروا ذلك ضمنًا بقولهم: ﴿ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ ، وقولهم: ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ ﴾

وكان النفي والإثبات بما وإلا في قوله: ﴿ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ وههنا بإنْ وإلا: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾.

ذلك أن (إنْ)أقوى في النفي من (ما) فوضع كل حرف في الموضع الذي يقتضيه، ذلك أن قولهم: ﴿ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ غير منكور وهو معلوم للجميع. أما قولهم: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ فهو موضوع النزاع، فإنه الوصف الذي يلصقه أهل القرية بهم ويدفعه المرسلون عن أنفسهم. فإن كونهم بشرًا لا يحتاج إلى إثبات أو دليل، بخلاف إثبات الكذب. وأهل القرية لم يذكروا بشريتهم إلا ليصلوا إلى تكذيبهم، فإن الغرض من قولهم: ﴿ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ ليس إثبات البشرية لهم وإنما هو إثبات الكذب عليهم، فناسب ذكر أقوى الحرفين فيما فيه قوة إنكار ويحتاج إلى إثبات.

* * *

﴿ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

بعد أن بالغ أصحاب القرية في تكذيبهم وردهم ردًّا غير جميل لم يتركهم رسل الله ولم يرحلوا عنهم، وإنما أقسموا على صدقهم واستمروا على إبلاغهم دعوة ربهم قائلين: ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ... ﴾ وفي هذا توجيه للدعاة أن لا يسأموا إذا جوبهوا بما يكرهون أو رُدّوا ردًّا غير جميل أو اتهموا

باتهامات باطلة ، بل عليهم أن يعيدوا النصح والتبليغ .

وقولهم: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ يجري عند العرب مجرى اليمين ويجاب بما يجاب به القسم ، فقولك: (علم الله) و(ربنا يعلم) وما إلى ذلك هو نوع من القسم في كلام العرب ، ولذا أجيب بما يجاب به القسم وهو الجملة الاسمية المؤكدة بإن واللام.

واختيار هذا التعبير أنسب شيء هنا ، فإنه إضافة إلى القسم الذي فيه فإنهم نسبوا العلم إلى الله فقالوا: (ربنا يعلم ذلك) فإنهم أرسلوا بأمره وبعلمه. وهو ههنا أبلغ من مجرد القسم بأن نقول (والله) أو (وربنا) فإن أصحاب القرية قالوا: إن الرحمن لم ينزل شيئًا وإنكم تكذبون فيما ادعيتم به . فرد عليهم الرسل بأن ربنا يعلم صدقنا وأننا مرسلون إليكم .

وقيل: إن من قال: (يعلم الله ذلك) وهو غير صادق فيما يقول فقد كفر ؛ لأنه نسب إلى الله الجهل ، بخلاف اليمين الكاذبة .

واختيار (الرب) مع الرسالة أنسب شيء ، فإن الرب هو المربي والهادي. والهداية هي المقصودة من الرسالة ، ولذلك كثيرًا ما يقترن الإرسال بالرب وذلك نحو قوله تعالى: ﴿لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ [طه: ١٣٤]، وقوله: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ [القصص: ٤٧]، وقوله: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ٧٩] ، وقوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف: ٤٦].

وإضافته إلى ضمير المتكلمين (ربنا) يعني أن ربهم الذي خلقهم وله كمال الصفات هو الذي أرسلهم وأيدهم بالمعجزات. ولو قالوا: (ربكم يعلم. . .) لاحتمل أن يقولوا لهم: إن ربنا لا يرسل الرسل. ثم إنهم اتخذوا أربابًا لا تسمع ولا تبصر ولا تفقه فكيف ترسل الرسل؟ .

ثم إن ذلك يعنى أن ربهم هو الذي أرسلهم إلى أهل القرية لأنه ربهم

أيضًا ، ولو لم يكن ربهم لم يعنِه أمرهم. فإضافة الرب إلى ضمير المتكلمين له أكثر من مناسبة ودلالة.

وتقديم الرب على الفعل يفيد التوكيد والتقوية.

وتقديم الجار والمجرور (إليكم) يفيد التخصيص ، أي إنا أرسلنا إليكم على وجه الخصوص لنبلغكم رسالة ربنا.

وقال ههنا: (لمرسلون) باللام ، وقال قبلها: (مرسلون) بلا لام ، وذلك زيادة في التوكيد لزيادة الإنكار. فقد أكد العبارة الأولى بإنّ بعد التكذيب ، فلما زاد التكذيب والإنكار بثلاث جمل كل منها غاية في التكذيب والإنكار زاد في التأكيد. فقد قال في المرة الأولى: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ وفي المرة الأخرى: ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾. فأكد بالقسم وهو قوله: ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ﴾ وبالجملة الاسمية وهو تقديم (ربنا) على الفعل (يعلم) وبإن واللام. فكان كل تعبير هو المناسب للمقام.

جاء في (التفسير الكبير): في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ. . .﴾ إنه «إشارة إلى أنهم بمجرد التكذيب لم يسأموا ولم يتركوا ، بل أعادوا ذلك لهم وكرروا القول عليهم وأكدوه باليمين و﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ وأكدوه باللام لأن (يعلم الله) يجري مجرى القسم. لأن من يقول: (يعلم الله) فيما لا يكون فقد نسب الله إلى الجهل وهو سبب العقاب ، كما أن الحنث سببه» [١].

وجاء في (روح المعاني): «استشهدوا بعلم الله تعالى وهو جارٍ مجرى القسم في التأكيد والجواب بما يجاب به. وذكر أن من استشهد به كاذبًا يكفر ولا كذلك القسم على كذب. وفيه تحذيرهم معارضة علم الله تعالى.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٥٢.

وفي اختيار عنوان الربوبية رمز إلى حكمة الإرسال ، كما رمز الكفرة إلى ما ينافيه بزعمهم. وإضافة (رب) إلى ضمير الرسل لا يأبى ذلك ، ويجوز أن يكون اختياره لأنه أوفق بالحال التي هم فيها من إظهار المعجز على أيديهم ، فكأنهم قالوا: ناصرنا بالمعجزات يعلم إنا إليكم لمرسلون.

وتقديم المسند إليه لتقوية الحكم أو للحصر ، أي ربنا يعلم لا أنتم لانتفاء النظر في الآيات عنكم . . .

وجاء كلام الرسل ثانيًا في غاية التأكيد لمبالغة الكفرة في الإنكار جدًّا حيث إنه أتوا بثلاث جمل وكل منها دال على شدة الإنكار كما لا يخفى على من له أدنى تأمل» [١] .

* * *

﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾

ذكروا أن مهمتهم هي البلاغ المبين حتى إن كذبوهم وأساؤا إليهم فإن هذا لا يثنيهم عن البلاغ لأن هذا أمر أنيط بهم وعليهم تنفيذه.

ومعنى (علينا) أي نحن مكلفون بذلك وهو واجبنا ، فواجب الرسل هو التبليغ. بل يلزمنا البلاغ المبين ، أي المبين للحق المظهر له ، والذي يصل إلى عموم المكلفين بحيث لا يبقى أحد لا يسمع به ولا يعلم ما هو فلا يصح أن نسرّ ذلك إلى شخص أو نبلغه إلى جماعة مخصوصة فإن ذلك لا يكون بلاغًا مبينًا. فالبلاغ المبين يتضمن أمرين:

الأمر الأول: إيضاح الرسالة وتبليغها كلها بحيث لا يبقى منها شيء غير مبلغ ولا غير معلوم.

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ٢٢٢ وانظر الكشاف ٢/ ٥٨٤.

والأمر الآخر: أن يكون التبليغ شاملاً لكل من أرسل إليهم واصلاً إلى كل فرد.

فلا يترك سبيلاً لإيصال الدعوة إلى كل من تعنيه.

وإلا لم يكن بلاغًا مبينًا.

وعلى هذا فإن عليهم أن يبلغوا كل ما أرسلوا به وألاّ يكتموا منه شيئًا وأن يوصلوه إلى جميع أصحاب القرية. وهذان الأمران لا يصدّهم عنهما صادّ ولا يدفعهم عنهما دافع لأن ذلك مما ألزموا به إلزامًا.

جاء في (التفسير الكبير): «و(المبين) يحتمل أمورًا:

أحدها: البلاغ المبين للحق عن الباطل، أي الفارق بالمعجزة والبرهان.

وثانيها: البلاغ المظهر لما أرسلنا للكل. أي لا يكفي أن نبلغ الرسالة إلى شخص أو شخصين.

وثالثها: البلاغ المظهر للحق بكل ما يمكن»[(١)].

* * *

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨﴾

تطيرنا بكم: أي تشاءمنا بكم[(٢)]، فلم نر على وجوهكم خيرًا في عيشنا[(٣)].

وقد تقول: لقد قال في سورة النمل في قوم صالح: ﴿ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٥٣.
(٢) الكشاف ٢/ ٥٨٤.
(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٦٧.

مَّعَكَۚ﴾ [النمل: ٤٧] فأبدل وأدغم، فلِمَ لَمْ يقل ههنا كما قال ثَمّ؟

والجواب أنا ذكرنا في كتابنا (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) أن (اطّيّر) ونحوه كادّبّر واطهّر أبلغ من (تطير) ونحوه، وذلك لمكان التضعيف في الفاء زيادة على تضعيف العين، فدل على أن التطير في سورة النمل أشد منه مما في هذه الآية، يدل على ذلك أنهم في هذه الآية هددوهم بالرجم والتعذيب إن لم ينتهوا. وأما في سورة النمل فقد تعاهدوا وتقاسموا بالله على قتله مع أهله: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ [النمل: ٤٩] (١) فدل على أن تطيرهم في سورة النمل أقوى وأشد.

وقد تقول: إذا كان الأمر كذلك فلم إذن أكد التطير بـ (إنّ) في سورة (يس) فقال: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ ولم يؤكده في سورة النمل، فإنه قال: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا﴾؟

والجواب: أنه لا يلزم في الكلام توكيد كل فعل فيه مبالغة وشدة دومًا، فإنه إذا ذكر المتكلم فعلاً أقوى وأبلغ من فعل، أو وصفًا أقوى من وصف لا يلزمه أن يؤكد الفعل أو الوصف الأقوى منهما، وإنما يكون ذلك بحسب الغرض. فله أن يؤكد أي واحد منهما بحسب ما يقتضيه الكلام. فله أن يقول مثلاً: (اصطبرت عليك وإني صبرت على فلان) فيذكر الاصطبار من دون توكيد ويؤكد الصبر مع أن الاصطبار أبلغ وأقوى من الصبر، لأن الغرض من العبارة أن يخبر باصطباره عليه ويؤكد صبره على الآخر.

ولك أن تقول: (إنه كاذب) فتؤكد اسم الفاعل، وتقول: (هو كذّاب) فلا تؤكد صيغة المبالغة مع أن المبالغة أقوى من اسم الفاعل. ولا يلزم من مبالغة الوصف التوكيد وإنما يكون ذلك بحسب الغرض. قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] في أكثر من موطن، فأكد كذبهم بإن واللام.

---

(١) انظر: (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) الابدال ٥٦.

وقــال: ﴿ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [ص: ٤] ، و﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ [القمر: ٢٥] ، ولم يؤكد مع أن (كذاب) صيغة مبالغة ، فأكد اسم الفاعل ولم يؤكد المبالغة.

والذي أريد أن أخلص إليه أن المبالغة في الفعل والوصف لا تقتضي التوكيد دائمًا ، وإنما ذلك بحسب الغرض والمقام. فلك أن تؤكد أي فعل أو وصف أو لا تؤكده ، ولك أن تؤكد ما هو أقل مبالغة ولا تؤكد الأقوى وبالعكس ، فكل ذلك إنما يكون بحسب ما يقتضيه الكلام.

وإيضاح ذلك أنك قد تذكر شخصًا هو موضع ثقة كبيرة عند من تخاطبه فتقول له (هو كاذب) فينكر ذلك عليك ، فتؤكد ذلك بقولك: (إنه كاذب) ثم ينكر عليك قولك إنكارًا أشد من الأول فتقول له: إنه لكاذب.

وتقول عن شخص آخر معروف بكثرة الكذب: (هو كذاب) فلا تحتاج إلى توكيد لأن مخاطبك لا ينكر ذلك عليك.

فأنت احتجت إلى أن تؤكد اسم الفاعل دون المبالغة.

ونعود إلى الآيتين ، فنقول: إن قوم صالح أخبروه بتطيرهم الشديد ، وأما أصحاب القرية فإنهم أكدوا تطيرهم ، وهو نظير قولنا: (اصطبرت عليك وإني صبرت على فلان) أو (هو مكتسب وإن زيدًا كاسب) فيؤكد الأقل دون الأقوى.

إنه في آية (يس) وهي قوله: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أكد التطير بإن ، وفي آية النمل وهي قوله: ﴿ قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ ﴾ [النمل: ٤٧] لم يؤكده ، ذلك أن كل موطن يقتضي ما ذكر فيه.

فإن أصحاب القربة أطالوا في كلامهم ولم يكتفوا بذكر التطير ، وإنما

هددوهم بالرجم والتعذيب فقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

في حين كان الكلام موجزًا في سورة النمل ، فقد ذكروا التطير ولم يهددوهم بشيء ، فناسب الإيجاز الإيجاز ، وناسب التفصيل التفصيل. ولا شك أن القول: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أطول من ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن أصحاب القرية هددوهم بالرجم والتعذيب مؤكدين بالقسم ونون التوكيد ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ ، فناسب ذلك توكيد التطير ، في حين أن قوم صالح لم يهددوهم بشيء. فناسب التوكيد في آية (يس) دون آية النمل.

وهناك أمر آخر ، وهو أن رهطاً من قوم صالح كانوا يدبرون له ولأهله أمرًا خفيًّا لا يريدون إشاعته ولا أن يعلم به غيرهم ، وهو أن يبيتوه وأهله بليل ، أي أن يغيروا عليهم ليلاً ويقتلوهم من دون أن يعلم أحد ، ثم إنهم إن سئلوا عن ذلك أجابوا أنهم لا يعلمون ذاك وقد تعاهدوا على ذلك وأقسموا عليه: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ [النمل: ٤٩] ، وهذا يقتضي عدم التهديد والتوعد المعلن ؛ لأنه سيفتضح أمرهم ، بل يقتضي عدم التوكيد في الكلام ، ولذا ذكروا أنهم متطيرون بهم ليس غير.

فاقتضى كل موطن التعبير الذي ورد فيه. هذا علاوة على تردد التوكيد بإن في قصة أصحاب القرية أكثر من مرة ﴿إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ ﴿إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ .

فى حين لم يرد مثل ذلك فى قصة صالح إلا قوله: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾

فناسب كل تعبير موطنه. وأما قوله: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥١]، وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ [النمل: ٥٢]، فهذا من التعقيب على القصة وليس فيما دار فيها من كلام.

جاء في (التفسير الكبير): «لما ظهر من الرسل المبالغة في البلاغ ظهر منهم الغلو في التكذيب. فلما قال المرسلون: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ قالوا: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ ولما أكد الرسل قولهم باليمين حيث قالوا: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ أكدوا قولهم بالتطير بهم»[1].

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾

بعد أن ذكروا تطيرهم بهم هددوهم بالرجم إن لم يكفوا عن دعوتهم وقد أكدوا ذلك بالقسم وبنون التوكيد. ويدل على القسم اللام الداخلة على (إنْ) وهي اللام الموطئة للقسم أي الدالة عليه، وأكدوا تهديدهم بنون التوكيد الثقيلة الداخلة على الفعل (لنرجمنكم). فكما أكدوا تطيرهم بـ (إنّ) أكدوا تهديدهم بالقسم ونون التوكيد.

وقد تقول: لقد قال في مكان آخر: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]، وقال في سورة مريم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦]، فلم لم يجعل التعبيرات على نمط واحد؟

والجواب: أنه لا يصح جعلها على نمط واحد؛ لأن المعنى مختلف والمقام مختلف. ذلك أن قولك: (لأرجمنك) يعني لأوقعن عليك الرجم ولا يعني أن هناك آخرين مرجومين معه أو نالهم الرجم.

وقولك: (هو من المرجومين) يعني أنه واحد ممن نالهم الرجم.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/٥٣.

فلا يصح في سورة (يس) أن يقال: (لئن لم تنتهوا لتكونُنّ من المرجومين) لأنه ليس هناك أشخاص آخرون غير هؤلاء نالهم الرجم فيكونون منهم.

وكذلك في آية مريم فإنه قال: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، ولم يقل: (لتكونن من المرجومين) لأنه ليس هناك آخرون معه نالهم الرجم أو سينالهم، فإن هذا الكلام موجه من أبي إبراهيم لولده إبراهيم عليه السلام وحده.

أما ما في سورة الشعراء فإنه تهديد لنوح ولمن معه: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾، أي لئن لم تنته لتكونن من الذين ينالهم الرجم. ولو قال: (لنرجمنك) لكان الرجم مختصًّا بنوح دون من آمن معه.

فإن قيل: ولِمَ لَمْ يقل: (لئن لم تنتهوا لنرجمنكم) كما قال في سورة (يس)؟

والجواب: أن الرسل في سورة يس ثلاثة كلهم بمنزلة واحدة داعون إلى الله مبلغون لرسالته، ولذلك جاء الكلام على أنفسهم بصيغة الجمع ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ . . . قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾، وكان التطير بهم جميعًا ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ فكان الخطاب لهم جميعًا.

وأما نوح فهو رسول واحد يبلغ عن ربه، أما البقية فهم أتباع، وهو صاحب الدعوة والمبلغ، فخوطب وطلب منه الكف فقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾، أي: لنرجمنك ومن معك. فهذا تهديد له ولأتباعه.

وهذا القول نظير ما قاله قوم لوط للوط: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧]، أي لنخرجنك ومن معك، بدليل قوله

تعالى على لسان قومه: ﴿ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٨٢] ، وقوله: ﴿ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل: ٥٦] ، فلما واجهوا لوطًا قالوا له: لتكونن من المخرجين ، أي لتكونن واحدًا منهم. وهو تهديد له ولأتباعه أيضًا.

فكان كل تعبير هو المناسب في مكانه.

﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

هددوهم بالعذاب الأليم إضافة إلى الرجم ، فإنهم لم يقولوا: (أو ليمسنكم منا عذاب أليم) فيهددوهم بأحد الشيئين ، بل جاؤوا بالواو التي تفيد الجمع ، ثم أعادوا اللام الواقعة في جواب القسم (ليمسنكم) للدلالة على أن التهديد بالعذاب مؤكد كالمعطوف عليه ، لأنه أحيانًا يكتفى باللام الداخلة على الفعل الأول ، أما الفعل الثاني فيكتفى فيه بنون التوكيد فيكون الثاني أقل توكيدًا ، وذلك كقوله تعالى: ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ [الحشر: ١١] ، فإنه أدخل اللام الموطئة في قوله: ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ ﴾ ولم يدخلها على المعطوف ، وإنما اكتفى بتوكيد الفعل فقال: ﴿ وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ فكان الثاني أقل توكيدًا من الأول ، ذلك أنهم أكدوا الفعل الأول لأنه أيسر عليهم ، ولم يؤكدوا الثاني لأنه أصعب عليهم وأشق.

وكان هناك خيار آخر وهو أن يخفف النون في الفعل المعطوف نظير قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [يوسف: ٣٢] فيكون ما دخلت عليه النون الثقيلة آكد مما دخلت عليه النون الخفيفة ، ولكنه لم يفعل هذا ولا ذاك ، بل أعاد اللام وأتى بالنون الثقيلة للدلالة على أنهما بمنزلة واحدة في التوكيد وأنهم سيفعلونهما جميعًا.

ثم قالوا: (منا) للدلالة على الجهة التي ستقوم بالعذاب. فالجهة التي

ستقوم بالرجم والعذاب واحدة ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا﴾ فإنه لم يقل: (وليمسنكم عذاب أليم) فيبهم الجهة ، إذ لعله لو قالوا ذاك لفهم منه أنهم يقصدون أن آلهتم هي التي ستمسهم بالعذاب.

وقدم الجار والمجرور (منا) على العذاب لأكثر من سبب ، ذلك أن الكلام عليهم وهم مدار الإسناد (قالوا إنّا تطيرنا ، لنرجمنكم ، وليمسنكم منّا) فناسب تقديم ضميرهم ، فإنهم هم المتطيرون وهم الراجمون وهم المعذبون.

ثم إن تقديم الجار والمجرور يفيد تعلقه بالفعل (ليمسنكم) أي (ليمسنكم منا) أي نحن الذين نعذبكم ونتولى أمر ذلك بأنفسنا ولا ندع ذلك لغيرنا ممن قد يرقّ لحالكم أو يخفف عنكم. ولو قال: (ليمسنكم عذاب أليم منا) لاحتمل أن يكون (منا) صفة لـ (عذاب) وعلى هذا الاحتمال يكون العذاب صادرًا منهم أمره ، أما الذي يقوم بالتعذيب فهو غيرهم. وهذا يكون نظير قولنا:

(استعرت لمحمد كتابًا) و(استعرت كتابًا لمحمد) فإن الجملة الأولى يكون تعلق الجار والمجرور فيها بـ (استعرت) فتكون الاستعارة لمحمد ، أي (استعرت لمحمد) (كتابًا).

أما الجملة الثانية فتحتمل هذا المعنى وتحتمل معنى آخر وهو: استعرت كتابًا عائدًا لمحمد ، أي أن الكتاب هو كتاب محمد وأنت استعرته ، فيكون المعنى على النحو الآتي (استعرت) (كتابًا لمحمد).

فكان تقديم الجار والمجرور هو الأنسب.

* * *

﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

(طائركم) أي ما طار لكم من الخير والشر أو حظكم ونصيبكم منهما

معكم وهو إنما يكون من أفعالكم إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر(١).

وفسر الطائر بالشؤم: «أي شؤمكم معكم وهو الإقامة على الكفر، وأما نحن فلا شؤم معنا لأنا ندعو إلى التوحيد وعبادة الله تعالى وفيه غاية اليمن والخير والبركة» (٢).

﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ أي أإن ذكرتم بما هو خير لكم في الدنيا والآخرة تطيرتم أو تتوعدونا بالرجم والتعذيب؟ وحذف جواب الشرط لإطلاقه وعدم تقييده بشيء معين.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي مجاوزون للحد في المعاصي أو في التطير أو في العدوان. وأطلق الإسراف ولم يقيده بشيء ليشمل كل إسراف في سوء.

* * *

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾

في هذا الوقت المتأزم والظرف العصيب الذي كثر فيه التهديد والتوعد واشتد فيه الإرهاب جاء من أقصى المدينة رجل يسعى ليعلن اتّباعه للرسل وإيمانه بهم ويبين ضلال قومه غير مبال بما سيحدث له.

وفي التعبير دلالات مهمة في هذا الخصوص.

١ ـ فقد ذكر أنه جاء من أقصى المدينة، أي من أبعد مكان فيها لا يثنيه شيء، حاملاً همّ الدعوة.

٢ ـ قال: ﴿مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ ولم يقل (من أقصى القرية) وقد سماها قرية باديء ذي بدء فقال: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ ذلك للدلالة على

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ٢٢٤، فتح القدير ٤/ ٣٥٣.

(٢) روح المعاني ٢٢/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

أنها واسعة ، فالقرية إذا كانت متسعة تسمى مدينة أيضًا . فأفاد أن هذه القرية كبيرة متسعة ولذا أطلق عليها مدينة ، وذلك يفيد أنه جاء من مكان بعيد وذلك يدل على اهتمامه الكبير بمعتقده الجديد .

٣ ـ قال : (يسعى) أي يعدو ويسرع في مشيه وليس متباطئاً يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، وهو توجيه للدعاة بعدم التواني في أمر الله .

٤ ـ لم يسكت عن الحق ولم يجامل أو يهادن بل دعا قومه إلى الإيمان بما جاءت به الرسل وأتباعهم وأعلن عن إيمانه هو .

٥ ـ إن مجيئه من أقصى المدينة يدل على وصول البلاغ إلى أبعد مكان فيها ، مما يدل على جديتهم في التبليغ وتوسعهم فيه ، وهو تصديق لقولهم : ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ .

وقال هنا : ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ فقدم ﴿ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾ على (رجل) ، وقال في سورة القصص ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [القصص : ٢٠] ، بتقديم (رجل) على ﴿ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾ .

ذلك أن القصد في آية (يس) أن يبين أن مجيء الرجل كان من أبعد مواضعها . وأما في القصص فإنه يفيد أن الرجل من أقصى المدينة ، أي هو من أهل المواضع البعيدة غير أنه لا يلزم أن يكون مجيئه من أقصى المدينة . وهو كما تقول : (جاءني من القرية رجال) أي جاؤوك من القرية ، وتقول : (جاءني رجال من القرية) فالرجال هم من أهل القرية لكن لا يقتضي أن مجيئهم إليك كان من القرية بل قد يكونون في المدينة ثم جاؤوك . وقد يكون المجيء من القرية . فقولك : (جاءني رجال من القرية) يحتمل معنيين ، بخلاف قولك : (جاءني من القرية رجال) .

وعلى أية حال فإن قوله : ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ يفيد أنه

جاء من أبعد مكان من المدينة.

وقوله: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾ يحتمل ذلك ويحتمل أنه من أهل الأماكن البعيدة وإن لم يكن مجيئه من هناك.

وفي تقديم (من أقصى المدينة) في سورة (يس) فائدة أخرى حتى لو كان مجيئهما كليهما من أقصى المدينة. فإن قوله: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾ يدل على أن الاهتمام أكبر لأكثر من سبب:

١ ـ ذلك أن مجيء الرجل من أقصى المدينة إنما كان لغرض تبليغ الدعوة. في حين أن مجيء الرجل إلى موسى كان لغرض تحذيره. والأمر الأول أهم.

٢ ـ ثم إن مجيء الرجل من أقصى القرية إنما كان لإشهار إيمانه أمام الملأ ونصح قومه. في حين أنه كان مجيء الرجل إلى موسى ليسرّ إليه كلمة في أذنه، فمجيء رجل (يس) إنما كان للإعلان والإشهار، ومجيء رجل موسى إنما كان للإسرار. وفرق بين الأمرين.

٣ ـ إن مجيء رجل (يس) فيه مجازفة ومخاطرة بحياته، وليس في مجيء رجل موسى شيء من ذلك، وإنما هو إسرار لشخص بأمرٍ ما ليحذر.

٤ ـ إن المجتمع في القرية كله ضد على الرسل وعقيدتهم مكذب لهم متطير بهم، فإعلان الرجل أنه مؤمن بما جاء به الرسل مصدق لهم فيه ما فيه من التحدي لهم. بخلاف مجتمع سيدنا موسى عليه السلام فإنه ليس فيه فكر معارض أو مؤيد وليست هناك دعوة أصلاً.

٥ ـ إن نصر رسل الله وأوليائه ودعاته أولى من كل شيء، فإن تعزيزهم تعزيز لدعوة الله. وأما موسى عليه السلام فإنه كان رجلاً من المجتمع ليس صاحب دعوة آنذاك ولم يكلفه الله بعد حمل الرسالة.

فتقديم (من أقصى المدينة) دل على أن الموقف أهم وأخطر. ومع

ذلك أفادنا أن تحذير شخص من ظالم أمر مهم ينبغي أن يسعى إليه ولو من مكان بعيد.

فإن كلاً من الموقفين مهم، غير أن أحدهما أهم من الآخر، فقدم ما قدم ليدل على الاهتمام.

جاء في (التفسير الكبير): في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ «وفي فائدته وتعلقه بما قبله وجهان:

أحدهما: أنه بيان لكونهم أتوا بالبلاغ المبين حيث آمن بهم الرجل الساعي.

وعلى هذا فقوله: ﴿مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ فيه بلاغة باهرة؛ وذلك لأنه لما جاء من (أقصى المدينة رجل) وهو قد آمن دل على أن إنذارهم وإظهارهم بلغ إلى أقصى المدينة...

وفي التفسير مسائل:

(المسألة الأولى): قوله: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ﴾ في تنكير الرجل مع أنه كان معروفًا معلومًا عند الله فائدتان:

(الأولى): أن يكون تعظيمًا لشأنه، أي رجل كامل في الرجولية.

(الثانية): أن يكون مفيدًا لظهور الحق من جانب المرسلين، حيث آمن رجل من الرجال لا معرفة لهم به فلا يقال إنهم تواطؤا.

(المسألة الثانية): قوله: (يسعى) تبصرة للمؤمنين وهداية لهم ليكونوا في النصح باذلين جهدهم. وقد ذكرنا فائدة قوله: (من أقصى المدينة) وهي تبليغهم الرسالة بحيث انتهى إلى من في أقصى المدينة» [١].

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٥٤.

وجاء في (روح المعاني): «﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾ أي من أبعد مواضعها (رجل) أي رجل عند الله تعالى فتنوينه للتعظيم. وجوز أن يكون للتنكير لإفادة أن المرسلين لا يعرفونه ليتواطؤا معه. . .

(يسعى) أي يعدو ويسرع في مشيه حرصًا على نصح قومه. وقيل: إنه سمع أن قومه عزموا على قتل الرسل فقصد وجه الله تعالى بالذب عنهم. . .

وجاء ﴿مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾ هنا مقدمًا على (رجل) عكس ما جاء في القصص.

وجعله أبو حيان من التفنن في البلاغة.

وقال الخفاجي: قدم الجار والمجرور على الفاعل الذي حقه التقديم بيانًا لفضله، إذ هداه الله تعالى مع بعده عنهم، وأن بعده لم يمنعه عن ذلك. ولذا عبر بالمدينة هنا بعد التعبير بالقرية إشارة إلى السعة وأن الله تعالى يهدي من يشاء سواء قرب أو بعد.

وقيل: قدم للاهتمام حيث تضمن الإشارة إلى أن إنذارهم قد بلغ أقصى المدينة فيشعر بأنهم أتوا بالبلاغ المبين.

وقيل: إنه لو تأخر توهم تعلقه بيسعى فلم يفد أنه من أهل المدينة، مسكنه في طرفها وهو المقصود»[١].

* * *

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾

قال لهم: (يا قوم) ليعطف قلوبهم. وذكر لهم ثلاثة أمور تدعوهم إلى اتباع هؤلاء الدعاة:

---

(١) روح المعانى ٢٢/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

١ ـ كونهم مرسلين من الله ، وهذا أهم ما يستوجب اتباعهم ، فكونهم مرسلين من ربهم يدعو إلى اتباعهم لأنهم لا يدعون إلى أنفسهم ولا إلى معتقدات شخصية ولا إلى آراء خاصة ولا إلى أفكار بشرية وإنما يدعونهم إلى ما أراده ربهم وخالقهم.

٢ ـ وأنهم لا يسألون أجرًا على هذا التبليغ ولا يبتغون مصلحة خاصة كما هو شأن كثير من أصحاب الدعوات الأرضية ، مما يدل على أنهم مخلصون في دعوتهم لهم.

٣ ـ أنهم مهتدون ، وهذا يقتضي الاتباع ، وهو بغية كل متبع مخلص.

جاء في (الكشاف): «﴿مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ كلمة جامعة في الترغيب فيهم ، أي لا تخسرون معهم شيئًا من دنياكم وتربحون صحة دينكم فينتظم لكم خير الدنيا وخير الآخرة»[١].

وقد كرر الاتباع بقوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ لأكثر من غرض. فالتكرار يفيد التوكيد ويفيد أمرًا آخر وهو: أن المرسلين ينبغي أن يتبعوا أصلاً ، فإذا ثبت أن شخصًا ما مرسل من ربه كان ذلك داعيًا إلى أن يتبع قطعًا ، وهذه دلالة قوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

أما اتباع غير المرسلين فيكون لمن فيه صفتان:

١ ـ أن يكون مهتديًا.

٢ ـ أن لا يسأل أجرًا ولا يطلب منفعة ذاتية.

وهذ توجيه لعموم المكلفين ، ولو قال: (اتبعوا المرسلين. من لا يسألكم أجرًا وهم مهتدون) لكان ذلك خاصًا باتباع الرسل ولا يشير

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨٢.



إلى اتباع غيرهم من المصلحين والداعين إلى دعوتهم. فتكرار (اتبعوا) أفاد الاتباع للرسل في حالة وجودهم. والاتباع الثاني لمن يحمل هاتين الصفتين.

جاء في (روح المعاني): «تكرير للتأكيد وللتوسل به إلى وصفهم بما يتضمن نفي المانع عن اتباعهم بعد الإشارة إلى تحقق المقتضي»[1].

واختار (من) على (الذين) لكونها أعم، فإنها تشمل كل داع إلى الله، واحدًا كان أو أكثر.

* * *

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢﴾

بعد أن نصح لهم باتباع المرسلين لأنهم على الهدى، ذكر أنه بدأ بنفسه فآمن بدعوتهم واتبعهم فقال: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

لقد اختار من الدواعي الموجبة لعبادة ربه أنه هو المبدئ والمعيد، فهو الذي فطرهم وأوجدهم، وأنهم إليه يرجعون، فلا يتركهم بعد موتهم بل سيحشرهم إليه ويحاسبهم على ما قدموا، فإما أن يعاقبهم أو يكرمهم، وفي هذا تخويف وإطماع.

لقد اختار هذين الأمرين من موجبات العبادة وهما البدء والإعادة لعلمهم جميعًا أن آلهتهم لا تفعلهما ولا تستطيعهما، وبهذا سقط كل موجب لعبادة غيره وثبت كل موجب لعبادته.

وقد قدم الجار والمجرور (إليه) على (ترجعون) لقصد الاختصاص، والمعنى أن الرجوع إليه حصرًا لا إلى غيره، وهو نظير قوله تعالى:

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ٢٢٦.

﴿ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ و﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ و﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾.

لقد ذكر الموجب لأن يعبده هو وأن يعبدوه هم ، فإنه قال: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ وهذا داعٍ لأن يعبده هو فكيف لا يعبد الذي فطره؟

وفيه دعوة لهم أيضًا ليعبدوه لأن الذي فطره فطرهم أيضًا.

وقال: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وهذا داعٍ لأن يعبدوه هم فإنهم راجعون إليه فيحاسبهم.

وهو مثلهم راجع إليه أيضًا لأنه فطره.

فقوله: ﴿ ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ يقتضي أنه فطرهم أيضًا.

وقوله: ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يقتضي أنه يرجع إليه أيضًا.

وبذلك أشار بأوجز تعبير إلى أنه فطره وفطرهم وأنه إليه يرجع وأنهم إليه يرجعون. فما له لا يعبده وما لهم لا يعبدونه؟ وهذا تعبير موجز عن القول: (ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه أرجع ، وما لكم لا تعبدون الذي فطركم وإليه ترجعون).

جاء في (الكشاف): «أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه ، وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريهم ، ولأنه أدخل في إمحاض النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لروحه.

ولقد وضع قوله: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ مكان قوله: (وما لكم لا تعبدون الذي فطركم) ، ألا ترى إلى قومه: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ، ولولا أنه قصد ذلك لقال: الذي فطرني وإليه أرجع. وقد ساقه ذلك المساق إلى أن قال: ﴿ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾ يريد فاسمعوا قولي وأطيعوني فقد نبهتكم على الصحيح الذي لا معدل عنه أن العبادة لا تصح إلا

لمن منه مبتدؤكم وإليه مرجعكم»[(١)].

وجاء في (التفسير الكبير): «اختار من الآيات فطرة نفسه لأنه لما قال: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ﴾ بإسناد العبادة إلى نفسه اختار ما هو أقرب إلى إيجاب العبادة على نفسه. . .

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ إشارة إلى الخوف والرجاء كما قال: (ادعوه خوفًا وطعمًا) وذلك لأن من يكون إليه المرجع يخاف منه ويرجى»[(٢)].

وجاء في (روح المعاني): «تلطف في إرشاد قومه بإيراده في معرض المناصحة لنفسه وإمحاض النصح حيث أراهم أنه اختار لهم ما يختار لنفسه، والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره، كما ينبئ عنه قوله: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ مبالغة في تهديدهم بتخويفهم بالرجوع إلى شديد العقاب مواجهة وصريحًا. ولو قال: (وإليه أرجع) كان فيه تهديد بطريق التعريض»[(٣)].

* * *

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣﴾

بعد أن ذكر من يستحق العبادة وسبب استحقاقه لها أفاد أنه ينبغي أن يوحّده وأنه لا ينبغي له أن يتخذ إلهًا من دونه ولا معه أو يتخذ ذاتًا وسيلة لتقربه إليه.

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨٥ وانظر البحر المحيط ٧/ ٣٢٨.

(٢) التفسير الكبير ٢٦/ ٥٦.

(٣) روح المعاني ٢٢/ ٢٢٦.

أما إنه لا ينبغي له أن يتخذ إلهًا من دونه فذلك قوله: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ ولا أن يتخذ إلهًا معه لأن ما يتخذونهم معه لا يملكون ضرًّا ولا نفعًا. فإذا أراده الرحمن بضر لا يملكون له شيئًا فهم إذن دونه فلا يصح أن يتخذوا معه آلهة.

ولا أن يتخذوا ذاتًا لتقربه إليه؛ لأنه ذكر أنه لا تغني شفاعتهم شيئًا فلا يصح على ذلك أن يتخذوا ذاتًا لتقربه إليه.

وبهذا يكون دعاهم إلى التوحيد الخالص من دون شركاء أو شفعاء أو وسطاء.

وهو وإن أنكر على نفسه أن يتخذ آلهة من دون الله يقصد بذلك عموم من يصل إليه الخطاب من الناس، فلا ينبغي أن يتخذ أحد إلهًا من دونه. وما ذكره بحق نفسه لا يخصه وحده وإنما يعم جميع المكلفين، فإنه قال: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾ وهو لم يفطره وحده بل فطر المخلوقات جميعًا.

وقال: ﴿ إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ ﴾ وهذا الأمر لا يخصه وحده بل إن أراد الله غيره بذلك فالأمر كذلك.

لقد أخرج هذا الكلام مخرج الاستفهام الإنكاري وليس مخرج الخبر. فإنه بعد أن ذكر ما ذكر قال: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ أي أيصح ذلك عقلاً؟ أيجوز اتخاذ غيره إلهًا؟.

ولا شك أن كل عاقل سيجيب قائلاً: لا، إنه لا يصح أن تتخذ إلهًا من دونه.

وهذا لا شك أقوى من الكلام التقريري الخبري الذي يقول: أنا لا أتخذ من دونه آلهة، وذلك لأنه كأنه قرار انفرادي رآه هو. في حين أن

قوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ يستدعي إشراك الآخرين في الجواب واتخاذ القرار.

جاء في (التفسير الكبير): «ثم قال تعالى: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ ليتم التوحيد... فقال: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ﴾ إشارة إلى وجود الإله، وقال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ﴾ إشارة إلى نفي غيره فيتحقق معنى لا إله إلا الله. وفي الآية أيضًا لطائف:

(الأولى): ذكره على طريق الاستفهام فيه معنى وضوح الأمر. وذلك أن من أخبر عن شيء فقال مثلاً: (لا أتخذ) يصح من السامع أن يقول له: لم لا تتخذ؟ فيسأله عن السبب.

فإذا قال: (أأتخذ) يكون كلامه أنه مستغن عن بيان السبب الذي يطالب به عند الإخبار، كأنه يقول: اسْتشرتك فدلني والمستشار يتفكر. فكأنه يقول: تفكر في الأمر تفهم من غير إخبار مني.

(الثانية): قوله: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ وهي لطيفة عجيبة، وبيانها هو أنه لما بين أنه يعبد الله بقوله: ﴿ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ بين أن من دونه لا تجوز عبادته...

(الثالثة): قوله (أأتخذ) إشارة إلى أن غيره ليس بإله لأن المتخذ لا يكون إله[1] (كذا)، ولهذا قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣]، وقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١]؛ لأنه تعالى لا يكون له ولد حقيقة ولا يجوز... ولا يقال: قال الله تعالى: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩] في حق الله تعالى حيث قال: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلًا﴾، نقول ذلك أمر متجدد»[2].

(١) كذا في المبطوع، والصواب: إلهاً.

(٢) التفسير الكبير ٢٦/ ٥٧.

ونريد أن نذكر أمرًا بخصوص قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾. فإن الذي يبدو من الاستعمال في اللغة أنه إذ كان الشيء موجودًا أصلاً من غير انفكاك ولا اختيار فلا يقال: (اتخذته)، فلا يقال مثلاً: (اتخذت فلانًا أبًا) إذا كان أباه حقيقة. ولا يقال: (اتخذته أخًا) إذا كان أخاه حقيقة. وإنما يقال ذلك لما يصح فيه التخلي والترك والاختيار، كأن تقول: (اتخذت فلانًا صديقًا لي) لأنك مختار في اختيار الأصدقاء. وتقول: (اتخذته أخًا وصاحبًا) فيما أنت مختار فيه. ولا يصح أن تقول: (اتخذت فلانًا خالقًا)، أو اتخذت الكوكب خالقًا، ولا اتخذت الله خالقًا؛ لأنه هو الخالق وليس متخذًا، لكنك قد تقول: (اتخذته معبودًا) لأنك مختار في اتخاذ ما تعبد.

ونحوه قوله: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ فإن لك أن تختار الوكلاء وأن تتخذ من تشاء فاتخذ الله وكيلاً تفلح.

وقد تقول: إن الله وكيل على كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، و[الزمر: ٦٢].

فنقول: هذه وكالة قسرية وليست وكالة الاختيار والطاعة. ونظير ذلك العبودية، فإن العبودية لله قد تكون قسرية، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٣]، وقوله: ﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [الفرقان: ١٧]، وهذه العبودية ليست من الطاعة ولا يتعلق بها ثواب.

وقد تكون عبودية اختيارية وذلك بأن يختار المرء أن يكون عبدًا لله مطيعًا له، وهذه هي التي يتعلق بها الثواب، كما قال تعالى: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ﴾ [النساء: ١٧٢]،

وقال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦].

ونحوه الألوهية والربوبية، فالله سبحانه هو إله الخلق كلهم وربهم شاؤوا أم أبوا؛ قال تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وقال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقال ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥].

وهذه الربوبية والألوهية قسرية شاء الخلق أم أبوا ولا يترتب عليها ثواب. وإنما يترتب الثواب والعقاب علي من اتخذه إلهًا وربًّا أو اتخذ غيره كما قال تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ [الأنعام: ٧٤]، ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣]، ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١].

فالاتخاذ أمر اختياري يفعله المتخذ وهو غير الأمر الكائن أصلاً من غير اتخاذ وذلك نحو (هذا ولدي)، و(هذا اتخذته ولدًا لي)، والله أعلم.

* * *

﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾

استعمل الفعل المضارع فعلاً للشرط فقال: ﴿إِن يُرِدْنِ﴾، واستعمل الماضي في مكان آخر فقال: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ [الزمر: ٣٨].

وعند النحاة أن الماضي في الشرط يفيد الاستقبال، جاء في (التفسير الكبير): «قال ههنا: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾، وقال في الزمر: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ﴾ فما الحكمة في اختيار صيغة الماضي هنالك واختيار صيغة المضارع هنا، وذكر المريد باسم الرحمن هنا وذكر المريد باسم الله هناك؟.

نقول: أما الماضي والمستقبل فإن (إنْ) في الشرط تُصيِّر الماضي مستقبلاً، وذلك لأن المذكور ههنا من قبل بصيغة الاستقبال في قوله: (أأتخذ)، وقوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ﴾، والمذكور هناك من قبل بصيغة الماضي في قوله: (أفرأيتم)، وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾ لكون المتقدم عليه مذكورًا بصيغة المستقبل وهو قوله: ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ﴾، وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ﴾ والحكمة فيه هو أن الكفار كانوا يخوفون النبي ﷺ بضر يصيبه من آلهتهم، فكأنه قال: صدر منكم التخويف وهذا ما سبق منكم. وههنا ابتداء كلام صدر من المؤمن للتقرير، والجواب ما كان يمكن صدوره منهم فافترق الأمران»[(١)].

والذي يترجح عندنا أن الفعل المضارع مع الشرط كثيرًا ما يفيد افتراض تكرر الحدث، بخلاف الفعل الماضي فإنه كثيرًا ما يفيد افتراض وقوع الحدث مرة[(٢)]، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣]، وقال: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾ [النساء: ٩٢]، فجاء مع القتل العمد بالفعل المضارع لأنه يفترض فيه تكرر الحدث، إذ كلما سنحت للقاتل فرصة قتل مؤمنًا، بخلاف قتل الخطأ فإنه لا يفترض تكرره.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ﴾ [المائدة: ١٧]، فجاء بفعل الإرادة ماضيًا ﴿إِنۡ أَرَادَ﴾ لأن هذه الإرادة تكون مرة واحدة ولا تتكرر، فإنه إذا أهلكه فقد انتهى الأمر.

ونحوه قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/٥٩.

(٢) [illegible]

عَلَيْهِمَاۗ﴾ [البقرة: ٢٣٣] ، فإن هذا لا يتكرر ، فإذا انفصلا فقد انتهى الأمر.

ونحوه قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦] ، وقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ [الأحزاب: ٥٠] ، وهذه الإرادة لا تتكرر وإنما تكون مرة واحدة.

في حين قال: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَاۚ﴾ [آل عمران: ١٤٥] ، فجاء بفعل الإرادة مضارعًا لأن إرادة الثواب تتكرر.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأنفال: ٦٢] فإن إرادة الخديعة تتكرر.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ﴾ [الأنفال: ٧١] فإن إرادة الكفار خيانة الرسول قد تتكرر فجاء بالفعل مضارعًا.

فنقول: إن استعمال الفعل المضارع في سورة (يس) في قوله تعالى: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ إشارة إلى أنه كان يتوقع تكرر وقوع الضرر عليه من قومه ، وأنهم لا يكفون عن إلحاقه به ما دام بينهم.

وقد تقول: ولم قال ههنا: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ فأسند الإرادة إلى الرحمن ، وقال في الزمر: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ [الزمر: ٣٨] فأسند الإرادة إلى الله؟.

فنقول: إن القائل في سورة (يس) يتوقع وقوع الضرر عليه وتطاوله كما ذكرنا ، فذكر اسم الرحمن كأنه يلوذ به ويعتصم ، وهو بمثابة سؤاله الرحمة ، بخلاف ما في الزمر فإنه ليس الأمر كذلك ولا يتوقع نحو هذا.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه حسن ذكر اسم (الرحمن) مع

الشفاعة في سورة (يس) فقال: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ لأن الشفيع إنما يستدر رحمة من يشفع عنده، والمتصف بالرحمة قد يقبل شفاعة من ليس له جاه كبير عنده، أما هؤلاء الآلهة فلا تنفع شفاعتهم حتى مع الرحمن، إذ ليس لهم جاه البتة. وهذا أبلغ في إسقاط وجاهة هؤلاء.

ثم من ناحية ثالثة أنه ورد اسم (الرحمن) في سورة (يس) أربع مرات، ولم يرد في سورة الزمر ولا مرة واحدة. وورد اسم (الله) في سورة الزمر تسعًا وخمسين مرة، وورد في سورة (يس) ثلاث مرات فقط، فناسب ذلك ذكر اسم (الله) في الزمر، و(الرحمن) في (يس).

وقد علل الفخر الرازي ذكر اسم (الرحمن) في (يس) واسم (الله) في الزمر بقوله: «وأما قوله هناك: ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ﴾ فنقول: قد ذكرنا أن الاسمين المختصين بواجب الوجود الله والرحمن؛ كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠]، والله للهيبة والعظمة، والرحمن للرأفة والرحمة. وهناك وصف الله بالعزة والانتقام في قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ [الزمر: ٣٧]، وذكر ما يدل على العظمة بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [العنكبوت: ٦١] فذكر الاسم الدال على العظمة. وقال ههنا ما يدل على الرحمة بقوله: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ فإنه نعمة هي شرط سائر النعم فقال: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾»[1].

وقد تقول: لقد قال في سورة (يس): ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾.

وقال في الزمر: ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٥٩.

بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٨].

فذكر الضُّرَّ في (يس) ولم يذكر الرحمة، إذ لم يقل: (وإن يردني برحمة لا يمسكوا رحمته) في حين ذكر في الزمر الضر والرحمة، فقال: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ . . . أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ فما سبب ذاك؟

والجواب ـ والله أعلم ـ أن ذلك لأكثر من سبب:

منها: أن صاحب (يس) كان يتوقع الضر من أهل قريته ولم يكن يتوقع منهم شيئًا من لين أو رحمة، بل ربما كان يتوقع القتل لأن الجو كان متأزمًا، كله تهديد ووعيد.

وقد انتهى الأمر بقتله، فلا يناسب ذكر الرحمة.

ومن ذلك أن ذكر اسم (الرحمن) أغنى ههنا عن ذكر (وإن يردني برحمة) فإن الرحمن يريد الرحمة، وهو لا يريدها فقط وإنما يحققها؛ وإلا فليس برحمن، فاكتفى بذكر صفته عن أن يقول: (وإن يردني برحمة) بخلاف ما في الزمر، فإنه ذكر اسم (الله) ولم يذكر له وصفًا، فناسب ذلك أن يذكر الضر والرحمة تصريحًا.

وعلى هذا فقد ذكر الأمران في (يس) على نحو آخر يناسب المقام، والله أعلم.

وقد تقول: لقد قال في (يس): ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ فاستعمل ضمير الذكور العقلاء في (شفاعتهم) وفي (ينقذون).

وقال في سورة الزمر: ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ و﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ بضمير الإناث، فما الفرق؟.

والجواب: أن ضمير الإناث يستعمل للإناث ويستعمل لجمع غير العاقل مذكرًا كان أو مؤنثًا، فنقول: (الجبال هن شاهقات) والجبال جمع

جبل وهو مذكر غير عاقل ، غير أننا نستعمل له ضمير الإناث. قال تعالى : ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ ﴾ [البقرة : ١٩٧].

فقال في الأشهر : (فيهن) والأشهر جمع شهر ، والشهر مذكر غير عاقل ، فاستعمل لها ضمير الإناث.

فضمير الإناث يستعمل للإناث ولجمع غير العاقل مطلقًا.

وكذلك جمع المؤنث السالم ، فإنه يستعمل جمعًا للمؤنث بشروطه ، ويستعمل أيضًا لجمع المذكر غير العاقل اسمًا أو وصفًا نحو (جبال شاهقات) ، و(شاهقات) وصف لمذكر غير عاقل ، و(أنهار جاريات) ، و(جاريات) وصف لأنهار مفردها (نهر) وهو مذكر غير عاقل.

والاسم المذكر غير العاقل قد يجمع جمع مؤنث سالمًا إذا لم يسمع له جمع تكسير نحو حمّامات جمع حمام ، واصطبلات جمع اصطبل.

وأما ضمير جماعة الذكور نحو (هم) و(الواو) في نحو (يمشون) فهو خاص بجماعة الذكور العقلاء أو ما نزل منزلتهم.

وبعد بيان هذا الأمر نعود إلى الآيتين :

قال تعالى في الزمر : ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر : ٣٨].

ومن النظر في هذه الآية يتضح ما يأتي :

١ ـ قال : ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ فجعل آلهتهم لا تعقل وذلك أنه استعمل لها (ما) فقال : (ما تدعون) ، و(ما) تستعمل في العربية لذات ما لا يعقل.

٢ ـ جاء بضمير الإناث (هن) فقال : ﴿ هَلْ هُنَّ ﴾ وهذا الضمير إما

أن يكون للإناث أو يستعمل لجمع غير العاقل مذكرًا أو مؤنثًا كما ذكرت فجعلهم غير عقلاء، وهو متناسب مع (ما) التي هي لغير العاقل.

٣ ـ جاء بجمع المؤنث السالم وهو كما ذكرنا إما أن يكون للإناث أو لصفات الذكور غير العقلاء فجعلهم غير عقلاء.

٤ ـ هذه الآية نزلت في المجتمع الجاهلي والخطاب للرسول ﷺ وقد قال تعالى فيهم: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧].

فذكر أن ما يدعون من دون الله إنما هي إناث.

وقد روي عن الحسن: «أنه كان لكل حي من أحياء العرب صنم يعبدونه ويسمونه أنثى بني فلان... وقيل: كان في كل صنم شيطانة»[١].

«وقيل: كانوا يقولون في أصنامهم هي بنات الله»[٢].

وكانوا يسمون كثيرًا منها بأسماء مؤنثة كاللات والعزى ومناة[٣]. فناسب التأنيث من كل جهة، من جهة أنها غير عاقلة، ومن جهة أن لها أسماء مؤنثة، أو يرون أنها إناث.

وقال في (يس): ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾.

فاستعمل ضمير العقلاء ذلك لأنه قال: ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ﴾، والشفيع لا بد أن يكون عاقلاً وإلا فكيف يشفع؟ ولذلك قال في الزمر: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا

---

(١) روح المعاني ٥/ ١٤٨، الكشاف ١/ ٤٢٤.

(٢) الكشاف ١/ ٤٢٤.

(٣) فتح القدير ١/ ٤٧٨.

يَعۡقِلُونَ﴾ [الزمر: ٤٣]، فجاء بضمير جماعة الذكور للدلالة على أنه لا يكون الشفيع إلا عاقلاً.

ثم نفى الشفاعة مع عدم العقل فقال: ﴿قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾.

فاستعمل ضمير العقلاء مع الشفاعة.

ثم قال: ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾، والمنقذ لا بد أن يكون عاقلاً أيضًا، وإلا فكيف ينقذ؟ ولذلك قال في سورة (يس): ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤ـ٧٥]، فاستعمل ضمير جماعة العقلاء وهو قوله: (لا يستطيعون) و(هم) لأن الناصر لا بد أن يكون عاقلاً، وهو كالمنقذ. وهذه الآية نظيرة الآية السابقة.

فناسب كل ضمير مكانه اللائق به.

وهناك أمر آخر في الآية وهو أنه قال: ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ﴾ فأدخل الباء على الضر ولم يقل: (إن يرد الرحمن بي ضرًّا) وكلاهما تعبير فصيح، تقول: (أراد به رحمة) و(أراده برحمة). قال تعالى: ﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗ﴾ [الأحزاب: ١٧]، فأدخل الباء على ضمير المخاطبين، فما الفرق؟.

جاء في (التفسير الكبير): «قال ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ﴾ ولم يقل: (إن يرد الرحمن بي ضرًّا)، وكذلك قال تعالى: ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾، ولم يقل: (إن أراد الله بي ضرًّا)، نقول:

الفعل إذا كان متعديًا إلى مفعول واحد تعدى إلى مفعولين بحرف كاللازم يتعدى بحرف في قولهم: ذهب به، وخرج به. ثم إن المتكلم البليغ يجعل المفعول بغير حرف ما هو أولى بوقوع الفعل عليه، ويجعل

الآخر مفعولاً بحرف. فإذا قال القائل مثلا: كيف حال فلان؟ يقول: اختصه الملك بالكرامة والنعمة.

فإذا قال كيف كرامة الملك؟ يقول: اختصها بزيد، فيجعل المسؤول عنه مفعولاً بغير حرف لأنه هو المقصود.

إذا علمت هذا فالمقصود فيما نحن فيه بيان كون العبد تحت تصرف الله يقلبه كيف يشاء في البؤس والرخاء، وليس الضر بمقصود بيانه، كيف والقائل مؤمن يرجو الرحمة والنعمة بناء على إيمانه بحكم وعد الله. ويؤيد هذا قوله من قبل: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ حيث جعل نفسه مفعول الفطرة فكذلك جعلها مفعول الإرادة، وذكر الضر وقع تبعاً.

وكذا القول في قوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾، المقصود بيان أنه يكون كما يريد الله، وليس الضر بخصوصه مقصودًا بالذكر ويؤيده ما تقدم حيث قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، يعني هو تحت إرادته، ويتأيد ما ذكرناه بالنظر في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا﴾ [الأحزاب: ١٧]، حيث خالف هذا النظم وجعل المفعول من غير حرفٍ السوءَ وهو كالضُّر، والمفعول بحرف هو المكلف، وذلك لأن المقصود ذكر الضر للتخويف وكونهم محلاً له، وكيف لا وهم كفرة استحقوا العذاب بكفرهم؟ فجعل الضر مقصودًا بالذكر لزجرهم.

فإن قيل: فقد ذكر الله الرحمة أيضًا حيث قال: ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾.

نقول: المقصود ذلك، ويدل عليه قوله تعالى من بعده: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧٣]، وإنما ذكر الرحمة تتمة للأمر بالتقسيم الحاصر.

وكذلك إذا تأملت في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ

قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًاۢ ﴾ [الفتح : ١١] ، فإن الكلام أيضًا على الكفار ، وذكر النفع وقع تبعًا لحصر الأمر بالتقسيم» (١) .

والذي يبدو لي غير ذلك ، فإن الذي يظهر من التعبير القرآني أن ما تتصل به الباء هو الذي عليه السياق وهو مدار الكلام وهو الأهم فيه .

قال تعالى : ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ .

فقد اتصلت الباء بضمير المخاطبين (بكم) لا بالسوء ، والكلام يدور على المخاطبين والسياق عليهم ، وذلك من الآية الثانية عشرة حتى الآية العشرين .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ

(١) التفسير الكبير ٢٦/٥٨ .

يَذْهَبُوا۟ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٢ ـ ٢٠].

فقد اتصلت الباء بضمير المخاطبين لأن الكلام يدور عليهم.

وقال: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢاۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ [الفتح: ١١].

وقد اتصلت الباء بضمير المخاطبين أيضًا، وذلك أن الكلام والسياق يدوران عليهم.

قال تعالى:

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢاۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَاۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًاۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ١١ ـ ١٦].

وقال: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٠]، واتصلت الباء بضمير الغيبة (به) ولم تتصل بالكيد، والكلام على سيدنا إبراهيم عليه السلام وذلك في أكثر من عشرين آية (من الآية ٥١ ـ ٧٢).

في حين قال: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ

﴿هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

فقد اتصلت الباء ههنا بالضر وبالرحمة ولم تتصل بالضمير فقد قال: ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ . . . أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ﴾ ولم يقل: (إن أراد بي ضرًّا أو أراد بي رحمة)، وذلك أن الاهتمام والعناية بالضر والرحمة، ويدلك على ذلك أنه عقب على ذلك بكشف الضر وإمساك الرحمة فقال: ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

والسياق إنما هو في ذلك والاهتمام به، فقد قال تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ [الزمر: ٣٦]، فالكلام على المعتقدات لا على الأشخاص.

وقال: ﴿وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾ [يونس: ١٠٧]، فقد اتصلت الباء بالخير لا بضمير الخطاب فقال: ﴿وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٍ﴾، ولم يقل: (وإن يرد بك خيرًا) وذلك أن الكلام إنما هو في هذا الأمر والسياق عليه قال تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

فالكلام على الضر والخير وما يتعلق بكشفهما أو ردّهما لا على الأشخاص ولذلك قال: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾.

فليس أحد يكشف الضر إلا هو، ولا أحد يملك أن يردّ خيره تعالى، ولذلك عقب بقوله: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾.

وقد قال قبل هذه الآية: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ﴾ فالكلام في النفع والضر كما ترى وإيصالهما أو دفعهما.

وفي هذه السورة، أعني سورة (يس)، وصل الباء بالضر فقال: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ ولم يقل: (إن يرد الرحمن بي ضرًّا) وذلك أن الكلام على الضر وهو مدار الاهتمام، ولذلك عقب بكشف الضرّ وإزالته فقال: ﴿ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ أي لا يدفعون الضر عني ولا ينقذونني منه.

فاتضح بذلك أن الباء تتصل بما هو أهم في السياق وعليه الكلام، والله أعلم.

* * *

﴿ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾

بيّن أن آلهتهم ليس لها جاه ولا قدرة.

فكونها لا تنفع شفاعتها شيئًا معناه أنه ليس لها جاه.

وكونها لا تنقذ من يعبدها ويلتجئ إليها معناه أنها ليس لها قدرة.

فكيف يعبدون آلهة هذه صفتها؟!.

ثم إنه بيّن أنها بمجموعها ليس لها مكانة ولا جاه، وأنها بمجموعها ليس لها قدرة، فلو أن آلهتهم جميعًا شفعت عند الله لم تغن شفاعتهم شيئًا.

ولو أنها جميعها أرادت أن تنقذه لم تستطع.

فما أتفه وما أضعف هذه الآلهة!

لقد قدم الشفاعة على القدرة لأن هذا هو الترتيب الطبيعي في الحياة، فإن من استعان بشخص على آخر يشفع أولاً عنده، فإن لم يُجد ذلك نفعًا لجأ إلى القوة، وليس العكس.

جاء في (التفسير الكبير): «ثم قال: ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ على ترتيب ما يقع من العقلاء؛ وذلك لأن من يريد دفع الضر عن شخص أضرّ به شخص يدفع بالوجه الأحسن فيشفع أولاً، فإن قبله وإلا يدفع، فقال: ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ﴾ ولا يقدرون على إنقاذي بوجه من الوجوه» [(١)].

وجاء في (روح المعاني): «وهو ترقٍّ من الأدنى إلى الأعلى، بدأ أولاً بنفي الجاه، وذكر ثانيًا انتفاء القدرة وعبر عنه بانتفاء الإنقاذ لأنه نتيجته» [(٢)].

فاستبان من هذه الآيات أن الله مستحق للعبادة من كل وجه:

١ ـ أنه فطر الخلق.

٢ ـ وأنه يرسل الرسل إليهم ليرشدوهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم.

٣ ـ إليه المرجع والمصير فيعاقب المسيء ويكافئ المحسن.

٤ ـ أنه رحيم بعباده: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

٥ ـ أنه قوي مقتدر ليس لقدرته حدود.

٦ ـ وأن ما يدعون من دونه ليس لهم جاه وليس لهم قدرة وإن اجتمعوا.

جاء في (التفسير الكبير): «وفي هذه الآيات حصل بيان أن الله تعالى معبود من كل وجه:

إن كان نظرًا إلى جانبه فهو فاطر ورب مالك، يستحق العبادة سواء أحسن بعد ذلك أو لم يحسن.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٥٩.

(٢) روح المعاني ٢٢/ ٢٢٧.

وإن كان نظرًا إلى إحسانه فهو رحمن .

وإن كان نظرًا إلى الخوف فهو يدفع ضره .

وحصل بيان أن غيره لا يصلح أن يعبد بوجه من الوجوه ، فإن أدنى مراتبه أن يعد ذلك ليوم كريهة ، وغير الله لا يدفع شيئًا إلا إذا أراد الله ، وإن يرد فلا حاجة إلى دافع» (١) .

* * *

﴿ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾

أي إن اتخذت من دونه آلهة فإني إذًا في ضلال ظاهر لا يخفى على من له أدنى مسكة من عقل ، وهو لا يعني بهذا القول نفسه فقط ، وإنما يريد بذلك المخاطبين أيضًا .

والمعنى : إن اتخذتم آلهة هذا شأنها وتركتم فاطركم وخالقكم فأنتم في ضلال ظاهر . وقد أجرى القول على نفسه ولم يواجههم بذاك لئلا يثير استفزازهم وعصبيتهم وليستعملوا عقولهم وتفكيرهم لعلهم يرجعون إلى الحق .

وقد أكد العبارة بإن واللام، ووصف الضلال بأنه مبين غير خفي؛ لأنه إن فعل ذلك كان كذلك حقًّا ، ولأن المقام يستدعي هذه التأكيدات مع ظهورها ؛ لأن المخاطبين ينكرون ذلك أشد الإنكار على ظهوره ووضوحه .

* * *

﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾

أعلن إيمانه في هذا الجو المكفهر بكل صراحة وصدع بالحق من دون مواربة .

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/٥٩ .

وأعلن أنه بدأ بنفسه ، وسبقهم إلى ما يدعوه إليه ، ولم ينتظر من أحد أن يسبقه فيشجعه ويقوي قلبه ويشد عضده ، وفي ذلك محض الإيمان ومحض الإخلاص.

ثم انظر إلى قوة إيمان هذا الرجل الذي تحدى قومه في ذلك الوقت الذي لا يطيقون فيه أن يسمعوا الرسل فهددوهم بالرجم إن لم يكفوا عن الدعوة.

فقال: ها أنا آمنت بربكم فاسمعون.

وقوله: (فاسمعون) يدل على أنه أعلن إيمانه بصوت ظاهر مسموع غير خفي ولا متلجلج ، يسمعه كل أحد. وهذا يدل على أنه غير مبال بما سيحصل له من الرجم والتعذيب وما هو أكثر من ذلك.

واختيار (إني آمنت) على (أنا آمنت) لما في ذلك من التوكيد والقوة. وقوله: (بربكم) دون (بربي) مع أنه قال قبلها ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ ليبين أن ربهم هو ربه وهو الذي فطره وإليه يرجعون ، فهو ربه وربهم.

وقيل: إن الخطاب بقوله: (بربكم) للرسل ، أي آمنت بربكم الذي تدعون إليه. والحق أن الخطاب للجميع ، فرب الرسل هو ربه ورب قومه ، وهو قد أعلن ذلك على الملأ ، وطلب من قومه اتباع الرسل والإيمان بما يدعون إليه.

وعلى أية حال فهو صدع بالحق وجهر به ولم يبال بما سيحصل له من جراء إعلانه إيمانه هذا.

قيل: وقوله: ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ أولى من قوله: (آمنت بربي) ؛ لأن كل شخص إنما هو مؤمن بربه فيقول له المقابل: وأنا آمنت بربي أيضًا.

فقوله: ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ يدل على أنه الرب الذي يدعو إليه الرسل.

ولو كان المقصود ربهم الذي يعبده قومه لما كان في قوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ. . .﴾ داع.

وذكر الإيمان بالرب دون بقية الأسماء الحسنى له أكثر من مناسبة، فقد مَرَّ قول الرسل: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ فقال: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾.

وقوله: ﴿إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، والرب هو الذي يهدي من الضلال؛ لأن الرب هو المربي والمرشد والمعلم.

والهداية من أبرز صفات الرب، ولذلك كثيرًا ما تقترن الهداية باسم الرب وذلك نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩ ـ ٥٠]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٦١].

فناسب ذلك ذكر الرب.

وهناك أمر آخر حسّن ذكر الرب وهو قوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ أي لا أتخذ من دونه إلهًا، أي معبودًا. وقال ههنا: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فجعله هو الإله وهو الرب، فهو إلهه وربه، وبذلك جمع له بين الألوهية والربوبية.

جاء في (التفسير الكبير): «في المخاطب بقوله: (بربكم) وجوه:

(أحدها): هم المرسلون. قال المفسرون: أقبل القوم عليه يريدون قتله فأقبل هو على المرسلين، وقال: إني آمنت بربكم فاسمعوا قولي واشهدوا لي.

و(ثانيها): هم الكفار، كأنه لما نصحهم وما نفعهم، قال: فأنا آمنت فاسمعون.

(وثالثها): بربكم أيها السامعون فاسمعون على العموم ، كما قلنا في قول الواعظ حيث يقول: يا مسكين ما أكثر أملك وما أنزر عملك ، يريد به كل سامع يسمعه.

وفي قوله (فاسمعون) فوائد:

(أحدها): أنه كلام متروّ متفكر حيث قال: (فاسمعون) فإن المتكلم إذا كان يعلم أن لكلامه جماعة سامعين يتفكر.

(وثانيها): أنه ينبه القوم ويقول: إني أخبرتكم بما فعلت حتى لا تقولوا: لم أخفيت عنا أمرك ولو أظهرت لآمنا معك.

و(ثالثها): أن يكون المراد السماع الذي بمعنى القبول. يقول القائل: نصحته فسمع قولي: أي قبله.

فإن قلت: لم قال من قبل: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ وقال ههنا: ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ ولم يقل: آمنت بربي؟.

نقول: قولنا الخطاب مع الرسل أمر ظاهر. لأنه لما قال: ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ ظهر عند الرسل أنه قبل قولهم وآمن بالرب الذي دعوه إليه. ولو قال (بربي) لعلهم كانوا يقولون: كل كافر يقول: لي رب وأنا مؤمن بربي.

وأما على قولنا: الخطاب مع الكفار ففيه بيان للتوحيد، وذلك لأنه لما قال: ﴿أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ ثم قال ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ فهم أنه يقول: ربي وربكم واحد وهو الذي فطرني وهو بعينه ربكم، بخلاف ما لو قال: آمنت بربي. فيقول الكافر: وأنا أيضًا آمنت بربي. ومثل هذا قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ﴾ [الشورى: ١٥]»[1]

وجاء في (البحر المحيط): «ثم صرح بإيمانه وصدع بالحق فقال

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٥٩ ـ ٦٠.

مخاطبًا لقومه: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ أي الذي كفرتم به، فاسمعون أي: اسمعوا قولي وأطيعون فقد نبهتكم على الحق، وإن العبادة لا تكون إلا لمن منه نشأتكم وإليه مرجعكم. والظاهر أن الخطاب بالكاف والميم وبالواو وهو لقومه، والأمر على جهة المبالغة والتنبيه... وقيل: الخطاب في (بربكم) وفي (فاسمعون) للرسل»[1].

وجاء في (روح المعاني): «الظاهر أن الخطاب لقومه شافههم بذلك وصدع بالحق إظهارًا للتصلب في الدين وعدم المبالاة بما يصدر منهم...

وإضافة الرب إلى ضميرهم لتحقيق الحق والتنبيه على بطلان ما هم عليه من اتخاذ الأصنام أربابًا، أي: آمنت بربكم الذي خلقكم.

(فاسمعون) أي فاسمعوا قولي فإني لا أبالي بما يكون منكم على ذلك.

وقيل: مراده دعوتهم إلى الخير الذي اختاره لنفسه»[2].

* * *

﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٧﴾.

* * *

﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾.

لقد طوى القرآن ذكر ما حصل له بعد قولته التي قالها وما فعل به قومه وكيف واجهوه.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٢٩.

(٢) روح المعاني ٢٢/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

إلا أنه بين أنه لم يكد يتم قوله حتى قيل له: ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ ولم يذكر أمرًا أو مشهدًا بين الدنيا والآخرة. ومعنى ذلك: أنهم لم يمهلوه بعدها البتة. فإنه ما إن قال ذلك حتى وجد نفسه على باب الجنة يقال له: ادخل الجنة.

فاختصر كل ما لا حاجة له به وإنما دل عليه المقام.

ومن مظاهر الاختصار أنه بنى الفعل للمجهول فقال: (قيل) ولم يذكر القائل؛ لأنه لا يتعلق غرض من ذكر القائل، ولعل القائل هم الملائكة. كما أنه لم يقل: (قيل له) لأن ذلك معلوم من السياق.

جاء في (الكشاف): «قيل ادخل الجنة، ولم يقل: (قيل له) لانصباب الغرض إلى المقول وعظمه لا إلى المقول له مع كونه معلومًا»[1].

وهكذا يطوي ما حصل له بعد قولته، ويطوي الفاعل فيبني الفعل للمجهول، ويطوي المقول له ولا يذكر إلا قوله: ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾.

فيسير التعبير في نسق واحد وفي جو تعبيري واحد.

جاء في (روح المعاني) في قوله: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾: «استئناف لبيان ما وقع له بعد قوله ذلك. والظاهر أن الأمر إذن له بدخول الجنة حقيقة، وفي ذلك إشارة إلى أن الرجل قد فارق الدنيا، فعن ابن مسعود بعد أن قال ما قال: قتلوه بوطء الأرجل حتى خرج قصبه من دبره وألقي في بئر وهي الرس [وقيل: قتل بغير ذلك من أنواع القتل ـ راجع ص٢٢٨]... والجمهور على أنه قتل، وادعى ابن عطية أنه تواترت الأخبار والروايات بذلك»[2].

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨٥.

(٢) روح المعاني ٢٢/ ٢٢٨، وانظر الكشاف ٢/ ٥٨٥

﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾

ما إن أدخل الجنة حتى تمنى أن قومه يعلمون بإكرامه وحسن عاقبته ، فإنهم لو علموا ذلك لاهتدوا وآمنوا بمثل ما آمن به ونالهم من الكرامة مثل ما ناله ، وهو لم يتمنّ ذلك في نفسه فقط ، بل قال ذلك بلسانه ، فواطأ القلب اللسان. وفي ذلك إشارة إلى تمني الهداية لقومه وحب الخير لهم. ولم يمنع من ذلك سوء ما فعلوه به. فإن المؤمن يحب الهداية للخلق ولو كانوا ألد أعدائه ، بل ولو أساؤا إليه وعذبوه ، بل ولو قتلوه.

جاء في (الكشاف): «وإنما تمنى علم قومه بحاله ليكون علمهم بها سببًا لاكتساب مثلها بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان والعمل الصالح المفضيين بأهلهما إلى الجنة.

وفي حديث مرفوع (نصح قومه حيًا وميتًا). وفيه تنبيه عظيم على وجوب كظم الغيظ والحلم عن أهل الجهل. والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي ، والتشمر في تخليصه والتلطف في افتدائه ، والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه. ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته والباغين له الغوائل وهم كفرة عبدة أصنام» (١).

وجاء في (روح المعاني): «وإنما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب مثله بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان والطاعة جريًا على سنن الأولياء في كظم الغيظ والترحم على الأعداء. وفي الحديث: نصح قومه حيًا وميتًا» (٢).

وفي هذا القول إشارة للدعاة وللمسلمين ليحبوا الهداية لعموم الخلق

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨٥.

(٢) روح المعاني ٢٢/ ٢٢٩.

وأن يترفعوا عن الحقد والضغينة .

لقد تمنى أن يعلم قومه أمرين :

١ ـ مغفرة ربه له وذلك ليتوبوا ولا ييأسوا من رحمة الله .

٢ ـ وإكرامه ليحفزهم ذلك إلى العمل لينالوا حسن العاقبة .

* * *

﴿ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾

(ما) تحتمل أنها مصدرية ، أي يا ليت قومي يعلمون بمغفرة ربي لي وجعلي من المكرمين .

ويحتمل أن تكون اسمًا موصولاً ، أي : يا ليت قومي يعلمون بالذي غفر لي به ربي وجعلني من المكرمين ، أي ليتهم يعلمون بالسبب الذي غفر لي به ربي وهو اتباع الرسل .

وقال : (بما) ولم يقل (بالذي) ليشمل المصدرية والموصولة ، أي بالمغفرة والإكرام وبسبب ذلك فيجمع المعنيين ، ولو قال : (بالذي) لم يدل إلا على معنى واحد .

ولم يأت بالمصدر الصريح فيقل : (يا ليت قومي يعلمون بمغفرة ربي لي وجعلي من المكرمين) لأنه لو قال ذاك لدل على معنى واحد وهو المصدرية دون المعنى الآخر .

جاء في (الكشاف) : «(ما) في قوله : ﴿ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى﴾ أي الماءات هي؟

قلت : المصدرية أو الموصولة ، أي بالذي غفره لي من الذنوب» [١] .

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨٥ .

وجاء في (البحر المحيط): «والظاهر أن (ما) في قوله: ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي ﴾ مصدرية، جوزوا أن يكون بمعنى (الذي) والعائد محذوف تقديره: (بالذي غفره لي ربي من الذنوب) وليس هذا بجيد، إذ يؤول إلى تمني علمهم بالذنوب المغفورة، والذي يحسن تمني علمهم بمغفرة ذنوبه وجعله من المكرمين» [1].

وجاء في (روح المعاني): «والظاهر أن (ما) مصدرية، ويجوز أن تكون موصولة والعائد مقدر، أي يا ليت قومي يعلمون بالذي غفر لي به، أي بسببه، ربي، أو بالذي غفره، أي بالغفران الذي غفره لي ربي، والمراد تعظيم مغفرته تعالى له فتؤول إلى المصدرية.

وقال الزمخشري: أي بالذي غفره لي ربي من الذنوب. وتعقب بأنه ليس بجيد، إذ يؤول إلى تمني علمهم بذنوبه المغفورة ولا يحسن ذلك. وكذا عَطْفُ ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ عليه لا ينتظم» [2].

وما ذهب إليه صاحب الكشاف من أن (ما) تحتمل أن تكون اسمًا موصولاً على معنى: بالذي غفره لي من الذنوب يضعفه ثلاثة أمور، منها:

١ ـ أن ذلك يؤول إلى تمني علمهم بالذنوب المغفورة ولا يحسن علمهم بما عمل من معاص تستوجب المغفرة، كما أشار إلى ذلك صاحب البحر.

٢ ـ أن المغفرة معناها الستر، وغفران الذنوب سترها، وتمنيه علمهم بها يعني تمنيه نشرها وفضحها، وهو مغاير لمعنى الستر

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٣٠.

(٢) روح المعاني ٢٢/ ٢٢٩، وانظر: أنوار التنزيل ٥٨٤.

وما أكرمه الله من سترها ، فإن ستر الذنوب من جلائل النعم .

٣ ـ أنها لا تنتظم مع قوله : ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ فإن ذلك يؤول إلى المعنى الآتي :

يا ليت قومي يعلمون بالذي غفره لي من الذنوب وجعلني من المكرمين. وهو لا يصح لأن (جعلني) ستكون معطوفة على (غفره لي) أي صلة للذي ، فيكون المعنى : يا ليت قومي يعلمون بالذنب المغفور وجعلني من المكرمين. فإن قوله : (ما غفره لي) يعني : الذي غفره لي ربي من الذنوب .

أو بعبارة أخرى : الذنب المغفور .

فلا يصح جعل ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ صلة له .

فاتضح أن (ما) إما أن تكون مصدرية أو اسمًا موصولاً ، والباء تفيد السبب فيكون المعنى : يا ليت قومي يعلمون بالسبب الذي غفر لي به ربي وجعلني من المكرمين. فيستقيم المعنى على الوجهين. والله أعلم.

ولم يذكر العائد فيقل : (بما غفر لي به ربي) ولو قال ذلك لاقتصر على معنى الموصولية الاسمية دون المصدرية ، فحذْفُ العائد جمع المعنيين .

وقدَّم الجار والمجرور على الفاعل فقال : ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ لأنه هو المهم وهو مدار الكلام ، لأنه معلوم أن الله يغفر الذنوب ، فالفاعل معلوم ولكن المهم أن نعلم المغفور له .

واختيار لفظ الرب ههنا ﴿غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ مناسب لقوله : ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وإضافته إلى نفسه فيها من الرعاية واللطف ما لا يخفى .

وقدم المغفرة على جعله من المكرمين ؛ لأن المغفرة هي سبب الإكرام ولأنها تسبقه ، فالمغفرة أولاً ثم يليها الإكرام.

وقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ دون القول: (وجعلني مكرمًا) إشارة إلى أن هذا طريق سار عليه قبله المؤمنون والشهداء والصالحون ، فهو واحد منهم وليس فذًّا لم يسبقه إليه أحد. وكون أن معه جماعة مثله أكرمهم ربه فيه زيادة إيناس ونعيم. فإن الوحدة عذاب وإن كانت في جنان الخلد فأكرمه بالجنة والرفقة الطيبة.

إن أصحاب القرية ومعتقدهم وموقفهم من رسلهم شبيه بحال قوم الرسول ﷺ وموقفهم منه من عدة نواح. ولذلك صح أن يضربوا مثلاً:

١ ـ فقوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ شبيه بموقف كفار قريش الذين قال الله فيهم: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ [ق: ٥] ، وقوله: ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القمر: ٣].

٢ ـ وقول أصحاب القرية لرسلهم: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ شبيه بقول كفار قريش: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣] ، وقولهم: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢].

٣ ـ وقولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس: ١٥] شبيه بقول كفار قريش: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤] ، وقوله تعالى فيهم: ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القمر: ٣].

٤ ـ وقولهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس: ١٨] شبيه بموقف كفار قريش من رسول الله والمؤمنين معه ، فقد آذوهم وعذبوهم حتى أن بعضهم مات من التعذيب. وقد رجم رسول الله بالحجارة في الطائف. وأخبر عنهم ربنا قائلاً: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

٥ ـ وقولهم: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾ [يس: ١٥] شبيه بقولهم: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ [الأنعام: ٩١].

٦ ـ وقول المؤمن لهم: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ [يس: ٢١] شبيه بقوله ﷺ: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ [الفرقان: ٥٧].

٧ ـ وقوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣] يعني أنهم اتخذوا آلهة من دون الله يعبدونهم.

وهذا شبيه بمعتقدات العرب في الجاهلية الذين اتخذوا من دون الله آلهة والذين قال الله فيهم: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ٧٤ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤ ـ ٧٥].

٨ ـ لقد بين أن أصحاب القرية لم يؤمنوا إلا واحدًا منهم، وأنهم استوى عليهم الإنذار وعدمه مثل كفار قريش الذين قال الله فيهم: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يس: ٧]، وقال: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يس: ١٠].

وإن الرسل الذين أرسلوا إلى أهل القرية يصح أن يكونوا مثلاً لرسول الله ﷺ.

١ ـ فإنهم كُذّبوا كما أن الرسول كذبه قومه.

٢ ـ وأنهم بلغوا الرسالة مع تكذيب أصحاب القرية لهم.

٣ ـ وأنهم بلغوا الرسالة مع أنهم غرباء عن أهل القرية، فقد جاؤها داعين إلى ربهم.

٤ ـ أنهم واجهوهم بالتطير منهم وبالتهديد.

٥ ـ وأنهم بلغوا رسالة ربهم بلاغًا مبينًا بحيث علم به كل واحد من أهل القرية.

٦ ـ وأنه ثبت من آمن بهم حتى استشهد.

فكان أصحاب القرية مثلاً في حالهم وفي حال رسلهم الذين بلغوا دعوة ربهم.

وحال أهل القرية وموقفهم من رسلهم وسوء عاقبتهم التي لاقوها نتيجة التكذيب تكون مثلاً لقوم الرسول ﷺ ليرتدعوا وليراجعوا أنفسهم.

إن قصة أصحاب القرية مرتبطة بالآيات الأول التي ذكرناها من هذه السورة والتي ذكرنا أنها بنيت عليها السورة ومقاصدها.

١ ـ فقد ارتبط قوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٣ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ﴾ بقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فذكر أنه واحد من المرسلين. وضرب مثلاً بمرسلين قبله.

٢ ـ وارتبط بقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ بقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

٣ ـ وارتبط قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

٤ ـ وارتبط قوله: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ﴾ بقوله: ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾.

٥ ـ وارتبط قوله: ﴿بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ بقوله: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾.

فقوله: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ بشارة له، فهو مقابل (فبشره).

وقوله: ﴿بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى﴾ يقابل: ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾.

وقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ يقابل ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ ، والله أعلم.

* * *

﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾﴾

أي لم يحتجْ إنزال جند من السماء ليهلكهم[1] ، فهم أتفه من ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ يعني أنه ما كان يصح في حكمتنا وتقديرنا أن ننزل عليهم جندًا من السماء ولا ينبغي ذلك[2] ؛ لأنهم أقل شأنًا من هذا.

وقيل أيضًا إن المعنى أننا: «ما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكناهم بل نبعث عليهم عذابًا يدمرهم» [3].

وعلى هذا يكون معنى قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أنه لا ينبغي أن ننزل على هؤلاء جندًا من السماء لإهلاكهم، وإننا لم نكن نفعل ذلك فيما مضى.

فيكون المعنى نفي الإنزال على وجه العموم بدءًا من الماضي إلى هؤلاء القوم.

وأما إنزال الجنود لنصرة رسولنا محمد ﷺ في بدر والأحزاب فذلك إنما كان تعظيمًا لشأن سيدنا محمد ﷺ ، وهو لا يشمله قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ فإن ذلك متعلق بالأمم الماضية.

جاء في (التفسير الكبير): «﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أَيَّةُ فائدةٍ فيه مع أن قوله: (وما أنزلنا) يستلزم أنه لا يكون من المنزلين؟.

---

(١) انظر التفسير الكبير ٢٦/ ٦١ ، فتح القدير ٤/ ٣٥٦.

(٢) انظر الكشاف ٢/ ٥٨٦ ، التفسير الكبير ٢٦/ ٦٢ ، روح المعاني ٢٣/ ١٢ ، فتح القدير ٤/ ٣٥٦.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٦٩.

نقول: قوله: (وما كنا) أي ما كان ينبغي لنا أن ننزل ؛ لأن الأمر كان يتم بدون ذلك فما أنزلنا وما كنا محتاجين إلى إنزال. أو نقول: (وما أنزلنا ، وما كنا منزلين) في مثل تلك الواقعة جندًا في غير تلك الواقعة. فإن قيل: فكيف أنزل الله جنودًا في يوم بدر وفي غير ذلك حيث قال: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٢٦]؟ نقول: ذلك تعظيمًا لمحمد ﷺ»[١].

وذهب قوم إلى أن (ما) قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ ليست نافية وإنما هي اسم موصول معطوف على (جند) أي ما أنزلنا على قومه من جند من السماء والذي كنا ننزله على الأمم من أنواع العذاب. ورده أبو حيان بأن ذلك يعني عطف المعرفة على النكرة المجرورة بمن الزائدة وهو لا يصح. جاء في (البحر المحيط): «وقالت فرقة: (ما) اسم معطوف على جند. قال ابن عطية: أي من جند ومن الذي كنا منزلين على الأمم مثلهم. انتهى.

وهو تقدير لا يصح لأن (من) في (من جند) زائدة ، ومذهب البصريين غير الأخفش أن لزيادتها شرطين:

أحدهما: أن يكون قبلها نفي أو نَهي أو استفهام.

والثاني: أن يكون بعدها نكرة.

وإن كان كذلك فلا يجوز أن يكون المعطوف على النكرة معرفة ، لا يجوز (ما ضربت من رجل ولا زيد) وإنه لا يجوز (ولا من زيد) ، وهو قدر المعطوف بـ (الذي) ، وهو معرفة ، فلا يعطف على النكرة المجرورة بمن الزائدة»[٢].

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٦٢.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٣١ ـ ٣٣٢ وانظر روح المعاني ٢٣/ ٢.

وردّ أبي حيان فيه نظر ، فإن العطف في نحو هذا جائز ، غير أنه لا يعطف على اللفظ وإنما يعطف على الموضع . فإنه لا يصح أن نقول : (ما جاءني من امرأةٍ ولا محمود) بجرِّ محمود ، وإنما نقول ذلك برفع محمود. ولا يصح أن نقول: (ما رأيت من امرأةٍ ولا خالدٍ) بجر خالد ، وإنما نقول : (ما رأيت من امرأة ولا خالدًا) بالنصب ؛ لأنه لا يمكن توجه العامل إلى المعرفة .

جاء في (المغني) في باب (العطف على اللفظ) : «وشرطه إمكان توجه العامل إلى المعطوف، فلا يجوز في نحو (ما جاء من امرأة ولا زيد) إلا الرفع عطفًا على الموضع لأن (من) الزائدة لا تعمل في المعارف» [١] .

ونحو هذا يكون في العطف على اسم (لا) النافية للجنس ، فإن اسم (لا) هذه لا بد أن يكون نكرة ، فإن عطفت عليه معرفة تعين رفعه لأن (لا) لا تعمل في المعارف نحو (لا امرأةَ فيها ولا زيدٌ) بالرفع فإنه لا يصح في (زيد) النصب أو بناؤه على الفتح [٢] .

وعلى هذا فما المانع في الآية من أن تكون (ما) معطوفة على الموضع فتكون (جند) مجرورة و(ما) منصوبة مثل (ما رأيت من امرأة ولا زيدًا)؟

والمعنيان صحيحان يحتملهما التعبير ويتسع لهما معًا ، فيكون ذلك من التوسع في المعنى .

وقد أسند الإنزال إلى نفسه فقال: ﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ ليدل على أنه هو الذي أنزل العقوبة ، فهو الذي أرسل الرسل وهو الذي عززهم بثالث ، وقد أسند ذلك إلى نفسه فقال : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾

---

(١) مغني اللبيب ٢/ ٤٧٣ .

(٢) انظر شرح الأشموني ٢/ ١٢ .

فناسب أن يسند الإنزال إلى نفسه أيضًا ليدل على أن الجهة المرسلة والمعاقبة واحدة ، إذ لا يليق أن يكون هو المرسل والمعاقب غيره .

جاء في (التفسير الكبير) في قوله: ﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا ﴾ : «قال ههنا : ﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا﴾ بإسناد الفعل إلى نفسه .

وقال في بيان حال المؤمن : ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ بإسناد القول إلى غير مذكور ، وذلك لأن العذاب من باب الهيبة فقال بلفظ التعظيم . وأما في ﴿ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ فقال : (قيل) ليكون هو كالمهنأ بقول الملائكة حيث يقول له كل ملك وكل صالح يراه : ادخل الجنة خالدًا فيها» [١] .

وقال : (على قومه) بإضافة القوم إلى ضمير الرجل القتيل ، ذلك أن هذا الرجل أضافهم إلى نفسه فقال لهم : ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ ، فهم قومه وقد دعاهم بـ(يا قوم) ليتعطفهم ويدعوهم إلى ما يحييهم فقتلوه فقتلهم ربه سبحانه .

وقال : (من بعده) ولم يقل (بعده) للدلالة على أنه أنزل العذاب عليهم بعده مباشرة ولم يمهلهم . فإن (من) تفيد ابتداء الغاية . ولو قال : (وما أنزلنا على قومه بعده) لاحتمل الزمن القصير والطويل ، فجاء بـ(من) ليدل على أنه عاجلهم بالعقوبة من دون إمهال .

جاء في (البحر المحيط) : «وقوله : (من بعده) يدل على ابتداء الغاية ، أي لم يرسل إليهم رسولاً ولا عاتبهم بعد قتله بل عاجلهم بالهلاك» [٢] .

وقال : (من جند) فجاء بـ(من) الدالة على الاستغراق ليدل على أنه لم ينزل جندًا قلّوا أو كثروا .

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٦١ .

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٣١ .

فقد استغرق نفي الإنزال كل الجند ، ولو لم يذكر (من) لاحتمل نفي إنزال الجنس ونفي الوحدة ، فقد يحتمل أنه أنزل جنديًا أو جنودًا كما يحتمل أنه لم ينزل أصلاً .

واختار كلمة (جند) على (مَلَك) لأنه في مقام العقوبة والمحاربة فكان اختيار لفظ الجند أنسب ؛ فإن قومه حاربوا الله ورسله فحاربهم الله سبحانه من غير جند .

واختار الجند على الجنود فقال : (من جند) ولم يقل : (من جنود) ذلك أن الجنود جمع جند ، فإن (الجند) يجمع على أجناد وجنود[1] ، ونفي الجند يعني نفي الجنود ، أما نفي الجنود فلا يعني نفي الجند ؛ ذلك أن نفي الواحد مع (من) الاستغراقية يعني نفي الجنس كله ، بخلاف نفي الجمع ، فإنه إذا قال : (ما أنزلنا من جنود) لم ينف ذلك إنزال الجنود . أما إذا قال : (ما أنزلنا من جند) فإن هذا ينفي إنزال الجند والجنود .

ونحوه إذا قلت : (ما حضر من رجال) فإنك نفيت الجمع ولكن لم تنف الواحد أو الاثنين ، فقد يكون حضر رجل أو رجلان . أما إذا قلت : (ما حضر من رجل) فقد نفيت الجنس على سبيل الاستغراق سواء كان واحدًا أم مثنى أم جمعًا فلم يحضر أحد .

فقوله : (من جند) نفى إنزال الجند والجنود ، ولو قال : (من جنود) لم ينف إنزال الجند ، فكان ما ذكره أعم وأشمل .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن (الجند) اسم جنس جمعي مفرده جندي ، فالياء للواحد وحذفها يفيد الجنس مثل رومي وروم[2] ، وزنجي وزنج .

---

(١) المصباح المنير (جند) ١/ ١١١ .

(٢) انظر المصباح المنير (جند) ١/ ١١١ .

أما الجنود فهو جمع تكسير. ومن المعلوم أن اسم الجنس يقع على القليل والكثير، فهو يقع على الواحد والاثنين والجمع. فإنك إذا عاملت روميًّا واحدًا أو روميين جاز لك أن تقول: (عاملت الروم) أما الجمع فلا يصح فيه ذلك، وإنما يقع على الجمع فقط[1].

فقوله: ﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٍ﴾ نفى الواحد والاثنين والجمع لأنه نفى اسم الجنس الجمعي، ولو جاء بالجنود لم ينف الواحد والاثنين، فكان ما ذكره أولى من كل وجه.

واختار (ما) في النفي على (لم) فلم يقل: (ولم ننزل) وذلك لأن (ما) أقوى في النفي من (لم)[2].

وقد أكد النفي أيضًا بذكر (من) الاستغراقية المؤكدة، فأكد النفي باستعمال الحرف (ما) واستعمال (من) الاستغراقية.

وهناك أمر آخر حسّن ذكر (ما) دون (لم) وهو ذكر (من) الاستغراقية، فإن القرآن لم يأت البتة بـ (من) الاستغراقية مع (لم) بخلاف (ما).

وقال: (من السماء) ولم يقل: (من السماوات)؛ لأن السماء أعم وأشمل من السماوات، فهي تشمل السماوات وتشمل أيضًا الجو والسحاب وما علاك على وجه العموم، فهي تشمل السماوات وزيادة[3]، فكان ذلك أشمل وأعم، كما ناسب ذكر (من) الاستغراقية ذكر السماء فإن كليهما للاستغراق والعموم.

وقد تقول: وما الحاجة إلى ذكر (السماء) وهو لم ينزل عليهم جندًا أصلاً لا من الأرض ولا من السماء؟

---

(١) انظر شرح الرضي على الشافية ٢/ ١٧٨.

(٢) انظر معاني النحو ٤/ ٥٧٠.

(٣) انظر التعبير القرآني ٥٢.

فنقول: إنه ذكر أنه لم ينزل عليهم جندًا من السماء وإنما أهلكهم بصيحة منها.

فالسماء هي مبدأ إنزال العذاب لكن ليس بالجند وإنما بالصيحة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه لو لم يذكر السماء لكانت الآية على النحو الآتي: (وما أنزلنا على قومه من بعده من جند وما كنا منزلين).

وهذا المعنى لا يصح؛ لأن قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ ينفي إنزال الجنود على أية حال سواء كان من السماء أم من غيرها. في حين أن الله سبحانه أنزل جنودًا وأقوامًا على آخرين فحاربوهم ودفع بعضهم ببعض وعاقب بعضهم ببعض.

وكل إتيان من مكان عال فهو نزول أو إنزال. وكل حرب حصلت بين قومين أو أقوام وانحدر أحدهما من مكان عال فهو نزول. وقد يعذب الله بعض الناس ببعض، ويدفع بعضهم ببعض، ويبعث بعضهم على بعض، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٥].

ولا يخلو ذلك من إنزال جند. وكان يأجوج ومأجوج ينزلون من الجبل فيفسدون في الأرض. فلو حذف (من السماء) لم يستقم المعنى ولم يصح.

هذا وإنه لو حذف أي قيد لم يصح المعنى، فإن الآية هي: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾:

١ ـ فإنه لو حذف (على قومه) لم يصح المعنى؛ لأن الله سبحانه أنزل جنودًا من السماء بعده وذلك لنصرة سيدنا محمد ﷺ.

٢ ـ ولو حذف (من بعده) لم يصح المعنى ؛ لأن القصد هو معاقبة قومه بعد قتله ، فإذا حذف الظرف لم يفهم أن العقوبة بسبب قتله. والمراد بيان ذلك.

٣ ـ ولو حذف (من جند) لم يصح المعنى ؛ لأنه لا يعلم المنفي على وجه التحديد ، ولكان النفي عامًّا ، وهو لا يصح ، إذ سيكون التعبير: (وما أنزلنا على قومه من بعده من السماء وما كنا منزلين) وهو نفي لإنزال الجنود ولكل أنواع العذاب من السماء ، بل هو نفي لكل إنزال من السماء سواء كان خيرًا أم شرًّا ، وهو لا يصح ولا يستقيم. وإذا قيدنا المنزل بالعذاب لم يصح أيضًا ، إذ سيكون المعنى: (وما أنزلنا على قومه من بعده عذابًا من السماء وما كنا منزلين) وهو لا يصح ؛ لأن الله سبحانه أنزل عليهم وعلىٰ من قبلهم عذابًا من السماء ولكن ليس جندًا كما أخبر ربنا سبحانه ، فقد قال في قوم موسى: ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [البقرة: ٥٩] ، وقال في قوم لوط: ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [العنكبوت: ٣٤].

وأرسل على قومه وعلى من قبلهم الصيحة من السماء. والسماء كلمة عامة تشمل كل ما علا سواء كان سحابًا أم غيره ، وقد فسر ربنا الرجز النازل على قوم لوط من السماء بأنه الصيحة وإرسال الحجارة ، قال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر: ٧٣ ـ ٧٤] ، فلا يصح الحذف.

٤ ـ ولو حذف (من السماء) لم يصح لما ذكرناه.

فكان أعدل الكلام كلام ربنا سبحانه.

جاء في (التفسير الكبير): «قال: (من السماء) وهو تعالى لم ينزل عليهم ولا أرسل إليهم جندًا من الأرض فما فائدة التقييد؟

نقول: الجواب عنه من وجهين:

(أحدهما): أن يكون المراد: وما أنزلنا عليهم جندًا بأمر من السماء فيكون للعموم.

(وثانيهما): أن العذاب نزل عليهم من السماء، فبين أن النازل لم يكن جندًا لهم عظمة، وإنما كان ذلك بصيحة أخمدت نارهم وخربت ديارهم»[١].

* * *

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾

أي ما كانت العقوبة أو الأخذة إلا صيحة واحدة[٢]، واسم كان ضمير مستتر. ونفى بإنْ ولم ينف بما، ذلك لأن (إنْ) أقوى من (ما)[٣] ولذلك كثيرًا ما تقترن بإلا لإفادة القصر. ويتبين ذلك من مواطن اجتماعهما. قال تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]، فإثبات الملكية ليوسف يحتاج إلى قوة ولذلك نفى بما أولاً ثم نفى وأثبت بإنْ وإلا لما هو أقوى.

ونحو ذلك ما ذكرناه في قوله: ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ فنفى أولاً بما، ثم نفى وأثبت بإنْ وإلا.

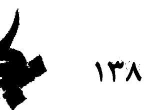
ونحوه ما مَرَّ قريبًا وهو قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [يس: ٢٨ ـ ٢٩]، فنفى أولاً بما، ثم نفى وأثبت بإنْ وإلا.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٦١.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٨٦.

(٣) انظر معاني النحو ٤/ ٥٧٦.



وقوله: (واحدة) نعت مؤكد ، وقد أفاد أمرين:

بيان بالغ قدرة الله ، وبيان هوانهم وضعفهم ، فإنهم لم يحتاجوا إلى أكثر من صيحة واحدة.

وأضمر اسم (كان) لظهوره ووضوحه ، فإنه دل عليه المقام وإن لم يجر له ذكر.

وجاء بالفاء وإذا الفجائية للدلالة على سرعة هلاكهم ، فإن الفاء تفيد الترتيب والتعقيب ، وإذا تفيد المفاجأة ، وجاء بهما معًا للدلالة على سرعة المفاجأة بحيث لم تكن بين الصيحة وخمودهم مهلة.

ولا يؤدي أي حرف هذا المؤدى ، فلو جاء بثم فقال: (ثم إذا هم خامدون) لدل على أن خمودهم إنما حصل بعد مدة من الصيحة ، نظير قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠].

ولو جاء بالواو لم يدل ذلك على التعقيب أيضًا ولم يدل أن ذلك إنما كان بسبب الصيحة ، فإن الواو لا تفيد السبب بل تفيد الإتباع ، فجاء بالفاء للدلالة على معنيي السبب والسرعة ، ولا يؤدي أي حرف مؤداها.

جاء في (التفسير الكبير): «وقوله: (واحدة) تأكيد لكون الأمر هينًا عند الله.

وقوله: ﴿ فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ ﴾ فيه إشارة إلى سرعة الهلاك ، فإن خمودهم كان مع الصيحة وفي وقتها لم يتأخر»[1].

وجاء في (البحر المحيط) في قوله: ﴿ فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ ﴾: «أي فاجأهم

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٦٢.

الخمود إثر الصيحة لم يتأخر»[١].

وجاء في (روح المعاني): «و(إنْ) نافية، و(كان) ناقصة، واسمها مضمر، و(صيحة) خبرها، أي ما كانت هي، أي الأخذة أو العقوبة، إلا صيحة واحدة...

و(إذا) فجائية وفيها إشارة إلى سرعة هلاكهم بحيث كان مع الصيحة. وقد شبهوا بالنار على سبيل الاستعارة المكنية»[٢].

وقال (خامدون) إشارة إلى سرعة هلاكهم وانطفاء حياتهم كانطفاء السراج.

واختيار هذا الوصف أحسن اختيار، فإنه مأخوذ من خمود النار وهو سكون لهبها وذهاب حسيسها، يقال: «خمدت النار تخمد خمودًا: سكن لهبها ولم يطفأ جمرها، وهمدت همودًا: إذا أطفئ جمرها البتة، وأخمد فلان ناره، وقوم خامدون: لا تسمع لهم حسًّا. جاء في التنزيل العزيز ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ قال الزجاج: فإذا هم ساكتون قد ماتوا وصاروا بمنزلة الرماد الخامد الهامد»[٣].

وفي (القاموس المحيط): «خمدت النار: كنصر وسمع خمدًا وخمودًا سكن لهبها، ولم يطفأ جمرها»[٤].

وفي (المصباح المنير): «خمدت النار خموداً من باب قعد: ماتت فلم يبق منها شيء، قيل: سكن لهبها وبقي جمرها»[٥].

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٣٢.
(٢) روح المعاني ٢٣/ ٢.
(٣) لسان العرب (خمد) ٤/ ١٤٤.
(٤) القاموس المحيط (خمد) ١/ ٢٩٢.
(٥) المصباح المنير (خمد) ١/ ١٨١.

وفي (أساس البلاغة): «نار خامدة وقد خمدت خمودًا: سكن لهبها وذهب حسيسها» [(١)].

يتضح مما مر أن الفعل (خمد) يحمل المعاني الآتية:

١ ـ يقال: خمدت النار، أي سكن لهبها ولم يطفأ جمرها.

٢ ـ وقيل أيضًا: خمدت النار، إذا ماتت ولم يبقَ منها شيء.

٣ ـ ويقال: خمد القوم، إذا سكتوا فلا تسمع لهم حسًّا.

٤ ـ وخمد القوم: سكتوا وماتوا وصاروا بمنزلة الرماد الخامد الهامد.

أما همود النار فهو انطفاؤها وعدم بقاء أثر منها.

جاء في (لسان العرب): «وهمدت النار تهمد همودًا: طفئت طُفوءًا وذهبت البتة فلم يبن لها أثر...

الأصمعي: خمدت النار: إذا سكن لهبها، وهمدت همودًا إذا طفئت البتة» [(٢)].

وجاء في (القاموس المحيط): «الهمود: الموت وطفوء النار أو ذهاب حرارتها» [(٣)].

وجاء في (المصباح المنير): «همدت النار همودًا من باب قعد: ذهب حرها ولم يبق منها شيء» [(٤)].

واختيار الخمود على الهمود أنسب من عدة نواح منها:

١ ـ أن في ذلك إشارة إلى سرعة سكونهم وانقطاع حركتهم، فإن

---

(١) أساس البلاغة (خمد) ٢٥٠.

(٢) لسان العرب ٤/ ٤٤٨ (همد).

(٣) القاموس المحيط (همد) ١/ ٣٤٨.

(٤) المصباح المنير (همد) ٢/ ٦٤.

الخمود أسرع من الهمود ؛ ذلك أن إطفاء السراج والشعلة إنما يكون في أسرع وقت .

جاء في (التفسير الكبير) : «والخمود في أسرع زمان فقال : (خامدين) بسببها ، فخمود النار في السرعة كإطفاء سراج أو شعلة» [١] .

٢ ـ بيان أن حركتهم وأصواتهم قد خمدت فلا تسمع لهم حسًّا وذلك بعد التوعد والتهديد والضجيج والصخب الذي ملأ القرية ، وبعد البطش والتنكيل بالرجل الناصح . بعد كل ذلك إذا هم ساكتون خامدون لا تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزًا .

٣ ـ ثم إن اختيار الخمود مناسب لقوله : ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ وذلك أنه إذا كان في موضع ما ضجيج وصياح وصخب فإنه لا يسكته إلا صوت أو صيحة أعلى منه . فصاح بهم صيحة أسكتتهم وأخمدتهم .

٤ ـ إن في اختيار الخمود على الهمود إشارة إلى البعث بعد الموت ، فإن الخمود لا يعني الفناء وإنما يعني ذهاب اللهب والحرارة وبقاء الجمر ، فكأن ذلك إشارة إلى مفارقة الأرواح للأبدان وليس فناءها .

جاء في (روح المعاني): «ولعل في العدول عن (هامدون) إلى (خامدون) رمزًا خفيًّا إلى البعث بعد الموت» [٢] .

٥ ـ اختيار الخمود على الهمود فيه صورة فنية أخرى ، وهي صورة الجمر الذي يغطيه الرماد ، وهي شبيهة بحالة الجثة التي يعلوها تراب القبر ، وفيها إشارة إلى أنهم يحترقون بالنار في داخلها وإن كان لا يظهر ذلك للناظرين .

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٦٢ .

(٢) روح المعاني ٢٣/ ٢ ـ ٣ .

٦ ـ ومن معاني الخمود: الموت أيضًا كالهمود ، فأعطى الخمود معنى الهمود مع معان أخرى لا يؤديها الهمود كسرعة الهلاك والسكوت بعد الصيحة ، والرمز الخفي إلى البعث بعد الموت وأن ظاهرهم ساكن بارد وحقيقتهم نار تحرق.

فكان اختيار الخمود أولى والله أعلم.

* * *

﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

* * *

﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ ﴾

الحسرة: أشد الندم ، والغم يركب الإنسان حتى يكون حسيرًا منقطعًا لا يستطيع فعل شيء لتدارك ما فاته.

جاء في (لسان العرب): «الحسرة: أشد الندم حتى يبقى النادم كالحسير من الدواب الذي لا منفعة فيه» (١).

وقال الزجاج: «الحسرة أمر يركب الإنسان من كثرة الندم على ما لا نهاية له حتى يبقى حسيرًا» (٢).

و«الحسرة على ما قال الراغب: الغم على ما فات والندم عليه ، كأن المتحسر انحسر عنه قواه من فرط ذلك أو أدركه إعياء عن تدارك ما فرط منه» (٣).

ومعنى: ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ ﴾ على أشهر الأقوال أنه نداء للحسرة

---

(١) لسان العرب (حسر) ٥/ ٢٦٢.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٣٢.

(٣) روح المعاني ٢٣/ ٣.

مجازًا ، أي أقبلي يا حسرة فهذا وقت حضورك .

جاء في (الكشاف) في قوله : ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ﴾ : «نداء للحسرة عليهم ، كأنما قيل لها : تعالي يا حسرة فهذه من أحوالك التي حقك أن تحضري فيها وهي حال استهزائهم بالرسل ، والمعنى : أنهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون ويتلهف على حالهم المتلهفون ، أو هم متحسر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين» (١) .

ويقوي الدلالة على النداء قوله تعالى : ﴿ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ [الفرقان : ١٣ ـ ١٤] ، وقوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴾ [الانشقاق : ١٠ ـ ١١] .

ومعنى دعاء الثبور مناداته للحضور بأن يقولوا : واثبوراه ، أو : يا ثبوراه ، أي احضر يا ثبور فهذا وقتك وحينك .

والثبور : الهلاك (٢) .

ولا يقصد حقيقة النداء ولكن المقصود بيان أن العباد أوقعوا أنفسهم في أمر عظيم لا يستطيعون منه مخرجًا تركبهم منه الحسرة مركبًا عظيمًا لا تفارقهم ، وينالهم من الغم والندم ما يملأ نفوسهم ، فليس في نفوسهم مكان لغير الكرب والندم ، وليس فيها موضع استرواح رائحة أمل ولا تنسم نسمة فرج ، فهم متحسرون نادمون منقطعون لا تفارقهم الحسرة والندم والغم أبد الأبدين .

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨٦ ، وانظر التفسير الكبير ٢٦/ ٦٢ ، البحر المحيط ٧/ ٣٣٢ ، روح المعاني ٢٣/ ٣ .

(٢) انظر الكشاف ٢/ ٤٠١ ، ٣/ ٣٢٥ ، البحر المحيط ٦/ ٤٨٥ ، ٨/ ٤٤٧ ، روح المعاني ١٨/ ٢٤٤ ، ٣/ ٨١ .

وعبر بذلك تفظيعًا لما يصيبهم ، وهو نظير قولنا عن شخص وقد عمل عملاً نعلم أنه سيلحقه منه خسران كبير: يا خسارته ، يا ويله مما سيحصل ، نقول ذلك استفظاعًا لما يصيبه واستعظامًا له .

والعباد هم المكذبون بالرسل المستهزئون بهم .

جاء في (التفسير الكبير): «من المتحسر؟

نقول فيه وجوه:

(الأول): لا متحسر أصلاً في الحقيقة ، إذ المقصود بيان أن ذلك وقت طلب الحسرة حيث تحققت الندامة عند تحقق العذاب .

وههنا بحث لغوي ، وهو أن المفعول قد يرفض رأسًا إذا كان الغرض غير متعلق به ، يقال: (إن فلانًا يعطي ويمنع) ولا يكون هناك شيء معطى، إذ المقصود أن له المنع والإعطاء، ورفض المفعول كثير، وما نحن فيه رفض الفاعل وهو قليل، والوجه فيه ما ذكرنا، أن ذكر المتحسر غير مقصود ، وإنما المقصود أن الحسرة متحققة في ذلك الوقت .

(الثاني): أن قائل (يا حسرة) هو الله على الاستعارة تعظيمًا للأمر وتهويلاً له حيث يكون كالألفاظ التي وردت في حق الله كالضحك والنسيان والسخر والتعجب والتمني .

أو نقول: ليس معنى قولنا: يا حسرة ويا ندامة ، أن القائل متحسر أو نادم ، بل المعنى أنه مخبر عن وقوع الندامة ولا يحتاج إلى تجوز في بيان كونه تعالى قال: (يا حسرة) بل يخبر به على حقيقته إلا في النداء فإن النداء مجاز والمراد الإخبار» [١] .

وجاء في (تفسير ابن كثير): «﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ أي يا ويل العباد ،

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٦٢ ـ ٦٣ .

وقال قتادة: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ أي يا حسرة العباد على أنفسهم على ما ضيعت من أمر الله وفرطت في جنب الله» [(١)].

وجاء في (روح المعاني): «ولعل الأوفق للمقام المتبادر إلى الأفهام نداء حسرة كل من يتأتى منه التحسر، ففيه من المبالغة ما فيه» [(٢)].

* * *

﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾

وهذا بيان سبب الحسرة والندم.

قوله: (من رسول) يفيد الاستغراق، والمعنى: أنه لم يسلم رسول من الاستهزاء.

وقد تقول: ولم قال ههنا: (من رسول) وقال في الزخرف: (من نبي)؟

فنقول: إن كل لفظة ناسبت الموطن الذي وردت فيه.

فقد قال في الزخرف ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ٦ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الزخرف: ٦ ـ ٧].

فقوله: (كم أرسلنا) يفيد التكثير، فإن (كم) هذه خبرية وهي تفيد التكثير، والأنبياء أكثر من الرسل، فإن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً، فناسب كلمة (نبي) كم الخبرية.

جاء في (ملاك التأويل): «لما تقدم في آية الزخرف لفظ (كم) الخبرية، وهي للتكثير، ناسب ذلك كله من يوحى إليه من نبي مرسل أو نبي غير مرسل. فورد هنا ما يعم الصنفين عليهم السلام» [(٣)].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٧٠.

(٢) روح المعاني ٢٣/ ٤.

(٣) ملاك التأويل ٢/ ٥٨٤.



وتقديم (به) على الفعل للاهتمام ، إذ المفروض أن يستقبل العباد رسولهم بالطاعة والاستجابة والإكرام لأنه مرسل إليهم من ربهم ولكنهم استقبلوه بالاستهزاء والسخرية .

وذهب صاحب (روح المعاني) إلى أن هذا التقديم للحصر الادعائي أو لمراعاة الفاصلة. قال: «و(به) متعلق بيستهزئون ، وقدم عليه للحصر الادعائي ، وجوز أن يكون لمراعاة الفواصل» [(١)] .

ومعلوم أن تقديم المعمول على عامله لا يقتصر على معنى الحصر .

نعم إن إرادة الحصر فيه كثيرة ولكن قد يكون التقديم لغير ذلك من مواطن الاهتمام وذلك كقوله تعالى : ﴿ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، فإن التقديم هنا لا يفيد الحصر ، إذ الاهتداء لا يقتصر على النجوم ، بل إن وسائل الاهتداء كثيرة قال تعالى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥] ، فذكر من وسائل الاهتداء الجبال والأنهار والسبل[(٢)] .

والأظهر فيما نرى أن التقديم ههنا إنما هو للعناية والاهتمام ، ويجوز أيضًا أن يكون لما ذكره صاحب (روح المعاني) والله أعلم.

* * *

﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

أي ألم يعلموا كثرة إهلاكنا للأمم الماضية فيتعظوا ، و(كم) خبرية تفيد التكثير ، والقرون جمع قرن وهو الأمة .

وفي الآية مسائل :

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٤ .

(٢) انظر كتابنا (الجملة العربية تأليفها وأقسامها) .

١ ـ أنه قال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ وفي مكان آخر قال: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ [السجدة: ٢٦].

٢ ـ وقال ههنا: (قبلهم) وقال في مكان آخر: (من قبلهم).

٣ ـ وقال ههنا: (من القرون) وقال في مكان آخر: (من قرن) فأفرد.

٤ ـ وقال ههنا: (قبلهم من القرون) فقدم الظرف على القرون.

وفي مكان آخر قدم القرون على الظرف فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]، وقال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [يونس: ١٣].

فما سر هذا الاختلاف؟

فنقول:

١ ـ إن معنى (ألم يهد لهم): (ألم يتبين لهم)، ومعنى (ألم تر) و(ألم يهدِ لك) متقاربان إلى حد كبير، ولكن القرآن خص كل تعبير بموطن، فقد استعمل الرؤية في نحو هذا في موطنين وهما آية (يس) هذه، والموطن الآخر قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

واستعمل (ألم يهد) في موطنين أيضًا وهما قوله تعالى في سورة السجدة: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦]، وقوله في سورة طه: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ١٢٨].

والملاحظ أنه يستعمل فعل الرؤية في سياق ذكر العقوبات الدنيوية

فيقول: (ألم يروا) ولعل ذلك لأن عقوبات الدنيا يمكن أن ترى آثارها.

أما في سياق الآخرة وأحوالها وعقابها فيستعمل: (ألم يهد لهم) ولعل ذلك ـ والله أعلم ـ أنه من باب الهداية العقلية والتبصر الذهني وهو ألصق بالهداية والتبين من الرؤية.

وإليك إيضاح ذلك.

فإنه بعد أن ذكر عقوبة أهل القرية في سورة (يس) بقوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ ، قال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ [يس: ٣١].

وقال في سورة الأنعام: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ٥] فحذرهم، ثم ذكر الآية: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا...﴾ [الأنعام: ٦] بعدها. وفيها قوله: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦]، ثم يلفت نظرهم إلى ما أوقعه من عقوبات على الأمم المكذبة قبلهم وذلك نحو قوله:

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝١٠ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١٠ ـ ١١].

فأنت ترى أن الآية ذكرت في سياق العقوبات الدنيوية فذكر (ألم يروا).

وأما قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ [السجدة: ٢٦]، فقد جاء في سياق أحوال الآخرة. قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ۝١٨ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٩ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ١٨ ـ ٢٠].

وقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ﴾ [السجدة: ٢٥ ـ ٢٦].

فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ في سياق ذكر أحوال الآخرة.

وكذلك الحال في آية طه، فقد قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ. . . ﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٨].

فقال: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ في سياق أحوال الآخرة أيضًا ولم يذكر شيئًا من العقوبات الدنيوية.

٢ ـ وأما قوله: (قبلهم) و(من قبلهم) فإن (من) تفيد ابتداء الغاية، فتفيد الزمن الذي قبل المعنيّين بالضمير مباشرة فما قبله. وأما (قبلهم) فيفيد الزمن القريب والبعيد كما هو معلوم. فقوله: ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم ﴾ فيه تهديد وتوعد أكبر من قوله: (قبلهم) من دون (من)؛ وذلك لأن إهلاك القريب أدعى إلى الموعظة والعبرة من إهلاك البعيد، وهو أشد تأثيرًا في النفوس، فكلما كان الهالك أقرب زمنًا إلى الشخص كان أدعى إلى الموعظة من ذوي الأزمان السحيقة، ولذلك هو يستعمل (من قبلهم) في مواطن التهديد والتوعد الشديد. وإليك بيان ذلك:

قال تعالى في سورة (يس): ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾.

وقال في السجدة: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ

إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة: ٢٦ ـ ٢٧].

ولو نظرنا في سياق الآيتين لاتضح لنا أن التهديد في السجدة أكبر وأشد مما في (يس) وذلك من جملة نواح، منها:

١ ـ أنه قال في السجدة: ﴿ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ﴾ أي يمرون عليها ويمشون فيها ويبصرونها، وذلك أدل على التوعد وأدعى للموعظة والعبرة، فإن دخول مساكن المهلكين والمشي فيها يبعث آثارًا عميقة في النفس، والتهديد بأن مصيرهم كمصير أولئك أوضح.

٢ ـ قال في السجدة: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ﴾، ولم يقل مثل ذلك في (يس).

٣ ـ أنه عقب بعد ذلك بقوله: ﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ تقريعًا لهم، أي ألا يسمعون حديثهم وأخبارهم؟.

٤ ـ ثم قال بعدها: ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ زيادة في التقريع.

٥ ـ وقد تهددهم وتوعدهم قبل هذه الآية بأن يذيقهم العذاب في الدنيا قبل عذاب الآخرة بقوله: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة: ٢١]، ولم يقل مثل ذلك في (يس).

٦ ـ ذكر من آثار رحمة الله ونعمه عليهم في سورة (يس) من إخراج الحبوب وإنشاء الجنات وتفجير العيون ما لم يذكره في سورة السجدة، فإنه لم يذكر في السجدة إلا إخراج الزرع الذي يأكل منه الأنعام والناس.

فكان المقام والسياق في السجدة يدل على التهديد والتوعد أشد مما هو في سورة (يس)، فجاء بـ(قبلهم) في (يس)، و(من قبلهم) في السجدة.

ونحو ذلك قوله تعالى في سورة (ص): ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣].

وقوله في سورة (ق): ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق: ٣٦].

فقال في (ص): ﴿ مِن قَبْلِهِم﴾، وقال في (ق): ﴿ قَبْلَهُم﴾.

ومن النظر في السياق الذي وردت فيه كل من الآيتين يتضح أن التوعد والتهديد في (ص) أشد مما في (ق)، فإنه في (ق) لم يزد على أن قال بعد هذه الآية: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، ثم انتقل إلى أمر آخر، ثم إلى الحشر في الآخرة.

وأما في (ص) فإن السياق يختلف، فقد ذكر من موجبات توعدهم ما لم يذكره في (ق)، فقد قال بعد هذه الآية: ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۝ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ۝ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ [ص: ٤ ـ ٨].

١ ـ فقد ذكر أنهم قالوا: هذا ساحر كذاب.

٢ ـ وتعاهد الملأ على نصرة الآلهة وتواصوا بذلك.

٣ ـ وقالوا إن ما أتى به الرسول إنما هو اختلاق وكذب.

٤ ـ وعجبوا كيف ينزل عليه الذكر من بينهم.

في حين لم يزد في (ق) على أن قال: ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢]، واستبعدوا البعث بقولهم: ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]، وليس فيها مثل تلك الخصومة والمواجهة.

وعلاوة على ذلك فقد توعدهم بالعذاب بقوله: ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾ [ص: ٨] ، أي لم يذوقوه بعد وسيذوقونه.

ثم تهددهم مرة أخرى بقوله: ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ﴾ [ص: ١٥].

فالفرق بين المقامين واضح ، فإن موقف الكفار من الرسول في (ص) أشد وكان تهديده وتوعده لهم أشد ، فقال في (ص): (من قبلهم) ، وقال في (ق): (قبلهم).

فاتضح الفرق بين قوله: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم﴾ و﴿مِن قَبۡلِهِم﴾.

وهناك أمر آخر حسّن قوله: (قبلهم) في سورة (يس) إضافة إلى ما ذكرناه ، وهو أنه قال في ختام الآية: ﴿أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ وذلك ليدل على أن الأمم لا ترجع إلى الدنيا وإن تطاول عهدها بالفناء وابتعد زمانها ، وأن الأمم الهالكة جميعها لا تعود إلى الدنيا ، وليس ذلك مختصًّا بما زمنه قريب منهم ، فإنه لم ترجع أمة أبيدت وأهلكت منذ أول الدنيا إلى الآن ، ولن ترجع إليها في المستقبل ، وإنما سيجمعها ربها ويرجعها إليه. وهذا أدعى إلى حذف (من) ليشمل جميع الأمم ابتداء من أول الدنيا.

٣ ـ وأما تقديم الظرف (قبلهم) على (القرون) أو تأخيره عنها فذلك بحسب القصد ، فإنه إذا أراد تهديد المشركين قدم (قبلهم) فيقول مثلاً: ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ ﴾ أو ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ ﴾. وإن لم يرد ذلك قدم القرون على الظرف فيقول مثلاً ﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ ﴾ [الإسراء: ١٧] ، أو ﴿ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ [يونس: ١٣].

فتقديم ما يتعلق بهم وهو الزمن المضاف إليهم يعني تهديدهم ،

بخلاف تأخيره فإنه لا يفيد ذاك. وكل ما ورد بقصد التهديد تقدم فيه الظرف على القرون نحو قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ [السجدة: ٢٦]، وقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم: ٧٤]، وذلك في ثمانية مواطن من القرآن الكريم.

وقدم القرون على الظرف (قبلهم) في موطنين وهما:

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ [يونس: ١٣].

أما قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ فليس الموطن موطن تهديد لقوم الرسول، وإنما الكلام على مَن بعد نوح من القرون، قال تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ۝١٦ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ۝١٧ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝١٩ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ١٥ ـ ٢٠].

فليس المقام مقام تهديد لقوم الرسول خاصة.

وأما قوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ فهو ليس تهديدًا لهم أيضًا، كما أنه ليس السياق أو المقام في ذلك. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٣ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٣ ـ ١٤].

ويدل على أن المقام ليس مقام تهديد بالإهلاك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ



جَعَلْنَكُمْ خَلَتِيفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فالمقام في جعلهم خلائف من بعدهم لا في إهلاكهم.

فاتضح الفرق.

٤ ـ وأما إفراد القرون وجمعها بعد (كم) فإن ذلك إنما يكون لغرض فإنه يفرد إذا كان يريد ذكر صفة القرن المهلك أو حالة من حالاته أو لأي سبب آخر يقتضيه السياق.

ويجمع إذا لم يرد ذلك وإنما يريد ذكر المجموع على العموم، أو يريد أن يبين أن هذه القرون المهلكة سيحييها ربها ويجمعها أو لأي سبب آخر يقتضيه السياق.

وإليك إيضاح ذلك:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

فهو ذكر صفة القرن الذي أهلكه بقوله:

١ ـ مكنّاهم في الأرض ما لم نمكن لكم.

٢ ـ أرسلنا السماء عليهم مدرارًا.

٣ ـ وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم.

ثم ذكر بعد ذلك أنه أنشأ بعده قرنًا آخرين، فأهلك قرنًا وأنشأ بعده قرنًا آخر.

فناسب ذلك الإفراد.

وقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم: ٧٤].

فوصف القرن المهلك بأنه أحسن أثاثًا وأحسن منظرًا.

وقال في (ق): ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ [ق: ٣٦].

فذكر صفة القرن بأنهم أشد بطشاً من الكفرة في زمن الرسول وأنهم نقبوا في البلاد.

وقال في (ص): ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ [ص: ٣]، أي فجأروا وصاحوا وصرخوا واستغاثوا.

فذكر حالتهم هذه عند الإهلاك.

وقد تقول: ربما كان هذا شأن المهلكين جميعاً.

فنقول: ليسوا كلهم كذلك بدليل قوله تعالى في سورة (يس) في أصحاب القرية: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾.

وقال في آخر سورة مريم: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم: ٩٨].

والسياق يقتضي الإفراد، ذلك أنه قال قبل هذه الآية: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٩٣ ـ ٩٥].

فأنت ترى أن السياق في الإفراد، فقد ذكر أنه سبحانه أحصى كل من في السماوات والأرض واحدًا واحدًا وعدّهم عدًّا، وإن كل واحد منهم سيأتيه يوم القيامة فردًا.

فناسب ذلك الإفراد، فأفرد القرن لذلك، والله أعلم.

في حين قال: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [يس: ٣١].

وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي

﴿مَسَٰكِنِهِمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦].

وقال: ﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ١٢٨].

وقال: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ [الإسراء: ١٧].

فذكر القرون على العموم من دون تخصيص قرن منها أو مجموعة منها بأمر معين.

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى أنه قد يذكر القرون مجموعة في مقام ذكر الآخرة؛ لأنه سيحييها كلها ويجمعها فقال في سورة (يس): ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٣١ وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾.

فذكر أنه سيجمعها كلها ويحضرها لديه سبحانه.

وقال في سورة السجدة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٢٥ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ﴾.

فذكر سبحانه أنه يفصل بينهم يوم القيامة.

وقال في سورة طه: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ١٢٧ أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾.

فأنت ترى أنه ذكر القرون مجموعة في هذه الآيات في سياق ذكر الآخرة.

أو يكون السياق يقتضي الجمع لأمر آخر وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾.

فأنت ترى أنه ذكر القرون من دون وصف لها، وقد أراد بيان كثرة القرون المهلكة المتطاولة من بعد نوح. ثم إن السياق لم يخل من إشارة إلى الآخرة، فقد جاء بعد هذه الآية:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ٢١].

وقد تقول: إن صيغتي الجمع والإفراد كافيتان في التفريق بينهما ولا حاجة إلى هذه الإطالة.

فنقول: لولا ورودهما بعد (كم) الخبرية لم نكلف أنفسنا بتسويد سطر واحد، ولكن المفرد بعد (كم) الخبرية لا يدل على الواحد، وإنما يدل على الكثرة، فقولك: (كم رجلٍ أكرمت) لا يدل على أنك أكرمت رجلاً واحدًا وإنما يدل على إكرام الكثير، فكان المفرد ههنا دالاً على الجمع فاقتضى التفريق بينهما، والله أعلم.

* * *

﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾

والمعنى: ألم يروا أنهم لا يرجعون إليهم؟

وقدم الجار والمجرور (إليهم) لإرادة الاختصاص ، أي لا يرجعون إليهم بل إلينا ، وفيه إلماح إلى الحشر والحياة بعد الموت. وأكد ذلك بالآية بعدها: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ فقد أثبت الحشر ضمنًا بتقديم الجار والمجرور ، وصرح بذلك في الآية بعدها.

ونفى بـ (لا) دون (لم) للدلالة على أن الرجوع إلى الدنيا مرة ثانية لا يكون أصلاً لا في زمن المخاطبين ولا في المستقبل ، ولو نفاه بـ (لم) لكان نفى الرجوع في الماضي دون المستقبل.

* * *

﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

لما بيّن أن المهلكين لا رجعة لهم إلى الدنيا ذكر أنهم كلهم راجعون إليه محضرون لديه. وفي الآية تنبيه على أن من أهلكه الله في الدنيا وعاقبه لا يتركه سدى بل سيرجعه إليه ويحاسبه ويعاقبه.

جاء في (التفسير الكبير): «لما بين الإهلاك بين أنه ليس من أهلكه الله تركه ، بل بعده جمع وحساب وحبس وعقاب» [١].

و(إنْ) نافية ، و(لما) بمعنى (إلا).

و(كل) مبتدأ ، وخبره (جميع) ، وليست (جميع) ههنا بمعنى (كل) وإنما معنى (جميع) ههنا (مجموعون) فهي فعيل بمعنى اسم المفعول. والمعنى أن كلهم مجموعون محضرون. و(جميع) قد تكون بمعنى مجموعين ، وبمعنى مجتمعين ، تقول: قوم جميع أي مجتمعون[٢]. وتقول: (الطلاب جميع) أي الطلاب مجتمعون ، و(نحن جميع) أي

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٦٤.

(٢) انظر لسان العرب (جمع) ٩/ ٤٠٤.

مجتمعون ، فهذا كلام تام .

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: كيف أخبر عن (كل) بجميع ، ومعناهما واحد؟

قلت: ليس بواحد ؛ لأن كلاً يفيد معنى الإحاطة وأن لا ينفلت منهم أحد .

والجميع معناه الاجتماع ، وأن المحشر يجمعهم ، والجميع: فعيل بمعنى مفعول ، يقال: حي جميع ، وجاؤا جميعًا» (١) .

والمقصود بـ (محضرون) أنهم محضرون للحساب ، و(لدينا) ظرف قدم على متعلقه (محضرون) لإفادة الحصر ، بمعنى أن الإحضار لديه وليس لدى غيره . وهو نظير تقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ .

و﴿مُحْضَرُونَ﴾ إما خبر ثان أو نعت لـ (جميع) على المعنى ، ويصح إفراده حملاً على اللفظ فيقال: (وإنْ كل لما جميع لدينا محضر) كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤] .

وقد تقول: ولم حمل على المعنى في (يس) وحمل على اللفظ في القمر؟

فنقول: لما ذكر القرون المهلكة الكثيرة في (يس) ناسب أن يجمع فيقول: (محضرون) .

أما في سورة القمر فإنهم فريق واحد أو جمع واحد وليس جموعًا كما قال تعالى بعدها: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥] ، فناسب ذلك الإفراد .

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨٧ وانظر روح المعاني ٢٣/ ٦ .



ثم إن الانتصار إنما هو وصف للفريق كله أو للجمع كله وليس لكل فرد. فيقول الفريق المنتصر أو الجيش المنتصر: (نحن انتصرنا) أو (جيشنا انتصر). ولا يقول الجندي: أنا انتصرت. فالنصر وصف للمجموع لا لكل فرد على حدة، فوحد الوصف لأنه وصف للفريق أو للجمع لا لأفراده واحدًا واحدًا. بخلاف الإحضار للحساب أمام الله فإن كل فرد سيحضر أمام ربه ويمثل للحساب كما قال تعالى: ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥]، فناسب الجمع في (يس) من جهة أخرى.

وقد تقول: ولم قال إذن في سورة الشعراء: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾ [الشعراء: ٥٦]، فجمع ولم يفرد؟

والجواب: أن ذلك لأكثر من سبب ويدلك عليه السياق، قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٣ ـ ٥٦].

فإن فرعون أرسل في المدائن المتعددة أناسًا يحشرون الناس ويجمعونهم يبلغونهم قرار فرعون المذكور، فهم جموع متعددة لا جمع واحد، فناسب الجمع من جهة.

ومن جهة أخرى لم يقل: (وإنا لجميع حاذر) لأنه لم يرد أن يجعل الحذر وصف الفريق على العموم، بل أراد أن يجعله وصفًا لكل فرد، فكل فرد بعينه ينبغي أن يكون حاذرًا، فهو ليس مثل (نحن جميع منتصر) الذي هو وصف الجمع لا وصف الأفراد، فإن هذا وصف كل فرد في المجموع.

فناسب الجمع ههنا.

فاتضح أن كل تعبير هو أنسب في مكانه، والله أعلم.

* * *

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

لما ذكر الحشر في الآية السابقة وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ ذكر الدليل على إمكان وقوعه وعلى أن ذلك بمقدوره سبحانه ، فاستدل بإحياء الأرض الميتة وإخراج الحب والجنات فيها فقال: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا ﴾ ومعنى الآية العلامة والدليل ، فجعل إحياء الأرض الميتة دليلاً على إحياء الموتى في الآخرة .

ولا يقتصر الاستدلال بهذه الآية على إحياء الموتى ، وإنما فيها دلائل على أمور أخرى ، منها توحيد الله وقدرته البالغة ورحمته ، فذكر جملة من نعمه عليهم .

جاء في (التفسير الكبير): «﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ﴾ : وفيه مسائل :

(المسألة الأولى): ما وجه تعلق هذا بما قبله؟ .

نقول: مناسب لما قبله من وجهين :

(أحدهما): أنه لما قال (وإن كل لما جميع) كان ذلك إشارة إلى الحشر ، فذكر ما يدل على إمكانه قطعًا لإنكارهم واستبعادهم وإصرارهم وعنادهم ، فقال: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا ﴾ كذلك نحيي الموتى .

(وثانيهما): أنه لما ذكر حال المرسلين وإهلاك المكذبين وكان شغلهم التوحيد ، ذكر ما يدل عليه ، وبدأ بالأرض لكونها مكانهم لا مفارقة لهم عند الحركة والسكون . . .

وأما بالنسبة إلى التوحيد فلأن فيه تعدد النعم ، كأنه يقول: آية لهم

الأرض ، فإنها مكانهم ومهدهم الذي فيه تحريكهم وإسكانهم والأمر الضروري الذي عنده وجودهم وإمكانهم ، وسواء كانت ميتة أو لم تكن فهي مكان لهم لابد لهم منها فهي نعمة .

ثم إحياؤها بحيث تخضر نعمة ثانية فإنها تصير أحسن وأنزه .

ثم إخراج الحب منها نعمة ثالثة فإن قوتهم يصير في مكانهم . . .

ثم جعل الجنات فيها نعمة رابعة لأن الأرض تنبت الحب في كل سنة ، وأما الأشجار بحيث تؤخذ منها الثمار فتكون بعد الحب وجودًا .

ثم فجرنا فيها من العيون ليحصل لهم الاعتماد بالحصول ، ولو كان ماؤها من السماء لحصل ، ولكن لم يعلم أين تغرس وأين يقع المطر وينزل القطر .

وبالنسبة إلى إحياء الموتى كل ذلك مفيد ؛ وذلك لأن قوله: ﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا ﴾ كالإشارة إلى الأمر الضروري الذي لا بد منه ، وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ ﴾ كالأمر المحتاج إليه الذي إن لم يكن لا يغنِ الإنسان عنه لكنه يبقى مختل الحال .

وقوله: ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴾ إشارة إلى الزينة التي إن لم تكن لا تغن الإنسان ولا يبقى في ورطة الحاجة لكنه لا يكون على أحسن ما ينبغي» [١] .

لقد قال: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ﴾ فجعل الآية لهم مع أنها لا تخصهم وحدهم بل هي آية لعموم العقلاء من خلق الله ؛ وذلك لأنهم ينكرون الحياة بعد الموت ، ولأنهم مشركون لا يقرون بالتوحيد ، فحاجّهم بما يدل على إحياء الموتى وبما يدل على التوحيد .

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٦٥ ـ ٦٦ .

جاء في (التفسير الكبير): «الأرض آية مطلقًا فلم خصصها بهم حيث قال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾؟

نقول: الآية تعدد وتسرد لمن لم يعرف الشيء بأبلغ الوجوه، وأما من عرف الشيء بطريق الرؤية لا يذكر له دليل» [١].

والضمير في (لهم) يعود على أهل مكة ومن يجري مجراهم في إنكار الحشر [٢].

وقدم (آية) وهي الخبر على المبتدأ وهي الأرض ولم يقل (والأرض الميتة آية لهم) وذلك لأن الكلام على العلامات الدالة على قدرته وليس الكلام على الأرض. وقد ساق الليل والنهار والشمس والقمر دلائل على قدرته وليس لذاتها ولذا قال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ . . . وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ . . . وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

ثم إنه قدم الآية على الجار والمجرور فقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ للدلالة على أنها آية لهم ولكنها لا تخصهم وحدهم، ولو قدم الجار والمجرور فقال: (ولهم الأرض الميتة آية) لكان ذلك يعني تخصيص الآية بأنها لهم دون غيرهم، في حين أنها آية للجميع وليست آية خاصة بهم. فالتقديم في نحو هذا أكثر ما يفيد التخصيص وذلك نحو قوله تعالى: ﴿هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: ٧٣]، فقدم (لكم) على (آية) لأنها آية خاصة بهم دون غيرهم.

ونحوه قوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ [آل عمران: ٤١]، فقدم الجار والمجرور لأنه طلب آية خاصة به دون غيره.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٦٥.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٣٤، روح المعاني ٢٣/ ٦.

وبدأ بذكر الأرض لأنها مسكنهم ومستقرهم[١].

* * *

﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾

بدأ بالحب لأنه طعام الإنسان وقوته وهو أهم ما يأكله البشر ، وهم من دونه جياع ، وإذا فقد الحب هلك الناس.

وقدم الجار والمجرور (منه) على الفعل (يأكلون) لأهميته ، ولبيان أن البشر إنما يأكلون منه ، ولا يكون قوت من دون حب ، وهو من أجلّ النعم ، وكأن الأكل لا يكون إلا منه.

جاء في (الكشاف): «﴿ فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ بتقديم الظرف للدلالة على أن الحب هو الشيء الذي يتعلق به معظم العيش ويقوم بالارتزاق منه صلاح الإنس ، وإذا قلّ جاء القحط ووضع الضر ، وإذا فقد جاء الهلاك ونزل البلاء»[٢].

وجاء في (روح المعاني): «(فمنه) أي من الحب بعد إخراجنا إياه ، والفاء داخلة على المسبب ، و(من) ابتدائية ، أو تبعيضية ، والجار والمجرور متعلق بقوله تعالى: (يأكلون) والتقديم للدلالة على أن الحب معظم ما يؤكل ويعاش به لما في ذلك من إبهام الحصر للاهتمام به حتى كأنه لا مأكول غيره»[٣].

* * *

---

(١) انظر البحر المحيط ٧/ ٣٣٤.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٨٧.

(٣) روح المعاني ٢٣/ ٧.

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

بعد أن ذكر الحب ـ وهو الأهم ـ ذكر الجنات من النخيل والأعناب ، وهما دون الحب بالنسبة إلى طعام الناس .

والمقصود بالنخيل والأعناب هما الشجر وليس الثمر ، ولذلك قال فيما بعد: ﴿ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ ﴾ ولم يقل: (ليأكلوا منه). ثم إن قوله: (جنات) يدل على ذلك أيضًا .

وقدم شجرة النخيل على العنب لأنها أفضل منها ، فإن فوائد النخلة كثيرة ولا يخلو أي جزء منها من فائدة. ولا تقاس شجرة العنب بالنخلة من حيث الفائدة ، فشجرة العنب ضئيلة الفائدة بخلاف ثمرها .

جاء في (التفسير الكبير): «في المواضع التي ذكر الله الفواكه لم يذكر التمر [بل ذكره] [١] بلفظ شجرته وهي النخلة ، ولم يذكر العنب بلفظ شجرته بل ذكره بلفظ العنب والأعناب ، ولم يذكر الكرم ؛ وذلك لأن العنب شجرته بالنسبة إلى ثمرته حقيرة قليلة الفائدة ، والنخل بالنسبة إلى ثمرته عظيمة جليلة القدر كثيرة الجدوى. فإن كثيرًا من الظروف منها يتخذ وبلحائها ينتفع ولها شبه بالحيوان فاختار منها ما هو الأعجب منها» [٢] .

وقد تقول: ولكنه قدم العنب على النخل في موطن آخر من القرآن الكريم وهو قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣١].

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) التفسير الكبير ٢٦/ ٦٧.

فنقول: لم يتقدم العنب على النخل في القرآن إلا في موطنين:

أحدهما: في آيات عبس هذه.

والموطن الآخر: في سورة الرعد وهو قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤].

أما آيات عبس فإنه ذكر فيها الأطعمة، فقد قال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾، ثم ذكر عددًا منها فذكر الحب والعنب والزيتون. أما النخل فإنه ليس بطعام وإنما هو اسم للشجرة التي تحمل التمر، في حين أن المذكور قبلها هو الثمر. فكل من العنب والزيتون ثمر، والحب طعام، أما النخل فهو شجر، فلما قال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ قدم الأطعمة وأخر الشجر، ولذا جعل النخل بجنب الحدائق فقال: ﴿وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾.

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى أنه رتب المذكورات بحسب الكثرة، فالحب أكثر المذكورات وجودًا وإنتاجًا في العالم، ثم العنب وهو أقل من الحب وأكثر من الزيتون. إن العنب ينبت في أجواء متباينة تباينًا كبيرًا وإنتاجه في العالم أضعاف إنتاج الزيتون.

ثم ذكر الزيتون وهو أقل من العنب.

ثم النخل وهو أقل، وإنتاجه في العالم أقل بكثير من الزيتون، وهو لا يثمر إلا في أجواء خاصة وليس منتشرًا في الأرض انتشار الزيتون.

فرتب الأطعمة بحسب كثرتها في العالم.

أما آية الرعد فإنه ذكر فيها المتجاور من النبات واختلافه في الأُكُل، فبدأ بجنات الأعناب ثم انتهى إلى أقرب المتجاور وهو النخل الصنوان

الذي أصله واحد وهو أقرب من كل متجاورين.

فبدأ بجنات الأعناب وهي قطع متجاورة من البساتين، ثم ذكر ما هو أقرب تجاورًا وهو الزرع في الحقل الواحد أو الحقول المتقاربة.

والزرع أقرب إلى بعضه من أشجار العنب، فإنه إذا كان في حقل واحد فهو أقرب إلى بعضه من الجنات المتعددة وإن كانت متجاورة. ثم إن نبتة الزرع أقرب إلى أختها من أشجار الكرم، إذ إن أشجار الفاكهة ينبغي أن تتباعد عن بعضها ليكثر ثمرها ويحسن، والزرع لا يحتاج إلى مثل ما يحتاج إليه الشجر من المسافات.

ثم انتهى إلى النخل الصنوان وغيره، وهو أقرب من كل شيء، إذ الصنوان: هو النخل الذي يخرج من أصل واحد، وهي الفسائل المتعددة التي تخرج من أصل النخلة، وهذه أقرب من كل شيء إلى بعضها، فهي أقرب المذكورات تجاورًا.

فرتبها بحسب التجاور، فبدأ بالجنات وانتهى إلى الأشجار التي تخرج من أصل واحد وهي الفسائل التي تخرج من نخلة واحدة.

فكان التقديم بحسب ما يقتضيه السياق.

وقال في الحَبِّ: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ وقال في الثمر: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ﴾ بذكر لام التعليل؛ ذلك أن الناس يأكلون من الحب على الدوام وهم مستمرون على ذلك. أما الفاكهة فليست كذلك فهم لا يأكلون منها على الدوام وإنما يأكلونها في أوانها. ثم إن كثيرًا من الناس ليس بوسعهم أن يأكلوا الفاكهة إلا في أوقات متباعدة. ففرق بين ما هم مستمرون على أكله وما ليس كذلك.

وهناك سؤال وهو أنه لماذا ذكر الأكل بعد ذكر الحب مباشرة فقال: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾، وأخر الأكل عن الثمار إلى ما بعد

ذكر تفجير العيون ولم يجعلها بعد ذكر الجنات مباشرة فقال: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ ﴾؟

قيل: إن سبب ذلك أن الحَبَّ لا يحتاج إلى العيون والأنهار الجارية، وإنما قد يكفيه ماء السحاب، بخلاف الجنات فإنها تحتاج إلى ماء مستديم لسقيها، وذلك يكون من العيون والآبار والأنهار، فحاجة الجنات إلى العيون والماء المستديم أكثر من حاجة الحب، فالعيون أو ما قام مقامها هو الشرط الأول لقيام الجنات، وهو مبدأ قيامها.

جاء في (التفسير الكبير): «لم أخر التنبيه على الانتفاع بقوله: (ليأكلوا) عن ذكر الثمار حتى قال: ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴾ وقال في الحب: ﴿ فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ عقب ذكر الحب، ولم يقل عقب ذكر النخيل والأعناب ليأكلوا؟.

نقول: الحب قوت وهو يتم وجوده بمياه الأمطار، ولهذا يُرى أكثر البلاد لا يكون بها شيء من الأشجار والزرع والحراثة لا تبطل هناك اعتمادًا على ماء السماء، وهذا لطف من الله حيث جعل ما يحتاج إليه الإنسان أعم وجودًا.

وأما الثمار فلا تتم إلا بالأنهار ولا تصير الأشجار حاملة للثمار إلا بعد وجود الأنهار فلهذا أخر» [1].

وقد تقول: ولم أخر ذكر تفجير العيون عن ذكر الحب والفاكهة مع أن الماء سابق لهما وهو شرط لوجودهما؟

والجواب أن ذلك لأكثر من سبب:

١ ـ منها أنه قدم المطعوم على المشروب، وذلك لأن الطعام أهم

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٦٧ وانظر روح المعاني ٢٣/ ٧ ـ ٨.

والحصول عليه أعسر ، والناس يجهدون للحصول عليه ، بخلاف الشرب فإن الحصول عليه أيسر ، فقدم الطعام على المشروب .

وتقديم الطعام على المشروب هو الشائع في القرآن الكريم ، فهو يقدم الطعام على الشراب إذا اجتمعا ، قال تعالى : ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ٦٠] ، وقال : ﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾ [الشعراء : ٧٩] ، وقال : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٣ ـ ٦٤] ، ثم قال بعدها : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٨] ، وكذلك ههنا .

٢ ـ ومنها أن السياق في إحياء الموتى ، فذكر الأرض الميتة وإحياءها وإخراج الحب والجنات منها دليلاً على ذلك ، فقدم ما فيه آية عليه . فإحياء الأرض وإخراج الحب والجنات أدل على ذلك من تفجير العيون .

٣ ـ أنه ذكر الأكل ولم يذكر الشرب ، فقد قال في الحب : ﴿ فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ ، وقال في الجنات : ﴿ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ ﴾ ، ولم يقل في العيون : (ليشربوا منها) فلذلك قدم ما يؤكل وأخر ما لم يجر له ذكر ، هذا إضافة إلى أنه ذكر تفجير العيون لغرض الأكل وهو إحياء الأرض وإنشاء الجنات وليس للشرب ، فقدم ما عليه مدار الكلام والسياق .

٤ ـ أنه قال : ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴾ ، والضمير في (فيها) يعود إما على الجنات أو يعود على الأرض .

فإن عاد على الجنات أي : (وفجرنا في الجنات من العيون) كانت العيون متأخرة عن الجنات في الوجود لأن التفجير كان في الجنات فتكون الجنات سابقة لها ، وعلى هذا تكون العيون متأخرة عنها في الوجود ، فناسب تأخيرها وتقديم ما قدم لسبقه .

وإن كان الضمير يعود على الأرض لا على الجنات أي : (وفجرنا في

الأرض من العيون) فالتفجير لا علاقة له بجنات النخيل والأعناب ؛ لأن التفجير سيكون في الجنات وغيرها ، وقد يكون سابقًا للجنات أو متأخرًا عنها.

٥ ـ إن الماء هو السبب الأول لإخراج الحب والجنات وليست العيون، فإن المهم هو توفر الماء لإنبات الزرع وإخراج الحب والجنات، سواء كان ذلك عن طريق العيون أم عن غيرها. وإن أكثر الجنات في الأرض ليس فيها عيون ماء وإنما تسقى بالماء. أما تفجير العيون فيها فللزيادة في النعمة ، ولذا فالعيون لا ترتبط بالجنات. فقد تكون في الجنات عيون ماء وقد لا تكون. وقد تتفجر عين في جنة من الجنات بعد مدة غير قليلة من وجودها فيكون ذلك زيادة في الخير ، كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ [الكهف: ٣٢ ـ ٣٤]. فذكر الجنتين وأن كلاً منهما آتت أكلها ولم تظلم منه شيئًا ، ثم قال: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ ، مما يدل على أن التفجير كان في زمن متأخر زيادة في الاختبار والابتلاء ، إذ التفجير كان خلال الجنتين.

فلا ارتباط مكانيًا أو زمانيًا لازم بين الجنات والعيون ،إذ قد تكون جنات وليس فيها عيون ماء ، وقد تكون عيون وليس ثمة جنات.

ثم إن الجنات أهم وأفضل من عيون الماء ؛ لأنه بها غذاء الناس وطعامهم ، أما الماء فمقدور عليه في الغالب.

إن الشائع في التعبير القرآني أنه إذا اجتمعت الجنات والعيون قدم الجنات على العيون ، قال تعالى: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٤٦ ـ ١٤٧].

وقال: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الشعراء: ٥٧].

وقال: ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الدخان: ٢٥].

وقال: ﴿ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الشعراء: ١٣٣ ـ ١٣٤].

وقال: ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ [نوح: ١٢].

غير أنه يقدم الماء إذا أراد أن يبين أنه سبب الإنبات كما قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٨ ـ ١٩].

وقال: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾ [ق: ٩].

وقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وقال: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾ [النبأ: ١٤ ـ ١٦].

وغير ذلك.

فحسن تقديم ما قدم من الحَبِّ والجنات من كل وجه، والله أعلم.

ثم لننظر من ناحية أخرى أنه قال: ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا ﴾ بتضعيف العين للدلالة على الكثرة، فإن (فعّل) المضعف العين يفيد التكثير والمبالغة، أما الفعل الثلاثي فلا يفيد التكثير، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩١].

فقال: (تَفْجر) بالتخفيف؛ لأنه ينبوع واحد. في حين قال: (فتفجّر

الأنهار) بالتضعيف لأنه ذكر أنهارًا لا ينبوعًا.

وقال تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢] وذلك أنه جعل الأرض عيونًا كلها.

وقد تقول: ولكنه قال: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: ٣٣] بالتشديد.

فنقول: إن ذلك يدل على كثرة الماء في هذا النهر وغزارته مما يدل على كثرة التفجير.

* * *

﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾

تحتمل أن تكون (ما) نافية، أي أن الثمر لم تعمله أيديهم وإنما هو من فعل الله كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ [يس: ٧١]، فالثمر لم تعمله أيدي الناس وإنما عملته يد القدرة الإلهية.

وتحتمل أن تكون اسمًا موصولاً أيضًا، والمعنى: (ليأكلوا من ثمره ومن الذي عملته أيديهم).

والموصولة تكون على أكثر من معنى.

من ذلك أن المعنى: ليأكلوا من ثمره ومما يعملون من الثمار من الشراب والدبس وغيرهما مما يعمله الناس من الثمار.

وقيل: إن المعنى على الموصولة: ليأكلوا مما عملته أيديهم من الغرس والسقي والكد والقيام على أمرها حتى تنضج.

وقيل: إن المعنى يحتمل أيضًا أن يذكرنا أن الثمر على نوعين:

قسم لا يدخل فيه عمل الإنسان وإنما يخرجه الله من دون أن تعمل فيه يد الإنسان.

وقسم يتعب فيه الإنسان ويكد من غرس وتعهد وتأبير وما إلى ذلك فتعمل فيه يد الإنسان.

فذكر هنا نوعي الثمر: ما لم تعمل أيديهم وما عملته أيديهم.

والوجه الأول أقوى في معنى الموصولة.

ويترجح عندي معنى النفي، وكلاهما محتمل.

جاء في (الكشاف): «﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ والضمير لله تعالى، والمعنى: ليأكلوا مما خلقه الله من الثمر، ومما (عملته أيديهم) من الغرس والسقي والآبار وغير ذلك من الأعمال إلى أن بلغ الثمر منتهاه وإبان أكله. يعني أَن الثمر في نفسه فعل الله وخلقه، وفيه آثار من كد بني آدم. وأصله (من ثمرنا) كما قال: وجعلنا، وفجرنا، فنقل الكلام من التكلم إلى الغيبة على طريقة الالتفات. ويجوز أن يرجع إلى النخيل وتترك الأعناب غير مرجوع إليها؛ لأنه علم أنها في حكم النخيل فيما علق به من أكل ثمره.

ويجوز أن يراد من ثمر المذكورات وهو الجنات...

ولك أن تجعل (ما) نافية على أن الثمر خلق الله ولم تعمله أيدي الناس ولا يقدرون عليه»[1].

وجاء في (التفسير الكبير): «(ما) في قوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ﴾ من أي الماءات هي؟

نقول: فيها وجوه:

(أحدها) نافية، كأنه قال: وما عملت التفجير أيديهم بل الله فجر.

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨٧.

و(ثانيها) موصولة بمعنى (الذي) كأنه قال: والذي عملته أيديهم من الغراس بعد التفجير يأكلون منه أيضًا ويأكلون من ثمر الله الذي أخرجه من غير سعي من الناس. . .

(المسألة الرابعة): على قولنا (ما) موصولة، يحتمل أن تكون بمعنى: وما عملته ـ أي بالتجارة ـ كأنه ذكر نوعي ما يأكل الإنسان بهما، وهما الزراعة والتجارة. ومن النبات ما يؤكل من غير عمل الأيدي كالعنب والتمر وغيرهما، ومنه ما يعمل فيه عمل صنعة فيؤكل كالأشياء التي لا تؤكل إلا مطبوخة، وكالزيتون الذي لا يؤكل إلا بعد إصلاح»[(١)].

وجاء في (روح المعاني): «﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾: (ما) موصولة في محل جر عطف على (ثمره). . . أي وليأكلوا من الذي عملوه أو صنعوه، والمراد به ما يتخذ من الثمر كالعصير والدبس وغيرهما. . .

وقيل: (ما) نافية وضمير (عملته) راجع إلى الثمر»[(٢)].

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾

أي ألا يستدعي ذلك شكر المنعم الذي أمدهم بهذه النعم الجليلة؟

قال ذلك بصيغة الاستفهام، ولم يقل: (فليشكروا لي) بصيغة الأمر وذلك لأنه أراد أن يقول لهم: ألا يستوجب ذلك شكر ربهم؟

وهو عرض لطلب الشكر مع إنكار لعدم الشكر، وفيه بيان أن عدم شكر المنعم قبيح، وجاء بالفاء الدالة على السبب؛ لأن ما ذكره من النعم السابقة من الدواعي الموجبة للشكر، فالنعم سبب للشكر ومدعاة إليه.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٦٨.

(٢) روح المعاني ٢٣/ ٨.

جاء في (روح المعاني): «﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ إنكار واستقباح لعدم شكرهم للمنعم بالنعم المعدودة بالتوحيد والعبادة. والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أي: أيرون هذه النعم أو أيتنعمون بها فلا يشكرون المنعم بها» (١).

وقد تقول: لقد قال في موطن آخر: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٠]، فجاء بـ (لولا) الدالة على التحضيض وهو الطلب بحث وشدة، وهنا جاء بما يفيد العرض مع استثارة النفوس لشكر المنعم فما الفرق؟.

فنقول: إن السياق في سورة (يس) هو في تعداد النعم وذكر الآيات والدلائل ومظاهر الرحمة بهم.

أما في الواقعة فهو في مقام التحذير والتوعد والتهديد بالعقوبة وزوال النعمة، قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ۝٦٤ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝٦٥ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٦٧ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۝٦٨ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠ ـ ٧٠].

فناسب هذا التهديد والتحذير الحض على الشكر والحث عليه.

فاتضح الفرق.

ثم من الملاحظ أنه أطلق الشكر ولم يقيده، فإن الشكر قد يكون للنعمة وقد يكون للمنعم، قال تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤]، وقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي

(١) روح المعاني ٢٣/٩.

﴿أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ [النمل: ١٩].

فهذا من شكر النعم.

وقد يكون الشكر للمنعم، قال تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقال: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [سبأ: ١٥].

وهنا أطلق الشكر ليتناول شكر النعمة ومولیها.

* * *

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

الأزواج هي الأصناف والأنواع، فذكر الأزواج مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون، فبدأ بالأرض ثم بأنفسهم ثم بما لا يعلمون. ورتب هذه المذكورات بحسب ما يقتضيه السياق، فإنه لما كان الكلام على الأرض فقال: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ بدأ بالأزواج مما تنبت الأرض، ولما كان الناس هم المستفيدين من الأرض، فهم يأكلون من حبها ومن ثمرها وهم سكانها، ذكرهم بعد ذلك فقال: ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ثم ذكر بعد ذلك (ما لا يعلمون) مما لا علاقة لهم به ظاهرة ولا معرفة لهم به.

* * *

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

بعد أن ذكر الأرض واستدل بأحوالها على التوحيد والحشر استدل بالليل والنهار على ذلك فكان استدلاله بالمكان والزمان، فالمكان هو الأرض التي يعيشون عليها، والزمان هو الليل والنهار اللذان يتعاقبان عليهم.

جاء في (التفسير الكبير): «لما استدل الله بأحوال الأرض وهي المكان الكلي استدل بالليل والنهار وهو الزمان الكلي ، فإن دلالة المكان والزمان مناسبة ، لأن المكان لا تستغني عنه الجواهر ، والزمان لا تستغني عنه الأعراض ؛ لأن كل عرض فهو في زمان» (١) .

وقد تقول: لقد قدم الاستدلال بالأرض على الاستدلال بالليل والنهار ، وفي موطن آخر قدم الليل والنهار على الأرض ، فقد قال في سورة (فصلت) ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٧ ـ ٣٩] .

فما السبب؟

والجواب: أن السياق في سورة (يس) هو في الاستدلال على الحشر ، وقد وقعت الآية بعد قوله: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ . والاستدلال بإحياء الأرض الميتة أدل على ذلك من الاستدلال بالليل والنهار وإن كان فيهما استدلال من طريق آخر .

أما الكلام في سورة (فصلت) فهو في توحيد الله وإفراده بالعبادة والنهي عن عبادة غيره ، وقد كان قسم من المشركين يعبدون الشمس والقمر ويسجدون لهما فقال: ﴿ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ ﴾ ، فكان تقديم الليل والنهار وآيتيهما اللتين يسجد لهما طائفة من الناس أولى . بل إن السياق إنما هو في عبادة الله وتوحيده ، فإنه

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/٦٩ .

بعد أن نهى عن السجود للشمس والقمر وعبادتهما ذكر أن الذين عند ربك يعبدون الله ويسبحونه بالليل والنهار. بل إن الأرض التي يعيشون عليها إنما هي خاضعة خاشعة لرب العالمين. واستعمال الخشوع أنسب شيء في هذا المقام فإنه المناسب لمقام العبادة[١].

فكان كل تعبير مناسبًا لمكانه الذي ورد فيه.

جاء في (التفسير الكبير): أن المقصود في سورة (فصلت): «إثبات الوحدانية بدليل قوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ﴾ ثم الحشر بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [فصلت: ٣٩]، وههنا المقصود أولاً إثبات الحشر؛ لأن السورة فيها ذكر الحشر أكثر، يدل عليه النظر في السورة. وهناك ذكر التوحيد أكثر بدليل قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩] إلى غيره، وآخر السورتين يبين الأمر»[٢].

والليل والنهار آية دالة على الموت والنشور، فإن الليل كالموت، والنهار كالحياة، والناس في الليل أموات ينشرهم ربهم في النهار كما أخبر سبحانه بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧].

فكان ذلك مناسبًا للسياق من جهة ثانية.

جاء في (التفسير الكبير): «لو قال قائل: إذا كان المراد منه الاستدلال بالزمان، فلم اختار الليل حيث قال: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ﴾؟

نقول: لما استدل بالمكان الذي هو المظلم وهو الأرض وقال:

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٥/ ٣١٢٥.

(٢) التفسير الكبير ٢٦/ ٧٠.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ﴾ استدل بالزمان الذي فيه الظلمة وهو الليل.

ووجه آخر: وهو أن الليل فيه سكون الناس وهدوء الأصوات، وفيه النوم - وهو كالموت - ويكون بعده طلوع الشمس كالنفخ في الصور فيتحرك الناس، فذكر الموت كما قال في الأرض: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ فذكر من الزمانين أشبههما بالموت، كما ذكر من المكانين أشبههما بالموت»[١].

ومعنى ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ نزيله منه، من (سلخ جلد الشاة) إذا كشطه عنها وأزاله[٢].

ومعنى (مظلمون) داخلون في الظلام[٣]، كما يقال: أصبحنا: أي دخلنا في الصباح، وأعتمنا: أي دخلنا في العتمة، والمعنى أن الليل نزيل عنه النهار فيكون الناس في ظلام.

ويفيد هذا التعبير أن الليل مغطى بالنهار، ذلك أنه جعل الليل كالشاة ونحوها، والنهار كالجلد الذي يغطيها ويعلوها، فيسلخ منه النهار كما يسلخ الجلد فيكون تحته الليل، فجعل الليل أصلاً والنهار غلافًا له أو جلدًا.

وقد فهم المفسرون ذلك فقالوا: إنه جعل الليل أصلاً.

جاء في (البحر المحيط): «واستدل قوم بهذا على أن الليل أصل، والنهار فرع طارئ عليه»[٤].

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٧٠.
(٢) الكشاف ٢/ ٥٨٧.
(٣) الكشاف ٢/ ٥٨٧.
(٤) البحر المحيط ٧/ ٣٣٦

وجاء في (روح المعاني): «وفي الآية على ما قال غير واحد دلالة على أن الأصل الظلمة ، والنور طارئ عليها يسترها بضوئه» [١] .

والأمر كذلك فإن النهار إنما يأتي بسبب الشمس ، فإن ضوء الشمس يعلو الأرض ويغطيها فيكون النهار ، فهو يأتي من فوق ، فإذا زالت الشمس وذهب ضوؤها ظهر الأصل وهي الظلمة ، فالظلمة هي الأصل والنهار طارئ.

ولم يقل: (وآية لهم النهار نسلخ منه الليل فإذا هم مبصرون) ، أو فإذا هم (منهرون) أي داخلون في النهار ؛ لأن ذلك لا يصح ؛ لأن معنى ذلك أن الليل يأتي من فوق ويغطي النور ، فإذا زال الليل ظهر النور الذي تحته وهو ضوء الأرض ، وهذا لا يصح لأن الأرض مظلمة وليست مضيئة.

ثم من المعلوم أن الضوء هو الذي يزيل الظلمة ، وليست الظلمة هي التي تزيل النور وتمحوه ، ولو قال: (وآية لهم النهار نسلخ منه الليل فإذا هم مبصرون) لكان يعني أن الظلمة تزيل النور ، ولا يصح ذلك.

وقال: (نسلخ) بإسناد الفعل إلى نفسه ، ولم يقل (ينسلخ) ليدل على أن ذلك يجري بفعل الله وقدرته ولم يحصل من نفسه من دون تدبير مدبر ولا فعل فاعل ، فيكون ذلك آية على توحيد الله وقدرته.

وقال: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ ولم يقل: (فإذا الأرض مظلمة) ليبين أثر ذلك فيهم وفي حياتهم ، فإنهم هم الذين يدخلون في الظلام بعد النهار فيكون ذلك آية لهم ، وليبين أثر النعمة عليهم في الضياء والإظلام ، فذكر نعمتي الضياء والإظلام عليهم ، والنعمة إنما تكون بتعاقبهما لا أن يكون واحد منهما سرمدًا إلى يوم القيامة. كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ١١ ، وانظر فتح القدير ٤/ ٣٥٨.

جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [القصص: ٧١ ـ ٧٢].

وجاء بـ (إذا) التي تفيد المفاجأة للدلالة على سرعة التغير.

جاء في (التفسير الكبير): «فإن قيل: فالليل في نفسه آية، فأية حاجة إلى قوله: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾؟

نقول: الشيء تتبين بضده منافعه ومحاسنه، ولهذا لم يجعل الله الليل وحده آية في موضع من المواضع إلا وذكر آية النهار معها.

وقوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ أي داخلون في الظلام، و(إذا) للمفاجأة، أي ليس بيدهم بعد ذلك أمر ولابد لهم من الدخول فيه»[١].

* * *

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾

من المحتمل أن تكون الواو عاطفة على (الليل) فتكون المتعاطفات كلها آية[٢].

ولم يكرر كلمة (آية) فلم يقل لهم: (وآية لهم الشمس)؛ لأنه أراد أن يكون كل ما ذكر آية، فالليل والنهار والشمس والقمر كلها آية.

ويحتمل أن تكون (الشمس) مبتدأ وما بعدها خبر، والجملة معطوفة على ما قبلها.

ومعنى (لمستقر لها) أن لها حدًّا تنتهي إليه سواء كان ذلك الحد زمانًا

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٧٠.
(٢) التفسير الكبير ٢٦/ ٧١، روح المعاني ٢٣/ ١١.

أم مكانًا ، فقد يقصد بالمستقر اسم مكان أو اسم زمان ، وكل ذلك مراد ، فهي لها مستقر زمانًا ومكانًا ، فهي تجري في فلك لا تتعداه ، «أو لمنتهى لها من المشارق والمغارب ؛ لأنها تتقصاها مشرقًا مشرقًا ومغربًا مغربًا حتى تبلغ أقصاها ثم ترجع ، فذلك حدها ومستقرها لأنها لا تعدوه» [١].

وهي لها مستقر ، أي وقت تستقر عنده وهو أجلها «الذي أقر الله عليه أمرها في جريها فاستقرت عليه وهو آخر السنة. وقيل: الوقت الذي تستقر فيه وينقطع جريها وهو يوم القيامة» [٢].

وقد ذكرت في ذلك أمكنة وأزمنة على التفصيل[٣] كلها يمكن أن تكون مرادة ما لم يكن ذلك مخالفًا لحقيقة علمية.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ بعد أن أسند الجري إليها فقال: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى﴾ لئلا يظن أنها تجري بنفسها من دون تقدير أو تدبير. فإنها تجري بتقدير العزيز العليم على وفق سنة وضعها لها خالقها ، وبذلك أبطل أن تكون حرة مختارة ، وإنما هي خاضعة لمن جعل لها مستقرًّا لا تعدوه ولا تتخطاه ، فأبطل بذلك صحة أن تكون معبودة أو أن تتخذ إلهًا.

* * *

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾

بعد أن ذكر الشمس وأنها تجري لمستقر لها بتقدير العزيز العليم ذكر القمر ، وأنه قدر له منازل يسير فيها حتى يكون كالعرجون القديم ،

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨٧ ـ ٥٨٨.
(٢) الكشاف ٢/ ٥٨٨.
(٣) انظر التفسير الكبير ٢٦/ ٧١.

ونسب التقدير إلى نفسه فقال: (قدرناه) كما نسب جري الشمس إلى تقديره.

واستغنى بقوله: (قدرناه) عن إعادة وصف العزيز العليم.

و(العرجون): «هو عود العذق ما بين شماريخه إلى منبته من النخلة»[١].

«وإذا قدم دق وانحنى واصفر فشبه به من ثلاثة أوجه»[٢]

واختار (عاد) على (صار) لأنه يعود إلى هذه الحالة في كل شهر، وليس في (صار) إشعار بهذا المعنى.

* * *

﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

أي لا يتيسر للشمس أن تدرك القمر وليس لها القدرة على ذلك؛ لأن لها فلكًا خاصًّا لا تتعداه، كما أن للقمر فلكًا خاصًّا به لا يتعداه.

وقد ذهب بعضهم أن النص قد يوقع في لبس فيظن ظان أنه متناقض، ذلك أن قوله: ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ ﴾ معناه أن القمر سابق، وقوله: ﴿ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ ﴾ معناه أن النهار سابق فتكون الشمس سابقة فيكون ذلك تناقضًا.

وقد حاول المفسرون تخريج النص وتفسيره بما يدفع التناقض المظنون[٣].

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨٨.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٨٨.

(٣) انظر التفسير الكبير ٢٦/ ٧٣، روح المعاني ٢٣/ ٢٢.

وقد أوضح ذلك ربنا بما يدفع هذا الظن بقوله: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ فكل من الشمس والقمر له فلكه ، فهما ليسا في سباق ، فليس القمر أمام الشمس ولا الشمس وراءه. وهذان الجرمان نظيرا شخصين أحدهما في أمريكا والآخر في العراق ، وكل منهما يدور في دائرة لا يتعداها ، وكل دائرة تختلف عن الأخرى سعة ووضعًا فليس أحدهما يدرك الآخر ، ولا أحدهما سابقًا لصاحبه ، وأن ما بين الشمس والقمر أبعد من هذا بكثير.

هذا علاوة على أن هذا التعبير يعبر عن حقيقة علمية ثابتة ، ذلك أنه في كل لحظة تشرق الشمس على مكان وتغرب من مكان ، فالذي تشرق الشمس عليه يكون نهارًا والذي تغرب منه يكون ليلاً ، فالليل أمامه نهار يأتي عليه في كل لحظة وخلفه نهار يأتي عليه ، وكذلك النهار ، فالليل ليس سابقًا للنهار لأن أمامه نهارًا.

فقوله: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ قد يفهم منه أن الليل سابق النهار فصحح ربنا هذا الفهم قائلاً: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أي ليس معنى هذا أن الليل سابق النهار.

فتبارك الله العزيز العليم قائل هذا الكلام.

وبهذا يسقط السؤال عن سر التعبير بالفعل في قوله: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ فقال: (تدرك) ، وبالاسم في قوله: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ فقال: (سابق) ولم يجعلهما على نسق واحد ، ذلك أن قوله: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ قد يفهم منه أن الليل سابق فقال: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ فردّ هذا التصور ، وهو أعدل التعبيرات وأبلغها.

وفي تقديم الشمس على الفعل وتقديم حرف النفي عليها بحث ، فإن

الأصل في نحو هذا أن يقال: (لا ينبغي للشمس أن تدرك القمر) ولكنه عدل عن ذلك إلى ما قاله لأكثر من سبب:

١ ـ منها أن (لا) إذا دخلت على اسم معرفة فإنه يراد بها نفي أكثر من أمر فتكرر وجوبًا، بخلاف ما إذا دخلت على فعل مضارع فإنها ليست كذلك. وههنا أراد أن ينفي أمرين فقدم الاسم المعرفة ليؤذن بأنه يريد نفي أكثر من مسألة فقال: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ فأراد أن ينفي إدراك الشمس للقمر وسبق الليل النهار. وهذا نظير قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

فجاء بجملتين متعاطفتين كلتاهما اسمية فعطف جملة اسمية على اسمية وهما قوله: (الشمس ينبغي لها)، وقوله: (الليل سابق النهار) وتوافق الجملتين في نحو هذا أولى. وهو نظير قولنا: (لا محمد رجع ولا خالد مسافر) وهو أولى من قولك: (لا رجع محمد ولا خالد مسافر).

٢ ـ قد يفيد تقديم الاسم على الفعل في حيز النفي نفي الفعل عن المذكور وإثباته لغيره نحو: (ما أنا قلت هذا)، و(ما محمد فعل ذلك) أي لم أقل أنا هذا وإنما قاله غيري، ولم يفعله محمد وإنما فعله غيره. فعلى هذا المعنى يفيد التعبير نفي القدرة عن الشمس لإدراك القمر وإثباتها لغيرها، أي يستطيع ذلك غيرها، وهو الله العزيز الحكيم فينفي بذلك عنها القدرة والاختيار.

جاء في (تفسير البيضاوي): «وإيلاء حرف النفي الشمس للدلالة على أنها مسخرة لا يتيسر لها إلا ما أريد لها» [١].

---

(١) أنوار التنزيل ٥٨٥.

وجاء في (روح المعاني): «وجوز أن يكون ذلك (يعني تقديم حرف النفي على الشمس) لإفادة كونها مسخرة لا يتسهل لها إلا ما أريد بها من حيث تقديم المسند إليه على الفعل وجعله بعد حرف النفي نحو: (ما أنا قلت هذا، وما زيد سعى في حاجتك) يفيد التخصيص؛ أي: ما أنا قلت هذا بل غيري، وما زيد سعى في حاجتك بل غيره، على ما حققه علماء البلاغة. والمقصود من نفي تسهل إدراك القمر في سلطانه عن الشمس نفي أن يتسهل لها أن تطمس نوره وتذهب سلطانه، ويرجع ذلك إلى نفي قدرتها على الطمس وإذهاب السلطان، فيكون المعنى بناء على قاعدة التقديم أن الشمس لا تقدر على ذلك بل غيرها يقدر عليه وهو الله عز وجل، وهذا بعد إثبات الجريان لها بتقدير العزيز العليم مشعر بكونها مسخرة لا يتسهل لها إلا ما أريد بها»[(١)].

٣ ـ ويصح أن يكون هذا التعبير أيضًا لمجرد نفي الفعل عن الاسم من غير إرادة إثباته إلى جهة أخرى مغايرة ولا تخصيصه به، وذلك نظير قولنا لمن قال:

ماذا يفعل محمد وخالد؟ (محمد يقرأ وخالد نائم)، فيقول آخر: (لا محمد يقرأ ولا خالد نائم). فهذا يفيد نفي القراءة عن محمد لكنه لم يثبت لزومًا أن شخصًا آخر يقرأ.

ونظير هذا أن تقول: (لا أبي ساعدني ولا أخي أعانني) فهذا يفيد نفي الفعل عن جهتين ولكن لا يفيد إثبات ذلك لغيرهما لزومًا.

وهذا قد يكون من هذا الباب.

٤ ـ إن هذا التقديم قد يكون لغرض العناية والاهتمام، ذلك أنه جرى

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٢١.

ذكر للشمس والقمر قبل هذه الآية ، فقد قال : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ وقال : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾ فناسب تقديم الشمس للإسناد إليها ؛ لأن السياق في الكلام على الليل والنهار والشمس والقمر .

٥ ـ إن هذا التعبير ربط الكلام بما قبله ، ولو قال : (لا ينبغي للشمس أن تدرك القمر . . .) لم يرتبط الكلام ، فإنه لو قال : (والشمس تجري لمستقر لها . . . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . . لا ينبغي للشمس أن تدرك القمر) لوجدت الكلام مقطعًا غير متصل ، بخلاف قوله : ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ . . . ﴾ .

* * *

﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

التنوين في (كل) يفيد العموم ، أي كل الأجرام تسبح ، فدخل فيها الشمس والقمر . ولو أضاف أو بيّن بمن فقال : (وكل منهما) لتخصص الكلام بهما . فقطعُ (كل) عن الإضافة وسع المعنى ودخل في الحكم ما لم يجر له ذكر من الأجرام . ثم إن إسناد السباحة إلى الجمع أفاد أن المقصود عموم الأجرام السماوية ، وأنها كلها لها أفلاك لا تتعداها تسبح فيها ، وأن ذلك تقدير العزيز العليم . فنفى عنها كلها الإرادة والاختيار ، وبذلك نفى أن يكون منها ما يستحق أن يعبد كما يفعل قسم من الناس ، فنفى بهذا القطع عن الإضافة وإسناد السباحة إلى الجمع القدرة والاختيار عنها جميعها ، وأثبت أنها كلها مسخرة سخرها ربها وخالقها .

جاء في (تفسير البيضاوي) : «(وكل) : وكلهم ، والتنوين عوض عن المضاف إليه ، والضمير للشموس والأقمار ، فإن اختلاف الأحوال يوجب تعددًا ما في الذات أو للكواكب ، فإن ذكرهما مشعر بها» [١] .

---

(١) أنوار التنزيل ٥٨٥ .

وجاء في (التفسير الكبير): «فإن قيل: فهل يختلف الأمر عند الإضافة لفظًا وتركها؟.

فنقول: نعم، وذلك لأن قول القائل كل واحد من الناس كذا لا يذهب الفهم إلى غيرهم فيفيد اقتصار الفهم عليه، فإذا قال: (كلٌّ كذا) يدخل في الفهم عموم أكثر من العموم عند الإضافة...

إذا كان (كل) بمعنى كل واحد منهم، والمذكور الشمس والقمر، فكيف قال: (يسبحون)؟.

نقول: الجواب عنه من وجوه:

(أحدها): ما بينا أن قوله: (كل) للعموم، فكأنه أخبر عن كل كوكب سيار...

(وثانيها): لما قال: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ والمراد ما في الليل من الكواكب قال: (يسبحون)»[1].

وإسناد السباحة إلى ضمير العقلاء، وهو الواو، لتنزيل الأجرام منزلة العاقل من جهة أن ذكر أنها تسبح، والسباحة من فعل ذوي العقول، كما في قوله تعالى في حق الأصنام: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾، وقوله سبحانه: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾[2]

ومن جهة أنها تسبح في فلك خاص لا تتعداه، كأنها شخص عاقل ملتزم بما حُدّ له فهو لا يتعدى حدوده فلا يشذ ولا يخرج عن مداره ولا يبغي بعضه على بعض، بل إن كلاً منها يعرف مكانه وفلكه وحدوده، فهذا يشعر كأن الأجرام عاقلة ملتزمة وليست كالإبل الهائجة

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٧٤ ـ ٧٥.

(٢) روح المعاني ٢٣/ ٢٥.

المطلقة من عقالها تشرد وتهيم كما يحلو لها .

فإسناد السباحة إلى ضمير العقلاء كأن فيه إشعارًا بالأمان للناس مما فوقهم ، فلا ترجمهم ولا تنقضّ عليهم فتهلكهم .

وفي الآية إشارة إلى أن حركة الكواكب والأجرام دائرية ، أي هي تدور في مسار لها محدد وليست منطلقة في الفضاء على غير هدى .

جاء في (لسان العرب) : «الفلك مدار النجوم والجمع أفلاك . . .

الفراء : الفلك استدارة السماء . . . والفلك قطع من الأرض تستدير وترتفع عما حولها» (١) .

ثم إن اختيار لفظ السباحة أنسب شيء للتعبير عن حركة الأجرام ، وقد اختار علماء العصر الحديث هذا اللفظ للتعبير عن الحركة في الفضاء لأنهم وجدوه أنسب لفظ للتعبير عنها .

* * *

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ ﴾

إن مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة ، فإنه لما ذكر سباحة الأجرام في الفلك فقال : ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ ذكر سباحة الفُلك في الماء وجريها فيه (٢) .

إن كلمة (الفُلك) تكون مفردًا وجمعًا ، فالمفرد (فلك) والجمع (فلك) أيضًا بلفظ واحد .

---

(١) لسان العرب (فلك) .

(٢) انظر التفسير الكبير ٢٦/٧٨ .



وقد اختلف في (الفلك) الوارد في الآية فقيل: هي السفن التي تجري في البحار إلى قيام الساعة، والذرية هم الأولاد، فامتنّ عليهم بحمل أولادهم في البحار، ذلك أن الامتنان بالنعمة على الأبناء امتنان بالنعمة على الآباء. ولذلك كثيرًا ما يدعو الناس أن يرزقهم الله ذرية طيبة، فقد قال زكريا عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨]، ويدعون لذرياتهم بالخير، فقد وصف تعالى عباد الرحمن بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤]، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

فهو إشارة إلى أن عقبهم باق وأن نسلهم لا ينقطع وأنهم ـ أي ذريتهم ـ سيركبون في الفلك المشحون بالبضائع، الممتلئ بالأموال.

وقيل: المقصود بالفلك هو سفينة نوح عليه السلام، والمقصود بالذرية: الأبناء.

قيل: والمعنى أنه لما حمل آباءهم الأقدمين يكون قد حمل ذريتهم في أصلابهم، ولولا ذلك الحمل لم يبق للآدمي نسل(١). وحمل الآباء يتضمن حمل الذرية.

جاء في (الكشاف): «(ذريتهم) أولادهم ومن يهمهم حمله... وقيل: (الفلك المشحون) سفينة نوح. ومعنى حمل الله ذرياتهم فيها: أنه حمل فيها آباءهم الأقدمين، وفي أصلابهم هم وذرياتهم، وإنما ذكر ذرياتهم دونهم لأنه أبلغ في الامتنان عليهم وأدخل في التعجيب من قدرته في حمل أعقابهم إلى يوم القيامة في سفينة نوح»(٢).

---

(١) انظر التفسير الكبير ٢٦/ ٧٨.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٨٩، وانظر البحر المحيط ٧/ ٣٣٨.



وجاء في (روح المعاني): «واستشكل حمل ذريتهم في سفينة نوح عليه السلام ، وأجيب بأن ذلك بحمل آبائهم الأقدمين وفي أصلابهم هؤلاء وذريتهم ، وتخصيص الذرية مع أنهم محمولون بالتبع لأنه أبلغ في الامتنان ، حيث تضمن بقاء عقبهم ، وأدخل في التعجب ظاهرًا حيث تضمن حمل ما لا يكاد يحصى كثرة في سفينة واحدة مع الإيجاز ، لأنه كان الظاهر أن يقال: حملناهم ومن معهم ليبقى نسلهم. فذكرُ الذرية يدل على بقاء النسل ، وهو يستلزم سلامة أصولهم ، فدل بلفظ قليل على معنى كثير» (١) .

وليس في كون (الفلك) سفينة نوح استشكال ، فإنه سبحانه قال: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] ، فذكر أنه حملهم في سفينة نوح وهو لم يحملهم وإنما حمل آباءهم فصح أن يقول: ﴿ حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ فإن المخاطبين وذريتهم هم جميعًا ذرية المحمولين في السفينة.

وهذا الخطاب أعني قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ﴾ ، يصح أن يكون خطابًا للبشر على مدى الزمان ، وأن يكون ذلك آية من آيات نعمه تعالى على خلقه.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه لما قال فيما بعد: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٩] ، والمقصود بهذه الصيحة صيحة القيامة ، وهي لا تأخذهم وإنما تأخذ ذريتهم صح أن يقول في سفينة نوح أنه حمل ذريتهم. فجعلهم هم المعنيين بالصيحة ، مع أن المعنيّ هم الذرية ، فجعل الآباء والذرية شيئًا واحدًا.

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٢٧

ثم لننظر من ناحية أخرى أنه منّ عليهم وعلى ذرياتهم بالحمل في الفلك ، غير أنه ذكر في حالة طغيان الماء حملهم هم فقال: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ ، ولما لم يذكر طغيان الماء ذكر حمل ذريتهم ، ذلك أنه في حالة طغيان الماء يخشى الغرق فذكر أنه حملهم هم ليدل على إنعامه عليهم بالنجاة ، وفي نجاتهم نجاة لذريتهم ، وليس في نجاة الذرية نجاة للآباء.

ولما لم يذكر طغيان الماء ذكر أنه حمل ذريتهم فكانت النعمة عليهم بالنجاة وعلى ذريتهم بالانتفاع ، أو بتعبير آخر: كانت النعمة عليهم بدرء المفسدة وعلى ذريتهم بجلب المنفعة ؛ ذلك لأنه وصف الفلك بأنه مشحون ، أي مملوء بالبضائع وعروض التجارة. ودرء المفاسد ـ كما يقال ـ مقدم على جلب المنافع ، فذكر مع المخاطبين درء المفسدة ودفع الضرر عنهم ، ومع الأبناء جلب المنفعة لهم ، فكانت النعمة عليهم وعلى ذريتهم.

ولما ذكر طغيان الماء وصف الفلك بأنها جارية ، أي تجري بهم لينجوا إلى مكان آمن. ولما لم يذكر طغيان الماء وصف الفلك بأنه مشحون ، أي ممتلئ ، ولا يحسن ذكر المشحون مع طغيان الماء ، لأن امتلاءه يبطئه في الجري فلا ينجون به بسرعة.

فذكر مع النجاة الجري ومع المنفعة الشحن ، فكان كل تعبير أنسب في مكانه.

جاء في (التفسير الكبير): «قال ههنا: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ منّ عليهم بحمل ذريتهم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ منّ هناك عليهم بحمل أنفسهم.

نقول: لأن من ينفع المتعلق بالغير يكون قد نفع ذلك الغير ، ومن يدفع الضرر عن المتعلق بالغير لا يكون قد دفع الضرر عن ذلك الغير ، بل يكون قد نفعه. مثاله: من أحسن إلى ولد إنسان وفرحه فرح بفرحه أبوه ، وإذا دفع واحد الألم عن ولد إنسان يكون قد فرح أباه ، ولا يكون في الحقيقة قد أزال الألم عن أبيه. فعند طغيان الماء كان الضرر يلحقهم فقال: دفعت عنكم الضرر ، ولو قال: دفعت عن أولادكم الضرر لما حصل بيان دفع الضرر عنه.

وههنا أراد بيان المنافع فقال: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ لأن النفع حاصل بنفع الذرية ، ويدلك على هذا أن ههنا قال: ﴿فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ فإن امتلاء الفلك من الأموال يحصل بذكره بيان المنفعة ، وأما دفع المضرة فلا ؛ لأن الفلك كلما كان أثقل كان الخلاص به أبطأ وهنالك السلامة ، فاختار هنالك ما يدل على الخلاص من الضرر وهو الجري ، وههنا ما يدل على كمال المنفعة وهو الشحن» (١).

وقد تقول: ولم ذكر حمل الذرية ههنا ، أي في آية (يس) هذه ، ولم يذكر حملهم هم؟

فنقول: إن ذلك لأمور منها:

١ ـ أنه لما قال قبل هذه الآية: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ناسب ذكر الذرية ؛ لأن الذرية إنما تكون من الأزواج.

٢ ـ ولما ذكر صيحة القيامة ، وهي لا تأخذهم وإنما تأخذ ذريتهم ناسب ذلك ذكر الذرية أيضًا.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٨٠.

٣ - ثم إن ذلك من قبيل المنّ عليهم، فهو أخبرهم ضمنًا أنه لا يستأصلهم وإنما يبقيهم ويبقي ذريتهم.

ثم لننظر من ناحية أخرى أنه قال: «﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ﴾، وقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ﴾ ولم يقل: (وآية لهم الفلك جعلناها بحيث تحملهم) وذلك لأن حملهم في الفلك هو العجب، أما نفس الفلك فليس بعجب لأنه كبيت مبني من خشب. وأما نفس الأرض فعجب ونفس الليل عجب لا قدرة عليهما لأحد إلا الله»[(١)].

ثم إن الامتنان عليهم إنما هو بالحمل في الفلك وليس في الفلك نفسه، ذلك أن الحمل فيه هو النعمة، فالفلك ليس مقصودًا لذاته، وإنما المقصود هو الحمل فيه، فذكر ما به مناط النعمة والمِنة.

وبعد أن منّ عليهم بحمل ذريتهم في الفلك المشحون ذكر منته عليهم بالحمل فقال: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾.

وقوله: (من مثله) يعني من مثل الفلك.

و(ما يركبون) فيه وجهان:

الأول: أنه الفلك وما يركبونه من السفن والزوارق[(٢)].

والآخر: أنه عموم ما يركب في البر من الإبل وغيرها.

والظاهر أنه يشمل عموم ما يركب في البر والبحر، فمنّ عليهم بما يركبونه عمومًا مما سخره لهم ربنا سبحانه.

فذكرهم بنعمة السكن وهي الأرض، ونعمة الطعام، ونعمة النهار والليل، وحملهم وحمل بضائعهم في البر والبحر.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٨١.

(٢) انظر الكشاف ٢/ ٥٨٩، التفسير الكبير ٢٦/ ٨١.

وقوله: (لهم) يدل على تمام نعمته عليهم، ذلك أنه خلق ذلك من أجلهم. ولو قال: (وخلقنا من مثله ما يركبون) لم يدل على أن الخلق كان من أجلهم.

كما أن إضافة الذرية إليهم فيه تفضل آخر عليهم، بخلاف ما لو قال: إنا حملنا ذرية المخلوقات، أو ذرية الناس مع نوح، فإن ذلك يعم وهذا يخصهم هم.

* * *

﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

الصريخ: المغيث.

هددهم بالإغراق فلا ينقذهم أحد كما فعل مع المغرقين من قوم نوح. وفي هذا تهديد لهم من جهة أخرى، ذلك أن قوم نوح كذبوا رسولهم فأغرقهم، وهؤلاء كذبوا رسولهم فإن شاء ربهم أغرقهم.

وقد تقول: كيف يصح التهديد بالإغراق وهو لم يذكر حملهم في الفلك، وإنما ذكر حمل ذريتهم فقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾؟

فالتهديد بالإغراق يصح أن يكون لذريتهم لا لهم.

والجواب: أنه لما قال: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ فذكر ما يركبونه من مثل الفلك صح أن يكون التهديد لهم.

وقد تقول: ولم قال: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾، ولم يقل: (فلا مغيث لهم)؟.

فنقول: إن ذلك لأكثر من وجه:

منها أن الصريخ يجمع عدة معان: منها المغيث ومنها المستغيث.

والصريخ أيضًا صوت المستصرخ[١].

فقوله: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ جمع عدة معان، وقد يحتمل ههنا هذه المعاني كلها.

وقد تقول: كيف يحتمل في الآية نفي المغيث والمستغيث ولا شك أنهم مستغيثون؟.

فنقول: ليس المعنى على ما ظننت، فإنه لم يقل: (فلا صريخ منهم) وإنما قال: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي لا مستغيث لهم، بمعنى لم يستغث لهم أحد، وعلى هذا يكون المعنى أنه إن شاء أغرقهم فلا يستغيث لهم أحد ولا مغيث لهم، فلا يكون ثمة من يطلب العون لهم ولا من يعين، فنفى المغيث والمستغيث لهم. وهكذا يأخذهم البحر فلا تنجو جثثهم أيضًا بل تذهب في البحر.

والصريخ أيضًا صوت المستصرخ، وعلى هذا يكون المعنى أنهم لا يمكنهم الصراخ وطلب العون لأن الماء يلجم أفواههم فلا يتمكنون من طلب الاستغاثة.

وبهذا نفى المغيث والمستغيث لهم، ونفى إمكان رفع الصوت لطلب الاستغاثة فيغرقون في صمت رهيب ووحدة مرعبة.

واختار لفظ الصريخ على المغيث أيضًا لأن الصريخ من الصراخ، والصرخة: هي الصيحة الشديدة عند الفزع أو المصيبة[٢].

والصريخ والمُصرخ بمعنى واحد، فإن المُصرخ هو الذي يزيل الصراخ بإغاثة صاحبه. والذي يشرف على الغرق يصرخ بأعلى صوته

---

(١) لسان العرب (صرخ) ٤/ ٢.

(٢) لسان العرب (صرخ) ٤/ ٢.

طالبًا النجدة ليسمعه من يغيثه وينجيه ، فلا يكون صريخ إلا إذا كان صراخ. أما المغيث فيكون لمن يطلب الغوث سواء كان عن طريق الصرخة أم كان عن طريق ذكر الحاجة الشديدة ، فقد يذهب شخص إلى آخر فيقول له: أغثني يا فلان فإني في ورطة ، وليس من الضروري أن يرفع صوته عاليًا بالصراخ. أما الصريخ فيكون مع الصراخ.

فكان ذكر الصريخ أنسب.

وقال: ﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ ولم يقل: (فلا مصرخ لهم) للسبب نفسه ، فإن الصريخ يجمع عدة معان ، بخلاف المصرخ فإنه المعين والمغيث فقط.

ثم قال: ﴿ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾ أي لا ينقذهم شيء سواء كان عن طريق الصريخ أم عن غيره. فقد لا يكون مغيث ينقذ من يشرف على الغرق ولكن قد ينقذ بطريق آخر مما يتهيأ من سبل النجاة ولو أن ينجو على خشبة ، فهذا إنقاذ عن طريق الصريخ ، فنفى ذلك أيضًا ، فانتفت نجاتهم بكل سبيل.

ولم يكتف بقوله: ﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ لئلا يظن أنهم قد ينقذون من غير صريخ.

جاء في (البحر المحيط): «والظاهر أن قوله: ﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ أي لا مغيث لهؤلاء الذين شاء الله إغراقهم ، ﴿ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾ أي ينجون من الموت بالغرق ، نفى أولاً الصريخ وهو خاص ، ثم نفى ثانيًا إنقاذهم بصريخ أو غيره» [1].

وقال: ﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾ ولم يقل: (فلا صريخ لهم ولا منقذ) ذلك أنه نفىٰ إنقاذهم عن أي طريق سواء كان عن طريق المنقذين أم

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٣٩

عن غير هذا الطريق ، فقد يتعلق الشخص بحبل أو يتمسك بخشبة أو يلقيه الموج بالساحل أو أي وسيلة أخرى مما يهيئه الله سبحانه ، فهذه نجاة عن غير طريق المنقذين ، فنفى ذلك أيضًا عنهم.

فقال: ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ أي بأية وسيلة أو سبيل ، وهو أعم من قولنا: (ولا منقذ).

جاء في (التفسير الكبير): «وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ إذا أدركهم الغرق ؛ وذلك لأن الخلاص من العذاب إما أن يكون بدفع العذاب من أصله أو برفعه بعد وقوعه فقال: لا صريخ لهم يدفع ولا هم ينقذون بعد الوقوع فيه. وهذا مثل قوله تعالى: ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾. فقوله: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ فيه فائدة أخرى غير الحصر وهي أنه تعالى قال: (لا صريخ لهم) ولم يقل: ولا منقذ لهم ؛ وذلك لأن من لا يكون من شأنه أن ينصر لا يشرع في النصرة مخافة أن يغلب ويذهب ماء وجهه. وإنما ينصر ويغيث من يكون من شأنه أن يغيث ، فقال: لا صريخ لهم. وأما من لا يكون من شأنه أن ينقذ إذا رأى من يعز عليه في ضرّ يشرع في الإنقاذ ، وإن لم يثق بنفسه في الإنقاذ ولا يغلب على ظنه وإنما يبذل المجهود فقال: ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ ولم يقل: ولا منقذ لهم» [١].

* * *

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾

أي إلا إذا أراد ربهم أن يرحمهم فينقذهم ويمتعهم في الحياة إلى أجل ، فنفى الإنقاذ إلا من طريق رحمة الله لهم.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٨٢.

والتعبير يحتمل معنيين :

الأول : أن ينقذهم رحمة بهم ويمتعهم إلى حين .

والمعنى الآخر : أن إنقاذهم على نوعين : إنقاذ رحمة وإنقاذ تمتيع .

وذلك أن قسمًا من هؤلاء الناجين يؤمنون بعد الكفر ويهتدون بعد الضلال ، فكان إنقاذهم رحمة منه تعالى .

والقسم الآخر يبقون على ضلالهم فيكون إنقاذهم متاعًا إلى حين .

والقسمان نالتهم رحمة الله والمتاع على حين .

فالذين آمنوا نالتهم رحمة الله بإنقاذهم من الغرق وبإيمانهم .

والذين لم يؤمنوا نالتهم رحمة الله بالنجاة من الغرق .

وعلى هذا فكلهم مرحومون ممتعون ، ولكن منهم من نالته رحمة أوسع بنجاته وإيمانه .

وقال : ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ ليدل على أن الرحمة بهم كانت منه سبحانه ، وإلا فليس ثمة من يرحمهم ويغيثهم . وحتى لو أغاثهم أحد فذلك برحمته سبحانه لهم وتهيئته من ينجيهم ، فهم لا ينقذون إلا برحمته سبحانه .

جاء في (التفسير الكبير) في قوله : ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ : «وهو يفيد أمرين :

أحدهما : انقسام الإنقاذ إلى قسمين : الرحمة والمتاع ، أي فمن علم الله منه أنه يؤمن فينقذه الله رحمة ، وفيمن علم أنه لا يؤمن فليتمتع زمانًا ويزداد إثمًا .

وثانيهما : أنه بيان لكون الإنقاذ غير مفيد للدوام ، بل الزوال في الدنيا

لا بدَّ منه فينقذه الله رحمة ويمتعه إلى حين ، ثم يميته ، فالزوال لازم أن يقع» [(١)].

وقد تقول: لقد قدم الرحمة ههنا على الجار والمجرور فقال: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ ، فهل يصح أن يقدم الجار والمجرور على الرحمة فيقول: (ولا هم ينقذون منا إلا رحمة ومتاعًا إلى حين) أو (ولا هم ينقذون إلا منا رحمة ومتاعًا إلى حين) كما قدم ذلك في مواطن من القرآن الكريم ، وذلك نحو قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: ٩].

وقوله: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨].

وما الغرض من هذا التقديم والتأخير؟

فنقول: ههنا سؤالان:

السؤال الأول: هل يصح تقديم الجار والمجرور على الرحمة في آية (يس)؟.

والآخر: ما الغرض من هذا التقديم والتأخير فيما ورد من نحو ذلك في القرآن؟.

أما الجواب عن السؤال الأول فنقول: إنه لا يصح تقديم الجار والمجرور على الرحمة في آية (يس) ، لأن المعنى سيختل ، ذلك أنه لو قال: (ولا هم ينقذون منا إلا رحمة ومتاعًا على حين) أو (ولا هم ينقذون إلا منا) كان المعنى أنه سينقذهم من الله تعالى منقذ وينجيهم منه مغيث رحمة ومتاعًا إلى حين ، وبذلك يكون الله عاجزًا عن إغراقهم ، تعالى عن

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٨٢.

ذلك ؛ لأنه سيكون من ينقذهم من الله ، ولذا لا يصح التقديم في الآية.

أما تقديم الجار والمجرور فيما ذكرناه من آيتي هود والشورى فذلك ما يقتضيه المقام.

فإنه سبحانه وتعالى قال في هود: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ٩ ـ ١٠].

وقال في الشورى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨].

في حين قدم الرحمة على الجار والمجرور في سورة فصلت فقال: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ۝٤٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٠ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٤٩ ـ ٥١].

ومن النظر في المواطن الثلاثة يتضح أن الكلام في (فصلت) على الرحمة أكثر وأثرها على الإنسان أوسع مما في هود والشورى ، فإنه في هود لم يذكر إلا إذاقته إياها ونزعها منه ، فذكر حالة نزع الرحمة فقط ولم يذكر أثر الرحمة عليه.

وأما في الشورى فإنه لم يزد على أن قال: (فرح بها).

وأما في (فصلت) فقد فصل وأطال في وصف أثرها فيه واحتفائه بها فناسب تقديمها في (فصلت).

ونحو ذلك قوله تعالى في سورة هود: ﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾



[هود: ٢٨] بتقديم الرحمة على الجار والمجرور.

وقوله في السورة نفسها: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾ [هود: ٦٣] بتقديم الجار والمجرور على الرحمة.

ومن النظر في سياق الآيتين يتضح سبب التقديم والتأخير فيهما.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢٥ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ٢٦ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ٢٧ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود: ٢٥ ـ ٢٨].

وقال: ﴿۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ٦١ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٦٢ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ﴾ [هود: ٦١ ـ ٦٣].

فأنت ترى من النصين السابقين أن الكلام على الرحمة في قصة نوح أطول ووصفها أكثر، فقد قال: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾

وليس الأمر كذلك في قصة صالح، فقد قال: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾ ولم يزد على ذلك. ثم قال بعدها: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥ﴾.

فلما كان الكلام على الرحمة أكثر في قصة نوح قدم الرحمة، ولما لم يكن الكلام كذلك في قصة صالح أخرها.

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى أن الكلام في قصة صالح على الله أكثر: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾.

وقال في قصة نوح: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

فقال في قصة صالح:

١ ـ اعبدوا الله.

٢ ـ ما لكم من إله غيره.

٣ ـ هو أنشأكم من الأرض.

٤ ـ واستعمركم فيها.

٥ ـ فاستغفروه.

٦ ـ ثم توبوا إليه.

٧ ـ إن ربي قريب مجيب.

ولم يزد في قصة نوح على أن قال: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

فناسب تقديم الضمير العائد على الله في قصة صالح فقال: ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ دون قصة نوح.

فناسب التقديم والتأخير من جهتين:

١ ـ من جهة التوسع في ذكر الرحمة في قصة نوح فناسب ذلك تقديمها.

٢ ـ ومن جهة التفصيل في الكلام على الله في قصة صالح دون قصة

نوح ، فناسب تقديم ضميره وتأخير الرحمة .

وقد تقول : لقد قال في آية (يس) : ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ ، وفي مواطن من القرآن الكريم قال : ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ فهل من فرق بين التعبيرين؟

فنقول : الظاهر من التعبير القرآني أن قوله : ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ [الكهف : ٦٥] أخص من قوله : ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ ، ذلك أن قوله : ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ فيه الرحمة عامة تشمل جميع الخلق مؤمنهم وكافرهم ، فقد قال تعالى : ﴿ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ ، وقال : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ [فصلت : ٥٠] .

أما قوله : ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ فهي رحمة خاصة بالمؤمن ، ولم ترد في القرآن الكريم في غير المؤمنين .

قال تعالى على لسان سيدنا نوح : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ ﴾ [هود : ٢٨] .

وقال في الخضر وهو الرجل الصالح الذي اتبعه موسى ليتعلم منه : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف : ٦٥] .

وقال في سيدنا أيوب عليه السلام : ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٤] .

ونظير هذا قوله : ﴿ نِعْمَةً مِّنَّا ﴾ و﴿ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ ، فإن قوله : ﴿ نِعْمَةً مِّنَّا ﴾ فيه النعمة عامة تشمل المؤمن والكافر . قال تعالى : ﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٤٩] .

وقال : ﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ

﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

فهذه النعمة عامة شملت عموم الناس وقد أصابت الكافر كما هو واضح في الآية الثانية.

أما قوله: ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَاۚ﴾ فهي خاصة بالمؤمن، قال تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾ [القمر: ٣٤ ـ ٣٥].

وهذا نظير قوله: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ و﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾.

وقد تقول: ولكنه قد يرد في الموقف الواحد مرة (رحمة منا) ومرة (رحمة من عندنا) وذلك نحو قوله تعالى في سيدنا أيوب في سورة الأنبياء: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

وقوله فيه في سورة (ص): ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٤٣].

فما الفرق؟

فنقول: إن السياق الذي وردت فيه كل من الآيتين هو الذي يوضح سبب الاختلاف بين التعبيرين.

قال تعالى في سورة (ص): ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤١ ـ ٤٤].

وقال في سورة الأنبياء: ﴿۞وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ

﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤].

ومن النظر في النصين يتضح الفرق:

١ ـ فقد قال في سورة (ص) ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ فذكر مسّ الشيطان له. وقد اختلف المفسرون في تفسير هذا المس، وفسره بعضهم بأنه وسوسة من الشيطان أطاعه فيها.

جاء في (الكشاف): «لما كانت وسوسته إليه وطاعته له فيما وسوس سببًا فيما مسه الله به من النصب والعذاب نسبه إليه»[١].

أما في سورة الأنبياء فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، فذكر في (ص)، ما هو خلاف الأولى فناسب ذكر ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ في (ص) و﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ في الأنبياء.

٢ ـ ذكر في سورة الأنبياء الله بصفة الرحمة فقال: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، ولم يذكر مثل ذلك في (ص).

٣ ـ ذكر في الأنبياء أن الله استجاب له وكشف ما به من ضر تصريحًا، ولم يذكر مثل ذلك في (ص) بل فهم ذلك ضمنًا، فكان ما في الأنبياء أتم وأكمل مما ذكر في (ص).

فناسب كل تعبير موطنه.

ثم إن السياق في كل من السورتين يوضح ذلك أيضًا:

فقد ذكرت قصة أيوب عليه السلام بعد قصة داود وسليمان عليهما السلام في السورتين، وكان السياق في سورة (ص) فيما وقع لهما خلافًا للأولى، فقد ذكر فيها سيدنا داود وتسور المحراب عليه وفزعه من المتسورين، وذكر الحكم في مسألة النعاج التي ترمز إلى أمر ما الله أعلم

---

(١) الكشاف ٣/ ١٦.

به. وعلى أية حال فقد ظن داود أن الله قد فتنه فاستغفر ربه وخر راكعًا وأناب وغفر الله له ذلك.

وذكر سليمان وأنه أحب حب الخير عن ذكر ربه ، وذكر أن الله قد فتنه وألقى على كرسيه جسدًا ثم أناب.

وذكر أيوب وأن الشيطان قد مسه بنصب وعذاب.

فالمقام والسياق في الابتلاءات والفتن التي تعرض لها الأنبياء المذكورون.

وليس في سورة الأنبياء مثل ذلك ، وإنما ذكر التفضل والإنعام عليهم ورحمته بهم ، فقد ذكر داود وسليمان وحكمهما في الحرث فقال: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩] ، ولم يذكر أنه فتنهما ، وإنما ذكر تفضله وإنعامه عليهما.

وذكر أيوب ولم يذكر أنه مسه الشيطان ، وإنما قال: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

فناسب المقام والسياق ذكر الخصوصية بقوله: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ في سورة الأنبياء دون سورة (ص) ، والله أعلم.

ثم لننظر إلى الآيتين من ناحية أخرى.

فقد قال في (الأنبياء): ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

وقال في (ص): ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٤٣].

وإليك الفرق بينهما:

في الأنبياء	في (ص)
فاستجبنا له	--
فكشفنا ما به من ضر	--
آتيناه أهله	وهبنا له أهله
رحمة من عندنا	رحمة منا
وذكرى للعابدين	وذكرى لأولي الألباب

ونود أن نذكر ما يأتي تعقيبًا على النصين:

١ ـ إن قوله: (آتيناه) يشمل (وهبنا له) وزيادة، فإن الإيتاء يشمل الهبة وغيرها، فقد يستعمل الإيتاء في المال وغيره نحو قوله: ﴿ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾، وقوله: ﴿ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ مما لا تصح الهبة في نحوه.

٢ ـ إن قوله ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ يشمل ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ وزيادة، إذ الرحمة في قوله: (منا) عامة يشترك فيها عموم الخلق مؤمنهم وكافرهم. أما قوله: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ فهي رحمة خاصة تزيد على الرحمة العامة، فهي إذن تشمل قوله: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ مع زيادة في الرحمة.

٣ ـ وقوله (للعابدين) يشمل (أولي الألباب) وزيادة في الوصف، فإن العابدين كلهم من أولي الألباب وليس أولو الألباب كلهم من العابدين، ذلك أنه لا تصح عبادة من غير عقل، وعلى هذا فإن العابدين يزيدون في الوصف على أولي الألباب، فإن العابدين هم:

أولو الألباب + عبادة.

فكان قوله: (للعابدين) يشمل أولي الألباب وزيادة.

٤ ـ وزاد على ذلك قوله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

وبهذا يتضح أن آية الأنبياء تشمل آية (ص) وزيادة، فناسب كل تعبير مكانه.

هذا علاوة على أنه في سورة (ص) تكرر ذكر مشتقات الهبة، وفي (الأنبياء) تكرر ذكر الإيتاء.

فقد قال في (ص): ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ [الآية: ٩]، وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾ [الآية: ٣٠]، وقال: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [الآية: ٣٥]، وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ [الآية: ٤٣].

وقال في (الأنبياء): ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الآية: ٤٨]، وقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ [الآية: ٥١]، وقال: ﴿وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [الآية: ٧٣]، وقال: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الآية: ٧٤]، وقال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الآية: ٧٩]، وقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ [الآية: ٨٤].

فناسب لفظ (وهبنا) ما في (ص)، و(آتينا) ما في الأنبياء، من حيث السمة التعبيرية لكل من السورتين.

ثم من ناحية أخرى أن لفظ العبادة والعابدين ورد في سورة الأنبياء أكثر مما ورد في (ص)، بل لم يرد لفظ (العابدين) في (ص).

فقد ورد ذلك في الأنبياء عشر مرات، في حين ورد في (ص) خمس مرات.

قال تعالى في الأنبياء: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأنبياء: ١٩]، وقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، وقال: ﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣]، وقال: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٦]، وقال: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧]، وقال: ﴿وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وقال: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤]، وقال: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وقال: ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٦].

وقال في (ص): ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [ص: ١٧]، وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، وقال: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [ص: ٤١]، وقال: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ﴾ [ص: ٤٤]، وقال: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [ص: ٤٥].

فناسب قوله: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ ما في الأنبياء، وقوله: ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ما في (ص).

ومما زاده حسناً أنه قال في (ص): ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، فناسب ذلك قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٤٣].

وأنه قال في (الأنبياء): ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

وقال: ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٦].

فناسب ذلك قوله: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾.

هذا علاوة على أن سورة الأنبياء تكررت فيها مواقف العبادة وسياقاتها مما لم يُرَ مثله في (ص)، وشرح ذلك يطول مما لا يناسب هذا المقام.

فناسب كل تعبير مكانه من كل وجه، والله أعلم.

* * *

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٤٨) مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) ﴾

* * *

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) ﴾

أي: إذا قيل لهم احذروا ما تقدم من موجبات العذاب وما يأتي فيما بعد أعرضوا.

وقيل في معنى قوله: ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ وجوه منها:

أن قوله: ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ يعني ما مضى من الذنوب، ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ ما بقي منها[١].

أو ما تقدم من ذنوبكم وما تأخر.

وقيل: ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ الوقائع التي خلت من مثل الوقائع التي ابتليت بها الأمم المكذبة بأنبيائها.

---

(١) فتح القدير ٤/ ٣٦١.

﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾: من أمر الساعة[١] ، وعذاب الآخرة[٢] .

وقيل: ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ أي ما بين أيديكم من الآفات والنوازل فإنها محيطة بكم وما خلفكم منها.

وقيل: ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ ما ظهر لكم ، ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾: ما خفي عنكم[٣] .

وقيل: ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ من أنواع العذاب مثل الغرق والحرق وغيرهما المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾. ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ من الموت الطالب لكم ، إن نجوتم من هذه الأشياء فلا نجاة لكم معه ، يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾[٤] .

وقيل: ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾: الآخرة فإنهم مستقبلون لها ، ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾: الدنيا فإنهم تاركون لها[٥] .

هذه أشهر الأقوال التي قيلت فيها. ويمكن تلخيصها بما يأتي:

﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾:

١ ـ ما مضى من الذنوب وما تقدم منها.

٢ ـ الوقائع التي أوقعها الله بالأمم السالفة المكذبة.

٣ ـ الآفات والنوازل المحيطة بكم وأنواع العذاب مثل الغرق والحرق.

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨٩ ، روح المعاني ٢٣/ ٢٨ ـ ٢٩ .
(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٤٠.
(٣) فتح القدير ٤/ ٣٦١.
(٤) التفسير الكبير ٢٦/ ٨٣.
(٥) التفسير الكبير ٢٦/ ٨٣ ، البحر المحيط ٧/ ٣٤٠.

٤ ـ ما ظهر لكم.

٥ ـ الآخرة

﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ :

١ ـ ما تأخر من الذنوب أو ما بقي منها.

٢ ـ أمر الساعة وعذاب الآخرة.

٣ ـ النوازل والآفات التي تنزل فيما بعد.

٤ ـ الموت الطالب لكم.

٥ ـ ما خفي عنكم.

٦ ـ الدنيا.

وأكثر الأقوال على أن ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ يعني ما تقدم من هذه الأمور ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ يعني ما يأتي منها فيما بعد، غير أنه نسب إلى مجاهد القول بعكس ذلك، وهو أن ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ يعني الآخرة وعذابها، ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ يعني الدنيا وما فيها.

وعلى أية حال فإن قوله: ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ يشمل ما ينبغي أن يُتّقى من أمور الدنيا والآخرة على قول مجاهد أو غيره، غير أن الاستعمال القرآني يؤيد ما ذهب إليه القائلون أن ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ يعني ما تقدم من الأمور المذكورة، أو ما هو واقع فعلاً في حين الإخبار، ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ يعني ما لم يأت بعد وهو المستقبل.

قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨]، أي مصدقًا لما تقدمه من الكتاب.

وقال: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ [المائدة: ٤٦].

وقال: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ٣ ـ ٤].

أي ما تقدمه من الكتب.

فجعل (ما بين يديه) لما تقدم.

وقال: ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٦٦].

قيل: «أي لمعاصريهم ومن خلفهم... [وقيل] أيضًا: لما بحضرتها من القرى ـ أي أهلها ـ وما تباعد عنها»(١).

وقال: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠].

فاستعمل ﴿ مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾ للذين يأتون بعدهم.

وقال: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء: ٩].

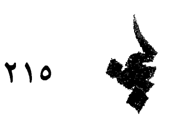
وقال: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأنفال: ٥٧].

فاستعمل ﴿ مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾ لمن يكون بعدهم، أي لمن يأتي في المستقبل.

ونحو هذا استعمال (من وراء) فقد يستعمل لما يكون بعد، أي في المستقبل.

---

(١) روح المعاني ١/ ٢٨٤.



قال تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَاءِي﴾ [مريم: ٥]، أي: بعد وفاتي.

وقال تعالى في زوج إبراهيم عليه السلام: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

أي من بعد إسحاق يعقوب.

ومن هذا يترجح أنه يعني بقوله: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ أي ما تقدم مما ينبغي أن يتقى، أو ما هم يفعلونه في الحال، ويعني بقوله: (ما خلفكم) ما ينبغي أن يتقى في المستقبل، وأعظم ما ينبغي أن يتقى في المستقبل هو الساعة وعذاب الآخرة. ويبدو أن هذا هو أظهر ما فهموه من النص ولذا قال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي متى يقع ما تعدوننا به من أمر الساعة والآخرة؟.

ويتضح مما ذكرت أنه لا يعني بقوله: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ أمرًا معينًا، وإنما هو عام في كل ما ينبغي أن يتقى، ما ذكر وما لم يذكر.

جاء في (روح المعاني): «وحاصل الأمر على ما قيل: اتقوا العذاب أو اتقوا ما يترتب العذاب عليه» [(١)].

وإن كان أظهر ما يدل عليه قوله: (وما خلفكم) الساعة وعذاب الآخرة كما ذكرت.

لقد قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ فجاء بـ (إذا) ولم يأت بـ (إن) وذلك ليدل على أن هذا القول ليس أمرًا افتراضيًّا بل هو أمر حاصل، فإنه قيل لهم هذا الأمر كثيرًا، فإن (إذا) تستعمل في اللغة لما هو مقطوع بحصوله ولما يكثر حصوله، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا

---

(١) روح المعاني: ٢٣/ ٢٩

﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥] فإن الأشهر الحرم لا بد أن تنسلخ.

وقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠]، فإن الصلاة لا بد أن تنقضي.

فهذا من المقطوع بحصوله.

ومن الكثير حصوله قوله: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء: ٨٦].

ولا تستعمل (إذا) لما هو أمر افتراضي محض لا يتحقق في الواقع. أما (إن) فقد تستعمل لعموم الافتراضات لما يقع ولما لا يقع، ولما لا يمكن أن يقع، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القصص: ٧٢]، وقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١].

فجاء بـ (إذا) في الآية ليدل على أن هذا القول قيل لهم كثيرًا.

ومعنى هذا أنه لم ينفع معهم النصح والتبليغ على كثرتهما وتطاولهما، إذ المفروض أن كثرة النصح والتبليغ تؤثر في النفوس، وهؤلاء لا يؤثر فيهم النصح وإن كثر.

ولا تفيد (إن) هذا المعنى.

ومن الملاحظ أنه لم يذكر جواب الشرط في الآية؛ ذلك لأنه معلوم مما بعده وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ فكأنه قال: وإذا قيل لهم اتقوا أعرضوا[1]، فحذفه لدلالة ما بعده عليه.

وقد يكون الحذف إشارة إلى أمر آخر علاوة على ما ذكر، وهو أنهم

---

(١) ينظر الكشاف ٢/ ٥٨٩، التفسير الكبير ٢٦/ ٨٢، البحر المحيط ٧/ ٣٤٠.

إذا قيل لهم ذلك لم يجيبوا لأن الكلام لا يعجبهم ولا يروق لهم فيسكتون عن الجواب ، كما يفعل أحدنا إذا سمع كلامًا لا يعجبه ولا يروق له فيسكت عنه ولا يجيب.

ومن الملاحظ أيضًا أن الآية بنيت على الإيجاز ، يدل على ذلك أنه بنى القول للمجهول فلم يذكر القائل ، وبنى فعل الرحمة للمجهول لأن الراحم معلوم ، وحذف جواب الشرط لأنه مدلول عليه بما بعده كما ذكرنا.

واختار فعل الرحمة فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لأنه لا ينجيهم من ذلك إلا رحمة الله ، كما قال تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣] ، ولمناسبة ما قبله وهو قوله تعالى: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ فذكر أنهم لا ينجيهم من المكروه والمحذور إلا رحمة الله.

وقوله: (اتقوا) يعني: احذروا واحفظوا أنفسكم منه ، ذلك أن الذي يُتّقَى هو مخوف ومحذور ، فلا تقول لأحد ما: (اتق هذا) إلا إذا كان الشيء مخوفًا ومحذورًا ، عليه أن يحذره ويحفظ نفسه منه ، ولا يقيه من هذا المحذور إلا الاتقاء ورحمة الله.

ومعنى الاتقاء هو اتخاذ الأسباب لدفع المحذور.

لقد ذكر أمرين للنجاة من المحذور:

أحدهما: يتعلق بالإنسان ، وهو ما يتخذه من الأسباب لدفع ذلك المحذور وحفظ نفسه منه وهو الاتقاء.

والآخر: متعلق بمشيئة الله تعالى ورحمته.

والتقوى مدعاة لرحمة الله تعالى.

فاتخاذ الأسباب مرجو أن يدفع الله بها المحذور ولا تدفع المحذور وحدها ، إذ من المحتمل أن يقع المحذور مع اتخاذ الأسباب. فالسبيل لدفع المحذور هو اتخاذ الأسباب ورجاء رحمة الله. ولذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فجاء بـ (لعل) الدالة على الرجاء ، ولم يقل: (لترحموا) لأن الاتقاء مرجو معه رحمة الله ولا يدفع المحذور وحده.

ولو قال: (اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لترحموا) لجعل الدفع حاصلاً بالأسباب وحدها ، فلذا جيء بـ (لعل) التي تفيد الترجي لكيلا يتكل الإنسان على الأسباب وينسى ربه فتكون معبودة له.

وقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ولم يقل: (عسى أن ترحموا) ، ذلك أن قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يفيد الحال والاستقبال ، فإن الفعل المضارع المجرد من حرف الاستقبال يحتمل الحال والاستقبال.

أما القول: (عسى أن ترحموا) فإنه يفيد الاستقبال ولا يفيد الحال ؛ لأن (أنْ) تصرف الفعل إلى المستقبل ، فتكون الرحمة في المستقبل ولا تكون في الحال. في حين أن الرحمة تراد في الحال والاستقبال وفي كل الأزمان ، فكان ما قاله أولى.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ذكر فيه ضمير الخطاب مرتين وهما: الضمير (كُم) في (لعلكم) ، والواو في (ترحمون). في حين أن قولنا: (عسى أن ترحموا) ذكر فيه ضمير الخطاب مرة واحدة فكان الإسناد في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أقوى وآكد لأن الإسناد تكرر ، فقد أسند إليهم وقوع الرحمة بهم مرتين.

ومن ناحية ثالثة أن قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ جملة اسمية ، وقولنا (عسى أن ترحموا) جملة فعلية، والجملة الاسمية أقوى من الفعلية كما هو معلوم ، فكان الرجاء في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أقوى.

ثم إنه المناسب لقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ فقد أمرهم باتقاء ما تقدم وما هو حاضر وما هو آت، فكان الأمر عامًّا شاملاً للأزمنة كلها، فكان المناسب أن تكون الرحمة عامة تشمل الأزمنة كلها، حاضرها ومستقبلها، فجاء بالفعل المضارع مجردًا من (أنْ) ليشمل ذلك كله. ولو قال: (عسى أن ترحموا) لكان خاصًّا بالمستقبل، فناسب العام العام، فارتبطت الآية بما قبلها وما بعدها وهو قوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

وقد تقول: ولكن ورد ترجي الرحمة بعسىٰ وذلك في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨]، فما الفرق؟

فنقول: إن كل تعبير أنسب في مكانه، ذلك أن قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ خاص بأمر مستقبل، ذلك أن الخطاب فيه موجه إلى بني إسرائيل وقد قال ذلك بعد ما ذكر أنهم يفسدون في الأرض مرتين وأنهم يعلون علوًّا كبيرًا. ثم ذكر أنهم سيلحقهم الدمار بعد المرة الثانية. وقال بعد ذلك: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ فهذا الرجاء بعد المرة الثانية[1] وهو مستقبل، فناسب ذلك (عسى).

فاختلف الأمران.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن الاتقاء في آية (يس) أعم وأشمل، وذلك أنهم أمروا باتقاء ما بين أيديهم وما خلفهم، وذلك اتقاء شامل لما تقدم وما تأخر، وليس الأمر كذلك فيما ذكر عن بني إسرائيل فإنه خاص بما بعد المرة الثانية، فكان الترجي في آية (يس) أعم

(١) ينظر الكشاف ٢/ ٢٢٥، روح المعاني ١٥/ ٢١

وأشمل ، فناسب كل تعبير مكانه ، والله أعلم .

إن هذه الآية مرتبطة بكثير من آيات وأحداث في السورة .

فهي مرتبطة بقصة أصحاب القرية الذين لم يتقوا ما بين أيديهم وما خلفهم ، فأهلكهم الله بما قدمت أيديهم . وقصة الرجل الذي اتقى ما بين يديه وما خلفه فأدخله الله الجنة .

ومرتبطة بقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ فقد ذكر ما قدمت أيديهم وهو قوله : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ ﴾ ، وذكر (ما خلفهم) وهو قوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ .

ومرتبطة بقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾

فكيف يتقي ما بين يديه من كان من بين يديه سد؟ وكيف يتقي ما خلفه من كان من خلفه سد؟ كيف يتقون ما بين أيديهم وما خلفهم وقد جُعل سد من بين أيديهم وسد من خلفهم ، وهم علاوة على ذلك لا يبصرون؟

وهي مرتبطة بقوله : ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ فهذا ما خلفهم .

ومرتبطة بقوله : ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾ وما بعدها .

ومرتبطة بقوله : ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ . . . ﴾ وهذا كله ما لم يتقوه مما خلفهم .

ومرتبطة بقوله في آخر السورة : ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

* * *

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

والمعنى : أنه ما تأتيهم آية من آيات ربهم سواء كانت آية ينزل بها الوحي أم آية من آيات الله في الكون إلا كان شأنهم الإعراض عنها وعدم

النظر فيها وتدبرها. فالإعراض عام يشمل الآيات التي ينزل بها الوحي والآيات الكونية في الأرض والسماء.

وهي في دلالتها على الآيات التي ينزل بها الوحي أظهر، فإن إعراضهم عنها أشد، وقوله: (تأتيهم) يقوي هذا المعنى، فإن هذا الفعل يستعمل بكثرة مع آيات الله المنزلة ومع الآيات التي تدل على صدق ما جاء به رسل الله والبراهين التي تؤيدهم، وهي المعجزات التي يؤتيها الله رسله لتكون آية على صدقهم.

وعلى كل فالتعبير يعم الآيات كلها ويدل على إعراضهم عنها جميعًا.

إن هذه الآية مرتبطة بقوله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ فهم يشبهون من قبلهم في الإعراض عما جاءت به الرسل. ومرتبطة بما ذكر من الآيات الكونية وهو قوله: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ... وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ... وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ...﴾.

فهم معرضون عن الآيات كلها.

جاء في (روح المعاني): «والمراد بها إما هذه الآيات الناطقة بما فصل من بدائع صنع الله تعالى وسوابغ آلائه تعالى الموجبة للإقبال عليها والإيمان.

وإيتاؤها نزول الوحي بها، أي ما نزل الوحي بآية من الآيات الناطقة بذلك إلا كانوا عنها معرضين على وجه التكذيب والاستهزاء.

وإما ما يعمها والآيات التكوينية الشاملة للمعجزات وتعاجيب المصنوعات التي من جملتها الآيات الثلاث المعدودة آنفًا.

وإيتاؤها: ظهورها لهم، أي ما ظهرت لهم آية من الآيات التي من جملتها ما ذكر من شؤونه تعالى الشاهدة بوحدانيته سبحانه وتفرده تعالى

بالألوهية ، إلا كانوا عنها معرضين تاركين للنظر الصحيح فيها المؤدي إلى الإيمان به عز وجل» [١] .

وجاء في (التفسير الكبير) : «وهذا متعلق بما تقدم من قوله تعالى : ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ .

﴿ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴾ يعني إذا جاءتهم الرسل كذبوهم ، فإذا أتوا بالآيات أعرضوا عنها وما التفتوا إليها» [٢] .

وجاء في (فتح القدير) : «والمعنى : ما تأتيهم من آية دالة على نبوة محمد ﷺ وعلى صحة ما دعا إليه من التوحيد في حال من الأحوال إلا كانوا عنها معرضين .

وظاهره يشمل الآيات التنزيلية والآيات التكوينية . . .

والمراد بالإعراض عدم الالتفات إليها وترك النظر الصحيح فيها . وهذه الآية متعلقة بقوله : ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ أي إذا جاءتهم الرسل كذبوا ، وإذا أتوا بالآيات أعرضوا عنها» [٣] .

ومن الملاحظ في بناء هذه الآية :

١ ـ أنه نفى بـ (ما) ولم ينف بـ (لا) ، ذلك لأنه يريد أن يبين حالتهم التي هم عليها ، وذلك يكون بـ (ما) ، لأنَّ (ما) تفيد الحال إذا دخلت على المضارع . أما (لا) فعند الجمهور أنها تخلص الفعل للاستقبال . والحق كما حققناه في كتابنا (معاني النحو) أنها تفيد الإطلاق ، وكثيرًا ما يؤتى بها للاستقبال .

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٢٩ .

(٢) التفسير الكبير ٢٦/ ٨٣ .

(٣) فتح القدير ٤/ ٣٦١ ـ ٣٦٢ .

وهو لا يريد أن يبين حالتهم في المستقبل بل يريد ما هم عليه ، فنفى لذلك بـ (ما) .

٢ ـ جاء بالفعل المضارع فقال : (ما تأتيهم) لأنه يريد أن يبين أن هذا شأنهم وديدنهم وليدل على الاستمرار . ولم يقل : (ما أتتهم) بصيغة الماضي ؛ لأنه لا يريد أن يبين حالة ماضية ، فإن الماضي يفيد الانقطاع لا الاستمرار .

جاء في (روح المعاني) : «و(ما) نافية ، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار التجددي» [١] .

٣ ـ قال : (من آية) فجاء بـ (من) الدالة على الاستغراق ، وذلك ليشمل الإعراض عن جميع الآيات . ولو قال : (ما تأتيهم آية) لاحتمل نفي العموم ولاحتمل نفي الوحدة ، أي ما تأتيهم آية واحدة إلا كانوا عنها معرضين .

٤ ـ أضاف الآيات إلى الرب المضاف إليهم ليبين أن إعراضهم هذا أسوأ إعراض ، فإن الآيات آيات ربهم المتفضل عليهم بالنعم فكيف يعرضون عنها؟ .

إذ المفروض أن يشكروا ربهم ويطيعوه لا أن يعرضوا عن آياته ، فزادت هذه الإضافة إعراضهم سوءًا .

جاء في (روح المعاني) : «وإضافة الآيات إلى اسم الرب المضاف إلى ضميرهم لتفخيم شأنها المستتبع لتهويل ما اجترأوا عليه في حقها» [٢] .

٥ ـ قال : ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ولم يقل : (إلا أعرضوا عنها) فجاء

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٢٩ .

(٢) روح المعانى ٢٣/ ٢٩ .

باسم الفاعل (معرضين) ليدل على أن هذا وصفهم الثابت ، وأن هذا شأنهم ودأبهم. ولم يقل: (إلا أعرضوا) بالفعل الماضي فيكون الإعراض حادثًا.

وجاء بـ (كان) ليدل على أن الإعراض حاصل أصلاً وهو ثابت فيهم ولم يحدث بعد مجيء الآية ، فإن الآية إذا جاءت وجدتهم معرضين عنها.

جاء في (روح المعاني): «وفي الكلام إشارة إلى استمرارهم على الإعراض حسب استمرار إتيان الآيات» (١).

٦ ـ قدم الجار والمجرور (عنها) على اسم الفاعل فقال: ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ولم يقل: (إلا كانوا معرضين عنها) ، ليدل على أن الإعراض خاص بآيات ربهم ، فهم لا يطيقون سماع آيات ربهم ولا مواجهة آية من آياته ، وهم يسمعون ما عداها من الكلام والحديث ولا يعرضون عنه ، فكان التقديم للقصر ، إضافة إلى أن الفاصلة تقتضي هذا التقديم ، فكان التقديم لأمرين: القصر وفاصلة الآي.

جاء في (روح المعاني): «و(عن) متعلقة بـ(معرضين) قدمت عليه للحصر الادعائي مبالغة في تقبيح حالهم ، وقيل: للحصر الإضافي ، أي معرضين عنها لا عمّا هم عليه من الكفر ، وقيل: لرعاية الفواصل» (٢).

٧ ـ قال: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ فبنى التعبير على الاستثناء المفرغ ، ولم يقل: (إن تأتهم آية من آيات ربهم كانوا عنها معرضين) ، ذلك لأن التعبير القرآني هذا يفيد الدوام ، وأن

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٢٩.
(٢) روح المعاني ٢٣/ ٢٩.

ذلك يحصل كلما جاءتهم آية من آيات ربهم. ولا يفيد تعبير الشرط ذلك نصًّا ، فإنك إذا قلت: (إن يأتني محمد أكرمته) أفاد ذلك أنه إن جاءك أكرمته ولا يفيد أنك تكرمه كلما جاءك ، فإنك إن أكرمته مرة واحدة كان كلامك صادقًا. أما قولك: (ما يأتيني إلا أكرمته) فإنه يفيد أنه كلما جاءك أكرمته.

هذا علاوة على أن التعبير بالاستثناء المفرغ يصح معه زيادة (من) الاستغراقية إذا وقعت قبل (إلا) ، وذلك لوجود النفي أو شبهه ولا يصح ذلك في التعبير الشرطي ، فلا تقول: (إن تأتهم من آية من آيات ربهم كانوا عنها معرضين).

* * *

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾

أي إذا طلب منهم الإنفاق مما رزقهم الله امتنعوا واحتجوا بأن الله هو الذي أفقرهم ، ولو شاء أن يغنيهم لأغناهم ، فكيف يجيعهم ربهم ونحن نطعمهم؟ إن طلبكم هذا مخالف لمشيئة الله ، وهو ضلال ظاهر.

والظاهر أن المقصود بقوله: ﴿ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ إطعام المحتاجين ، بدليل قولهم: ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ ﴾ ، إلا أنه أخرجه مخرج العموم في الطلب والخصوص في الجواب ، ذلك أن قوله: ﴿ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ يدخل فيه الإطعام وغيره من أفعال الخير فكان الطلب عامًّا.

غير أنهم امتنعوا عن أي شيء من الإنفاق حتى إطعام المحتاج ، وهو ما تدعو إليه المروءة ، فدل امتناعهم عن هذا امتناعهم عما هو أكبر وأعظم ، وفي هذا مبالغة في الامتناع عن الإنفاق.

جاء في (التفسير الكبير): «ما الفائدة في تغيير اللفظ في جوابهم حيث

لم يقولوا: أننفق على من لو يشاء الله رزقه ، وذلك لأنهم أمروا بالإنفاق في قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ ﴾ فكان جوابهم أن يقولوا: أننفق ، فلم قالوا: أنطعم؟

نقول: فيه بيان غاية مخالفتهم ؛ وذلك لأنهم إذا أمروا بالإنفاق ـ والإنفاق يدخل فيه الإطعام وغيره ـ لم يأتوا بالإنفاق ، ولا بأقل منه ـ وهو الإطعام ـ وقالوا: لا نطعم. وهذا كما يقول القائل لغيره: أعط زيدًا دينارًا ، يقول: (لا أعطيه درهمًا) مع أن المطابق هو أن يقول: لا أعطيه دينارًا ، ولكن المبالغة في هذا الوجه أتم ، فكذلك ههنا» (١) .

وجاء في (البحر المحيط): «أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله ، وهو عام في الإطعام وغيره ، فأجابوا بغاية المخالفة ؛ لأن نفي إطعامهم يقتضي نفي الإنفاق العام ، فكأنهم قالوا: لا ننفق ولا أقل الأشياء التي كانوا يسمحون بها ويؤثرون بها على أنفسهم وهو الإطعام الذي به يفتخرون. وهذا على سبيل المبالغة ، كمن يقول لشخص: أعط لزيد دينارًا ، فيقول: لا أعطيه درهمًا. فهذا أبلغ من: لا أعطيه دينارًا» (٢) .

والملاحظ من الآيتين أنهم أمروا بالاتقاء وذلك قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ وهو أمر عام يتعلق بالعبادة الفردية والحياة الشخصية ويتعلق بالآخرين ، فإن وجوه الاتقاء متسعة.

وأمروا بالإنفاق في وجوه الخير وذلك قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ . . . ﴾ وهو أمر يتعلق بالآخرين. ومنه إطعام المحتاجين الذي هو ضرورة من ضرورات الحياة. وهذا يدلنا على أن أوامر الله قسمان:

قسم يتعلق بالقيام بحقوق الله ، وهو يدخل في التقوى.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٨٤ ـ ٨٥.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٤٠ ، وانظر روح المعاني ٢٣/ ٣٠.

وقسم يتعلق بحقوق العباد ومنه الإنفاق ، وقد امتنعوا عنهما جميعًا .

جاء في (روح المعاني): «والكلام على ما قيل لذمهم على ترك الشفقة على خلق الله تعالى إثر ذمهم على ترك تعظيمه عز وجل بترك التقوى ، وفي ذلك إشارة إلى أنهم أخلوا بجميع التكاليف ؛ لأنها كلها ترجع إلى أمرين: التعظيم لله تعالى ، والشفقة على خلقه سبحانه» (١) .

والملاحظ من الآية:

١ ـ أنها بدأت بأداة الشرط (إذا) فقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ ﴾ إشارة إلى أن هذا القول قد قيل لهم فعلاً ، بل إنه لقد قيل لهم كثيرًا لما سبق أن ذكرنا في دلالة (إذا) في قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ. . . ﴾ .

٢ ـ وقد بنى الفعل (قيل) للمجهول في الآيتين فقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ ﴾ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ ﴾ لأكثر من سبب:

من ذلك أن القائل معلوم وهم المؤمنون.

ومن ناحية أخرى أنه لا يتعلق غرض بذكر القائل ، فإنه لا يتغير الحكم بتغير القائل ، فإن المقصود هو المقول وليس القائل.

ومن ذلك الإشارة إلى ضرورة النظر في المقول لا في القائل ، فالقول الحق ينبغي الأخذ به أيًا كان قائله. فهو توجيه إلى الأخذ بالقول الحق دون النظر إلى قائله ، وهو بمعنى: (خذ الحكمة ولا تضرك من أي وعاء خرجت).

ثم إنه لو ذكر القائل لظن أن هذا الموقف من الكفرة بسبب القائل ، ولو كان القائل شخصًا آخر لتغير الموقف ، فإن الناس كثيرًا ما يرفضون القول من قائل ويقبلونه من قائل آخر. فلو ذكر القائل لظن أن رفضهم

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٢٩

بسبب القائل. فبين أن موقفهم هذا إنما هو من المقول لا من القائل.

٣ ـ وقد جاء بـ (من) التبعيضية للدلالة على أنه طلب منهم إنفاق شيء مما أنعم الله به عليهم ليسهل ذلك عليهم.

٤ ـ أسند الرزق إلى الله ، أي إن الله هو الذي رزقكم وتفضل عليكم ، فأنفقوا شيئًا مما أعطاكم وتفضل عليكم ؛ «أي أعطاكم سبحانه بطريق التفضل والإنعام من أنواع الأموال ، وعبر بذلك تحقيقًا للحق وترغيبًا في الإنفاق ، على منهاج قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ ، وتنبيهًا على عظم جنايتهم في ترك الامتثال بالأمر ، وكذلك الإتيان بمن التبعيضية»[1].

٥ ـ بين القائل والمقول له في الآية بعد البناء للمجهول فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾.

فبين قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أن القائل (أنفقوا) هم المؤمنون، وأن الذين قيل لهم هم الكفار، ولذا ذكر أن الذين كفروا ردوا على المؤمنين قولهم.

ومن هذا يتضح أن الآية بنيت على الإيضاح بعد الإبهام.

فقد قال: (قيل) فبنى الفعل للمجهول ، ثم بين القائل بقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

وقال: (لهم) فذكر الضمير ثم أوضح الضمير بأنه يعود على الذين كفروا ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾

ثم قال: ﴿أَنفِقُواْ﴾ وهو عام ، ثم بيّن المقصود بالإنفاق ههنا وهو

---

(١) روح المعاني ٢٣/٢٩.

إطعام المحتاجين.

٦ ـ لم يبين القائل في الآية الأولى وهي قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ، وقد بينه في هذه الآية؛ ذلك لأن القائل في الآية الأولى معلوم وهو لا يحتاج إلى إيضاح ، فإنه معلوم أنه لا يقول هذا القول إلا مؤمن ولا يصدر عن كافر ، وذلك لأن الكفار لا يؤمنون بالآخرة ، ولذا ذكر بعد ذلك قولهم: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ .

أما الآية الثانية وهي قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ فيحتاج القائل إلى تبيين ذلك؛ لأن هذا القول قد يصدر عن شخص غير مسلم يقوله مروءة ، ذلك أن الله حكى عن كفار قريش أنهم يؤمنون بأن الله هو الذي يرزق الخلق ، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١].

فبين أن الذي قال هذا القول ودعا إلى الإنفاق هم المؤمنون.

فكان كل تعبير أنسب في مكانه. هذا علاوة على أنه ذكرنا أن الآية الأولى بنيت على الإيجاز ، وهذه بنيت على البيان بعد الإبهام.

واستبان من ذلك أن الذي يدعو إلى الخير والمكرمة إنما هو المؤمن ، وأن المشفق على خلق الله الطالب لإعانتهم وإغاثتهم إنما هو المؤمن ، فالمؤمن منبع كل خير ويمن وبركة.

٧ ـ لم يبين وجوه الإنفاق في الآية بل أطلقها فقال: ﴿ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ذلك ليشمل وجوه الخير كلها ، وليشمل عموم خلق الله مؤمنهم وكافرهم ، فهو لم يقل: (أنفقوا على المؤمنين) بل أطلق ذلك ليشمل الجميع فتتسع دائرة الخير.



٨ ـ لما أسند الرزق إلى الله بقوله: ﴿ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ أسندوا الإطعام إليه فقالوا: ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ ﴾. فإنه لما قال لهم المؤمنون ﴿ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ أجابوا ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ ﴾. فكأنهم قالوا: الله الذي رزقنا هو الذي حرمهم.

٩ ـ لم يذكر اللام في جواب (لو) فلم يقل: (لو يشاء الله لأطعمه) ذلك أن الإطعام سهل ميسور فلا يحتاج إلى توكيد. والملاحظ في القرآن الكريم أن المنزوع اللام من جواب (لو) أقل توكيدًا مما ذكرت فيه اللام.

فيؤتى باللام فيما هو آكد، فما كان أصعب في ميزان البشر يؤتى معه باللام، وما كان أيسر تنزع منه اللام، مع أنه من المعلوم أن ليس شيء أصعب على الله من شيء.

قال تعالى: ﴿ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٩] فجاء باللام لأن الهداية صعبة. وقال: ﴿ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. فلم يذكر اللام لأن الإهلاك مقدور عليه وليس كالهداية. وقال: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾ وهذا صعب عسير فجاء باللام. غير أنه قال: ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ ﴾ فلم يذكر اللام لأنه مقدور عليه من كثير من الناس وليبينوا أن ذلك من الأمور اليسيرة على الله، فلو شاء ذلك فعل، ولكن الله لم يشأ ذلك فكيف نطعمهم نحن؟

* * *

﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

أي ما أنتم إلا في ضلال ظاهر غير خاف على أحد، و(مبين) معناه مظهر لنفسه لا يحتاج أن يظهره أحد.

فإن الضلال على قسمين:

ضلال خفي لا يعلمه إلا ذوو البصيرة والعلم ، وهذا يحتاج إلى إيضاح وتبيين.

وضلال مبين ، أي مبين عن نفسه لا يحتاج إلى أن يظهره أحد أو يبينه شخص فإنه يبين نفسه بنفسه ، وهو أظهر من كل إظهار وأبين من كل تبيين ، فجعلوا أمرهم بالإنفاق من الضلال المبين الظاهر الذي يظهر نفسه.

وقد أخرج الكلام على جهة القصر ، أي لستم إلا في الضلال ، ولستم في شيء آخر. وهذا يختلف عن القول (أنتم في ضلال مبين) فإن ذلك ـ أي القصر ـ آكد ، فإنه يفيد أنهم ليسوا في غير الضلال.

جاء في (التفسير الكبير): «قد ذكرنا أن قوله: (إن أنتم إلا) يفيد ما لا يفيد قوله: (أنتم في ضلال) ؛ لأنه قد يوجب الحصر ، وأنه ليسوا في غير الضلال.

(البحث الثالث): وصف الضلال بالمبين ، قد ذكرنا معناه أنه لظهوره يبين نفسه أنه ضلال ، أي في ضلال لا يخفى على أحد أنه ضلال» [١].

ثم نفى بـ (إن) ولم ينف بـ (ما) لأن (إن) آكد في النفي من (ما) [٢].

وقال: (في ضلال) فاستعمل (في) وهو حرف يفيد الظرفية ، أي: ما أنتم إلا مغمورون في الضلال ساقطون فيه كمن يسقط في اللجة.

وقد لاحظ المفسرون أن القرآن يستعمل (على) في الهداية ، ويستعمل (في) في الضلال ونحوه ، فيقول: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥].

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٨٥.

(٢) ينظر معاني النحو ٤/ ٥٧٦ وما بعدها.

ويقول: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ [هود: ٢٨]، فاستعمل (على) في هذا المعنى للدلالة على تمكنهم من الهداية واستعلائهم على الطريق.

في حين قال: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤]، ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥]، أي كأنهم ساقطون في ذلك لا يتبينون ما حولهم ولا هم متمكنون من أنفسهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، فاستعمل (على) مع الهدى و(في) مع الضلال.

جاء في (التفسير الكبير): «إنَّ قوله: (في ضلال) يفيد كونهم مغمورين فيه غائصين. وقوله في مواضع: (على بينة)، و(على هدى) إشارة إلى كونهم راكبين متن الطريق المستقيم قادرين عليه»(١).

* * *

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

أي متى يوم القيامة الذي توعدوننا به وتحذروننا منه إن كنتم صادقين في قولكم؟

والوعد المذكور هنا هو ما أشارت إليه الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾.

جاء في (التفسير الكبير): «ليس في هذا الموضع وعد، فالإشارة بقوله: (هذا الوعد) إلى أي وعد؟.

نقول: هو ما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من قيام الساعة، أو نقول: هو معلوم وإن لم يكن مذكورًا لكون

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٨٥.

الأنبياء مقيمين على تذكيرهم بالساعة والحساب والثواب والعقاب»[١].

وجاء في (البحر المحيط): «أي متى يوم القيامة الذي أنتم توعدوننا به؟ أو متى هذا العذاب الذي تهددوننا به؟ وهو على سبيل الاستهزاء، فهم لما أمروا بالتقوى ولا يتقى إلا مما يخاف منه، وهم غير مؤمنين، سألوا: متى يقع هذا الذي تخوفونا به استهزاء»[٢].

وقال: (ويقولون) بالمضارع ولم يقل: (وقالوا) للدلالة على استمرارهم على هذا القول ولم يقولوا ذلك مرة واحدة.

ولم يقل (ويقول الذين كفروا للذين آمنوا متى هذا الوعد...) كما قال في الآية السابقة: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾ ذلك لأنه معلوم أنه لا يقول هذا القول إلا كافر وهو موجه إلى الذين آمنوا؛ لأن المؤمنين يؤمنون باليوم الآخر ولا يؤمن به الذين كفروا.

* * *

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

معنى النظر ههنا وقوع الشيء من غير ترقب له، فلا يرونه إلا واقعًا، وقد فسره المفسرون بالانتظار، ولما كان الكفار غير منتظرين للصيحة بل ينكرونها فسّروها بالانتظار الفعلي.

جاء في (التفسير الكبير): «﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي لا ينتظرون إلا الصيحة المعلومة... فإن قيل: هم ما كانوا ينتظرون الصيحة بل كانوا يجزمون بعدمها، فنقول: الانتظار فعلي لأنهم كانوا

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٨٦.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٦٠.

يفعلون ما يستحق به فاعله البوار وتعجيل العذاب وتقريب الساعة لولا حكم الله وقدرته وعلمه»[(١)].

وجاء في (البحر المحيط): «ما ينظرون أي ما ينتظرون، ولما كانت هذه الصيحة لابد من وقوعها جعلوا كأنهم منتظروها»[(٢)].

والحق أن ثمة فرقاً بين (ينظرون) و(ينتظرون).

فمعنى (ينظرون) يرون الأمر واقعًا بغتة من غير ترقب له أو توقع. أما الانتظار فهو ترقب وقوع الأمر.

وأكثر الاستعمال القرآني على هذا، فهو يستعمل (النظر) لما يفاجئ من الأحداث، والانتظار لما فيه ترقب وتوقع.

قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزخرف: ٦٦].

فذكر أنها تأتيهم بغتة أي من غير ترقب.

وقال: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨].

وهي مثل ما قبلها.

وقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣].

والكلام واضح أنه في اليوم الآخر، وهو يأتيهم من غير ترقب له أو انتظار؛ لأنهم كافرون به كما يدل على ذلك الكلام.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٨٦.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٤٠.

في حين قال: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

أي منهم من ينتظر ذلك ويترقبه.

وقال: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ [السجدة: ٣٠].

فأمره بالانتظار وهو الترقب.

وقال هود لقومه: ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٧١].

فهو قد توعدهم وتهددهم وأمرهم بانتظار ذلك وترقبه.

ثم إن بناء كل من الفعلين يقوّي ما ذكرناه، فإن بناء (انتظر) أطول من (نظر)، وذلك يدل على زيادة الانتظار وطوله، إذ كثيرًا ما يناسب اللفظ المعنى.

ومعنى الآية ـ أي آية يس ـ أنهم لا ينظرون إلا صيحة واحدة تبغتهم وهم يختصمون في حياتهم ومعاشهم، والمقصود بالصيحة هذه صيحة القيامة.

واختار (ينظرون) على (ينتظرون) لأن في ذلك فزعًا أكبر؛ فإن الذي تفجؤه الصيحة يرجف فؤاده ويفزع أكثر ممن ينتظرها؛ «لأن الصيحة المعتادة إذا وردت على غافل يرجف، فإن المقبل على مهم إذا صاح به صائح يرجف فؤاده، بخلاف المنتظر للصيحة. فإذا كان حال الصيحة ما ذكرناه من الشدة والقوة وترد على الغافل الذي هو مع خصمه مشغول يكون الارتجاف أتم والإيجاف أعظم» [١].

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٨٦.

وذكر الصيحة ههنا كما ذكرها في أصحاب القرية ، فإن كلاًّ من الصنفين لم يتق ما بين يديه وما خلفه ، فلم يرحمه ربه وأخذته الصيحة .

غير أن هناك فرقًا بين البناء في الآيتين :

فقد قال في أصحاب القرية : ﴿ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً ﴾ بالفعل الماضي لأن الصيحة قد وقعت .

وقال ههنا : ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً ﴾ بالفعل المضارع لأنها لم تقع .

وقال في أصحاب القرية : ﴿ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴾ .

وقال ههنا : ﴿ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ وذلك أنه لما قال : إن الصيحة تأخذهم ، أي كأنها تأخذهم من أهلهم قال : ﴿ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ لأن الصيحة أخذتهم بعيدًا عن أهلهم . ولم يقل مثل ذلك مع قوله : ﴿ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴾ لأنها أخمدتهم جميعًا هم وأهلهم .

وناسب ذلك أيضًا قوله : ﴿ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ﴾ أي يختصمون في أمور الدنيا ، ومعنى ذلك أنهم ليسوا بين أهلهم ولا في مساكنهم ، فناسب أن يقول : ﴿ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ .

ومعنى (يخصّمون) : (يختصمون) غير أنه أبدل من التاء صادًا وضعّفها وكسر الخاء لالتقاء الساكنين فصار يخصّمون . وسبب هذا الإبدال والتضعيف ـ والله أعلم ـ أن التضعيف يدل على المبالغة ، فأبدل وضعّف للدلالة على المبالغة في الاختصام .

أي أن الساعة تأخذهم وهم منهمكون في الاختصام مبالغون في أمور الدنيا لا يشغلهم عن ذلك شاغل ، فتأخذهم الصيحة فلا يستطيعون توصية ولا ينطقون بشيء .

جاء في (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني): «وأصل (يخصّمون) يختصمون، فأبدلت التاء صادًا، وأدغمت في الصاد فصار (يخصّمون)، والتضعيف يفيد القوة والتكثير والمبالغة. فأفاد ههنا المبالغة في الاختصام.

والمعنى أن الساعة تأخذهم وهم منهمكون في معاملاتهم منشغلون في خصومات الدنيا على أكثر ما يكون وأشد ما يكون غير منشغلين بشيء آخر عن الدنيا، فالساعة لا تقوم على رجل يقول: لا إله إلا الله.

وفي الحديث: (شرار الخلق الذين تدركهم الساعة وهم أحياء)، فتصيح الساعة صيحة تقطع الاختصام، فلا يكون نبس ولا حركة ولا خصومة ولا كلام، بل صمت مطبق وسكون مطلق، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ فعبر عن ذلك بقوله: (يخصّمون).

ولا يدل الأصل (يختصمون) على هذه المبالغة والقوة...

في حين قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١] من غير إبدال، ذلك أن الاختصام أمام رب العالمين لا يكون مثل الاختصام في الدنيا. فالاختصام في الدنيا عام يشمل المخاصمات التي تستدعي القضاء والفصل بين المتخاصمين، كما يشمل غيرها مما لا يستدعي قضاء ولا فصلاً.

أما الاختصام عند الرب فهو مما يستدعي القضاء والفصل، فبالغ في البناء فيما استعمله في الدنيا، بخلاف ما استعمله في الآخرة، والله أعلم»[1].

واختيار الصيحة هو المناسب في هذا المقام، إذ هي التي تقطع الاختصام والقيل والقال، فبينما هم يختصمون في معاملاتهم وهم في

---

(١) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني - باب الإبدال ٥٦ - ٥٧.

صخب الدنيا ، إذ تأتيهم الصيحة فتقطع ذلك كله ، كما يكون في مكان ما ضجيج وصخب فتقطع ذلك بصيحة واحدة فإذا هو صمت مطبق وسكون رهيب .

وذكر أن الصيحة واحدة ؛ ذلك لأنهم لا يحتاجون إلى أخرى ، فإن الصيحة الواحدة تأخذهم جميعًا فلا حاجة إلى ثانية . ثم إنه إذا تتابعت الصيحات أَلفها السامع فلا تكون لها تلك الرهبة ، أما هذه فصيحة واحدة ليس لها نظير تخلع قلوبهم فيموتون جميعًا .

أما الصيحة الثانية فلجمعهم عند رب العالمين .

* * *

﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

قال : إنهم لا يستطيعون التوصية ، ولم يقل : (فلا يوصون) لأن نفي الاستطاعة أبلغ .

فأنت تقول : (هو لا يوصي) أي لا يفعل ذلك مع استطاعته عليها ، فنفي التوصية لا ينفي الاستطاعة ، ونفي الاستطاعة ينفي التوصية . فقولك : (هو لا يستطيع التوصية) أي لا يقدر عليها مع إرادته ذلك .

ونكّر التوصية لأنه أراد العموم ، فهم لا يستطيعون أن يوصوا أية توصية مهما كانت . ولو قال : (لا يستطيعون التوصية) لاحتمل أنهم لا يستطيعون التوصية المطلوبة أو الكاملة أو المعهودة ، فتنكيرها أفاد العموم .

﴿ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ إن الإنسان يتمنى أن يموت بين أهله ، وهؤلاء لا يستطيعون أن يبلّغوا أهلهم بشيء ، ولا أن يعودوا إليهم ، فحرموا من الأمنيتين العزيزتين كلتيهما .

ثم إنه قدم الفعل (يستطيعون) على المفعول به (التوصية) وأخر الفعل (يرجعون) عن الجار والمجرور ولم يجعلهما على نسق واحد ، فلم يقل: (فلا يستطيعون توصية ولا يرجعون إلى أهلهم).

ولم يقل: (فلا توصية يستطيعون ولا إلى أهلهم يرجعون) ذلك أن ما قاله ربنا أعدل الكلام في هذا المقام.

فإنه لو قال: (فلا توصية يستطيعون) فقدم المفعول على الفعل لكان نفي الاستطاعة خاصًّا بالتوصية وقد يستطيعون غيرها ، كما تقول: (ما شعرًا قلت) أي قلت غيره ، فإنك نفيت الشعر وأثبت غيره. ونحوه أن تقول: (ما زيدًا أكرمت) أي أكرمت غيره.

أما هنا فنفى التوصية ولم يثبت غيرها فكان النفي أعم وأشمل.

وقوله: ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ نفى الرجوع إلى الأهل وأثبت الرجوع إلى غيرهم وهو الله ، أي لا يرجعون إليهم بل إلينا. ولو قال: (ولا يرجعون إلى أهلهم) لنفى الرجوع إلى أهلهم ولم يثبت الرجوع إليه وهو غير مراد ، ولكنه أراد إثبات الرجوع إليه سبحانه.

وهذا التقديم نظير التقديم في قوله تعالى في السورة: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ ، ونظير التقديم في آخر السورة: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

هذا إضافة إلى ما تقتضيه خواتم الآي من هذا التقديم والتأخير.

جاء في (التفسير الكبير) في هذه الآية: «فيه أمور مبينة للشدة ، (أحدها) عدم الاستطاعة ، فإن قول القائل: فلان في هذه الحال لا يوصي ، دون قوله: لا يستطيع التوصية ، لأن من يوصي قد يستطيعها.

(الثاني) التوصية وهي بالقول ، والقول يوجد أسرع مما يوجد الفعل ، فقال لا يستطيعون كلمة ، فكيف فعلاً يحتاج إلى زمان طويل من أداء الواجبات ورد المظالم؟ .

(الثالث) اختيار التوصية من بين سائر الكلمات يدل على أنه لا قدرة له على أهم الكلمات ، فإن وقت الموت الحاجة إلى التوصية أمسّ .

(الرابع) التنكير في التوصية للتعميم ، أي لا يقدر على توصية ما ، ولو كانت بكلمة يسيرة ، ولأن التوصية قد تحصل بالإشارة فالعاجز عنها عاجز عن غيرها .

(الخامس) قوله : ﴿ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ بيان لشدة الحاجة إلى التوصية ؛ لأن من يرجو الوصول إلى أهله قد يمسك عن الوصية لعدم الحاجة إليها .

وأما من يقطع بأنه لا وصول له إلى أهله فلابد له من التوصية ، فإذا لم يستطع مع الحاجة دل على غاية الشدة .

وفي قوله : ﴿ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ وجهان :

أحدهما : ما ذكرنا أنهم يقطعون بأنهم لا يمهلون إلى أن يجتمعوا بأهاليهم ، وذلك يوجب الحاجة إلى التوصية .

وثانيهما : أنهم إلى أهلهم لا يرجعون ، يعني أنهم يموتون ولا رجوع لهم إلى الدنيا .

ومن يسافر سفرًا ويعلم أنه لا رجوع له من ذلك السفر ولا اجتماع له بأهله مرة أخرى يأتي بالوصية» [١] .

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٨٧ .

وجاء في (روح المعاني): «﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ إذا كانوا في خارج أبوابهم بل تبغتهم الصيحة فيموتون حيثما كانوا ويرجعون إلى الله عز وجل لا إلى غيره سبحانه»[١].

إن هذه الصيحة تأخذ الجميع ، من كان في بيته وبين أهله ومن كان خارج بيته وليس بين أهله ، فذكر الحالة الأشد وهي من كان بعيدًا عن أهله وبيته. وناسب ذلك قوله: ﴿وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ﴾ أي يختصمون في معاملاتهم وأموالهم.

وهذا يشير إلى أنهم ليسوا مع أهلهم ولا في بيوتهم بل هم منشغلون بأمور الدنيا وصخبها ، فناسب ذلك ما ذكر.

ثم إنه بدأ بالأقرب وهو التوصية ، فهذا أقرب إلى الشخص ، وذلك أن يوصي من حوله ، ثم الأبعد وهو الرجوع إلى الأهل.

* * *

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾

* * *

قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ يعني النفخة الثانية التي تبعث الموتى من قبورهم ، أما النفخة الأولى فقد عبر عنها بالصيحة في قوله: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ﴾ والنفخة في الصور صيحة غير أنه عبر عنها بالنفخة مرة وبالصيحة مرة.

وقد عبر عن الأمرين في سورة الزمر بالنفخة فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٣١

فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وقد ذكرنا أنه عبر عن ذلك في (يس) بالصيحة لأنهم في حال اختصام وصخب، فذكر الصيحة التي تقطع الصخب والضجيج. وليس نحو ذلك في الزمر.

فذكر أنه نفخ في الصور النفخة الثانية فإذا هم يخرجون من أجداثهم يسرعون إلى ربهم، ومعنى (ينسلون): يسرعون.

وقد تقول: ولكنه قال في الزمر: ﴿فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾، أليس في ذلك اختلاف؟.

فنقول: ليس ثمة اختلاف وإنما هو تصوير مشهد يقتضيه السياق، وإيضاح ذلك:

١ ـ أن قوله: (قيام) لا يناقض المشي، فالماشي قد يكون قائمًا وقد يكون غير قائم، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الملك: ٢٢]، وقال: ﴿فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ﴾ [النور: ٤٥].

٢ ـ وحتى لو كانت الحالتان تختلف إحداهما عن الأخرى فقد ذكر إحدى الحالتين في موطن والأخرى في موطن آخر، كما تقول: (درسته تلميذًا صغيرًا فإذا هو طالب في الكلية) و(درسته تلميذًا صغيرًا فإذا هو أستاذ في الجامعة) و(درسته تلميذًا صغيرًا فإذا هو وزير للتربية) ولا ينافي أحدها الآخر.

٣ ـ إن قوله: (من الأجداث) يشير إلى مكان بدء الانطلاق، فلا ينافي ذلك أن يكون قبل الانطلاق واقفًا أو جالسًا، كما تقول: (انطلق المتسابقون من المدرسة إلى المستشفى) فأنت ذكرت بدء الانطلاق ولم

تذكر ما قبله ، ولا يناقض ذلك أي وضع كانوا عليه .

جاء في (التفسير الكبير) في قوله : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ : «أي نفخ فيه مرة أخرى ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) قال تعالى في موضع آخر : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ ، وقال ههنا : ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ والقيام غير النسلان ، وقوله في الموضعين (فإذا هم) يقتضي أن يكونا معًا ، نقول :

الجواب عنه من وجهين :

(أحدهما) : أن القيام لا ينافي المشي السريع لأن الماشي القائم ، ولا ينافي النظر .

(وثانيهما) : أن السرعة مجيء الأمور ، كأن الكل في زمان واحد كقول القائل :

مكـرٍّ مفـرٍّ مقبـلٍ مـدبـرٍ معًـا كجلمودِ صخرٍ حطَّه السَّيْل من عَلِ» (١)

وجاء في (روح المعاني) : «ولا منافاة بين هذه الآية وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ لجواز اجتماع القيام والنظر والمشي ، أو لتقارب زمان القيام ناظرين وزمان الإسراع في المشي» (٢) .

أما اختيار كل تعبير فذلك لمناسبة السياق الذي ورد فيه .

فقد قال في الزمر ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ ذلك أنه ذكر الصعقة في النفخة الأولى فقال : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٨٨ .

(٢) روح المعاني ٢٣/ ٣٢ .

والصعقة تعني الغشية ، وتعني الموت ، فذكر في النفخة الثانية ما ينافي الغشية والموت فقال: ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ .

وقال في (يس): إنهم إلى ربهم ينسلون ؛ ذلك لأنهم كانوا في النفخة الأولى ينسلون إلى الدنيا ويختصمون فيها وهم مجتمعون لشؤونها ، فقد قال: ﴿ تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ والاختصام لا يكون إلا مع الاجتماع ، فذكر في النفخة الثانية أنهم ينسلون إلى ربهم ويجتمعون للخصومة عنده ، فناسب كل تعبير مكانه .

لقد قال: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾ فعبر عن الحدث المستقبل بالفعل الماضي للدلالة على أنه محقق الوقوع بمنزلة ما مضى من الأحداث .

ثم قال (فإذا) فجاء بالفاء مع (إذا) الفجائية ، ذلك أن الفاء تدل على الترتيب والتعقيب ، أي يخرجون فجأة من دون تراخ أو مهلة من الوقت ، ففي عقب النفخة مباشرة من دون تلبث يخرجون من الأجداث ينسلون إلى ربهم. ولم يأت بثم مع إذا الفجائية كما في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠] ، ذلك لأن (ثم) تفيد التراخي في الزمن ، فبيّن أنه في عقب النفخة مباشرة يخرج الموتى من مراقدهم .

وقال: ﴿ مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ فقدم (من الأجداث) وهو مبدأ النسلان ، ثم ذكر بعده (إلى ربهم) وهو انتهاء الغاية ، فقدم بدء الغاية وذكر النهاية بعده ، وهو التعبير الطبيعي ، وهو كما تقول: (انطلق من المكان الفلاني إلى السوق) .

وقدم الجارين والمجرورين على الفعل للاهتمام والقصر ، فإنه أعجب شيء أن يخرج الميت من قبره مسرعًا إلى غاية مرسومة له ،

فكيف تخرج هذه العظام النخرة والتراب المختلط مما هب ودب مسرعة تعدو إلى غايتها .

وقد ذكر أن إسراعهم إنما هو إلى ربهم الذي هو مالك أمرهم وسيدهم لا إلى جهة أخرى ، فهم ينسلون إلى ربهم حصرًا .

واختيار لفظ (الرب) أنسب شيء ههنا ، ذلك أن الخارجين من الأجداث قسمان :

قسم أطاع ربه وسيده فهو ذاهب إلى ربه الذي أطاعه وهو الأرحم به ، ذلك أنه هو الذي أنعم عليه في الدنيا وغذاه بالنعم، فهو أرحم به الآن وأكرم، وهو يلتجئ إليه كما يلتجئ العبد إلى سيده والضعيف إلى متولي أمره .

وقسم عصى ربه الذي غذاه بالنعم وأساء إلى من أحسن إليه فهو يُعاد إلى ربه الذي أحسن إليه وقابله بالإساءة ، وشر الإساءة أن تسيء إلى من أحسن إليك ، فهي شر إعادة وأسوأ رجعة . فكان ذكر الرب أنسب شيء ههنا .

جاء في (التفسير الكبير) : «الموضع موضع ذكر الهيبة ، وتقديم ذكر الكافر ولفظ الرب يدل على الرحمة ، فلو قال بدل الرب المضاف إليهم لفظاً دالاًّ على الهيبة هل يكون أليق أم لا؟ .

قلنا : هذا اللفظ أحسن ما يكون ؛ لأن من أساء واضطر إلى التوجه إلى من أحسن إليه يكون ذلك أشد ألمًا وأكثر ندمًا من غيره» [(١)] .

وجاء في (روح المعاني) : «وذكر الرب للإشارة إلى إسراعهم بعد

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٨٨ .

الإساءة إلى من أحسن إليهم حين اضطروا إليه»[١].

وهذا الإسراع إلى ربهم لا اختيار لهم فيه وإنما هم أحضروا إليه إحضارًا ، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾.

جاء في (التفسير الكبير): «وقوله: (محضرون) دل على أن كونهم (ينسلون) إجباري لا اختياري»[٢].

ثم لننظر من ناحية أخرى أنه ذكر في هذه الآية جهة الرجوع التي لم يذكرها في الآية السابقة ، فقد قال في الآية السابقة: ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ وقد ذكرنا أن قوله: ﴿ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ يعني أنهم يرجعون إلى غير أهلهم. وهنا عين الجهة التي يرجعون إليها فقال: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ أي يرجعون إلى ربهم حصرًا.

ومن هنا يتبين أن هذه الآية ارتبطت بالآية السابقة من جهتين:

الجهة الأولى: أن قوله في الآية السابقة: ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لا يدل على أن تلك الصيحة أماتتهم تصريحًا ، ذلك أنه قد يحال بين الحي والتوصية وبينه وبين الرجوع إلى أهله ، فلا يستطيع توصية ولا يرجع إلى أهله ، وذلك حال كثير من المساجين ، فلما قال: (من الأجداث) علم من هذه الآية أنهم ماتوا.

والجهة الأخرى: أنه ذكر جهة الرجوع ، فإنه لما قال: ﴿ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ذكر في هذه الآية أنهم إلى ربهم ينسلون. فكان في هذه الآية توضيح ما حدث لهم وتعيين جهة الرجوع.

فقوله: ﴿ مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ ﴾ مقابل قوله: ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً . . ﴾.

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٣٢.

(٢) التفسير الكبير ٢٦/ ٩٠.

وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ مقابل قوله: ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وتقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ نظير التقديم في قوله: ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾.

إن هذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ فإنها بينت الآية قبلها وهي قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. ففي كلتا الآيتين أعني قوله: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لم يصرح بما حصل، وإنما أشار إلى ذلك في الآية بعدها.

وهو تناظر بديع.

* * *

﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ . . . ﴿٥٢﴾﴾

قال: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا﴾ ولم يقل: (يقولون يا ويلنا) ذلك أنه لو قال: (يقولون) لكان الفعل حالاً للنسلان أي (ينسلون قائلين يا ويلنا)، كما نقول: (هو يقبل يبكي) و(يُدبر يسرع) فيكون القول عند النسلان، في حين أن القول قبل النسلان، فإنما قالوا ذلك في ابتداء بعثهم من القبور[١].

جاء في (التفسير الكبير): «لو قال قائل: لو قال الله تعالى: (فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون يقولون يا ويلنا) كان أليق.

نقول: معاذ الله، وذلك لأن قوله: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ

---

(١) [illegible] ٢٣/ ٣٢

يَنسِلُونَ﴾ على ما ذكرنا إشارة إلى أنه تعالى في أسرع زمان يجمع أجزاء ويؤلفها ويحييها ويحركها. . . فلو قال: (يقولون) لكان ذلك مثل الحال لينسلون أي ينسلون قائلين يا ويلنا، وليس كذلك، فإن قولهم: (يا ويلنا) قبل أن ينسلوا»(١).

﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾

الويل هو الحزن والعذاب والهلاك، ومعنى (يا ويلنا) أنهم ينادون هلاكهم وعذابهم، أي احضر يا عذابنا ويا هلاكنا فهذا أوانك، كما يقول الناس: (يا مصيبتي) و(يا خراب بيتي) أي احضر فهذا وقتك وأوانك، قال تعالى في أصحاب النار: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُوا۟ مِنۡهَا مَكَانࣰا ضَيِّقࣰا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡا۟ هُنَالِكَ ثُبُورࣰا ۝١٣ لَّا تَدۡعُوا۟ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورࣰا وَٰحِدࣰا وَٱدۡعُوا۟ ثُبُورࣰا كَثِيرࣰا﴾ [الفرقان: ١٣ ـ ١٤]، أي قالوا: يا ويلاه، يا ثبوراه.

جاء في (لسان العرب): «الويل: الحزن والهلاك والمشقة من العذاب وكل من وقع في هلكة دعا بالويل، ومعنى النداء فيه يا حزني ويا هلاكي ويا عذابي: احضر فهذا وقتك وأوانك، فكأنه نادى الويل أن يحضره لما عرض له من الأمر الفظيع»(٢).

وقد تقول: ولم قال: (يا ويلنا) ولم يقل: (يا ويلتنا) بالتاء؟

والجواب: أن الويل هو ما ذكرناه أي العذاب والحزن، أما الويلة فهي الفضيحة. ويؤتى بها في مواطن الفضيحة وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةࣰ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: ٤٩].

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٨٩.
(٢) لسان العرب (ويل) ١٤/ ٢٦٥.

فقالوا: (يا ويلتنا) أي يا للفضيحة وهي فضيحة نشر الأعمال ، فإن قسمًا من الأعمال كان يتستر منها فاعلها ، فهو يفعلها في السر فإذا بالكتاب قد فضحها كلها.

ولو تتبعنا مواطن استعمال الويلة بالتاء في القرآن الكريم لوجدناها كلها في مواطن الفضيحة ، بخلاف مواطن الويل.

قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢].

فقالت: (يا ويلتا) ذلك أن العجوز المسنة التي تلد وبعلها شيخ تشعر بأن ولادتها في مثل هذه السن فضيحة تخجل منها ، ولذا قال تعالى في موطن آخر: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩].

وقال في ابن آدم الذي قتل أخاه ولم يعلم ماذا يفعل به ولا كيف يتخلص من الجثة وقد أعيته الحيلة ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١].

وهو موطن عجز فاضح ، إذ كان أقل تفكيرًا وحيلة من الغراب.

وقال: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩].

وهذا موطن افتضاح في ضعف الشخصية وعجزها، فإن صاحبه استطاع أن يخدعه ويضله ويلغي تفكيره ويعبث بعقله وذلك دليل نقص وعجز.

ولم يرد الويل في مثل هذه المواطن.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ

مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٢ ـ ١٥].

وقال: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٦].

وقال: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

وقال: ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢].

وقال: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الصافات: ١٩ ـ ٢٠].

وقال: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ [القلم: ٣٠ ـ ٣١].

جاء في (لسان العرب): «الويل: حلول الشر، والويلة: الفضيحة والبلية. وقيل هو تفجع، وإذا قال القائل: واويلتاه، فإنما يعني وافضيحتاه، وكذلك تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الكهف: ٤٩]» (١).

و(المرقد) يحتمل المكان ويحتمل المصدر أي الرقاد، وهو بهذا المعنى أي بمعنى الرقاد تكون ضجعة القبر كالنوم بالنسبة إلى اليقظة، فيكون البعث يقظة والرقاد في القبر كالنوم.

وقال: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ ولم يقل: (من بعثنا من أجداثنا) ليشمل المعنيين: المكان والمصدر. فهم قد بعثوا من الأجداث وبعثوا من رقدة الموت.

---

(١) لسان العرب (ويل) ١٤/ ٢٦٥.

جاء في (الكشاف): «عن مجاهد للكفار هجعة يجدون فيها طعم النوم ، فإذا صيح بأهل القبور قالوا: من بعثنا» [١].

وجاء في (البحر المحيط): «المرقد استعارة عن مضجع الميت ، واحتمل أن يكون مصدرًا ، أي: من رقادنا ، وهو أجود ، أو يكون مكانًا فيكون المفرد فيه يراد به الجمع ، أي من مراقدنا.

وما روي عن أبي بن كعب ومجاهد وقتادة من أن جميع البشر ينامون نومة قبل الحشر فقالوا: هو غير صحيح الإسناد ، وقيل: قالوا: (من مرقدنا) لأن عذاب القبر كان كالرقاد في جنب ما صاروا إليه من عذاب جهنم» [٢].

* * *

﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝٥٢﴾

من المحتمل أن يكون هذا كلام الملائكة جوابًا عن سؤالهم ، ويحتمل أن يكون هذا كلام المؤمنين ، أو أن يكون كلام الكافرين[٣] ، فإنهم يعلمون أن المؤمنين كانوا يذكرون اليوم الآخر ويؤمنون به ، فذكر ما علموه عن ذلك ، وقد حذف القائل ليعم جميع الاحتمالات ويشمل كل من يصح منه القول.

فإن قيل: إن قول الكفار: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۗ﴾ سؤال عن الذي بعثهم ، وقوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ ليس جوابًا عنه فكيف يصح ذلك؟

والجواب: أن قول الكفار: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۗ﴾ ليس سؤالاً حقيقيًا عن الذي بعثهم ، وإنما هو سؤال تحسر وابتئاس وندم ، يدل على ذلك

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٦٠.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٤١ ، روح المعاني ٢٣/ ٣٢.

(٣) انظر الكشاف ٢/ ٥٦٠.

قولهم: (يا ويلنا) فهم يعلمون على وجه اليقين أن الله هو بعثهم للحساب ولذا قالوا: ﴿ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ ﴾.

فكان الجواب بما هو الأولى وهو تذكيرهم بالوعد الذي كان يوعَدونه في الدنيا وما ذكرته الرسل وتقريعهم على ما فرط منهم، ومع ذلك هو يتضمن الجواب عن الباعث وذلك قوله: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾ أي أن الرحمن هو الذي بعثكم.

وهو نظير قولنا لرجل يقول متحسرًا مبتئسًا: كيف وصلت إلى هذه الحال؟

فنقول له: هذا بسوء عملك.

وهو ليس جوابًا عن سؤاله، فإن سؤاله عن الحال والكيفية، والجواب كان عن السبب، فهو في الحقيقة جواب عن سؤال (بأي شيء حصل؟) أو: لم حصل هذا؟

فعدل إلى ما هو الأولى بالجواب.

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: ﴿ مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ ﴾ سؤال عن الباعث فكيف طابقه ذلك جوابًا؟

قلت: معناه بعثكم الرحمن الذي وعدكم بالبعث وأنبأكم به الرسل، إلا أنه جيء به على طريقة سيئت بها قلوبهم ونعيت إليهم أحوالهم وذكروا كفرهم وتكذيبهم وأخبروا بوقوع ما أنذروا به، وكأنه قيل لهم: ليس بالبعث الذي عرفتموه وهو بعث النائم من مرقده حتى يهمكم السؤال عن الباعث، إن هذا هو البعث الأكبر ذو الأهوال والأفزاع، وهو الذي وعده الله في كتبه المنزلة على ألسنة رسله الصادقين» [(١)].

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٩٠.

وجاء في (التفسير الكبير): «إن قلنا: (هذا) إشارة إلى المرقد أو إلى البعث فجواب الاستفهام بقولهم: (من بعثنا) أين يكون؟

نقول: لما كان غرضهم من قولهم: (من بعثنا) حصول العلم بأنه بعث أو تنبيه، حصل الجواب بقوله: هذا بعث وعد الرحمن به ليس تنبيهًا. كما أن الخائف إذا قال لغيره: ماذا تقول أيقتلني فلان؟

فله أن يقول: (لا تخف) ويسكت لعلمه أن غرضه إزالة الرعب عنه وبه يحصل الجواب» [١].

وجاء في (روح المعاني): «وكان الظاهر أن يجابوا بالفاعل لأنه الذي سألوا عنه بأن يقال الرحمن أو الله بعثكم، لكن عدل إلى ما ذكر تذكيرًا لكفرهم وتقريعًا لهم عليه مع تضمنه الإشارة إلى الفاعل. وذكر غير واحد أنه من الأسلوب الحكيم على أن المعنى: لا تسألوا عن الباعث فإن هذا البعث ليس كبعث النائم وإن ذلك ليس مما يهمكم الآن، وإنما الذي يهمكم أن تسألوا ما هذا البعث ذو الأهوال والأفزاع. وفيه من تقريعهم ما فيه» [٢].

و(ما) في قوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ تحتمل أن تكون اسمًا موصولاً أي هذا الذي وعده الرحمن. ويحتمل أن تكون مصدرية أي هذا وعدُ الرحمن.

أما الواو فتحتمل العطف على الجملة وتحتمل الحالية، أي وقد صدق المرسلون فيما أخبروا به. وجوزوا أيضًا أن تكون الواو عاطفة على الصلة، فإن كانت (ما) مصدرية كان التقدير: هذا وعدُ الرحمن وصدقُ المرسلين.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٩٠.
(٢) روح المعاني ٢٣/ ٣٣

وإن كانت اسمًا موصولاً كان المعنى: هذا الذي وعده الرحمن وصدق فيه المرسلون.

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: إذا جعلت (ما) مصدرية كان المعنى: هذا وعد الرحمن وصِدْقُ المرسلين، على تسمية الموعود والمصدوق فيه بالوعد والصدق، فما وجه قوله: ﴿وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ إذا جعلتها موصولة؟

قلت: تقديره: هذا الذي وعده الرحمن والذي صدّقه المرسلون، بمعنى: والذي صدق فيه المرسلون من قولهم: صدقوهم الحديث والقتال. ومنه: صدقني سن بكره»[1].

وهذه الآية نظير قوله في سورة الأحزاب: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

إن هذه الآية بمقابل قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يس: ٤٨].

فهذا القول في الآخرة يقابل قولهم في الدنيا.

فقوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [يس: ٥٢] بمقابل قولهم في الدنيا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾.

وقوله: ﴿وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ بمقابل قولهم: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

والسخرية والاستهزاء بقولهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ...﴾ يقابله الندم والحسرة بقولهم: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾.

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ في الدنيا يقابل قوله: (قالوا) في الآخرة.

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٩٠.



ثم إن اختيار لفظ (المرسلون) هو المناسب لما تردد في السورة من ذكر المرسلين.

ثم لننظر من ناحية أخرى أن ثمة سؤالين قد ذكرا وهما:

السؤال الأول: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟

والسؤال الآخر: من بعثنا من مرقدنا؟

وأن قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ جواب عن السؤالين معًا.

فقوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ جواب من جهة عن السؤال الأول، فقد سألوا: متى هذا الوعد؟

فقال: هذا هو.

وجواب عن السؤال الآخر من جهة أخرى، فقد تضمن ذكر الباعث الذي بعثهم من المرقد وهو الرحمن.

ثم إن هذه الآية مرتبطة أيضًا بقول أصحاب القرية: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾.

فقوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ رد على قولهم: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾ فوعد الرحمن إنما يكون فيما أنزل.

وقوله: ﴿وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ رد على قولهم: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾.

وهي مرتبطة أيضًا بقوله تعالى في أول السورة: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ۝١١ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ [يس: ١١ ـ ١٢].

فقد وعد الرحمن على لسان رسوله أن من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب له مغفرة وأجر كريم ، ثم قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾.

وقال ههنا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

فإنه أحيا الموتى وبعثهم من مرقدهم وصدق رسوله فيما بلغ.

هذا إضافة إلى أنه تردد ذكر الرحمن في الآيتين.

ثم لننظر من ناحية تعبيرية وهي أن كلمة (الوعد) في قوله: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ مصدر بمعنى اسم المفعول ، أي الموعود به.

جاء في (التفسير الكبير): «وقوله: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي متى يقع الموعود به»[1]. وقد فسر بيوم القيامة وبالعذاب[2].

فالمصدر الصريح في الآية بمعنى الذات.

وقوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ إجابة عن المصدر وعن الذات. فإن كانت (ما) اسمًا موصولاً فهي بمعنى الذات فتكون إجابة عن الوعد الذي هو بمعنى الذات.

وإن كانت (ما) مصدرية فقد أجاب بالمصدر المؤول وهو إجابة عن المصدر الذي هو الوعد. فجاء فـ (ما) ولم يأت بـ (الذي) ليشمل المعنيين معًا.

ثم إنه جمع قوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ بين الوعد والصدق ، كما في قوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦].

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/٨٦.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٤٠.

وأما اختيار لفظ (الرحمن) فله أكثر من سبب:

منها: أنه إذا كان هذا قول المؤمنين فإنهم آثروا اسم الرحمن؛ لأن هذا وقت رحمته التامة بهم فإنه يدخلهم في رحمته كما قال تعالى: ﴿فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧].

وإذا كان قول الكافرين فإنهم آثروا اسم الرحمن طمعًا في رحمته.

جاء في (روح المعاني): «في إيثارهم اسم الرحمن قيل: إشارة إلى زيادة التقريع من حيث إن الوعد بالبعث من آثار الرحمة، وهم لم يلقوا له بالاً ولم يلتفتوا إليه وكذبوا به ولم يستعدوا لما يقتضيه. وقيل: آثره المجيبون من المؤمنين لما أن الرحمة قد غمرتهم فهي نصب أعينهم...

وقال ابن زيد: هذا الجواب من قبل الكفار على أنهم أجابوا أنفسهم، حيث تذكروا ما سمعوه من المرسلين عليهم السلام أو أجاب بعضهم بعضًا. وآثروا اسم الرحمن طمعًا في أن يرحمهم، وهيهات ليس لكافر نصيب يومئذ من رحمته عز وجل»[1].

هذا مع أنه من الملاحظ في القرآن الكريم أن اسم الرحمن كثيرًا ما يذكر في مشاهد الآخرة وهذا منها.

قال تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١].

وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩].

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٣٢.



وقال: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢].

وقال: ﴿رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ [النبأ: ٣٧].

وقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨].

وقال: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ﴾ [مريم: ٦٩].

وقال: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

وقال: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧].

وقال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

وقال: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

هذا إضافة إلى أنه تردد اسم الرحمن في السورة أربع مرات وأنَّ جو الرحمة شائع فيها.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

وقال: ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس: ١٥].

وقال: ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣].

وقال: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢].

وقال: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [يس: ٥].
وقال: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].
وقال: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يس: ٤٤].
وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [يس: ٤٥].

وقد تقول: لقد أسند الفعل (وعد) إلى (الله) في مواطن من القرآن الكريم وذلك كقوله تعالى ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النساء: ٩٥].

وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٩].

وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [التوبة: ٦٨].

وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وهنا أسند الفعل (وعد) إلى الرحمن فما الفرق؟

فنقول: إن كل سورة أسند فيها الفعل الماضي (وعد) إلى (الله) لم يذكر فيها اسم (الرحمن) وإن كانت طويلة كسورة النساء والمائدة والتوبة وغيرها من السور، وذلك في عشر سور من القرآن الكريم.

وكل سورة أسند فيها الفعل (وعد) إلى (الرحمن) تكرر اسم الرحمن في السورة، وذلك في سورتي مريم و(يس). أما سورة مريم فقد تكرر فيها اسم الرحمن إحدى عشرة مرة، وأما سورة (يس) فقد تكرر فيها اسم الرحمن أربع مرات. فناسب هذا الاختيار من كل وجه.

وقد تقول: وهل ثمة فرق بين ما أسند الوعد فيه إلى الله، وما أسند إلى الرحمن؟

فنقول: إن ما أسند فيه الوعد إلى الله مخصص بالمؤمنين أو بالكافرين فيقول مثلاً: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أو ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ فهو وعد خاص.

أما ما أسند فيه الوعد إلى الرحمن فهو وعد عام يشمل عموم العباد وذلك تحقيقًا للرحمة التي يحققها اسم الرحمن، قال تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [مريم: ٦١]. فقد ذكر أنه وعد عباده على الإطلاق مع أن المقصود بعباده هؤلاء من تاب وآمن وعمل صالحًا كما في الآية السابقة، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦٠ ـ ٦١].

وقال في سورة (يس): ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾

فأطلق الوعد ولم يذكر الموعود من الخلق أهم المؤمنون أم الكافرون، فهو وعد عام على الإطلاق فلم يذكر مفعولاً لوعد، أما إسناده إلى الله فهو مخصص دائمًا وذلك في اثني عشر موضعًا من القرآن الكريم، فاتضح الفرق بينهما.

وسبحان قائل هذا الكلام.

* * *

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

أي ما كانت النفخة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ إلا صيحة واحدة[1] فإذا هم مجموعون محضرون لدى رب العزة.

---

(١) ينظر التفسير الكبير ٢٦/ ٩٠، فتح القدير ٤/ ٣٦٣.

وجاء بالفاء و(إذا) للدلالة على مفاجأة الجمع والإحضار بعد الموت والبلى وسرعته ، فإن (إذا) تفيد المفاجأة ، والفاء تدل على الحدوث بلا تراخ ، واجتماعهما يدل على المفاجأة والسرعة.

ومعنى (جميع) مجموعون ، أي فإذا هم مجموعون.

وقد تقول: ولم قال: (جميع) ولم يقل: (مجموعون) كما قال في مكان آخر من القرآن الكريم؟ فقد قال في سورة الواقعة: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩ ـ ٥٠].

وقال: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

والجواب: أن (جميع) تأتي بمعنيين ـ كما ذكرنا في آية سابقة ـ إما أن تكون بمعنى مفعول أي مجموعون ، وإما أن تكون بمعنى مجتمعين وذلك نحو قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤] ، وقوله: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٦] أي مجتمعون.

فجاء بـ (محضرون) ليدل على أنهم مجموعون لا مجتمعون ، أي لم يجتمعوا باختيارهم. وأما (مجموعون) فهو يدل تنصيصًا على اسم المفعول ، أي جُمعوا جمعًا ، ولذا لم يحتج إلى نحو (محضرون).

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن (جميع) على زنة (فعيل) وهي بمعنى (مفعول) كما اتضح ، وهذه الصيغة لا تقال إلا لما وقع فعلاً[1] ، ولا تقال لما سيقع ، أما صيغة (مفعول) فتقال لما وقع ولما لم يقع. فأنت لا تقول: (قتيل) إلا لمن قُتل ، ولا تقول: (طريد) إلا لمن طُرد. أما مقتول ومطرود فيقال لمن قتل ولمن سيقتل ، أي أن صيغة (مفعول) تحتمل الحال والاستقبال ، بخلاف فعيل.

---

(١) كتاب سيبويه ٢/ ٢١٣ ، أدب الكاتب ٢٢٨ ، المخصص ١٦/ ١٥٦.

وفي آية (يس) تحدث عن أحداث القيامة بصيغة ما وقع، فجاء بالصيغة التي تدل على الوقوع.

أما آيتا الواقعة وهود فإنهما في سياق المستقبل فجاء بهما على مفعول. قال تعالى في الواقعة: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٤٩]، فقد أمر الرسول أن يبلغهم بقوله: (قل) وهذا يدل على أن الكلام في الدنيا، وسياق الآيات واضح في ذلك.

وقال في هود: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٣ ـ ١٠٥].

فقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾ يدل على أنهم في الدنيا.

وكذلك قوله: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾، وقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ فكل ذلك يدل على أن الكلام على المستقبل.

فاتضح الفرق.

ويدل (لدينا) على الحضور والقرب، وهو أخص من (عندنا)، فإن (عند) قد تكون للحاضر والغائب. فأنت تقول: (عندي مال) وإن كان غائبًا، ولا تقول (لديّ) إلا إذا كان حاضرًا قريبًا[1].

وتقديم (لدينا) يدل على القصر، أي محضرون لدينا لا لدى غيرنا كما مَرَّ بيان ذلك.

* * *

---

(١) ينظر الهمع ٢٠٢/١، شرح ابن يعيش ١٠٠/٤، شرح الرضي على الكافية ١٢٨/٢.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾

فاليوم ، أي يوم القيامة الذي يحضر فيه الجميع للحساب لا تظلم نفس شيئًا .

نكّر النفس ليشمل كل نفس بَرّة كانت أو فاجرة[١] ، فالتنكير أفاد العموم ، ونفى الظلم على الإطلاق ، فليس في ذلك اليوم مِن ظلم ، كما قال تعالى : ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر : ١٧] .

و(شيئًا) يحتمل معنيين :

يحتمل المصدرية ، أي لا تظلمون شيئًا من الظلم وإن قلّ .

ويحتمل المفعول به ، أي لا تظلمون شيئًا من الأشياء[٢] .

وهذان المعنيان مرادان معًا ، فلا تظلم نفس شيئًا من الظلم ، ولا شيئًا من الأشياء ، ولذا أطلق كلمة (شيء) ولم يقيدها .

* * *

﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

بعدما نفى الظلم عن الجميع التفت إلى المخاطبين فقال : ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله : ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ خطاب للكافرين ، ذلك أن المؤمن يجزى أضعاف ما كان يعمل ، أما الكافر فلا يجزى إلا ما كان يعمل .

وقيل : بل إن الخطاب عام ؛ لأن المقصود به الجنس ، بمعنى أن

---

(١) ينظر روح المعاني ٢٣/ ٣٣ .
(٢) ينظر روح المعاني ٢٣/ ٣٣ ، ٣٤

الجزاء من جنس العمل إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر ، فلا يجزى العمل السيء بالجزاء الحسن ، ولا العمل الحسن بالسيء .

جاء في (التفسير الكبير) : «فقوله : ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ ليأمن المؤمن .

﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ليبأس المجرم الكافر .

وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) : ما الفائدة في الخطاب عند الإشارة إلى يأس المجرم بقوله : (ولا تجزون) ، وترك الخطاب في الإشارة إلى أمان المؤمن من العذاب بقوله : (لا تظلم) ولم يقل : (ولا تظلمون أيها المؤمنون)؟

نقول لأن قوله : ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ يفيد العموم ، وهو كذلك فإنها لا تظلم أبدًا .

(ولا تجزون) مختص بالكافر ، فإن الله يجزي المؤمن وإن لم يفعل فإن لله فضلاً مختصًّا بالمؤمن وعدلاً عامًّا ، وفيه بشارة .

(المسألة الثانية) : ما المقتضي لذكر فاء التعقيب؟

نقول لما قال : (محضرون) مجموعون ، والجمع للفصل والحساب ، فكأنه تعالى قال : إذا جمعوا لم يجمعوا إلا للفصل بالعدل ، فلا ظلم عند الجميع للعدل ، فصار عدم الظلم مترتبًا على الإحضار للعدل ، ولهذا يقول القائل للوالي أو للقاضي : جلست للعدل فلا تظلم ، أي ذلك يقتضي هذا ويستعقبه .

(المسألة الثالثة) : لا يجزون عين ما كانوا يعملون ، بل يجزون بما كانوا يعملون أو على ما كانوا ، وقوله : ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يدل على أن الجزاء بعين العمل . لا يقال : (جزى) يتعدى بنفسه

وبالباء ، يقال : جزيته خيرًا وجزيته بخير ؛ لأن ذلك ليس من هذا ، لأنك إذا قلت : (جزيته بخير) لا يكون الخير مفعولك ، بل تكون الباء للمقابلة والسببية ، كأنك تقول : جزيته جزاء بسبب ما فعل .

فنقول : الجواب عنه من وجهين :

(أحدهما) أن يكون ذلك إشارة على وجه المبالغة إلى عدم الزيادة ، وذلك لأن الشيء لا يزيد على عينه ، فنقول قوله تعالى : (يجزون بما كانوا يعملون) في المساواة كأنه عين ما عملوا ، يقال : فلان يجاوبني حرفًا بحرف . أي لا يترك شيئًا ، وهذا يوجب اليأس العظيم .

(الثاني) هو أن (ما) غير راجع إلى الخصوص وإنما هي للجنس ، تقديره : ولا تجزون إلا جنس العمل ، أي : إن كان حسنة فحسنة ، وإن كانت سيئة فسيئة ، فتجزون ما تعملون من السيئة والحسنة ، وهذا كقوله : ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى : ٤٠]» [١]

وجاء في (روح المعاني) : «واستظهر أبو حيان أن الخطاب يعم المؤمنين بأن يكون الكلام إخبارًا من الله تعالى عما لأهل المحشر على العموم كما يشير إليه تنكير (نفس) واختاره السكاكي .

وقيل : عليه يأباه الحصر ؛ لأنه تعالى يوفي المؤمنين أجورهم ويزيدهم من فضله أضعافًا مضاعفة . ورد بأن المعنى أن الصالح لا ينقص ثوابه ، والطالح لا يزاد عقابه ؛ لأن الحكمة تأبى ما هو على صورة الظلم ، أما زيادة الثواب ونقص العقاب فليس كذلك .

أو المراد بقوله تعالى : ﴿وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أنكم لا تجزون إلا من جنس عملكم إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر» [٢] .

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٩٠ ـ ٩١ .

(٢) روح المعاني ٢٣/ ٣٤ وينظر البحر المحيط ٧/ ٣٤١ .

والتحقيق في الأمر أنه يعبر عن نحو ذلك بتعبيرين: (ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون)، (ولا تجزون إلا بما كنتم تعملون) وكل له معنى.

فالتعبير الأول يحتمل معنيين:

المعنى الأول: هو أنكم تجزون بمقدار ما كنتم تعملون، أي لا يزيد الجزاء عن العمل ولا ينقص.

والمعنى الآخر: هو أنكم تجزون من جنس عملكم إن كان عملكم خيرًا فالجزاء خير، وإن كان شرًّا فالجزاء شر، كقوله ﷺ: «الناس مجزيون بأعمالهم إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر».

وأما التعبير الثاني وهو قولنا: (ولا تجزون إلا بما كنتم تعملون) فالباء فيه تفيد السبب، ولا يقتضي أن يكون الجزاء بمقدار العمل، بل ربما زاد عليه، ففي قولك: (عاقبتك بفعلتك) قد تكون العقوبة شديدة وهي أكبر مما تقتضيه الفعلة.

وتقول (أكرمتك بحسن إجابتك أو بحسن تصرفك) فقد يكون الإكرام أكبر بكثير من عمله، فلا يقتضي ذلك مساواة الجزاء للعمل، بل قد يكون مساويًا له، وقد يكون غير مساوٍ له.

ولم يرد في القرآن الكريم: (هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) ونحوه من التعبيرات في خطاب المؤمنين البتة، وإنما ورد ذلك في خطاب الكافرين أو الخطاب لعموم الخلق.

فأما في خطاب الكافرين فتكون العبارة بمعنييها معًا، وهو أنه لا يجزون إلا بمقدار ما كانوا يعملون ومن جنس ما كانوا يعملون.

وأما في خطاب عموم الخلق فالراجح أنه يعني الجنس؛ أي: إنما تجزون من جنس عملكم، بدليل استثناء المؤمنين من المعنى الأول،

فإن جزاءهم أكبر من عملهم .

أما الجزاء بالباء فيكون للمؤمنين والكافرين ، قال تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم : ٣١] .

فكلاهما جعل جزاءه بالباء ، لكنه قال في الكافرين إنه يجزيهم بما عملوا ، وأما المؤمنون فذكر أنه يجزيهم بالحسنى وليس بما عملوا .

وإليك إيضاح ذلك :

قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف : ١٤٧] .

وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ : ٣٣] .

وقال : ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٠] .

وقال : ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل : ٩٠] .

وقال : ﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات : ٣٨ ـ ٣٩] .

وقال : ﴿ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور : ١٦] .

وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التحريم : ٧] .

فأنت ترى أن الخطاب كله للكافرين .

وقال نحو ذلك في عموم الخلق .

فقد قال تعالى: ﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ [إبراهيم: ٥١].

وقال: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٨].

أما في المؤمنين فقد ذكر أنه يوفيهم أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ولم يقل إنه يجزيهم ما كانوا يعملون.

قال تعالى: ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٢١].

وقال: ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ [النور: ٣٨].

وهذه بشارة عظيمة، وقد أخبرنا ربنا أن الذي يعمل السيئة لا يجزى إلا مثلها، أما الحسنة فتجزى بعشر أمثالها، أو تجزى بخير منها. قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ [غافر: ٤٠]، وقال: ﴿ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [القصص: ٨٤].

وقال: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وقال: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾ [النمل: ٨٩].

وأما التعبير بالباء فيرد للمؤمنين والكافرين كما ذكرنا.

قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال: ﴿ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٥].

فهذا في المؤمنين.

وقال في الكافرين:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

وقال: ﴿ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

فاتضح الفرق بين التعبيرين.

ونعود إلى آية (يس) وهي قوله: ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فقد ذكرنا أنه التفت إلى المخاطبين بعدما ذكر العموم، ولم يقل: (فاليوم لا تظلم نفس شيئًا ولا تجزى إلا ما كانت تعمل) وذلك أن الظلم منفي عن أن يوقع بكل نفس على جهة العموم فلا تظلم نفس شيئًا. ولو قال: (ولا تجزى إلا ما كانت تعمل) لاحتمل أن يكون المعنى أنه لا تجزى أيّ نفس إلا بمقدار ما كانت تعمل، وهذا المعنى غير صحيح ولا مراد، إذ قد تجزى نفس بأضعاف ما كانت تعمل، وهي نفوس المؤمنين على العموم، فالتفت إلى المخاطبين ليخبرهم بما أخبر ويحذرهم من مغبة أعمالهم.

فقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قد يكون مقصودًا به الكفار خصوصًا، ولهذا المعنى ما يرجحه، ذلك أن الآية وقعت في سياق الكلام على الكفار وذلك ابتداء من قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ إلى هذه الآية.

ويرجح ذلك أيضًا قوله بعد البعث: ﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ فيكون هذا التعبير مقصودًا بمعنييه، أي أنكم لا تجزون إلا بمقدار ما كنتم تعملون ومن جنسه.

وقد يكون مرادًا به العموم، فيكون المقصود به أنكم لا تجزون إلا من جنس أعمالكم.

فكان الالتفات في نحو هذا أولى.

وقد تقول: لقد قدم نفي الظلم على الجزاء في هذه الآية.

وفي آية أخرى قدم الجزاء على نفي الظلم فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

فما السبب؟

فنقول: إن جو سورة (يس) وسياق الآيات فيها إنما هو في العلاقات بين أفراد المجتمع وظلمهم لبعضهم، فقد ذكر قبل هذه الآيات ظلم أصحاب القرية للمرسلين، وقتلهم الرجل الصالح ظلمًا، وذكر ظلم الموسرين للفقراء بأن منعوهم حقهم، ثم ذكر أن الصيحة تأخذهم وهم يختصمون فيما بينهم.

فقدم نفي الظلم الذي يقع بين العباد على العمل الذي هو عام، ويدخل فيه الظلم وغيره.

وأما في غافر فلم يرد ما يتعلق بعلاقة الفرد بالمجتمع وتظالمهم فيما بينهم، بل الكلام فيها على العقيدة. وليس في السورة موطن واحد ذكر فيه ظلم العبد للعبد، حتى أنه في الآية الخامسة وهي قوله: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ لم يذكر الأخذ وإنما ذكر الهمّ بالأخذ.

فناسب تقديم الجزاء على نفي الظلم، والله أعلم.

* * *

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾

* * *

يصح أن يكون هذا الكلام من جملة ما يقال للكفار، وهو تتمة

للكلام السابق ، فقد قيل لهم : ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

ثم ذكر لهم عن أصحاب الجنة فقال : ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ وذلك زيادة لحسرتهم بأن يروا ما أعدّ لهم من أنواع العذاب ويخبروا بنعيم أهل الجنة .

كما يصح أن يكون هذا استئناف كلام جديد وإخبارًا عامًّا لنا عن أصحاب الجنة ونعيمهم لنقتدي بسيرتهم .

فهو على تقدير كونه خطابًا للكافرين يوم القيامة يكون تنديمًا لهم وزيادة في حسرتهم .

وعلى تقدير كونه إخبارًا لنا عن نعيمهم في ذلك اليوم يكون باعثًا لنا لنكون منهم .

وقد صيغ هذه الصيغة الاحتمالية لتحتمل الأمرين ، فهو من ناحية تنديم للكافرين يوم القيامة ، وهو من ناحية أخرى حث لأهل الدنيا ، فجمع بين الأمرين . ولو خاطب أصحاب الجنة قائلاً : (يا أصحاب الجنة إنكم اليوم في شغل فاكهون . . .) كما خاطب الكافرين بقوله : ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لم يجمع هاتين الفائدتين .

جاء في (روح المعاني) : «قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴾ على تقدير كون الخطاب السابق خاصًّا بالكفرة من جملة ما سيقال لهم يومئذ زيادة لحسرتهم وندامتهم ، فإن الإخبار بحسن حال أعدائهم إثر بيان سوء حالهم مما يزيدهم مساءة على مساءة ، وفي حكاية ذلك مزجرة لهؤلاء الكفرة عما هم عليه ومدعاة إلى الاقتداء بسيرة المؤمنين .

وعلى تقدير كونه عامًّا ابتداء كلام وإخبار لنا بما يكون في يوم القيامة

إذا صار كل إلى ما أعد لهم من الثواب والعقاب»[(١)].

لقد أخبر عن أصحاب الجنة بأنهم في شغل ، والشغل هو الأمر الذي يشغل المرء عما سواه فلا يلتفت إلى غيره إما لكونه موجبًا للمسرة أو للمساءة. ولما قال: (فاكهون) علم بأنهم مشغولون بالنعيم فلا يعنيهم أمر أهل النار ، ولا أهوال يوم القيامة ، ولا غير ذلك من الأمور.

ونكّر الشغل ليدل على أن هذا الشغل ليس مما نعهد من الشغل ولا مما نعرف وإنما هو شغل آخر ، يكفي أن يقال: إنهم فاكهون فيه. ولا يحسن التعريف ههنا ؛ لأن الشغل المذكور غير معلوم ولا معروف ، فأنت إذا سألت شخصًا: أين أبوك؟ فقال لك: هو في الشغل ، دل ذلك على أنه في الشغل المعهود الذي يشغله كل يوم أو مما يشغله في العادة.

فإن قال لك: هو في شغل ، علمت أنه ليس في شغله المعهود ، وإنما هو شغل آخر طرأ له ولا تعلم أهو شغل في خير أم في مساءة ، فقال تعالى: إنهم فاكهون في شغلهم.

جاء في (التفسير الكبير): «قوله: (في شغل) يحتمل وجوهًا:

(أحدها): في شغل عن هول اليوم بأخذ ما آتاهم الله من الثواب ، فما عندهم خبر من عذاب ولا حساب ، وقوله: (فاكهون) يكون متممًا لبيان سلامتهم ، فالله لو قال: (في شغل) جاز أن يقال هم في شغل عظيم من التفكر في اليوم وأهواله ، فإن من يصيبه فتنة عظيمة ثم يعرض عليه أمر من أموره ويخبر بخسران وقع في ماله يقول: أنا مشغول عن هذا بأهم منه. فقال: (فاكهون) أي شغلوا عنه باللذة والسرور ، لا بالويل والثبور.

و(ثانيها): أن يكون ذلك بيانًا لحالهم ولا يريد أنهم شغلوا عن

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٣٤.

شيء ، بل يكون معناه : هم في عمل ، ثم بين عملهم بأنه ليس بشاق ، بل هو ملذ محبوب» [١] .

وجاء في (روح المعاني) : «والشغل هو الشأن الذي يصد المرء ويشغله عما سواه من شؤونه لكونه أهم عنده من الكل ، إما لإيجابه كمال المسرة أو كمال المساءة ، والمراد ههنا هو الأول ، وتنكيره للتعظيم ، كأنه شغل لا يدرك كنهه ، والمراد به ما هم فيه من النعيم الذي شغلهم عن كل ما يخطر بالبال . . . وأفرد الشغل باعتبار أنه نعيم ، وهو واحد بهذا الاعتبار» [٢] .

إن هذا التعبير يحتمل أن يكون قد أخبر عن أصحاب الجنة بخبرين وهما : أنهم في شغل وأنهم فاكهون ، فيكون (في شغل) خبرًا أول و(فاكهون) خبرًا ثانيًا على النحو الآتي :

إن أصحاب الجنة (في شغل) ، (فاكهون) .

كما يحتمل أن يكون الخبر هو (فاكهون) و(في شغل) متعلقًا به ، أي أنهم فاكهون في الشغل . أي :

أن أصحاب الجنة (فاكهون في الشغل) أي متمتعون بالشغل .

وبهذا جمع عدة معان وهي : أنهم في شغل ، وأنهم فاكهون على العموم ، سواء كان ذلك في الشغل أم في غيره ، وأنهم فاكهون في الشغل .

إنه يصح في العربية أن يقال : (إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهين) فيكون الخبر (في شغل) ، و(فاكهين) حالاً من الجار

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٩١ .

(٢) روح المعانى ٢٣/ ٣٤ .

والمجرور ، غير أن ما قاله أولى ؛ ذلك لأنه لو قالها بالنصب لكان المعنى أنهم فاكهون عند شغلهم فيكون التمتع في الشغل ، أما في غيره فهو مسكوت عنه ، فقد يكونون فاكهين أو غير فاكهين.

فجاء به مرفوعًا ليعم ذلك كل الأحوال والأوقات.

جاء في (روح المعاني): «والجار مع مجروره متعلق بمحذوف وقع خبرًا لإن ، و(فاكهون) خبر ثان لها ، وجوز أن يكون هو الخبر و(في شغل) متعلق به أو حال من ضميره. . .

والتعبير عن حالهم هذه بالجملة الاسمية قبل تحققها لتنزيل المترقب المتوقع منزلة الواقع للإيذان بغاية سرعة تحققها ووقوعها ، وفيه على تقدير خصوص الخطاب زيادة لمساءة المخاطبين» [(١)].

ومعنى (فاكهون): متنعمون متمتعون متلذذون بما يحصل لهم[(٢)]. يقال: (تفكهت بالشيء) أي تمتعت به[(٣)].

وقد قدم (في شغل) على (فاكهون) للاهتمام وذلك لبيان أنهم في الشغل فاكهون ، إذ من المعتاد أن يتفكه الإنسان في الراحة من الشغل لا في الشغل ، فذكر أنهم في شغل فاكهون ، إذ إن هذا الشغل ليس كالأشغال الأخرى التي ترهق المرء وتضنيه.

هذا في الشغل فكيف في غيره مما يتفكه فيه الإنسان؟!

* * *

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٣٤.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٩١.

(٣) لسان العرب (فكه) ١٧/ ٤٢٠.



﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) ﴾

يحتمل أن يكون هذا الكلام مستأنفًا وهو إخبار جديد عنهم مع أزواجهم فيكون (هم) مبتدأ وما بعده خبرًا.

ويحتمل أن يكون (هم) تأكيدًا للضمير المستتر في (فاكهون)، و(أزواجهم) معطوفًا عليه، على معنى: (إن أصحاب الجنة في شغل فاكهون هم وأزواجهم).

كما تقول: مررت برجلٍ قائم هو وزيد.

فعلى هذا التقدير يكون المعنى: إن أصحاب الجنة مع أزواجهم في شغل فاكهون.

فالأزواج يشاركنهم في الشغل والتفكه.

ثم أخبر عنهم جميعًا أنهم في ظلال على الأرائك متكئون.

والفرق بين التقديرين أنه على التقدير الأول، أي على إعراب (هم) مبتدأ يكون المعنى على النحو الآتي:

(إن أصحاب الجنة في شغل فاكهون) فلم يذكر أن أزواجهم في شغل فاكهون، وإنما يدل عليه العموم باعتبار أنهن من أصحاب الجنة.

ثم أخبر عنهم وعن أزواجهم بقوله: ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ . . . ﴾ فأخبر عنهم جميعًا بأنهم في ظلال وأنهم متكئون على الأرائك. فهذا إخبار عنهم بالنص، والأول إخبار من حيث العموم.

وعلى التقدير الثاني يكون المعنى:

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ ﴾

ثم أخبر عنهم جميعًا بأنهم في ظلال على الأرائك متكئون.

فعلى التقدير الأول يكون الكلام جملتين:

الجملة الأولى: إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون.

والجملة الثانية تفسر هذا الشغل وتبينه وهي قوله: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾.

وعلى التقدير الثاني يكون الكلام جملة واحدة وأخبار (إن) متعددة، وهي (إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون هم وأزواجهم) (في ظلال) (على الأرائك متكئون).

وعلى التقديرين تكون الأزواج يشاركنهم في الشغل والتفكه، غير أنه على أحد التقديرين تكون الدلالة بالمعنى العام، والتقدير الآخر تكون الدلالة بالنص.

جاء في (الكشاف): «(هم) يحتمل أن يكون مبتدأ، أو أن يكون تأكيدًا للضمير في (شغل) وفي (فاكهون) على أن أزواجهم يشاركنهم في ذلك الشغل والتفكه والاتكاء على الأرائك تحت الظلال» [١].

وجاء في (البحر المحيط): «ويجوز في (هم) أن يكون مبتدأ، وخبره (في ظلال)، و(متكئون) خبر ثان، أو خبره (متكئون) و(في ظلال) متعلق به، أو يكون تأكيدًا للضمير المستكن في (فاكهون)، و(في ظلال) حال، و(متكئون) خبر ثان لإنّ، أو يكون تأكيدًا للضمير المستكن في (شغل) المنتقل إليه من العامل فيه. وعلى هذا الوجه والذي قبله يكون الأزواج قد شاركوهم في التفكه والشغل والاتكاء على الأرائك وذلك من جهة المنطوق.

وعلى الأول شاركوهم في الظلال والاتكاء على الأرائك من حيث

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٩١.



المنطوق ، وهن قد شاركنهم في التفكه والشغل من حيث المعنى»[١] .

وقد تقول: ولم قال في الجملة الأولى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ بإن ، ولم يقل في الجملة الثانية: (إنهم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون) بإن؟ .

والجواب: أنه لو قال ذلك لم يحتمل معنى التوكيد ، وإنما سيحتمل معنى واحدًا وهو (إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون) .

(إنهم وأزواجهم في ظلال . . .) .

فتكون الآية الثانية إخبارًا مستأنفًا وليس فيه نص على أن الأزواج يشاركنهم في الشغل والتفكه ، فكان التعبير القرآني أولى لأنه يحتمل جميع الوجوه بالنص والمعنى .

وقد تقول: ولم قدم (على الأرائك) على (متكئون)؟ .

فنقول: إنه لما قدم الشغل في الآية قبلها ثم قال بعده: (فاكهون) قدّم مكان الشغل في الآية التالية فقال: ﴿فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ ، وقال بعده: (متكئون) ، فقابل بين الشغل ومكانه وبين حالتهم في الموطنين. إذ إن هذه الآية مرتبطة بالآية قبلها وهي بيان لما تقدم فيها .

هذا علاوة على فواصل الآي التي تقتضي ذلك من جهة أخرى .

* * *

﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ٥٧﴾

معنى (يدّعون): يطلبون ، ومعناه أيضًا: يتمنّون ، يقال: ادّع عليّ ما شئت ، أي تمنّه[٢] ، فلهم ما يطلبون وما يتمنون .

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٤٢ .

(٢) انظر الكشاف ٢/ ٥٩١

لقد قدم (لهم) على (فيها) وأخر الفاكهة ، وذلك أن الكلام عليهم ، فقد قال: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ. . .﴾ فناسب أن يقدم ما تعلق بهم.

ثم قال: (فيها) أي في الجنة ، وهو نظير ما مر من قوله: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ ، وقوله: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ فقوله: (لهم) يقابل (أصحاب الجنة) ويقابل (هم وأزواجهم) فإن الضمير في (لهم) يعود عليهم ، وقوله: (فيها) يقابل (في شغل) ويقابل (في ظلال) لأن ذلك فيها ، أي في الجنة.

لقد وردت في القرآن الكريم تعبيرات مختلفة من نحو هذا التعبير اختلف فيها التقديم والتأخير وذلك نحو قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣١].

وقوله: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ [الفرقان: ١٦].

فقدم في الآيتين (فيها) على (ما يشاؤون).

غير أنه قال في مكان آخر: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] ، فقدم (ما يشاؤون) وأخر (فيها).

وذلك بحسب ما يقتضيه المقام.

أما قوله تعالى في سورتي النحل والفرقان: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ﴾ بتقديم (فيها) على (ما يشاؤون) فلأن الكلام كان على الجنة.

قال تعالى: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٣٠ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠ ـ ٣١].

وقال: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ

﴿جَزَآءً وَمَصِيرًا ۝١٥ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ [الفرقان: ١٥ ـ ١٦].

فالكلام كما ترى على الجنة في الموطنين، فقدم ضمير الجنة (فيها) على (ما يشاؤون).

أما آية (ق) التي فيها قدم (ما يشاؤون) على (فيها) فلأن الكلام على من سيدخل الجنة. قال تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ۝٣٤ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٢ ـ ٣٥].

فقدم (ما يشاؤون) على ضمير الجنة.

والضمير في (يشاؤون) كما هو معلوم يعود على من سيدخل الجنة.

فناسب كل تعبير مكانه.

وقد تقول: لقد قال في آية (يس) هذه: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾.

وقال في سورة فصلت: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١].

فكرر (فيها) ولم يكررها في (يس). فما الفرق؟

والجواب أن آية (يس) فيمن هم في الجنة يتنعمون فيها هم وأزواجهم.

أما آية فصلت فالكلام فيها قبل دخول الجنة وهو عند الموت، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

فالملائكة تتنزل عليهم تبشرهم بالجنة فقال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ



أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ فكرر (فيها) ليعلمهم أن كلا الأمرين إنما هو في الجنة.

ولو قال: (ولكم ما تدّعون) لاحتمل أن يكون ذلك قبل دخول الجنة عند الخطاب، فأعلمهم أن ذلك إنما يكون في الجنة.

أما آية (يس) فالكلام فيها على من في الجنة فقال: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ لأنهم فيها، فلا يحتاج إلى ما كرر في آية فصلت، والله أعلم.

وقد تقول: ولم قال في آية (يس): ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾.

وقال في فصلت: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾؟

والجواب: أن آية (يس) في أصحاب الجنة عمومًا، أما آية فصلت فهي في صنف معين من أهل الجنة وهم: الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا.

ولا شك أن هؤلاء أعلى منزلة من عدد غير قليل من أهل الجنة، فإن الاستقامة هي الالتزام بالشرع عملاً وانتهاء والاستمرار على ذلك، وليس كل أهل الجنة كذلك، فإن منهم من لم يستقم في حياته ولم يلتزم بحدود الشرع، غير أن الله أدخله الجنة تفضلاً منه سبحانه.

فقال في الذين استقاموا: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾، وقال في أصحاب الجنة عمومًا: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾، فكان الجزاء للذين استقاموا أعلى، فإن ذلك أعم من مجرد الفاكهة، فالفاكهة ليست إلا جزءًا مما تشتهي النفس.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن هؤلاء الذين استقاموا على الشرع أبعدوا أنفسهم عن الشهوات وحرموها كثيرًا مما كانت تطلب، فأطلقها الله لهم في الآخرة بمقابل الحرمان في الدنيا فقال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾.

وقد تقول: وما الفرق بين ما تشتهي وما تدّعي؟

والجواب: أن ما تدّعيه معناه: ما تريده وما تطلبه بالقول، وما تشتهيه: هو ما تريده النفس سواء طلبته أم لم تطلبه.

فقد تشتهي النفس شيئًا ولا تطلبه لأسباب عدة، فذكر تعالى أن لهؤلاء الأمرين كليهما، فإذا اشتهت أنفسهم شيئًا كان لهم ذلك وإن لم يطلبوه. فإنه يكفي أن يخطر في أنفسهم خاطر رغبة في شيء فيحققه الله لهم وإن لم تجر ألسنتهم بذكره. ولهم أيضًا ما يطلبون، فذكر ما يدور في النفس وما يطلبه اللسان، والله أعلم.

* * *

﴿ سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴿٥٨﴾ ﴾

أي يحييهّم رب العزة قائلاً: (سلام عليكم).

قيل: ويحتمل أن يكون معنى (سلام) ههنا: خالصًا لهم لا شوب فيه.

أي ولهم ما يدّعون خالصًا لهم على أن «(ما تدعون): مبتدأ، وخبره (سلام)، بمعنى ولهم ما يدّعون سلام خالص لا شوب فيه»[1]، قال ذلك رب العزة قولاً يعدهم به. وهذا معنى قوله: ﴿ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾[2].

وقد تقول: ولِمَ لَمْ يقل (سلام عليكم)؟

والجواب: أنه لم يقل ذلك ليشمل المعنيين: التحية وأنه خالص لهم.

ولو قال: (سلام عليكم) لم يحتمل إلا معنى واحدًا وهو التحية.

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٩١، وينظر فتح القدير ٤/ ٣٦٥.

(٢) ينظر الكشاف ٢/ ٥٩١.

وقد تقول: قال ههنا: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾.

وقال في فصلت: ﴿نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾ [فصلت: ٣٢].

فما الفرق؟

والجواب: أننا ذكرنا أن آية (يس) فيمن هو في الجنة، وأن آية فصلت فيمن لم يدخلها بعد وإنما هو يبشر بها.

فقال في (فصلت): (نزلاً) لأن النزل ما هُيِّئ للضيف إذا نزل عليه من طعام ومكان، ومعنى: «أقمت لهم نزلاً: أي أقمت لهم غذاءهم وما يصلح معهم أن ينزلوا عليه»[1].

ومعنى ذلك: أن هذا ما أعده لهم عند نزولهم في الجنة.

وقال: ﴿مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾ فذكر المغفرة لأن الحساب لم يحصل بعد وهم يخافون من ذنوبهم ويرجون أن يغفرها الله لهم، فطمأنتهم الملائكة بقوله: ﴿نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾.

أما آية (يس) فإنها في أهل الجنة وهم يتنعمون بها وقد انتهى الحساب وليس ثمة معاصٍ أو ذنوب يرجون مغفرتها فقال: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ فذكر كلمة (رب) لأنها الأنسب، فالرب هو المربي وهو متولي أمرهم وراعي أحوالهم يرعاهم ويكرمهم وينعمهم. ووصفه بالرحمة لأن رحمته مما يحتاجون إليها البتة، فالجنة هي مستقر رحمته، فلا تنقطع رحمته عنهم أبدًا.

لقد جمع الله في هذه الآيات القليلة كل أسباب السعادة والنعيم، وأبعد عنهم كل دواعي الضيق والبرم والملل.

---

(١) ينظر لسان العرب (نزل) ١٤/ ١٨١.

١ ـ فقد ذكر أن أصحاب الجنة في شغل. فأبعد عنهم الملل الحاصل من الفراغ والبرم الذي يصدر عنه، فقد يكون الفراغ مملاً يبرم الإنسان به.

٢ ـ وليعلم أن هذا الشغل ليس من الشغل المضني الممل المزعج الذي يرهق صاحبه قال: (فاكهون) أي متنعمون متمتعون.

فأبعد الملل من الفراغ، والضيق والبرم من الشغل.

٣ ـ وأبعد عنهم وحشة الوحدة التي تقتل الإنسان وتدخل الكآبة عليه مهما كان النعيم الذي يتقلب فيه فقال: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾، فذكر أحب الصحبة إليهم وألصقها بهم وهي التي يفر الإنسان إليها في الأخير. ففي آخر المطاف يترك المرء كل صحبة ثم يعود إلى زوجه.

وإذا قصد بالأزواج أمثالهم وقرناءهم فذلك يعم الجميع.

٤ ـ وذكر حسن المكان وجماله فقال: ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ مما يدل على الشجر، وهو يعم أيضًا أنواع الظلال ولا يقتصر على ظل من نوع واحد أو ما يكون من شيء واحد.

٥ ـ ثم ذكر بهجة المكان ونعيمه وأن فيه أسباب الراحة فقال: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾.

٦ ـ وذكر أهنأ الجلسات والهيئات وأروحها مما يدل على تمام الراحة فقال: ﴿مُتَّكِئُونَ﴾.

٧ ـ وذكر فيها ألذ ما يؤكل من الطعام وأهنأه وأدل على سعة العيش وهي الفاكهة.

٨ ـ ثم لئلا يظن أن ليس لهم إلا الفاكهة ذكر أن لهم ما يتمنون وما يطلبون.

٩ ـ ثم ذكر الأمن والسلام العام ، فإن الخوف من فقدان هذا النعيم أو تغيره أو حصول شيء مما يكره ينغص العيش فذكر السلام.

١٠ ـ وقد أطلق السلام ولم يقيده بشيء فشمل كل معاني السلام.

١١ ـ ثم أبعد عنهم المجرمين وفصلهم منهم فقال: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]؛ أي انفصلوا وكونوا على حدة فكان أمن وسلام مطلق.

١٢ ـ وقال: ﴿مِّن رَّبٍّ﴾ أي راع لهم متولٍّ أمرهم.

١٣ ـ ووصفه بالرحمة قائلاً: (رحيم) للحاجة إلى الرحمة على كل حال.

فكانت السعادة في المكان والخلان ، وتحقق الأماني والأمان ، ورعاية الرحيم الرحمن.

اللهم اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

* * *

﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٥٩ ـ ٦٢].

* * *

﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

أي انفردوا عن المؤمنين وكونوا على حدة ، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤] ، وقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣] ،

وقوله: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس: ٢٨] (١).

وورود هذه الآية بعد قوله: ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ من ألطف المناسبات، ذلك أن السلام إنما يكون عند خلو المكان من المجرمين، فإن كان فيه مجرمون فلا سلام، فمازهم من فريق المؤمنين ومكانهم فعمهم السلام.

وقيل: إن معنى قوله: ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ انفردوا بعضكم عن بعض، فيكون لكل كافر بيت من نار يكون فيه لا يرى ولا يُرى(٢).

جاء في (التفسير الكبير): «(امتازوا) بعضكم عن بعض، على خلاف ما للمؤمن من الاجتماع بالإخوان الذي أشار إليه بقوله تعالى: ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ ﴾ فأهل النار يكون لهم العذاب الأليم وعذاب الفرقة أيضًا، ولا عذاب فوق الفرقة» (٣).

قال في (روح المعاني): «ولعل هذا بعد زمان من أول دخولهم، فلا ينافي عتاب بعضهم بعضاً الوارد في آيات أُخر كقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ ﴾ [غافر: ٤٧]» (٤).

ويبدو إن صح هذا القول أن التمايز أول ما يكون بينهم وبين المؤمنين، ثم يكون بينهم فيما بعد، والله أعلم.

* * *

---

(١) ينظر الكشاف ٢/ ٥٩١، تفسير ابن كثير ٣/ ٥٧٦.
(٢) ينظر الكشاف ٢/ ٥٩١، روح المعاني ٢٣/ ٣٩.
(٣) التفسير الكبير ٢٦/ ٩٥.
(٤) روح المعاني ٢٣/ ٣٩.

﴿ ۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ ﴾

بعد أن خاطب المجرمين وأمرهم بالانفراد عن المؤمنين خاطب عموم بني آدم وذكّرهم بما عهد إليهم من ترك عبادة الشيطان وأمرهم بعبادة الله وحده ؛ لأن عاقبة المجرمين تلك إنما كانت بسبب عبادة الشيطان وعدم طاعة الله .

ومعنى (ألم أعهد) ـ كما يقول المفسرون ـ ألم أوص ، والعهد: الوصية ، وعهد إليه إذا وصاه[١] .

والحقيقة أن ثمة اختلافًا بين العهد والوصية ، فإن العهد أقوى من الوصية ، ذلك أن العهد يكون بمعنى الموثق واليمين يحلف بها الرجل[٢] .

والفرق بين الذي يعهد والذي يوصي أن العاهد هو صاحب الشأن ، أما الموصي فقد لا يكون صاحب الشأن ، فقد يقول لك صديقك: أوصيك بفلان خيرًا ، وأوصيك ألا تشارك فلانًا في تجارة ، وأوصيك باستشارة فلان وأخذ نصيحته . فهذه وصية من باب النصح وليس الموصي صاحب الشأن ، بخلاف ما لو قال: أعهد إليك أمر فلان ، أي أنزعه من عهدتي إلى عهدتك ، فتكون أنت مسؤولاً عنه .

ومعنى عهد إليه: كلفه وحمله الأمر وجعله مسؤولاً عنه . وليست (وصى) كذلك . فالعاهد هو صاحب الشأن الذي بيده الأمر .

ومن هذا يتضح أن العهد أقوى من الوصية .

ولم يسند فعل العهد في القرآن الكريم إلى غير الله تعالى ، بخلاف

---

(١) ينظر الكشاف ٢/ ٥٩ ، التفسير الكبير ٢٦/ ٩٦ .

(٢) لسان العرب (عهد) ٤/ ٣٠٥ .



فعل الوصية فإنه أسند إلى الله وإلى غيره ، قال تعالى : ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ ﴾ [البقرة : ١٢٥] .

وقال : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ [طه : ١١٥] .

وقال : ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ [يس : ٦٠] .

وقال : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ﴾ [آل عمران : ١٨٣] .

في حين قال : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ [البقرة : ١٣٢] .

وقال : ﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ﴾ [النساء : ١٢] .

وقال : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [النساء : ١٣١] .

وقد أسند هذا العهد إلى نفسه ـ شأن غيره من أفعال العهد ـ لأهمية هذا الأمر وليحملوه محمل الجد والطاعة والعمل به على أتم حال. فلم يبن الفعل للمجهول ولم يسنده إلى الرسل ، فلم يقل : (ألم يُعهد إليكم) أو (ألم يعهد إليكم رسلي) ذلك أن هذا الأمر إنما هو غاية ما خلق له الثقلان ، فإنهم لم يخلقوا إلا لعبادته سبحانه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

وعهده إليهم إنما جاء على ألسنة الرسل بما أنزله عليهم سبحانه[١] .

ونداؤهم ببني آدم إشارة إلى عداوة الشيطان لأبيهم آدم وإخراجه من الجنة ، وذلك ليذكروا ويأخذوا حذرهم. ونظير ذلك أن تذكّر شخصًا أوقع شخص آخر بأبيه مصيبة فادحة عمدًا من شدة بغضه له ، ثم جاء يشارك ابنه في مال فينصحه ناصح محذرًا فيقول له : يا ابن فلان ، تذكيرًا له وتحذيرًا .

---

(١) ينظر التفسير الكبير ٢٦/ ٩٦ ، روح المعاني ٢٣/ ٤٠ ، الكشاف ٢/ ٥٩١

جاء في (روح المعاني): «والنداء بوصف البنوة لآدم كالتمهيد لهذا التعليل والتأكيد لعدم جريهم على مقتضى العلم، فهم والمنكرون سواء»[١].

* * *

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾

أي لا تطيعوه فيما يوسوس به إليكم ويزينه في قلوبكم[٢].

وعبر عن ذلك بالعبادة لا بالطاعة لأن العبادة ليست مجرد الطاعة، فأنت قد تطيع شخصًا ولا تعبده كطاعة أولي الأمر وطاعة الوالدين وغيرهم. ثم إن الطاعة قد تكون عن طريق الإكراه، فقد يكرهك من ينفذ أمره على الطاعة ويحملك عليها، وهذه لا تسمى عبادة، وإنما العبادة تعني الطاعة مع الخضوع والاستسلام والانقياد للأمر والتذلل[٣].

جاء في (روح المعاني): «والمراد بعبادة الشيطان طاعته فيما يوسوس به إليهم ويزينه لهم عبر عنها بالعبادة لزيادة التحذير والتنفير عنها ولوقوعها في مقابلة عبادته عز وجل»[٤].

وعبادة الشيطان لا تختص بالسجود له أو ذكره على سبيل التعظيم أو إقامة الشعائر له، وإنما تكون بتنفيذ مقاصده ومراده واتّباع خطواته، فكل ذلك عبادة له، وكل عبادة لغير الله إنما هي عبادة للشيطان، ولذلك سمى الله سبحانه عبادة الأصنام عبادة للشيطان، قال تعالى مخبرًا عن

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٤٠.
(٢) ينظر الكشاف ٢/ ٥٩١، التفسير الكبير ٢٦/ ٩٦.
(٣) ينظر لسان العرب (عبد) ٤/ ٢٦٠ ـ ٢٦٣.
(٤) روح المعاني ٢٣/ ٤٠.

سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ . . . يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾ [مريم : ٤٢ ـ ٤٤] .

فقال له أبوه : ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾ [مريم : ٤٦] .

فجعل عبادة الأصنام عبادة للشيطان ، يدل على ذلك قوله : ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ ﴾ ، ورَدُّ أبيه عليه ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ ﴾ .

* * *

﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

تعليل للنهي ، فإن ذلك يوجب الابتعاد منه لا عبادته واتباعه .

ومعنى (مبين) ظاهر العداوة مظهر لها ، فإن معنى (أبان) ظهر وأظهر . تقول : (أبان الرجل) أي بان أمره وظهر ، و(أبان الرجل) أظهر أمره وبينه . فإن الشيطان ظاهر العداوة ومظهر لها ، فكيف يعبده الناس ؟! .

إن العدو قسمان :

ـ قسم مظهر لعداوته مبين لها .

ـ وقسم مخفٍ لها غير مبين .

وإن العداوة قسمان :

ـ عداوة ظاهرة بينة وإن أراد صاحبها إخفاءها .

ـ وعداوة خفية .

وإن الشيطان عدو ظاهر العداوة ليس في عداوته خفاء ، وإنه مظهر لها غير مخفيها . وقد أظهر هذه العداوة وذكرها لربه صراحة : ﴿ قَالَ فَبِمَآ

أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦ ـ ١٧].

وقال: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ [النساء: ١١٩].

فكيف يعبد من دون الله مع كل ذلك؟

وقد قدم الجار والمجرور (لكم) فقال: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ولم يقل: (إنه عدو مبين لكم) وذلك لغرض الاختصاص، فهو عدو لنا خاصة، وكل همه أن يضلنا ويبعدنا عن طاعة ربنا فيدخلنا النار.

ولو قال: (إنه عدو مبين لكم) لكان المعنى أن الإبانة لنا، أما العداوة فليست لنا نصًّا بل ربما كانت لنا أو لغيرنا.

* * *

﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١)﴾

أي ما نهيتكم عنه من عبادة الشيطان وأمركم بعبادتي إنما هو صراط مستقيم لا صراط أقوم منه، وكل طريق آخر هو غير مستقيم. وتنكير الصراط لا يعني أن ثمة طرقًا أخرى مستقيمة. ولا يعني أنه أحد الطرق المستقيمة بل المقصود وصفه بالاستقامة. فقد ينكّر الشيء وهو واحد ولا شيء معه كقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾، وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، إذ المقصود وصف الرب بالرحمة ووصف المنزل بأنه حكيم حميد.

وكذلك ههنا فإن المقصود وصف الطريق بالاستقامة، فالاستقامة هي المطلوبة على كل حال.

جاء في (روح المعاني): «وفيه أن المطلوب الاستقامة والأمر دائر

معها وقليلها كثير»[١].

وقيل: إن التنكير للمبالغة والتعظيم[٢].

جاء في (الكشاف): «﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ﴾ يريد: صراط بليغ في بابه، بليغ في استقامته، جامع لكل شرط يجب أن يكون عليه.

ويجوز أن يراد: هذا بعض الصُّرُط المستقيمة توبيخًا لهم عن العدول عنه، والتفادي عن سلوكه، كما يتفادى الناس عن الطريق المعوج الذي يؤدي إلى الضلالة والتهلكة. كأنه قيل: أقل أحوال الطريق الذي هو أقوم الطرق أن يعتقد فيه كما يعتقد في الطريق الذي لا يضل السالك، كما يقول الرجل لولده وقد نصحه النصح البالغ الذي ليس بعده: هذا فيما أظن قول نافع غير ضار، توبيخًا له على الإعراض عن نصائحه»[٣].

وذكر الصراط إشارة إلى أن الإنسان سالك مجتاز، ولذا كانت به حاجة إلى الطريق المستقيم يسير عليه في الحياة الدنيا ويجتاز منه إلى الآخرة مفضيًا إلى دار السعادة.

فالإنسان لابد له من الصراط المستقيم يسير على وفقه في الحياة لئلا يضل ويشقى ويفضي به إلى جنان النعيم عند الرحمن الرحيم.

جاء في (التفسير الكبير): «وفي ضمن قوله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ﴾ إشارة إلى أن الإنسان مجتاز، لأنه لو كان في دار إقامة فقوله (هذا صراط مستقيم) لا يكون له معنى، لأن المقيم يقول: وماذا أفعل بالطريق وأنا من المقيمين؟»[٤].

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٤١.

(٢) روح المعاني ٢٣/ ٤٠.

(٣) الكشاف ٢/ ٥٩٢.

(٤) التفسير الكبير ٢٦/ ٩٩.

وقدم النهي عن عبادة الشيطان على الأمر بعبادته سبحانه لأكثر من سبب:

منها: أن عبادة الشيطان تفسد عبادة الله، فإن عبادة الله إذا داخلتها عبادة الشيطان فسدت وحبط العمل. فعبادة الله مع عبادة الشيطان شرك لا تنجي صاحبها من النار ولا تدخله الجنة.

إن عبادة الشيطان مع عبادة الله تضر، وعبادة الله مع عبادة الشيطان لا تنفع. وعلى أية حال فعبادة الشيطان تقود إلى النار حتى لو اقترنت بعبادة الله، فنهى عما يوقع الفرد في النار ولا ينفع معه عمل.

ومن عبادة الشيطان عبادة الأصنام سواء كانوا حجرًا أم بشرًا، فإن عبادة الأصنام إذا اقترنت بعبادة الله أفسدتها وقادت صاحبها إلى النار.

ومنها: أن ترك عبادة الشيطان من باب دفع الضرر، وأن عبادة الله من باب جلب المنفعة ودفع الضرر. غير أنها لا تنفع ولا تدفع إلا إذا تركت عبادة الشيطان، فعبادة الله لا تؤتي ثمرتها إلا بترك عبادة الشيطان، فالنهي عن عبادة الشيطان مقدم لتؤدي عبادة الله غايتها وتؤتي أكلها.

ومنها: أن تنفيذ النواهي أيسر من تنفيذ الأوامر، فإن الإنسان يستطيع أن يكف نفسه عن أشياء كثيرة، لكنه قد لا يستطيع القيام بأعمال كثيرة. فالكف عن المحارم أيسر من القيام بالطاعات، ولذا قال ﷺ: «ما أمرتكم بشيء فائتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فانتهوا عنه» أو كما قال.

فالإنسان يستطيع أن يترك العبادات ولكنه يثقل عليه فعلها.

فبدأ بما هو أيسر عليه.

ومنها: أنك إذا وجدت إنسانًا ضالاً عن الطريق فإنك لابد أن توقفه عن المضي فيه أولاً ثم تعيده إلى الطريق المستقيم، وعبادة الشيطان

ضلال فلا بد من تركها أولاً ليخلو القلب إلى الله.

ومنها: أنه وجد أكثر بني آدم يعبدون الشيطان، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، فنهاهم عما هم فيه لتستقيم عبادتهم لله وتصح، وذلك نحو أن تجد شخصًا ساقطًا في مستنقع أو راكسًا في الوحل فلابد أن تخرجه مما هو فيه أولاً ثم تقوم بتنظيفه بعد ذلك.

وقيل أيضًا: إن «تقديم النهي على الأمر لما أن حق التخلية التقدم على التحلية.

قيل: وليتصل به قوله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ بناء على أن الإشارة إلى عبادته تعالى لأنه المعروف في الصراط المستقيم»[1].

* * *

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾

(الجِبِلّ) الخلق الكثير[2]، والأمة العظيمة[3]. فقوله: ﴿أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا﴾ يعني أنه أضل خلقًا كثيرًا. ثم وصفه مع ذلك بالكثرة، فدل ذلك على تعاظم الجموع وكثرتها، فدل ذلك على المبالغة في الكثرة. ولذا لا يسدّ قولنا: (خلقًا كثيرًا) مسد (جبلاً كثيرًا)، فإن قولنا: (خلقًا كثيرًا) يعني (جِبِلاً)، ثم وصف الجبلّ بالكثرة للدلالة على الكثرة الكاثرة ممن أضلهم الشيطان.

إن مادة (جبل) التي أخذ منها لفظ (الجِبِلّ) تجمع ثلاثة معان:

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٤٠.

(٢) لسان العرب (جبل) ١٣/ ١٠٤، تفسير ابن كثير ٣/ ٥٧٦.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٤٤.

١ ـ الكثرة كما ذكرنا. يقال: حيّ جبْل، أي كثير.

٢ ـ الغلظة والشدة، ومنه الجبل لما عظم من أوتاد الأرض وطال. ويقال: (أجبل الشاعر) إذا صعب عليه القول كأنه انتهى إلى جبل منه.

والجَبْل: الضخم.

٣ ـ القبح، يقال: أنت جَبِل وجَبْل، أي قبيح[١].

ولعله اختار هذه اللفظة دون (الخلق) ليجمع هذه المعاني كلها.

فإن ذلك يدل على الكثرة كما ذكرنا، ويدل على أن هؤلاء الذين أضلهم الشيطان إنما هم عتاة ظلمة غلاظ الطباع قساة القلوب كحجارة الجبل أو أشد قسوة لا يرقبون في مؤمن إلاًّ ولا ذمة، متجبرون على خلق الله ولا سيما الضعفاء منهم.

وقد وصف الله سبحانه هؤلاء الضُّلاَّل بالقسوة فقال: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]، وقال: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]، وقال: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [الحج: ٥٣]، وقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

ومما يدل على ما ذكرناه ما فعله أصحاب القرية بالرسل وبمن آمن بهم مما ذكره في السورة، فاختيار لفظ (الجِبِلّ) مناسب لما ورد في السورة أيضًا.

كما يدل ذلك على قبح بواطنهم وسوء معتقدهم وأفعالهم؛ فإن عبادة

---

(١) انظر لسان العرب (جبل) ١٣/ ١٠٤ ـ ١٠٥.

الشيطان تدع القلوب سوداء ، والنفوس مظلمة قبيحة ، بخلاف عبادة الله ؛ فإنها تنير القلوب وتزكي النفوس وتزين الباطن ، فجمع بقوله: ﴿ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ﴾ هذه المعاني كلها ، ولا تؤدي كلمة (خلق) ما أدته كلمة (جبلّ).

هذا إضافة إلى أن جرس الكلمة وبناءها يوحي بالثقل ، فإن كلمة (جبلّ) ثقيلة ثقل الضلال وضغطه على النفوس ، وثقل الغلظة والشدة ، وثقل القبح على النفوس.

لقد بين الله في هذه الآية عداوة الشيطان الظاهرة والمستمرة ، فإنه لم يكتف بإغواء أبيهم آدم وإخراجه من الجنة ، بل أضل من أبنائه خلقًا كثيرًا ، أفلا يدعو هذا إلى الاتعاظ وأخذ الحذر منه؟.

وقال: ﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾ دون (أفلم تكونوا تعلمون) ؛ لأن من عنده مسكة من العقل ابتعد عن طريق الشيطان وأخذ حذره منه ، حتى لو لم يكن عنده من العلم شيء ، فإن وجود العقل كاف للابتعاد عن الضرر ومصدره.

وجاء بالفاء في قوله: ﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾ لإرادة السبب ، أي أليس ذلك سببًا كافيًا للبعد عنه والحذر منه؟

واختيار لفظ (الإضلال) أنسب شيء مع قوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ ؛ لأن السالك يريد أن يسلك طريقًا مستقيمًا ، والإضلال إنما هو إبعاد عن الطريق المستقيم.

فالله يهدينا إلى الصراط المستقيم ، والشيطان يضلنا عنه ، فأيهما أجدر بالعبادة؟

جاء في (روح المعاني): «﴿ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾ استئناف مسوق لتشديد التوبيخ وتأكيد التقريع ببيان عدم اتعاظهم بغيرهم إثر بيان نقضهم العهد ، فالخطاب لمتأخريهم الذين من جملتهم

كفار خصوا بزيادة التوبيخ والتقريع لتضاعف جناياتهم.

وإسناد الإضلال إلى ضمير الشيطان لأنه المباشر للإغواء. . .

﴿ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴾ عطف على مقدر يقتضيه المقام، أي أكنتم تشاهدون آثار عقوباتهم فلم تكونوا تعقلون أنها لضلالهم، أو فلم تكونوا تعقلون شيئًا أصلاً حتى ترتدعوا عما كانوا عليه كيلا يحيق بكم العذاب الأليم» (١).

* * *

﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾

* * *

﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

بعد أن ذكر الذين أضلهم الشيطان ذكر مآلهم وحالهم، فقد وقفهم على شفير جهنم وقرّعهم قائلاً: انظروا هذه جهنم التي كنتم توعدون فكذبتم بها واتبعتم الشيطان فاصلوها وقاسوا حرها.

جاء في (روح المعاني): «قوله تعالى: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ استئناف يخاطبون به بعد تمام التوبيخ والتقريع والإلزام والتبكيت عند إشرافهم على شفير جهنم، أي هذه التي ترونها جهنم التي لم تزالوا توعدون بدخولها على ألسنة الرسل عليهم السلام، والمبلغين

(١) روح المعاني ٢٣/ ٤١.

عنهم بمقابلة عبادة الشيطان»[1].

لقد قال: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ ولم يقل: (تلك) للدلالة على أنها قريبة منهم مرئية، وفي هذا من التبكيت والتقريع والتخويف ما فيه.

وقال: (جهنم) باسمها العلم، ولم يقل: (هذه النار) كما قال في سورة الطور، فإنه قال فيها: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٤]، ذلك أنه قال في الطور قبل هذه الآية: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣]، فذكر النار، فناسب أن يقول: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ﴾ دون آية (يس).

وقال: ﴿ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ولم يقل: (التي وُعدتم) للدلالة على استمرار الوعد وتطاوله، ولو قال: (وعدتم) لم يفد الاستمرار.

وبنى الفعل (توعدون) للمجهول ولم يذكر الواعد للدلالة على أن الواعدين كثر، وأنهم جهات متعددة وهم رسل الله والمبلغون عنهم.

وقال: (توعدون) في (يس)، و(تكذّبون) في الطور، لمناسبة كل تعبير سياقه الذي ورد فيه، فإنه تردد في سورة (يس) الوعد، فقد قال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، وقال: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، وقال: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، فناسب قوله: ﴿كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

وقال: (تكذّبون) في الطور لما سبق هذه الآية قوله: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: ١١]، فناسب قوله: (تكذبون) في الطور، و(توعدون) في (يس).

* * *

---

(١) روح المعانى ٢٣/ ٤١، وانظر التفسير الكبير ٢٦/ ١٠٠.



﴿ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

اصلوها: أمر من الفعل (صلي النار) أي قاسى حرها[١].

والمعنى: قاسوا حر جهنم اليوم بسبب استمراركم على الكفر في الدنيا.

وقال: (اليوم) لما ذكر الوعد قبلها فقال: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴾.

وكانوا يكذبون بهذا الوعد ويسخرون منه قائلين: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ فقال لهم: اليوم تنفيذ الوعد الذي كنتم توعدونه فلا تأخير ولا إرجاء.

ولذا تردد ذكر (اليوم) في هذه الآيات بإزاء ذكر الوعود فقال: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا ﴾، وقال: ﴿ إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ﴾، وقال﴿ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴾، وقال: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾.

وقال: ﴿ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴾ للدلالة على استمرارهم على الكفر، ولم يقل: (بما كفرتم) فإن ذلك لا يفيد الدوام والاستمرار. وهو بإزاء قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿ كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴾ الذي يدل على استمرار التذكير والوعد. فدوام الوعد من الرسل وأتباعهم قابله دوام الكفر منهم.

وقوله: (تكفرون) يفيد الإطلاق، فهو لم يقيد الكفر بأي قيد، فلم يقل مثلاً: (بما كنتم تكفرون بالله أو باليوم الآخر) أو غير ذلك.

إن الفعل (تكفرون) يحتمل معنيين:

---

(١) ينظر لسان العرب (صلو) ١٩/ ٢٠١.



الأول: معنى الكفر الذي هو نقيض الإيمان.

والآخر: الكفران الذي هو نقيض الشكر وهو الكفر بالنعم، قال تعالى: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١١٢]، وقال: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وكلاهما موجب للنار. ولو قيده لتعين بمعنى واحد دون آخر، فهم كانوا يكفرون بالله وبعموم ما يجب الإيمان به كما كانوا يكفرون بنعمه تعالى.

والسياق يقتضي هذا الإطلاق وإرادة المعنيين، ذلك لأنه تقدم ذكر الرسل وما دعوهم إليه فكفروا وكذبوا.

كما أنه عدد عليهم نعمه وآياته فكفروا بها وجحدوا. فقد ذكر أنه أحيا الأرض الميتة، وأخرج منها حبًّا منه يأكلون، وجعل فيها جنات من نخيل وأعناب، وفجر فيها من العيون ليأكلوا من ثمره. وذكر أنه خلق لهم أنعامًا هم مالكون لها، وأنه ذللها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون، ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧٣].

فهم كفروا بالله وكفروا بنعمه، فناسب أن يأتي بما يجمع هذين المعنيين فأطلق ولم يقيد.

جاء في (التفسير الكبير) في قوله: ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾: «وفي هذا الكلام ما يوجب شدة ندامتهم وحسرتهم من ثلاثة أوجه:

(أحدها): قوله: (اصلوها)، فإنه أمر تنكيل وإهانة، كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

(والثاني): قوله: (اليوم) يعني العذاب حاضر، ولذاتك قد مضت، وأيامها قد انقضت، وبقي اليوم العذاب.

(الثالث): وقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فإن الكفر والكفران ينبئ عن نعمة كانت يكفر بها، وحياء الكفور من المنعم من أشد الآلام، ولهذا كثيرًا ما يقول العبد المجرم: افعلوا بي ما يأمر به السيد ولا تحضروني بين يديه»[1].

وقد تقول: لقد أوجز ههنا فقال: ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، وفَصَّل في سورة الطور وأطال فقال: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦] فلم ذاك؟.

فنقول: إن كل موطن اقتضى ما ورد فيه، فإن المقام في (يس) مقام إيجاز، وفي الطور مقام تفصيل. فقد قال في (يس): ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٦٣ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ولم يزد على ذلك.

في حين قال في الطور: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

ومن النظر في النصين يتضح ما يأتي:

١ ـ أنه فصل في ذكر صفات أصحاب جهنم وعقوباتهم في الطور، وذكر ما لم يذكره في (يس). فإنه لم يزد في (يس) على قوله في أهل النار: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾. في حين قال في الطور: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾.

٢ ـ لما فصل في ذكر صفاتهم وعقوباتهم ما لم يفصله في (يس) أكثر

(١) التفسير الكبير ٢٦/١٠١.

من تبكيتهم وتقريعهم فقال: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

٣ ـ أنه قال في (يس): ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ فذكر الضلال على العموم. في حين ذكر في الطور أنهم يكذّبون بالنار فقال: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾، فلما كان التكذيب واقعًا على النار ناسب أن يفصل القول فيها ويطيل الكلام عليها وأن يبصرهم بها ويبكتهم عليها فقال: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

٤ ـ إن المذكورين في الطور أكثر ضلالاً وكفرًا من المذكورين في (يس)، ذلك أنه قال في (يس): ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ والضال قد يكون كافرًا، وقد يكون لا يزال في دائرة الإسلام إلا أنه قد يعمل عمل أهل الضلال في أمر ما كالزنى وشرب الخمر وغيرها من الموبقات، فصاحب هذه المنكرات ضال غير أنه ليس كافرًا. قال تعالى في تقسيم المواريث: ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ﴾ [النساء: ١٧٦]، و(أن تضلوا) ليس معناه: أن تكفروا.

أما في الطور فقد قال: ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ . . . هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ ﴾، فذكر:

١ ـ أنهم مكذبون على العموم ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾.

٢ ـ وأنهم في خوض يلعبون.

٣ ـ أنهم يكذبون بالنار ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾.

فناسب أن يزيد في عقوباتهم ويفصل في ذكرها.

فناسب كل تعبير السياق الذي ورد فيه.

* * *

﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم والنسائي وغيرهما عن أنس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾ قال:

«كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه، قال: أتدرون مم ضحكت؟ قلنا: لا يا رسول الله. قال: من مخاطبة العبد ربه. يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى. فيقول: إني لا أجيز عليّ إلا شاهدًا مني. فيقول: كفى بنفسك عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا، فيختم على فيه ويقال لأركانه: انطقي فتنطق بأعماله، ثم يخلّى بينه وبين الكلام. فيقول: بعدًا لكنّ وسحقًا فعنكن كنت أناضل» [(١)].

جاء في (التفسير الكبير): «إن الله تعالى أسند فعل الختم إلى نفسه فقال: (نختم) وأسند الكلام والشهادة إلى الأيدي والأرجل؛ لأنه لو قال تعالى: (نختم على أفواههم وننطق أيديهم) يكون فيه احتمال أن ذلك كان منهم جبرًا وقهرًا، والإقرار بالإجبار غير مقبول، فقال تعالى: ﴿ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم ﴾ أي باختيارها بعدما يقدرها الله تعالى على الكلام ليكون أدل على صدور الذنب منهم.

(الثانية): منها هي أن الله تعالى قال: ﴿ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم ﴾ جعل الشهادة للأرجل والكلام للأيدي؛ لأن الأفعال تسند إلى الأيدي، قال تعالى: ﴿ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ ﴾ أي ما عملوه، وقال: ﴿ وَلَا

---

(١) ينظر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٧٧، روح المعاني ٢٣/ ٤٣.

تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٥] ، أي (ولا تلقوا بأنفسكم) فإذًا الأيدي كالعاملة.

والشاهد على العامل ينبغي أن يكون غيره ، فجعل الأرجل والجلود من جملة الشهود لبعد إضافة الأفعال إليها» (١).

وجاء في (روح المعاني): «ونسبة التكليم إلى الأيدي دون الشهادة لمزيد اختصاصها بمباشرة الأعمال ، حتى أنها كثر نسبة العمل إليها بطريق الفاعلية ، كما في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [النبأ: ٤٠] ، وقوله سبحانه: ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ وقوله عز وجل: ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ [الروم: ٤١] ، وقوله جل وعلا: ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى: ٣٠] إلى غير ذلك ، ولا كذلك الأرجل ، فكانت الشهادة أنسب بها لما أنها لم تضف إليها الأعمال فكانت كالأجنبية ، وكان التكليم أنسب بالأيدي لكثرة مباشرتها الأعمال وإضافتها إليه ، فكأنها هي العاملة» (٢).

وقد تقول: لقد قال الله تعالى في سورة (النور): ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٢٤].

فجعل الألسنة تشهد عليهم ، وهنا ختم على الأفواه ، فلم ذاك؟

فنقول: إن السؤال ساقط من أساسه ، ذلك أن الذين ذكرهم هنا صنف ، والذين ذكرهم في سورة النور صنف آخر ، ولا يقتضي أن كل أهل الحشر يختم على أفواههم وأنهم يحاسبون على نمط واحد ، بل إن كل صنف يحاسب بما يقتضي الأمر وتكون الشهادة عليه بما ينبغي.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ١٠١ ـ ١٠٢.

(٢) روح المعاني ٢٣/ ٤٢.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن المقام مختلف ، ذلك أنه في سورة النور ذكر قصة الإفك ورمي المحصنات وما لاكته الألسنة من بهتان فكان المناسب أن يستنطقها ؛ لأنها هي التي قامت بالجرم وجمع إليها الأيدي والأرجل. ثم إنه تكرر في السورة ذكر الشهادات والشهود ، وإن الشهادات إنما تكون بالألسنة ، فناسب ذلك أيضًا استنطاقها.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً ﴾ ورمي المحصنات إنما يكون باللسان.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ ورمي الأزواج إنما يكون باللسان.

وقال: ﴿ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ وشهادتها إنما تكون بلسانها.

وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ والإفك هذا إنما افترته الألسنة.

وقال: ﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ ، والشهود إنما يشهدون بألسنتهم.

وقال: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ ، وهو ظاهر.

وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ ، ورمي المحصنات إنما يكون باللسان، فناسب ذكر الألسنة ، بل هو المناسب لا غيره ، فلا بد أن يستنطقها ويسألها.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن ذكر الختم على الأفواه في (يس) مناسب لما ذكره بعد من تعطيل الأعضاء ، فقد قال بعدها: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ

﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ ، وقال : ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ ، فناسب ذكر الختم على الأفواه في (يس) دون سورة النور.

وقد تقول: ولم جاء بها في سورة النور على هذا الترتيب فبدأ بذكر الألسنة ثم الأيدي ثم الأرجل؟.

فنقول: إنه بدأ بذكر الألسنة ، لأنها هي التي افترت ورمت بالإفك ، وقذفت المحصنات الغافلات المؤمنات ، فهي آلة هذا الفعل القبيح.

وقدم الأيدي على الأرجل ؛ لأن الأيدي ينسب إليها العمل والكسب. قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠] ، وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢] ، وقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقد تقول: ولم قال في آية (يس): ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

وقال في آية النور: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؟

فنقول: لقد شاع جو الكسب في (يس) ، وشاع جو العمل في النور.

فقد قال في (يس): ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ [يس: ٣٣ ـ ٣٥].

وقال: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤٢].

وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [يس: ٤٧] ، وما رزقهم الله كسب.

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ [يس: ٧١] ، وملكهم لها من الكسب.



وقال: ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: ٧٢ ـ ٧٣].

فسورة (يس) شاع فيها الكسب.

أما سورة النور فقد شاع فيها العمل.

قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٢٨].

وقال: ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ [النور: ٣٨].

وقال: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ﴾ [النور: ٣٩].

وقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٥٣].

وقال: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [النور: ٥٥].

وقال: ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ﴾ [النور: ٦٤].

فناسب ذكر الكسب في (يس) والعمل في النور.

إن آية (يس) هذه مناسبة لما ورد في أول السورة وهو قوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ [يس: ١٢].

فقوله: ﴿ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ ﴾ مناسب لقوله: ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا ﴾ فالكتابة إنما تكون بالأيدي، وإنه كثيرًا ما ينسب التقديم إلى الأيدي كما ذكرنا، نحو قوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾.

وقوله: (وآثارهم) مناسب لذكر الأرجل، فإن الآثار كثيرًا ما تكون من أثر الأرجل، وقد قيل فيما قيل: إن (آثارهم) تعني آثار أقدامهم إلى

المساجد[١]، فناسبت هذه الآية جو السورة من كل ناحية، والله أعلم.

* * *

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

الطمس: إذهاب الشيء وأثره جملة حتى كأنه لم يوجد[٢].

وطمس العين: تعفية شق العين حتى تعود ممسوحة[٣]، فلا يبين لها شق ولا جفن[٤].

جاء في (لسان العرب): «طمس الله عليه يطمس، وطمسه، وطُمس النجم والقمر والبصر: ذهب ضوؤه. وقال الزجاج: المطموس: الأعمى الذي لا يبين حرف جفن عينيه، فلا يرى شفر عينيه... ويكون الطموس بمنزلة المسخ للشيء، وكذلك قوله عز وجل: ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا ﴾ [النساء: ٤٧].

... ربنا اطمس على أموالهم، أي غيّرها»[٥].

ومعنى الآية أن الله لو يشاء لأذهب أعينهم وأزالها حتى لا يبقى لها شق ولا جفن.

وهذا عمى ومسخ، فإن الأعمى من لا يبصر وقد تبدو عينه كأنها سليمة حتى لا يظن الناظر إليه أنه أعمى، أما المطموس فإنه عمى البصر وذهاب العين فلا يبين لها أثر.

---

(١) انظر التفسير الكبير ٢٥/ ٤٩، البحر المحيط ٧/ ٣٢٥.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٤٤.
(٣) الكشاف ٢/ ٥٩٢.
(٤) فتح القدير ٤/ ٣٦٧.
(٥) لسان العرب (طمس) ٧/ ٤٣٢.

ولم يقل: (ولو نشاء لأعميناهم) وذلك ليشمل العمى وزيادة وهو ذهاب العين وإزالتها ، وهذا هو المناسب لقوله بعد: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾ فهذا مسخ عام ، وذاك مسخ جزئي.

إن الفعل (طمس) يتعدى بنفسه وبعلى فيقال: طمسه وطمس عليه ، وقد ورد التعبيران في القرآن الكريم ، فعداه ههنا بعلى فقال: ﴿ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾ ، وعداه في سورة القمر بنفسه فقال في قوم لوط: ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ [القمر: ٣٧] ، وهما عند أهل اللغة بمعنى واحد.

والذي يبدو لي أنهما ليسا بمعنى واحد ، فطمسه يختلف عن طمس عليه وإن كانا جميعًا يفيدان ذهاب العين ، فإن (على) تفيد الاستعلاء.

فمعنى (طمسه): أزاله ومحا أثره ، ومعنى (طمس عليه): غطاه بما يطمسه فلا يبقى له أثر ولا يبين منه شيء ، فيكون الطمس عليه أشد من الطمس ، فإنه يكون طمسًا ويكون فوقه ما يغطيه فلا يدخل فيه شيء ولا يخرج منه شيء. ونظيره في العربية (ختمه) و(ختم عليه).

جاء في (لسان العرب): «ختمه يختمه خَتْمًا وختامًا... طبعه فهو مختوم... والختم على القلب أن لا يفهم شيئًا ولا يخرج منه شيء كأنه طبع...

قال أبو إسحاق ختم وطبع في اللغة واحد... وهو التغطية على الشيء والاستيثاق من أن لا يدخله شيء»[1].

وجاء في (القاموس المحيط): «ختمه يختمه ختمًا وختامًا: طبعه.

---

(١) لسان العرب (ختم) ١٥/ ٥٣.

وعلى قلبه: جعله لا يفهم شيئًا ولا يخرج منه شيء»[١].

فالختم على الشيء أشد من ختمه وذلك لتغطيته بما يمنع الدخول إليه والخروج منه، وكذلك طمسه وطمس عليه.

وقال ههنا: ﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ للدلالة على شدة المسخ والطمس وهو المناسب للمسخ العام الذي ورد بعده.

وقد تقول: ولم قال في القمر: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ من دون (على)؟.

والجواب: أن ما ذكره في (يس) أشد، ذلك أنه قال: ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾. في حين لم يزد على قوله: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ في سورة القمر ـ كما ذكرت ـ.

ثم إنه مناسب لورود (على) في الختم قبل هذه الآية وهو قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾

هذا علاوة على أن السياق في (يس) فيما يفعله ربنا من العقوبات الشديدة الخارجة عن المألوف، فقد قال قبلها: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

وقال ههنا: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾

وقال بعدها: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾.

فناسب ذكر (على) من كل وجه، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ يحتمل ثلاثة معان:

---

(١) القاموس المحيط (ختمه) ٤/ ١٠٢.

أحدها: استبقوا إلى الصراط، أي تسابقوا للوصول إليه.

والمعنى الثاني: بادروا إليه، مثل قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]، أي بادروا إليها.

والمعنى الآخر: أي جاوزوه وتركوه فلم يهتدوا إليه.

جاء في (لسان العرب): «واستبقا الباب يعني تسابقا إليه... ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾: أي بادروا إليها. وقوله: ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ أي جاوزوه وتركوه حتى ضلوا...

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ معناه ابتدرا الباب يجتهد كل واحد منهما أن يسبق صاحبه» [(١)].

وهذه المعاني كلها مرادة مطلوبة، فإنه لو طمس على أعينهم لتسابقوا وابتدروا للوصول إلى الصراط، ولكنهم لن يهتدوا إليه.

جاء في (الكشاف): «﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ لا يخلو أن يكون على حذف الجار وإيصال الفعل، والأصل: فاستبقوا إلى الصراط، أو يضمن معنى ابتدروا، أو يجعل الصراط مسبوقًا لا مسبوقًا إليه، أو ينتصب على الظرف، والمعنى: أنه لو شاء لمسح أعينهم، فلو راموا أن يستبقوا إلى الطريق المهيع الذي اعتادوا سلوكه إلى مساكنهم وإلى مقاصدهم المألوفة التي ترددوا إليها كثيرًا كما كانوا يستبقون إليه ساعين في تصرفاتهم موضعين في أمور دنياهم لم يقدروا، وتعايا عليهم أن يبصروا أو يعلموا جهة السلوك فضلاً عن غيره... أو لو شاء لأعماهم فلو طلبوا أن يخلفوا الصراط الذين اعتادوا المشي فيه لعجزوا ولم يعرفوا طريقًا» [(٢)].

---

(١) لسان العرب (سبق) ١٢/ ١٧.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٩٢.

فجاء بالفعل (استبق) ليشمل هذه المعاني كلها. ولو جاء بالفعل (تسابق) أو (بادر) أو (ضل) لتعين معنى واحد ولم يحتمل هذه المعاني.

ثم إن هذا هو المناسب لقوله: ﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ ، فإن شدة الطمس جعلتهم لا يهتدون إلى الطريق الذي اعتادوا سلوكه.

ثم قال: ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ قيل: ومعنى أنّى يبصرون: كيف يبصرون.

و(أنى) تحتمل معنى آخر وهو: من أين.

لقد قال: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ ولم يقل: (ولو شئنا) للدلالة على أن عدم الطمس لاستمرار عدم المشيئة، ذلك أن (نشاء) فعل مضارع يفيد الحال والاستقبال وقد يفيد الاستمرار، أما (شئنا) ففعل ماض وهو يفيد المضي.

جاء في (روح المعاني): «﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ لأعميناهم، وإيثار صيغة الاستقبال وإن كان على المضي لإفادة أن عدم الطمس على أعينهم لاستمرار عدم المشيئة، فإن المضارع المنفي الواقع موقع المضي ليس بنص في إفادة انتفاء استمرار الفعل، بل قد يفيد استمرار انتفائه»[١].

فانظر كيف قال: (طمسنا) بدل (أعمينا) وهو يشمل العمى وزيادة.

وقال: (على أعينهم) وهو يشمل الطمس وزيادة وهي التغطية والاستيثاق.

وقال: (فاستبقوا) وهو يشمل المسابقة وزيادة، والمبادرة وزيادة، والضلال وزيادة، إذ هو يجمع هذه المعاني كلها.

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٤٤.



وقال: (الصراط) ولم يقل: (إلى الصراط) ليشمل معنى (إلى) والتعدية المباشرة. ولو قال: (فاستبقوا إلى الصراط) لم يحتمل معنى الضلال.

وقال: (فأنى) وهو يشمل معنى (كيف) وزيادة.

والحمد لله رب العالمين.

* * *

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

المسخ: تحويل صورة إلى صورة أقبح منها[(١)]، وقد يكون التحويل إلى حجر أو غيره من الجمادات أو إلى حيوان بهيم[(٢)].

والمكانة: هي المكان، كالمقامة والمقام[(٣)]، والمكانة: المنزلة.

ويقال: (عمل على مكانته) يعني على حاله وعلى ما هو عليه، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ﴾ [الأنعام: ١٣٥]، أي على حالكم.

جاء في (لسان العرب): «المكانة: المنزلة، وفلان مكين عند فلان: بيّن المكانة، والمكانة: الموضع... والمكان: الموضع، والجمع أمكنة وأماكن»[(٤)].

وجاء فيه أيضًا: «﴿ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾؛ أي على حيالكم

---

(١) لسان العرب (مسخ) ٤/ ٢٣.

(٢) ينظر فتح القدير ٤/ ٣٦٧.

(٣) روح المعاني ٢٣/ ٤٤.

(٤) لسان العرب (كون) ١٧/ ٢٤٦.

وناحيتكم ، وقيل: معناه: أي على ما أنتم عليه مستمكنون. الفراء: لي في قلبه مكانة وموقعة ومحلّة. . . والمكانة: المنزلة عند الملك ، والجمع مكانات ، ولا يجمع جمع التكسير» [١].

ومعنى (لمسخناهم على مكانتهم): أي لمسخناهم على أمكنتهم فلا يستطيعون مغادرتها ، أو لمسخناهم على حالتهم التي هي عليها فيجمدون في أمكنتهم.

جاء في (الكشاف): «المكانة والمكان واحد ، كالمقامة والمقام. أي لمسخناهم مسخًا يجمدهم مكانهم لا يقدرون أن يبرحوه بإقبال ولا إدبار ولا مضي ولا رجوع» [٢].

وقال: ﴿ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ ولم يقل: (على مكانكم) ليشمل المكان والحال التي هم عليها.

وقدم المضي على الرجوع لأكثر من سبب:

منها: أن المضي أهم من الرجوع ، ذلك أن الناس يريدون المضي إلى أعمالهم وحاجاتهم والرجوع فيما بعد ، فبدأ بما هو أهم.

ومنها: أن المضي أصعب من الرجوع ، فإن الرجوع ينبئ عن معرفة الطريق ، ذلك لأنه سيعود في الطريق التي جاء فيها. أما المضي فقد يكون في طريق غير مألوفة ولا معروفة فيكون المضي أصعب من الرجوع.

هذا إضافة إلى أن المضي هو ابتعاد عن محل الإقامة والمنطلق ، أما الرجوع فإنه عودة إليه ، فيكون الرجوع أسهل ، فبدأ بالأصعب ، وذلك كما يقول الناس: هو لا يستطيع المشي بل لا يستطيع الحركة فيبدأ بما هو

---

(١) لسان العرب (مكن) ١٧/ ٣٠٠.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٩٢.

أصعب ثم يعود إلى ما هو أيسر.

وكما تقول متحديًا: إن استطعت فاقفز ثلاثة أمتار، بل اقفز مترين، بل اقفز مترًا ونصفًا. ونحوه ما ورد في القرآن من التحدي فقد قال أولاً: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود: ١٣]، فلما عجزوا قال: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، فبدأ بالأصعب ثم تلاه بما هو أيسر ليكون ذلك ملزمًا لهم وحجة عليهم.

جاء في (التفسير الكبير): «قدم المضي على الرجوع، لأن الرجوع أهون من المضي؛ لأن المضي لا ينبئ عن سلوك الطريق من قبل، وأما الرجوع فيُنبئ عنه، ولا شك أن سلوك طريق قد رئي مرة أهون من سلوك طريق لم يُر، فقال: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا﴾ ولا أقل من ذلك وهو الرجوع الذي هو أهون من المضي»[1].

إن هذه الآية والتي قبلها ـ أعني قوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ ـ مرتبطتان بما ورد في أول السورة وهو قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، ذلك أن قوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ نظير قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾، فهؤلاء الذين جعلت في أعناقهم أغلال وجُعل من بين أيديهم سدّ ومن خلفهم سد كالممسوخين لا يستطيعون مضيًّا ولا يرجعون.

وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ١٠٣.

﴿يُبْصِرُونَ﴾ نظير قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

والطريف في هذا الارتباط أنه جمع في هذين الموطنين بين الأمر الخارجي والذاتي الخِلْقي، وبين الأمر المعنوي والمادي، وبين الحقيقة والمجاز.

فقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ إنما كان عدم الحركة وعدم الإبصار لأمر خارج عن الجسم، وذلك أنه كان من بين أيديهم سد ومن خلفهم سد، فأغشاهم فكانوا لا يستطيعون الحركة والإبصار لذلك، لا بسبب عاهة بدنية.

وأما قوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ فإن عدم الإبصار إنما كان بسبب تعطيل آلة الرؤية في الجسم وليس بسبب مانع خارجي.

وكذلك قوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ فإن عدم الحركة بسبب المسخ، وذلك بتحول الجسم إلى شيء لا يستطيع الحركة، فإن عدم الإبصار وعدم الحركة إنما كان بسبب ما حصل للجسم ذاته وليس بسبب خارجي.

فجمع في الموضعين بين المانع الخارجي والمانع الجسماني.

ثم إن قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ ليس ذلك على الحقيقة، وإنما يراد منه الموانع من الإيمان وهي موانع نفسية وليست مادية حقيقية.

وأما قوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ ...﴾، وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ...﴾، فيراد به الحقيقة، وأن المقصود تعطيل آلة البصر وتعطيل حركة الجسم على الحقيقة؛ فأريد بأحدهما موانع الإيمان ـ وهي أمور نفسية مجازية ـ وبالأخرى موانع

حقيقية ، فجمع بين الحقيقة والمجاز ، والمادة والروح ، وهو تناظر جميل.

وقد تقول: لقد قال عندما ذكر الصيحة: ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ ، فذكر الجهة التي يرجعون إليها. وقال هنا: ﴿وَلَا يَرۡجِعُونَ﴾ ، فلم يذكر جهة الرجوع ، فلم ذاك؟

والجواب: أنهم هنا لا يرجعون إلى جهة أصلاً ، وذلك أنهم ممسوخون لا يبصرون شيئًا ولا يعلمون شيئًا ، فلا يعلمون جهة الأمام ولا جهة الخلف ، ولا يعرفون أهلهم من غيرهم ، ولا يعرفون مكانًا يرجعون إليه ، بل ليس لهم الآن أهل يعرفونهم أو يأنسون بهم ، كما أن أهلهم لا يعرفونهم وهم ممسوخون ، فلم يذكر أنهم يرجعون إلى جهة ، بخلاف أهل الصيحة.

وقد تقول: إنه نفى الاستطاعة عن المضي ، ولم ينف الاستطاعة عن الرجوع ، فقد قال: ﴿فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ﴾ ولا يجوز عطف (لا يرجعون) على (المضي) ؛ لأن مفعول (استطاع) لا يكون جملة ، فلم لم يقل: (فما استطاعوا مضيًا ولا رجوعًا) فيكون نفى الاستطاعة عن المضي والرجوع؟.

فنقول: إنه لو قال ذلك لم يدل على الاستمرار والدوام في عدم القدرة على المضي والرجوع ، بل قد يكون ذلك منقطعًا فيستطيع بعد مدة على ذلك ، كما تقول: (لقد ضربته فما استطاع مشيًا ولا قيامًا) فقد يحتمل أنه استطاع بعد ذلك ، فهذا لا يعني الاستمرار والدوام ، فقوله: (ولا يرجعون) أفاد دوام عدم الرجوع ، فكان ذلك أولى من القول: (ولا رجوعًا).

وقد تقول: لقد علمنا أن قوله: (ولا يرجعون) أفاد عدم الرجوع على الدوام، ولكن لم ينف الاستطاعة على المضي على الدوام، فقد يستطيع بعد ذلك، كما في قولك: (فما استطاع مشيًا ولا قيامًا).

والجواب: كلا، بل إنه أفاد عدم الاستطاعة على المضي على جهة الدوام من أكثر من وجه، ذلك أنه لما نفى الرجوع على الدوام نفى المضي أيضًا على الدوام، فإن الذي يمضي لا بد أن يرجع إلى مكانه، فإن نفى الرجوع نفى المضي أيضًا، ذلك أن الرجوع أيسر من المضي، فإن كان عاجزًا عن الرجوع فهو عن المضي أعجز.

ثم إن قوله: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ يفيد أنهم لا يمضون ولا يرجعون وأنهم لا يستطيعون ذلك، فدل على أنهم لا يمضون ولا يرجعون.

وقد تقول: ولِمَ لَمْ يقل: (فما استطاعوا مضيًّا ولا أن يرجعوا) فيعطف الرجوع على المضي؛ لأنه عند ذاك سيكون مصدرًا مؤولاً وهو يصح عطفه على المصدر الصريح، وعند ذاك يدخل الرجوع في عدم الاستطاعة كالمضي؟.

فنقول: لو قال ذلك لأفاد نفي الرجوع في المستقبل؛ لأن (أن) تصرف الفعل المضارع إلى الاستقبال ولا ينفي عدم الرجوع في الحال، أما قوله: ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ فهو نفي مطلق. هذا علاوة على فوات التناسب في فواصل الآي.

وقد تقول: لقد نفى الرجوع في كل الأحوال سواء كان عن طريق عدم الاستطاعة أم غيرها، فلمَ لمْ ينف المضي نفيًا مطلقًا كذلك فيقول: (فلا يمضون ولا يرجعون)؟

فنقول: لو قال ذلك لم يدل على عدم القدرة، بل قد يكون ذلك بمحض اختيارهم، ونفي الاستطاعة أولى.

وقد تقول: إذا كانوا لا يستطيعون المضي بأنفسهم فقد يمضيهم أحد فيعينهم على المضي.

فنقول: إنه لم يقل: (فما استطاعوا مضيًّا بأنفسهم) بل نفى الاستطاعة على العموم. ثم إنه من ناحية أخرى لا بد لمن يمضيهم أن يعيدهم ويرجعهم، فلما نفى الرجوع بكل سبيل نفى المضي أيضًا بكل سبيل. هذا إضافة إلى أن قوله: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ يدل على أنهم لا يبرحون مكانتهم، فدل ذلك على أنهم لا يمضون ولا يرجعون على كل حال. وهو أولى من كل تعبير، والله أعلم.

جاء في (روح المعاني): «﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ قيل: هو عطف على (مضيًّا) المفعول به لاستطاعوا، وهو من باب (تسمع بالمعيدي خير من أن تراه)[1] فيكون التقدير: فما استطاعوا مضيًّا ولا رجوعًا، وإلا فمفعول (استطاعوا) لا يكون جملة، والتعبير بذلك دون الاسم الصريح قيل للفواصل مع الإيماء إلى مغايرة الرجوع للمضي بناء على ما قال الإمام من أنه أهون من المضي؛ لأنه ينبئ عن سلوك الطريق من قبل، والمضي لا ينبئ عنه، وقيل لذلك مع الإيماء إلى استمرار النفي نظرًا إلى ظاهر اللفظ، ويكون هناك ترقٍّ من جهتين إذا لوحظ ما أومأ إليه الإمام، وقيل له مع الإيماء إلى أن الرجوع المنفي ما كان عن إرادة واختيار، فإن اعتبارهما في الفعل المسند إلى الفاعل أقرب إلى التبادر من اعتبارهما في المصدر...

وقيل: هو عطف على جملة (ما استطاعوا)، والمراد: ولا يرجعون عن تكذيبهم لما أنه قد طبع على قلوبهم، وقيل: هو عطف على ما ذكر إلا أن المعنى: ولا يرجعون إلى ما كانوا عليه قبل المسخ، وليس بالبعيد.

---

(١) يعنى على تقدير (أن) المصدرية فى (ولا يرجعون).

وعلى القولين المراد بالمضي الذهاب عن المكان ونفي استطاعته مغن عن نفي استطاعة الرجوع ، وأيًّا ما كان فالظاهر أن هذا وكذا ما قبله لو كان لكان في الدنيا .

وقال ابن سلام : هذا التوعد كله يوم القيامة، وهو خلاف الظاهر»[1] .

* * *

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

والمعنى أن الذي يعمّر لا بد أن ينتكس في خلقه إلى أسفل ، فبعد أن كان يرتقي في قواه العقلية والبدنية سيأخذ بالانتكاس إلى أسفل ، فيبدأ بالضعف والوهن في الجسم والعقل ، حتى يُردّ إلى أرذل العمر فلا يعلم من بعد علم شيئًا .

إن ارتباط هذه الآية بما قبلها واضح ، فإن فيها دليلاً على قدرته تعالى أن يفعل ما ذكره من الطمس على الأعين ، والمسخ على المكانة فلا يستطيعون حراكًا .

جاء في (الكشاف) : «﴿ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ ﴾ نقلبه فيه فنخلقه على عكس ما خلقناه من قبل ، وذلك أنا خلقناه على ضعف في جسده ، وخلو من عقل وعلم ، ثم جعلناه يتزايد وينتقل من حال إلى حال ، ويرتقي من درجة إلى درجة ، إلى أن يبلغ أشده ويستكمل قوته ، ويعقل ويعلم ما له وما عليه ، فإذا انتهى نكسناه في الخلق فجعلناه يتناقص حتى يرجع في حال شبيهة بحال الصبي في ضعف جسده وقلة عقله وخلوه من العلم، كما ينكس السهم فيجعل أعلاه أسفله، قال عز وجل : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ [الحج : ٥] ، ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٤٦ .



أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥] ، وهذه دلالة على أن من ينقلهم من الشباب إلى الهرم ، ومن القوة إلى الضعف ، ومن رجاحة العقل إلى الخرف وقلة التمييز ، ومن العلم إلى الجهل بعدما نقلهم خلاف هذا النقل وعكسه ، قادر على أن يطمس على أعينهم ، ويمسخهم على مكانتهم ، ويفعل بهم ما شاء وأراد . . . أفلا يعقلون» [(١)] .

وقوله: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ : «أي أيرون ذلك فلا يعقلون أن من قدر على ذلك يقدر على ما ذكر من الطمس والمسخ ، وأن عدم إيقاعهما لعدم تعلق مشيئته تعالى بهما» [(٢)] .

وقد قال: (نعمره وننكسه) بالفعل المضارع، ولم يقل: (ومن عمرناه نكسناه) للدلالة على الاستمرار ، وأن هذا قانون الحياة. ولو قال: (ومن عمرناه نكسناه) لم يدل على الاستمرار ، بل دل ذلك على حالة ماضية.

وقد أسند التعمير والتنكيس إلى ذاته سبحانه للدلالة على أن هذا من فعله وقدرته في البدء والختام ، وأنه قادر أن يطمس على الأعين ، وأن يمسخ على المكانة. ولو قال (ومن يُعمَّر ينكَّس) بالبناء للمجهول لم يدل على أن ذلك من فعله سبحانه ، ولم يرتبط ذلك الارتباط بما قبله ، ولا يكون فيه دليل على ما تقدم ؛ لأنه لم يسند ذلك إلى نفسه.

وقال: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ فجاء بالفاء الدالة على السبب ، أي: أفلا يكون ذلك سببًا لأن يعقلوا ويتفكروا. وفيه تقريع لمن لا يعقل ويتفكر. وقال: (يعقلون) ولم يقل: (يعلمون) لأن العقل كاف لمعرفة ذلك والاستدلال به وإن لم يكن صاحبه ذا علم. فهو من الأمور الظاهرة التي لا تحتاج إلى غير العقل.

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٩٢ ـ ٥٩٣ ، وانظر البحر المحيط ٧/ ٣٤٥.

(٢) روح المعاني ٢٣/ ٤٦.

وقد تقول: لقد قال في موطن سابق من السورة: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ وقال ههنا: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ فما الفرق؟

والجواب: أن الآية السابقة تتكلم على أمور ماضية، فإنه خطاب من رب العزة يوم القيامة عما فعله بنو آدم في الدينا، فقد قال: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ. . .﴾ فناسب أن يقول: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ ولا يناسب أن يقول: (أفلا تعقلون).

أما هنا فالكلام على أمر مشاهد حاضر يرونه في حياتهم يعيشونه أو يعيشون معه فناسب قوله: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ولا يناسب غيره، فلا يصح أن يوضع أحدهما مكان الآخر.

* * *

﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾

* * *

﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾

إن ارتباط هذه الآية بما قبلها ارتباط لطيف، فإنه لما ذكر جهنم والختم على الأفواه وتكليم الأيدي وشهادة الأرجل وغير ذلك مما ذكره بعد مما هو مستغرب وغير مألوف، فقد يظن ظان أن هذا من خيال الشعراء وتصويراتهم وليس من الحقائق فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾.

إن قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ ردّ لقولهم: (هو شاعر)، فقد كانوا يصفون رسول الله بهذا الوصف، قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء: ٥]، وقال: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ [الصافات: ٣٦]، فرد قولهم بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾.



ونفى الفعل بـ (ما) ولم ينفه بـ (لم) فلم يقل: (ولم نعلّمه الشعر) وذلك لقوة (ما) في النفي ، ذلك أن (ما فعل) نفي لـ (لقد فعل) ، وأن (لم يفعل) نفي لـ (فعلَ) ، و(ما) إذا نفت الفعل الماضي كانت بمنزلة جواب القسم[1] .

ومعنى (ما ينبغي له) ما يصح له ولا يليق ولا يتأتى له لو أراده ، فهو لا يمكنه نظم الشعر ولا يستطيعه .

جاء في (الكشاف): «﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ وما يصح له ولا يتطلب لو طلبه ، أي جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأت له ولم يتسهل»[2] .

فنفى بهذا كون الرسول شاعرًا ، ونفى كون القرآن شعرًا .

لقد نفى أولاً تعليمه الرسول للشعر فقال: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ﴾ ، وقد يظن ظان أنه ربما كان في تعليمه الشعر خير حُرم منه ، وأنه لو علّمه إياه لكان أكمل له فقال: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ أي أنه لا يصح أن يكون شاعرًا ، وأن الكمال في حقه ﷺ عدم تعليمه إياه ، فإن مهمة النبي غير مهمة الشاعر ، فلا يليق بالنبي أن يكون شاعرًا .

وأقل ما يقال في الشعر والشعراء :

١ ـ أن الشاعر قد يزيد في الحقائق أو ينقص منها أو يكذب ، وقد يستبد به الخيال في تصويراته الشعرية ومبالغاته ، بينما الرسول لا يقول إلا الحق فلا يزيد فيه أو ينقص منه .

٢ ـ وأن الشاعر قد يعنى بتزويق الكلام وتحسينه على حساب المعنى .

٣ ـ وأن الشاعر قد يقع في ضرورات لا يقتضيها المعنى ، وقد يضع

---

(١) ينظر كتاب سيبويه ١/ ٤٦٠ .

(٢) الكشاف ٢/ ٥٩٣ .

الكلمة في غير موضعها المناسب ، وقد يخل بمقتضيات البلاغة من تقديم وتأخير وذكر وحذف وما إلى ذلك.

أما القرآن فإنه يضع التعبير في أعلى مراتب البلاغة.

٤ ـ ثم إن القرآن حدد سلوك الشعراء وطبيعتهم بما يختلف عن طبيعة النبي وسلوكه ، فقد قال: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٦] ، وهذا لا يمكن أن يكون سلوك الأنبياء الذين يتصدون لإصلاح الخلْق ، ولم يستثن منهم إلا أتباع الرسل والأنبياء فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ. . .﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

٥ ـ ثم إن الشعر إنما هو قول الشاعر ، أي هو كلام بشر. فلو كان القرآن شعرًا لكان من كلام البشر. وقد ادّعى الكفار أن محمدًا شاعر ، وأن القرآن شعر ليصلوا بذلك إلى أن القرآن ليس كلام الله ، وأن محمدًا ليس رسولاً ، فنفى ذلك ليبطل زعمهم.

٦ ـ ثم إن الشعر له نظير ، والشعراء لهم نظراء وأضراب ، فنفى أن يكون القرآن شعرًا ومحمد شاعرًا ليدل على أنه ليس له ولا لما جاء به نظير.

جاء في (البحر المحيط): «﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ أي ولا يمكن له ولا يصح ولا يناسب ، لأنه عليه السلام في طريق جد محض ، والشعر أكثره في طريق هزل ، وتحسين لما ليس حسنًا ، وتقبيح لما ليس قبيحًا ، ومغالاة مفرطة. جعله تعالى لا يقرض الشعر كما جعله أميًّا لا يخط ، لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض. . .

وإنما منع الله نبيه من الشعر ترفيعًا له عما في قول الشعراء من التخييل

والتزويق للقول ، وأما القرآن فهو ذكر بحقائق وبراهين ، فما هو بقول شاعر»[١].

وجاء في (روح المعاني): «﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُۥٓ﴾ . . . أي لا يليق ولا يصلح له ﷺ الشعر لأنه يدعو إلى تغيير المعنى لمراعاة اللفظ والوزن ، ولأن أحسنه المبالغة والمجازفة والإغراق في الوصف ، وأكثره تحسين ما ليس بحسن، وتقبيح ما ليس بقبيح، وكل ذلك يستدعي الكذب أو يحاكيه الكذب ، وجل جناب الشارع عن ذلك ، كذا قيل»[٢].

لقد قال قبل هذه الآية: إنه لو شاء لطمس على أعينهم ، ولو شاء لمسخهم على مكانتهم ، ولو شاء لكان ، وفي هذه الآية أعني: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ ذكر ربنا ما شاء أن يكون ، وهو أن يكون محمد نبيًّا وليس شاعرًا ، وأن ما أنزله عليه ذكر وقرآن وليس شعرًا.

والطمس والمسخ من الآيات الدالة على قدرته تعالى ، والقرآن الكريم أكبر الآيات الدالة على صحة رسالته ﷺ فكلتاهما آية وحجة.

الطمس والمسخ كل منهما آية على أن الله قادر على أن يعجز خلقه فلا يستطيعون أن يفعلوا إزاءها شيئًا ، والقرآن آية على إعجازهم كذلك فلا يستطيعون أن يأتوا بمثله ، فكلتاهما آية على قدرته وحجة على خلقه.

لقد نفى الفعل (ينبغي) بـ (ما) فقال: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ ، ولم ينفه بلا ، ذلك أن (لا) الداخلة على الفعل المضارع أكثر ما تكون للاستقبال ، بل ذهب النحاة إلى أنها خاصة بالاستقبال ، قال تعالى على لسان سيدنا سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص: ٣٥] ، فنفى الفعل (ينبغي) بـ (لا) ذلك أنه دال على الاستقبال ، فقد

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦ ، وانظر أنوار التنزيل ٥٨٧.

(٢) روح المعاني ٢٣/ ٤٧.

قال: (من بعدي)، وهذا هو الموطن الوحيد الذي دخلت فيه (لا) على الفعل (ينبغي) في القرآن الكريم، فلا يناسب ههنا النفي بـ (لا) لئلا يفهم أن هذا النفي خاص بالاستقبال لا ما هو عليه الآن.

* * *

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩].

أي ما هذا الذي تسمعونه منه وتسمونه شعرًا إلا ذكر وموعظة من الله عز وجل وقرآن مبين، أي مظهر لكل أحد أنه ليس شعرًا، وإنما هو قرآن يتلى أنزله الله، فيه مواعظ وإرشاد للثقلين.

وقد تقول: لقد قال تعالى ههنا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ فنفى وأثبت بإنْ وإلا، وقال في موطن آخر: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: ٥٢]. فنفى وأثبت بـ (ما) و(إلا) فلم ذاك؟ وما الفرق؟

والجواب أَنَّ النفي بـ (إن) أقوى من (ما) [١] فنفى بما هو أقوى.

وقد تقول: ولم نفى بـ (ما) في سورة القلم؟

والجواب: أن ذلك بحسب ما يقتضيه السياق والمقام، وأن كل موطن اقتضى التعبير الذي ورد فيه.

وإيضاح ذلك أنه حيث كان الكلام على القرآن أكثر تفصيلاً أو كان يقتضي توكيدًا نفى بـ (إن) وإلا نفى بـ (ما).

وإيضاح ذلك أنه في سورة القلم لم يكن السياق في الكلام على القرآن ولم يذكر عليه إلا آية واحدة وإليك ذلك:

قال تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ

---

(١) ينظر كتابنا (معاني النحو) ٤/ ٥٧٦.

لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: ٥١ ـ ٥٢] ، والكلام كما ترى على الرسول ، فقوله: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ﴾ إلى آخر الآية إنما هو في الكلام على الرسول لا على القرآن ، وقال بعدها: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ وهي الآية الوحيدة التي تكلمت على القرآن ههنا فنفى بـ (ما).

وهذا هو الموطن الوحيد الذي نفى بـ (ما) في مثل هذا التعبير في القرآن الكريم.

في حين قال في سورة (يس): ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فالكلام على القرآن كما ترى ، حتى إن قوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ يحتمل أن يكون المقصود به القرآن. فالكلام على القرآن أطول مما في القلم فنفى بـ (إن).

ونحوه قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٢ ـ ١٠٤].

فقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ يعني القرآن ، فإنه هو ما يوحى إليه ، و(أنباء الغيب) المذكورة يعني بها قصة يوسف التي ذكرها القرآن.

وقوله: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ قيل: هو القرآن.

فناسب أن يقول: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾.

ونحوه ما جاء في سورة ص: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾.

فالكلام إنما هو على القرآن كما هو واضح ، فقوله : ﴿ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ ﴾ ، قيل : هو القرآن. وقوله : ﴿ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ﴾ يعني القرآن فناسب النفي بإن.

وقال تعالى في سورة التكوير : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ . . . وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ . . . فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ . . . إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير : ١٩ ـ ٢٧] ، وهو واضح في أن الكلام على القرآن ، وأنه فصّل في ذلك ، فنفى وأثبت بإن وإلا ، فاتضح الفرق.

* * *

﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٠ ﴾

قد يكون المقصود بقوله : (لينذر) القرآن أو الرسول ، فكلاهما منذر ، قال تعالى : ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ والمقصود به الرسول.

وقال : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الأحقاف : ١٢].

والمنذر ههنا الكتاب.

فالرسول منذر والقرآن منذر.

وقوله : ﴿ مَن كَانَ حَيّٗا ﴾ ذكرت فيه أقوال :

منها : أن المقصود به من كان حي القلب حي البصيرة فينتفع بالإنذار.

وقيل : إن المقصود به من كان عاقلاً متأملاً ، لأن الغافل كالميت.

وقيل : إن المقصود به من كان مؤمنًا ؛ لأن الإيمان حياة ، فمن كان مؤمنًا كان حيًّا ، قال تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢].

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقيل: إن المقصود من كان قلبه صحيحًا يقبل الحق ويأبى الباطل.

وقيل: إن المقصود به كل حي على وجه الأرض، كقوله تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقيل: إن المقصود به من كان حيًّا في علم الله؛ أي علم الله أنه سيؤمن بهذا الإنذار(١).

وكل هذه الأقوال محتملة، وإن كل هؤلاء معنيون بالإنذار.

قال تعالى: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ﴾ [الكهف: ٤] وهذا إنذار للكافرين.

وقال: ﴿ لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٢].

وقال: ﴿ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١].

وقال: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ ﴾ [فاطر: ١٨] وهذا إنذار للمؤمنين.

فالإنذار عام لكل الخلق مؤمنهم وكافرهم، محسنهم ومسيئهم، إلا أن الذي يترجح في ظني هنا ـ والله أعلم ـ أن المقصود بقوله: ﴿ مَن كَانَ حَيّٗا ﴾ ما قصده في أول السورة بقوله: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴾ [يس: ١١]، وذلك لأنه قال بعد ذلك: ﴿ وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ فجعل من كان حيًّا بإزاء الكافرين. وإن كان كل من ذكرته الأقوال محتملاً مطلوبًا له الإنذار.

---

(١) انظر الكشاف ٢/ ٥٩٣، التفسير الكبير ٢٦/ ١٠٦، أنوار التنزيل ٥٨٧، تفسير ابن كثير ٣/ ٥٨٠، روح المعاني ٢٣/ ٤٩، فتح القدير ٤/ ٣٦٨.

ومعنى ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: أي تجب عليهم كلمة العذاب[1].

ومعنى ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ في القرآن: وجب العذاب كما ذكرناه في أول السورة، وذلك أن الله سبحانه قال في الأزل وقال في كتبه المنزلة على رسله: إنه من كفر به أدخله النار وعذبه بعد إلزامهم بالحجة. والحجة هي ما أنزل الله على لسان رسله وبلغوهم به فيحق القول بعد الإنذار وإلزامهم الحجة. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤]، وقال: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ٢٦]، وقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١].

جاء في (التفسير الكبير): «﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، إما قول العذاب وكلمته كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ [الزمر: ٧١]، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، فإذًا جاء حق التعذيب على من وجد منه التكذيب»[2].

وفي مقابلة الكافرين للحي في قوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إشارة إلى أن الكفار أموات وهو ما ذكره ربنا في أكثر من موطن، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

جاء في (أنوار التنزيل): «وجعلهم في مقابلة من كان حيًّا إشعارًا

---

(١) انظر الكشاف ٢/ ٥٩٣، روح المعاني ٢٣/ ٥٠.

(٢) التفسير الكبير ٢٦/ ١٠٦.



بأنهم لكفرهم وسقوط حجتهم وعدم تأملهم أموات في الحقيقة»[١].

إن هاتين الآيتين ارتبطتا بأول السورة ارتباطاً لطيفاً من نواح عدة:

١ ـ فقد قال تعالى في أول السورة: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

فقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يعني أنه ليس بشاعر، وهو يناسب قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾.

وقوله: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يقوي ذاك، فإن الشعراء كما قال رب العزة في كل واد يهيمون، فهذا مما يعضد هذا المعنى.

٢ ـ وقوله: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يعني أن القرآن ليس بشعر، وهو يناسب قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾

٣ ـ أنَّ قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ يناسب قوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾.

٤ ـ وأن قوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يناسب قوله: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٥ ـ لقد وصف الله القرآن في أول السورة بأنه حكيم فقال: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾، ووصفه هنا بأنه مبين فقال: ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾.

ذلك أنه قال في أول السورة إنه على صراط مستقيم، ومعرفة الصراط المستقيم من غيره تحتاج إلى حكمة، والسير على الصراط المستقيم يحتاج إلى حكمة، فوصفه بأنه حكيم.

---

(١) أنوار التنزيل ٥٨٧، وانظر روح المعاني ٢٣/ ٥٠.

وههنا أراد أن يبين أن القرآن ليس بشعر ، وهذا أمر لا يحتاج إلى حكمة وإنما يحتاج إلى تبيين فقال: ﴿وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ ، فكان كل وصف في مكانه أنسب.

٦ - سمى الله تعالى ما أنزله على رسوله قرآنًا وذكرًا ههنا فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ .

وقال في أول السورة: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ، وقال بعد ذلك: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ فسماه في الموطنين قرآنًا وذكرًا.

وقد يكون من المناسب أن نذكر أنه قدم القرآن في أول السورة وأخر الذكر فقال: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ، ثم قال في الآية الحادية عشرة: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ .

وههنا قدم الذكر وأخر القرآن فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ .

ولعل من دواعي ذلك أنه في أول السورة بدأ بالكلام على القرآن ثم أخر الكلام على ما يشبه الطمس والمسخ وهو قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ فقدم القرآن لذلك.

وههنا بدأ بالطمس والمسخ وأَخَّرَ الكلام على القرآن فقال: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ۝٦٦ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ ، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ ، فأَخَّر ذكر القرآن لذلك والله أعلم. وهو من الموافقات اللطيفة.

وهذا من لطيف الارتباط والتناسب.

* * *



﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾

بعد أن ذكر أن آيات الله المنزلة ليست بشعر ، وأن الرسول ليس بشاعر ، وإنما هي ذكر وقرآن مبين ، لفت نظرهم إلى آيات الله في خلقه ، فذكر أقرب شيء إليهم وألصقه بحياتهم وهي الأنعام ، فقال: أولم يروا إلى هذه الأنعام وإلى قدرة خالقها فيذكروا نعمة ربهم عليهم بها فيشكروه عليها ويفردوه بالعبادة؟

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾

يرد في القرآن الكريم التعبير (أوَلم يروا) بالواو بعد همزة الاستفهام ، وقد يرد (ألم يروا) من دون واو كما مَرَّ في هذه السورة في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ ﴾ ، وهذه الواو عند النحاة هي واو العطف ، وهي تعطف على مذكور ، وقد تعطف على مقدر.

فالمعطوف على المذكور نحو قولنا: (ألم تر إلى خالد ماذا فعل ، أوَلم تر إلى أخيه كيف أنكر عليه؟) فهذا عطف على مذكور.

أما المعطوف على المقدر فهو قسمان:

قسم جرى له ذكر من غيرك فتبني عليه كلامك.

وقسم لم يجر له ذكر صريح ومع ذلك تأتي بالواو على التأويل وتقدير المعنى.

فالأول كأن يقول محدثك: رجع خالد من الموصل.

فتقول له: أوَ زرته بعد عودته؟

فتبني كلامك على ما ذكره المتكلم. جاء في (كتاب سيبويه):

«(هذا باب الواو التي تدخل عليها ألف الاستفهام) وذلك قولك:

هل وجدت فلاناً عند فلان؟

فيقول: أَوَهو ممن يكون عند فلان؟

فأدخلت ألف الاستفهام، وهذه الواو لا تدخل على ألف الاستفهام، وتدخل الألف عليها»[(١)].

وجاء في (النكت في تفسير كتاب سيبويه) للأعلم الشنتمري:

«فإذا قال القائل: هل وجدت فلانًا عند فلان؟

فقال المجيب: أَوَ هو[(٢)] ممن يكون عنده؟

فكلام المخاطب عطف على كلام المتكلم باستفهام وغير استفهام»[(٣)].

والقسم الآخر كما في الآية هذه، وكقوله تعالى في سورة الملك: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك: ١٩]، يبني ذلك على ما تقدم من الأمور المشاهدة المعلومة فيعطف عليها.

وقد ذكروا في الفرق بين (أولم تر) و(ألم تر) في القرآن الكريم أن (أوَلم تر) بالواو إنما تكون لما هو مشاهد، و(ألم تر) إنما تكون في الاستدلال بالنظر العقلي.

---

(١) الكتاب ١/ ٤٩١.

(٢) في المطبوع (أهو) من دون واو. والصواب بالواو كما في كتاب سيبويه وكما يدل عليه الكلام بعد.

(٣) النكت ٢/ ٨٠٩.

وقالوا أيضًا: إن (أولم تر) يستعمل فيما كثر أمثاله في الحياة مما هو مشاهد.

أما (ألم تر) من دون الواو فهو من باب ما لا يكثر مثله.

جاء في (البرهان): «واعلم أنه قد وقع في القرآن ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ في بعض المواضع بغير واو كما في الأنعام، وفي بعضها بالواو، وفي بعضها بالفاء (أفلم يروا).

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾

وهذه الكلمة تأتي على وجهين:

أحدهما: أن تتصل بما كان الاعتبار فيه بالمشاهدة، فيذكر بالألف والواو ولتدل الألف على الاستفهام، والواو على عطف جملة على جملة قبلها، وذلك الفاء لكنها أشد اتصالاً بما قبلها.

والثاني: أن يتصل بما الاعتبار فيه بالاستدلال، فاقتصر على الألف دون الواو والفاء ليجري مجرى الاستئناف.

ولا ينتقض هذا الأصل بقوله في النحل: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾ [النحل: ٧٩]، لاتصالها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾ [النحل: ٧٨]، وسبيلها الاعتبار بالاستدلال فبُني عليه ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾»[1].

وجاء في (درة التنزيل): «وكل موضع فيه بعد ألف الإنكار واو ففيه تبكيت على ما يسهل الطريق إلى ما بعد الواو فالاعتبار لكثرة أمثاله كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٧]، كأن قائلاً قال: كذبوا الرسل وغفلوا عن الفكر والتدبر فقال: فعلوا ذلك ولم ينظروا إلى المشاهدات التي تنبه الفكر فيها من الغفلة.

---

(١) البرهان ٤/ ١٥٠.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝١٨ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ﴾ [الملك: ١٨ ـ ١٩]، كأنه قال: كذبوا ولم ينظروا إلى ما يردع عن الغفلة من الفكر في المشاهدات... وكل ما فيه واو مثل (أولم يروا) فهو تنبيه على ما تقدمه في التقدير أمثال له منبهة لكثرتها فالتبكيت فيه أعظم، فهذا كله في المشاهد وما في حكمته.

وما ليس فيه واو مثل (ألم يروا) فهو ما لم يقدر قبله ما يعطف عليه ما بعده، لأنه من باب ما لا يكثر مثله، وذلك مما يؤدي إلى علمه بالاستدلالات كقوله في سورة الأنعام ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ إلى قوله: ﴿فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأنعام: ٦]، وهذا ما لم يشاهدوه ولكن علموه»[1].

وقد قال في آية (يس) هذه (أولم) بالواو؛ لأنه ذكر أمرًا يقع الاستدلال فيه بالمشاهدة كأنه قال: إن ما ذكرناه من الآيات والدلائل لم يهدهم إلى الحق ويردعهم عن الشرك أو لم يروا إلى ما يشاهدونه كثيرًا ويعيشون معه وينتفعون به وهو الأنعام كيف ذللها الله لهم وسخرها لمنفعتهم؟

وبذلك يوجه أنظارهم إلى ما هو كثير المشاهدة فيستدل به.

ونحو ذلك أن تحاجّ أحدًا وتأتي له بالبراهين والأدلة فلم يقتنع فتأتي له ببرهان ظاهر الدلالة سهل المسلك كثير الوقوع.

جاء في (روح المعاني): «(أولم يروا) الهمزة للإنكار والتعجيب، والواو للعطف على جملة منفية مقدرة مستتبعة للمعطوف، أي: ألم

---

(١) درة التنزيل ١٠٨ ـ ١٠٩، وانظر ملاك التأويل ١/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

يتفكروا ، أو ألم يلاحظوا أو ألم يعلموا علمًا يقينيًا مشابهًا للمعاينة . زعم بعضهم أن هذا عطف على قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ إلخ ، والأول للحث على التوحيد بالتحذير من النقم ، وهذا بالتذكير بالنعم المشار إليها بقوله تعالى : ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ أي لأجلهم وانتفاعهم» (١) .

* * *

﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾

أسند الخلق إلى نفسه فقال : ﴿أَنَّا خَلَقْنَا﴾ ولم يبنه للمجهول فيقول (خُلق) كما قال في مواطن أخرى من نحو قوله : ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء : ٢٨] ، وذلك أن هذا من باب التفضل والإنعام ، والقرآن الكريم يسند النعمة والتفضل والخير إلى نفسه سبحانه . ثم إنه لو بناه للمجهول لم يدل على أن الخالق هو الله سبحانه . ولا يتناسب ذلك مع السياق الذي وردت فيه الآية والذي أراد الله فيه أن يظهر آياته ونعمه على خلقه ليعبدوه ويوحدوه فتكون الجهة مجهولة .

ثم إنه قال : ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ ، وإذا كان الفاعل مجهولاً كانت الجهة التي يوجه إليها الشكر مجهولة فلا يعرفون الجهة التي ينبغي أن يقدموا لها الشكر .

وقد تقول : لقد أسند الخلق هنا إلى ضمير المتكلم ، وأسنده في سورة النحل إلى ضمير الغائب فقال : ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل : ٥] مع أن الموطنين متشابهان ، فما الفرق؟ ولم ذاك؟

فنقول : إن كل تعبير مناسب لما ورد فيه من أكثر من وجه .

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٥٠ .

من ذلك أن السياق في سورة النحل مبني على الإسناد إلى ضمير الغيبة ، بل إن جو السورة مبني على ذلك ، قال تعالى : ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ . . . خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ . . . خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ . . . وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا . . . وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ . . . هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً . . . يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ . . . وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ . . . وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ . . . وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ ﴾ [النحل : ٢ ـ ١٥] .

وغير ذلك .

وأن السياق في سورة (يس) مبني على الإسناد إلى ضمير المتكلم ، وأن جو السورة كذلك . قال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا . . . وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا . . . إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ . . . إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ . . . ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ . . . أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا . . . وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا . . . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ . . . وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ . . . ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ . . . وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ . . . أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم . . . وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ . . . أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾

إلى آخره .

وغير ذلك وغيره .

فناسب كل تعبير الموطن الذي ورد فيه .

ثم إن ما ورد في (يس) أكثر تكريمًا وتفضلاً مما ورد في النحل فأسنده إلى نفسه . وهذا هو الخط العام في إسناد النعمة والخير والتفضل .

وإن الآيات التي ورد فيها كل تعبير يوضح ذاك .

قال تعالى في (يس) : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ

لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾

وقال في سورة النحل: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٥ ـ ٧].

فقد ورد ضمير المتكلم الذي يعود على الله سبحانه أربع مرات في (يس) وهي:

أنّا، خلقنا، أيدينا، ذللنا.

ولم يرد ضمير الغيبة الذي يعود على الله سبحانه إلا مرة واحدة في النحل وهو الضمير المستتر في (خلقها).

ثم لننظر إلى مواطن التكريم في الموضعين:

١ ـ قال في (يس): ﴿خَلَقْنَا لَهُم﴾ فجعل الخلق لهم.

في حين قال في النحل: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا﴾ ولم يقل: (لكم) وإنما قال: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ [1].

٢ ـ قال في (يس): ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ للدلالة على الاهتمام والتكريم، كما تقول: هذا صنعته لك بيدي.

ولم يقل مثل ذلك في النحل.

٣ ـ قال في (يس): ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ فملكها لهم، ولم يذكر في النحل أنه ملكها لهم.

---

(١) انظر البحر المحيط ٥/ ٤٧٤.

٤ ـ قال في (يس): إنه ذللها لهم فقال: ﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ﴾ ولم يقل مثل ذلك في النحل.

٥ ـ ذكر في (يس): أن منها ركوبهم، وذكر في النحل أنها تحمل أثقالهم في الأسفار.

٦ ـ ذكر في (يس) أن لهم فيها مشارب، ولم يذكر مثل ذلك في النحل.

٧ ـ ذكر في (يس) والنحل أنهم منها يأكلون.

٨ ـ ذكر في (يس) والنحل أن لهم فيها منافع.

٩ ـ ذكر في النحل أن لهم فيها دفئاً، ولم يذكر ذلك في (يس).

وهو يدخل في المنافع التي ذكرها في (يس).

١٠ ـ ذكر في النحل أن لهم فيها جمالاً حين يريحون وحين يسرحون.

ونلخص ما تفرد به كل موضع من الموضعين.

ما تفردت به (يس):

١ ـ أن الخلق لهم.

٢ ـ تمليكها إياهم.

٣ ـ تذليلها لهم.

٤ ـ الركوب.

٥ ـ المشارب.

ما تفردت به النحل:

١ ـ الدفء.

٢ ـ حمل الأثقال.

٣ ـ الجمال.

وأظن أن معرفة أي الموطنين أكثر تكريمًا وتفضلاً مما لا يحتاج إلى بيان.

هذا إضافة إلى أنه يحسن بنا أن نذكر أن ما تفردت به النحل يدخل في المنافع التي ذكرها في (يس) بقوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾.

أما ما تفردت به (يس) فقد لا يدخل في المنافع كالتمليك والتذليل وأن الخلق لهم.

فناسب كل تعبير الموضع الذي ورد فيه من كل وجه، والله أعلم.

وقد تقول: لقد استعمل القرآن في (يس) الفعل (خلق) فقال: ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾، واستعمل في سورة (غافر) الفعل (جعل) فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [غافر: ٧٩]، فلم ذاك؟ وما الفرق؟

والجواب: أنه قال في (يس): ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ وقال في غافر: ﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾، فجاء في (يس) بما هو أدعى للشكر.

فالقول: (خلقته لك) أدل على الاهتمام والعناية من (جعلته لك) ذلك أن الخالق له إنما جعله له ابتداء قبل إيجاده، أما الجعل فلا يشترط فيه ذاك.

ونحو ذلك أن تقول: (صنعت هذه السيارة لك) أو (جعلت هذه السيارة لك).

فقولك: (جعلتها لك) معناه: (ملكتها إياك) وجعلتها لتستفيد منها، ومعلوم أنها لم تصنع لك ابتداء.

أما قولك: (صنعتها لك) فمعناه أنها صنعت لك ابتداء لا لغيرك.

فقوله: ﴿خَلَقْنَا لَهُم﴾ أدل على الاهتمام والعناية وأدعى إلى الشكر.

ثم إن ما ورد في الآيتين يوضح ذلك :

قال تعالى في سورة غافر : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ [غافر : ٧٩ ـ ٨١] .

فالذي ذكره في (يس) أدعى إلى الشكر مما في (غافر) ، ذلك أنه قال في (يس) :

﴿ خَلَقْنَا لَهُم ﴾ ، ﴿ مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴾ ، ﴿ فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴾ ، ﴿ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ ﴾ ، ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ﴾ ، ﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ ، ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ ﴾ ، ﴿ وَمَشَارِبُ ﴾ .

في حين قال في غافر :

﴿ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ ﴾ ، ﴿ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا ﴾ ، ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ ، ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ ﴾ ، ﴿ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ ﴾ .

فزاد في (يس) على ما في غافر :

﴿ مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴾ ، و﴿ فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴾ ، و﴿ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ ﴾ وزاد (المشارب) على المنافع ، فكان ما في (يس) أدعى إلى الشكر .

ومما حسن ذلك أيضًا أنه تكرر ذكر الجعل في (غافر) ، وتكرر ذكر الخلق في (يس) فقال في غافر : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾ [غافر : ٦١] .

وقال : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ [غافر : ٦٤] .

فناسب قوله : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ ﴾ [غافر : ٧٩] .

وقال في يس : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴾ .

وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ .

وقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

فناسب ذكر الخلق في (يس) وذكر الجعل في (غافر) من كل وجه، والله أعلم.

* * *

﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾

معنى ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ أي مما تولينا نحن إحداثه وعمله من غير واسطة ولا شركة ولا يمكن لغيرنا أن يعمله[1]. وأسند العمل إلى اليد لأن الأشياء المصنوعة إنما تباشر باليد فيقال: هذا مما عملته يدي. فعبر عن ذلك بما يقرب من أفهامهم.

جاء في (البحر المحيط): «لما كانت الأشياء المصنوعة لا يباشرها البشر إلا باليد عبر لهم بما يقرب من أفهامهم بقوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ أي مما تولينا عمله ولا يمكن لغيرنا أن يعمله، فبقدرتنا وإرادتنا برزت هذه الأشياء لم يشركنا فيها أحد»[2].

وجاء في (فتح القدير): «﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ أي مما أبدعناه وعملناه من غير واسطة ولا شركة، وإسناد العمل إلى الأيدي مبالغة في الاختصاص والتفرد بالخلق كما يقول الواحد منا: (عملته بيدي) للدلالة على تفرده بعمله»[3].

و(ما) تحتمل أن تكون اسمًا موصولاً فيكون المعنى: (خلقنا لهم من

---

(١) انظر الكشاف ٢/ ٥٩٣، البحر المحيط ٧/ ٣٤٧، فتح القدير ٤/ ٣٧٠.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٤٧.
(٣) فتح القدير ٤/ ٣٧٠.

الذي عملته أيدينا) أي من الأشياء التي عملتها أيدينا.

وتحتمل أن تكون مصدرية فيكون المعنى: (خلقنا لهم من عمل أيدينا). وكلاهما مراد ولكل منهما دلالة.

ولو عبر عن ذلك بـ (الذي) فقال: (من الذي عملته أيدينا) لكان نَصًّا في الموصولية الاسمية ولم يحتمل المصدرية.

وكذلك لو قال: (مما عملته أيدينا) فذكر العائد.

ولم يقل أيًّا منهما للتوسع في المعنى والله أعلم.

ثم إنه قال: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ ولم يقل: (ما عملت أيدينا) ليدل على أن هذا بعض ما عملته يد القدرة الإلهية. ولو قال: (ما عملت) لاقتصر العمل على الأنعام. فما قاله أدل على التنوع وأدل على القدرة والتكريم.

وقال: (أيدينا) بصيغة الجمع؛ ذلك لأنه ذكر نفسه بصيغة الجمع ﴿أَنَّا خَلَقْنَا﴾. والملاحظ في القرآن أنه إذا ذكر الله نفسه بصيغة الإفراد أفرد اليد أو ثناها فيقول ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، ويقول: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، ويقول: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]. وإذا ذكر نفسه بصيغة الجمع جمع اليد كقوله تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ وهو المناسب.

﴿أَنْعَـٰمًا﴾ الأنعام جمع نَعَم وهي البقر والغنم والإبل[1]. وهو مفعول (خلقنا) وقدم الجارين على المفعول للاهتمام بشأنهما فقال: ﴿خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ فقدم ما يتعلق بتكريمهم وهو (لهم) أي لأجلهم للدلالة على الاهتمام بالإنعام عليهم وتكريمهم، ولأنهم العلة في خلق

---

(١) فتح القدير ٤/ ٣٧٠.

الأنعام ، فقدم العلة على المعلول. ووضع الأنعام بجنب ما عملته الأيدي لأنها بعض منه.

* * *

﴿ فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾

قدم الجار والمجرور (لها) على (مالكون) للاهتمام بشأن المملوك ، وذلك لأنها من أهم أموالهم وأكرمها عليهم فقدمها للاهتمام بها.

ولا يفيد هذا التقديم قصرًا. ونحو هذا التقديم مما لا يفيد القصر قوله تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾ [يوسف: ٧٢] ، فقدم (به) على (زعيم) لأهمية حمل البعير آنذاك ، وليس معناه: أنا زعيم به دون غيره. ونحو هذا أن يقول شخص: (من يتكفل بدَيني وأهلي وأنا أكفيكم أمر هذا الفاتك قاطع الطريق؟) فيقول له قائل: (أنا بذلك كفيل). فليس معناه أنا كفيل بذاك دون غيره ، وإنما قدمه للاهتمام ، فإن هذا الأمر هو ما أهمه وهو الذي يحول بينه وبين تولي أمر قاطع الطريق فيقدمه للاهتمام. هذا علاوة على رعاية الفاصلة.

وقال: (مالكون) بالاسم ، ولم يقل: (يملكون) للدلالة على ثبات الأمر واستقراره. ولو قال: (يملكون) لاحتمل عدم الثبوت والحصول ، وأنهم غير مالكيها الآن ، وأنهم سيملكونها في المستقبل.

جاء في (روح المعاني) في قوله: ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾: «وقدم لرعاية الفواصل مع الاهتمام ، وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على استقرار مالكيتهم لها واستمرارها» [١].

وتمليكها للإنسان من تمام النعمة عليهم ، فلو خلقها لهم من دون

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٥١.

تمليك لما كان بها تمام الانتفاع.

جاء في (التفسير الكبير): «قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾: إشارة إلى إتمام الإنعام في خلق الأنعام، فإنه تعالى لو خلقها ولم يملكها الإنسان ما كان ينتفع بها»(١).

وجاء في (الكشاف): «أي خلقناها لأجلهم فملكناها إياهم فهم متصرفون فيها تصرف الملاك مختصون بالانتفاع فيها لا يزاحمون، أو فهم لها ضابطون قاهرون»(٢).

* * *

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾

أي صيرناها سهلة منقادة لا تستعصي عليهم يقودها الصبي وينيخها ولا تأبى عليه في شيء من الأشياء. ولو كانت نافرة وآبية لم ينتفع بها مالكها تمام الانتفاع.

جاء في (روح المعاني): «﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ أي وصيرناها سهلة غير مستعصية عليهم في شيء مما يريدون بها حتى الذبح حسبما ينطق به قوله تعالى»(٣).

وجاء في (التفسير الكبير): «وقوله: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ زيادة إنعام، فإن المملوك إذا كان آبيًا متمردًا لا ينفع، فلو كان الإنسان يملك الأنعام وهي نادّة صادّة لما تم الإنعام الذي في الركوب، وإن كان يحصل الأكل كما

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ١٠٦.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٩٣.

(٣) روح المعاني ٢٣/ ٥١.

في الحيوانات الوحشية ، بل ما كان يكمل نعمة الأكل أيضًا إلا بالتعب الذي في الاصطياد ، ولعل ذلك لا يتهيأ إلا للبعض وفي البعض» [(١)] .

وبهذا ذكر ما به تمام النعمة في الأنعام ، فإنه ذكر خلقها لهم وتمليكها إياهم وتذليلها لهم. وهذا تمام النعمة فيها ، ذلك أن من الأشياء ما تكون الفائدة منها في الخلق للانتفاع بها وإن لم تكن مملوكة كخلق الشمس والقمر والنجوم والأنهار والجبال وغيرها .

ومنها ما تكون الفائدة منها في الخلق والتمليك كالجنات وعيون الماء والأراضي وكثير مما يملك .

ومنها ما لا تتم النعمة فيها إلا في الخلق والتمليك والتذليل وذلك كالأنعام فإن تمام النعمة لا يحصل إلا بها جميعاً ، فلو كانت مخلوقة غير مملوكة لما انتفعنا بها ذلك الانتفاع ، ولو كانت مخلوقة مملوكة غير مذللة لم يتم الانتفاع بها أيضاً ، ولا يتم الانتفاع بها إلا بالتذليل فذكر ما به تمام النعمة فيها .

* * *

﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ﴾

الرَّكوب فَعول بمعنى مفعول ، أي مركوب .

وفَعول بمعنى مفعول على قسمين : اسم وصفة .

فالاسم نحو رسول بمعنى مرسَل ، والنَّقوع لما ينقع ، والبخور لما يُتبخر به .

والوصف نحو قولهم: ناقة ذلول ، أي مذللة ، وناقة أمون: وهي

(١) التفسير الكبير ٢٦/١٠٦ .

الناقة التي يؤمن فتورها وعثورها[١] .

ورَكوب وردت في الآية اسمًا ، وهو ما يركب من الإبل أو من كل دابة .

جاء في (لسان العرب) : «الرَّكوب والرَّكوبة من الإبل التي تركب ، وقيل : الرَّكوب : كل دابة تركب» [٢] .

وقوله : ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ . . . ﴾ بيان لمنفعة التذليل والفاء للتفريع فهي فرعت أحكام التذليل إلى ما يركب وإلى ما يؤكل مع بيان المنافع الأخرى .

جاء في (التفسير الكبير) : «قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ بيان لمنفعة التذليل ، إذ لولا التذليل لما وجدت إحدى المنفعتين وكانت الأخرى قليلة الوجود» [٣] .

وجاء في (روح المعاني) : «﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ﴾ فإن الفاء فيه لتفريع أحكام التذليل عليه وتفصيلها ، أي فبعض منها مركوبهم ، فركوب فعول بمعنى مفعول كحصور وحلوب» [٤] .

ومعنى قوله : ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ﴾ أي بعضها يركب ، و(من) للتبعيض ، كما قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا ﴾ [غافر : ٧٩] .

فالأنعام لا تركب كلها ، فالبقر والغنم لا تركب وإنما تركب الإبل ، في حين قال : ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ [النحل : ٨] ، فقال في

---

(١) مفردات الراغب (أمن) ٢٦ .

(٢) لسان العرب ١/ ٤١٥ (ركب) .

(٣) التفسير الكبير ٢٦/ ١٠٦ .

(٤) روح المعاني ٢٣/ ٥١ .

الأنعام: ﴿لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا﴾ ، وقال في الخيل والبغال والحمير: ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ ؛ لأنها كلها تركب.

* * *

﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾

أي يأكلون منها ، كما تقول: (هو يأكل من الطعام) أو يأكل من الخبز ، على معنى الابتداء أو على معنى التبعيض.

والتبعيض ليس واقعًا على جنس من الأنعام بل على أجزاء منها ، أي: اللحوم والشحوم ، فإن أجزاء منها لا تؤكل كالجلود والصوف والشعر وغيرها مما لا يؤكل.

جاء في (روح المعاني): «﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي تأكلون ما يؤكل منها من اللحوم والشحوم ونحو ذلك ، فـ (من) تبعيضية. . . وجوز أن تكون (من) ابتدائية ، وأن تكون للتبعيض مجازًا أو سببية ، أي تأكلون ما يحصل بسببها ، فإن الحبوب والثمار المأكولة تكتسب باكتراء الإبل مثلاً ، وأثمان نتاجها وألبانها وجلودها ، والأول أظهر»[١].

وتقديم (من) للحصر الإضافي[٢] أي إن الأنعام بالنسبة إلى ما يؤكل من ذوات اللحوم هي المعتمدة ، ولا يقاس غيرها بها من الطيور والسمك. ولا يدخل في هذا الحصر ما يؤكل من غير اللحم كالحبوب والثمار وغيرها.

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: تقدم الظرف في قوله: ﴿وَمِنْهَا

---

(١) روح المعاني ١٤/٩٨ ـ ٩٩ ، وانظر ٢٣/٥١.

(٢) الحصر الإضافي أي الحصر النسبي ، وهو الحصر بالنسبة إلى أشياء معينة أو أمور معينة ، كأن تحصر شخصًا بالنسبة إلى أشخاص معينين ، أو صفة بالنسبة إلى صفات معينة وهو غير الحصر المطلق الذي هو الحصر الحقيقي.

تَأْكُلُونَ﴾ مؤذن بالاختصاص وقد يؤكل من غيرها.

قلت: الأكل منها هو الأصل الذي يعتمده الناس في معايشهم، وأما الأكل من غيرها من الدجاج والبط وصيد البر والبحر فكغير المعتد به وكالجاري مجرى التفكه» (١).

وجاء في (روح المعاني) «﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أي وبعض منها يأكلون لحمه. والتعبيض باعتبار الأجزاء» (٢).

وقد غير الأسلوب في الأكل إلى الفعلية فقال: ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ مع أنه قال قبلها: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ بالاسمية، ذلك لأن الفعل يدل على التجدد والاستمرار، أي: ومنها يأكلون عادة كما قال تعالى: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾ [السجدة: ٢٧]، وقال: ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ [يونس: ٢٤]، فعبر عن ذلك بالفعل للدلالة على التجدد والاستمرار وأن هذا هو شأنهم.

وليس كذلك الركوب، فإن الركوب خاص بقسم من الإبل مما يصلح منها للركوب، أما الأكل فعام فهو يكون من جميع الأنعام ما يصلح منها للركوب وغيره.

ثم إن الأكل أعم من الركوب، فكل الناس يأكلون وليس كلهم يركبون، فالأكل حاجة يومية متكررة بخلاف الركوب.

فاقتضى ذلك المغايرة بين الركوب والأكل.

جاء في (روح المعاني): «وغير الأسلوب لأن الأكل عام في الأنعام جميعها وكثير مستمر بخلاف المركوب» (٣).

---

(١) الكشاف ٢/ ١٩٧ ـ ١٩٨.

(٢) روح المعاني ٢٣/ ٥١.

(٣) روح المعاني ٢٣/ ٥١.

وقدم الركوب على الأكل والمنافع الأخرى ههنا لأنه ذكر التذليل فقال: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ وأهم مظاهر التذليل الركوب.

ألا ترى أنه لما لم يذكر التذليل في النحل أَخَّرَ ذكر حمل الأثقال بعد ذكر المنافع والأكل.

وقد تقول: إنه لم يذكر التذليل أيضًا في غافر ومع ذلك قَدَّم الركوب على الأكل فقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر: ٧٩ ـ ٨٠].

فلم ذاك؟

فنقول: لما قال: ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ قدم الركوب؛ وذلك لأن الكلام إنما هو على الحمل عليها وعلى الفلك.

ولذلك لم يذكر الأكل في سورة الزخرف لأن السياق في النقل والركوب حصرًا.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ ـ ١٤].

وهو واضح.

وقد تقول: ولم ذكر الركوب في (يس) وذكر حمل الأثقال في النحل ولم يذكر الركوب، فقال في (يس): ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ وقال في النحل: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾؟

فنقول: إن كل تعبير أنسب في مكانه.

ذلك أنه في (يس) ذكر الركوب في غير هذا الموطن فقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ فذكر حمل الذرية وركوبهم هم.

وذكر حمل الأثقال في النحل فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النحل: ١٤].

والابتغاء من فضله هو في حمل البضائع في الفلك للتجارة وغيرها.

وقال: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥] فهم في يوم القيامة كالأنعام يحملون أثقالهم وأثقال غيرهم.

فكان كل تعبير مناسبًا للسياق الذي وردت فيه الآية ومناسبًا لجو السورة، ألا ترى أنه قال في النحل: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦] فذكر الجمال لما ذكر الزينة بعد ذلك بقوله: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨].

وذكر استخراج الحلية من البحر للبس فقال: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل: ١٤] والحلية إنما تلبس للزينة.

ثم ألا ترى أنه ذكر الدفء فقال: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ لما ذكر السرابيل وهي الملابس التي تقي الحر والبرد وذكر الأكنان وهي ما يحتمي به الإنسان فقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١].

فناسب كل تعبير الموضع الذي ورد فيه.

* * *

﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

قدم الضمير العائد عليهم في الجار والمجرور (لهم) على ضمير الأنعام في قوله: (فيها) لأن الكلام إنما هو عليهم وهي مخلوقة لهم. فهم سبب وجودها والعلة المسببة لخلقها، ثم ذكر ضمير الأنعام بعد ذلك.

ثم ذكر أن لهم فيها منافع عدا الركوب والأكل كالجلود والأوبار والأصواف وغيرها، وكالحراثة وما إلى ذلك[١].

والمشارب تعم شيئين: اللبن وأدوات الشرب، فإن من الجلود ما يتخذ أواني للشرب والأدوات من القرب وغيرها[٢].

فجمع بقوله: (مشارب) معنيين، ولو قال: (لهم فيها شراب) لم يفد إلا معنى واحدًا وهو اللبن.

وذكر المشارب بعد المنافع من باب ذكر الخاص بعد العام، وذلك لأهميتها واعتناء العرب بها.

وقدم الأكل على الشرب كما هو في سائر القرآن الكريم من تقديم الأكل على الشرب كقوله تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾ [الأعراف: ٣١] وذلك لأهمية الأكل وصعوبة الحصول عليه.

ولأن الأكل من الأنعام أعم من الشرب، فإن الأكل يكون من إناثها وذكورها صغارها وكبارها، أما الشرب فيكون من الإناث خاصة وفي حالات خاصة، فقدم ما هو أهم وأعم.

وقد أخر ذكر المشارب عن بقية المنافع؛ لأن ما تقدم من المنافع يمكن الانتفاع به متى شاء صاحبها إلا المشارب فإنها لا تكون إلا في

---

(١) ينظر الكشاف ٢/ ٥٩٤، التفسير الكبير ٢٦/ ١٠٦، روح المعاني ٢٣/ ٥١.
(٢) ينظر التفسير الكبير ٢٦/ ١٠٦.

وقت معين وهو وقت الإرضاع ولا يكون في غيره ، فأخرها لمحدودية الانتفاع بها والله أعلم.

﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾

أي ألا يكون ذلك سببًا لشكرهم لاستدامة النعم عليهم؟

وقال ذلك بصيغة الاستفهام لأن الاستفهام في نحو هذا أدعى إلى الحث واستثارة النفوس إلى مقابلة النعم بالشكر وأدل على بيان سوء صنيعهم إن لم يفعلوا.

وجاء بالفاء الدالة على السبب ؛ وذلك لأنه تقدم ما يستدعي الشكر وهو ما ذكره من النعم.

وأطلق الشكر ليتناول المنعم والنعمة كما مر بيان ذلك في آية سابقة في السورة.

* * *

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾

* * *

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

بعد أن ذكر ما خلق لهم من الأنعام وأسبغ عليهم من النعم التي تستدعي عبادة الخالق وشكره ذكر أنهم اتخذوا من دون الله آلهة.

وفي ذلك من التوبيخ والتبكيت على مقابلة الإحسان بالإساءة ما فيه. فهم بدل أن يشكروا الخالق المنعم اتخذوا من دونه آلهة عاجزة لا تضر ولا تنفع على رجاء أن ينصروهم.

جاء في (التفسير الكبير): «﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ إشارة إلى بيان زيادة ضلالهم ونهايتها ، فإنه كان الواجب عليهم عبادة الله شكرًا لأنعمه فتركوها وأقبلوا على عبادة من لا يضر ولا ينفع ، وتوقعوا منه النصرة مع أنهم هم الناصرون لهم كما قال عنهم: ﴿ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ ، وفي الحقيقة لا هي ناصرة ولا منصورة»[1] .

وأطلق النصر والجهة التي ينصرون عليها ، فهم على أية حال يريدون النصر في كل موطن يستدعي النصر ، وأن ينصروهم عند الله بأن يكونوا شفعاء لهم عنده يقربونهم إليه .

* * *

﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾

لم يقل: (لا ينصرونهم) لأن ذلك قد يدل على أنهم قادرون على النصر ولكن لا يفعلون ذلك وإنما قال ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ ليدل على عجزهم وضعفهم .

* * *

﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾

قيل: المعنى أن الآلهة لا يستطيعون نصرهم وإنما هم ؛ أي: عابدوهم جند لهم يدافعون عنهم وينصرونهم ، فهم بدل أن ينتصروا بهم صاروا جنودًا لهم يدافعون عنهم ؛ لأنهم عاجزون عن الدفاع عن أنفسهم ، وهذا أسوأ ما يكون من خيبة الأمل وانقطاع الرجاء .

جاء في (روح المعاني): «(وهم) أي أولئك المتخذون المشركون

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/١٠٧ .

(لهم) أي لآلهتهم ﴿جُندٌ مُّحۡضَرُونَ﴾ أي معدون لحفظهم والذب عنهم في الدنيا»[١].

وجاء في (فتح القدير): «أي والكفار جند للأصنام محضرون، أي يحضرونهم في الدنيا. قال الحسن: يمنعون منهم ويدفعون عنهم، وقال قتادة: أي يغضبون لهم في الدنيا. قال الزجاج: ينتصرون للأصنام وهي لا تستطيع نصرهم.

وقيل: المعنى: يعبدون الآلهة ويقومون بها فهم لها بمنزلة الجند.

هذه الأقوال على جعل ضمير (هم) للمشركين وضمير (لهم) للآلهة»[٢].

وقيل: بل المعنى أنهم جند لهم، أي جند للآلهة محضرون للعذاب في الآخرة، وذلك أن هذه الآلهة توقد بها النار يوم القيامة فتتقدمهم إلى النار وهم يتبعونهم إليها كما يتبع الجند قائدهم. أو أن الآلهة تكون جندًا لهم محضرة للعذاب.

جاء في (الكشاف): «اتخذوا الآلهة طمعًا في أن يتقووا بهم ويعتضدوا بمكانهم، والأمر على عكس ما قدّروا، حيث هم جند لآلهتهم معدّون (محضرون) يخدمونهم ويذبون عنهم ويغضبون لهم، والآلهة لا استطاعة بهم ولا قدرة على النصر، أو اتخذوهم لينصروهم عند الله ويشفعوا لهم، والأمر على خلاف ما توهموا، حيث هم يوم القيامة جند معدون لهم محضرون لعذابهم؛ لأنهم يجعلون وقودًا للنار»[٣].

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٥١.
(٢) فتح القدير ٤/ ٣٧١.
(٣) الكشاف ٢/ ٥٩٤.

وفيه معنى لطيف آخر وهو أن هذه الآلهة لا تستطيع نصرهم في حال أن لهم جندًا محضرين ، أي هي لا تستطيع النصر ولو كان لهم أي للآلهة جند محضرون معدون فكيف إذا لم يكن لهم ذلك؟ فلا شك أنهم سيكونون أعجز وأذل وأضعف ، وعلى هذا تكون الواو واو الحال.

وذكر الفخر الرازي معنى آخر: وهو أن الآلهة لا تستطيع نصرهم ، ولو كانت هي جندًا محضرين لنصرتهم أي: حتى لو اجتمعت الآلهة وكانت جندًا معدة لنصرهم لم تستطع أن تنصرهم فكيف إذا لم تكن كذلك؟

جاء في (التفسير الكبير): في قوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾

«وهو يحتمل معنيين:

(أحدهما): أن يكون العابدون جندًا لما اتخذوه آلهة كما ذكرنا.

(الثاني): أن يكون الأصنام جندًا للعابدين، وعلى هذا ففيه معنى لطيف وهو أنه تعالى لما قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ أكدها بأنهم لا يستطيعون نصرهم حال ما يكونون جندًا لهم ومحضرون[1] لنصرتهم ، فإن ذلك دال على عدم الاستطاعة ، فإن من حضر واجتمع ثم عجز عن النصرة يكون في غاية الضعف ، بخلاف من لم يكن متأهبًا ولم يجمع أنصاره»[2].

وهذه المعاني كلها محتملة صحيحة:

١ ـ فإن الآلهة عاجزة وإن عابديهم ينصرونهم ويدفعون عنهم وهم لهم جند محضرون.

---

(١) كذا ، والصواب: (ومحضرين).

(٢) التفسير الكبير ٢٦/١٠٧.

٢ ـ وأنهم وآلهتهم سيكونون محضرين للعذاب في النار .

٣ ـ وأن الآلهة لا تستطيع أن تنصرهم ولو كان لها جند محضرون معدون للنصر فكيف وهي ليست كذلك؟ .

٤ ـ وهي لا تستطيع أن تنصرهم ولو اجتمعت وكانت جندًا معدين لنصرة عابديهم .

فجمع هذا التعبير كل هذه المعاني .

ولو غَيَّر أي لفظ عن مكانه بتقديم أو تأخير لم يؤد هذه المعاني مجتمعة ، فلو قال : وهم جند محضرون لهم .

أو : وهم جند لهم محضرون .

أو : ولهم هم جند محضرون .

وكذلك لو قيل أي تعبير آخر لم يفد هذه المعاني مجتمعة ، بل ربما اختل المعنى . فكان هذا التعبير أعدل التعبيرات وأحسنها وأجمعها للمعاني المطلوبة .

* * *

﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

نهاه عن أن يحزن لما يقولونه فيه وفي دعوته . فهم يقولون فيه إنه كاذب ، وإنه شاعر ، وإنه ساحر ، وإنه مجنون ، ويقولون في دعوته إنها ضلال وإفك وكذب وافتراء ، إلى غير ذلك مما يتناجون به من العداوة له وحربه ، فنهاه عن أن يحزن لأقوالهم ، وقد أطلق القول ليشمل ما يقولونه فيه وفيما يدعو إليه .

ثم استأنف معللاً ذلك بقوله : ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ ، فلم

الحزن والله يعلم سرهم وجهرهم ، وهو قادر على إبطال ما يظهرون أو يضمرون؟

إن (ما) في قوله: ﴿ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ تحتمل أن تكون اسمًا موصولاً ، أي: نعلم الذي يسرونه والذي يعلنونه ، وتحتمل أن تكون مصدرية ، أي نعلم إسرارهم وإعلانهم ، وهو يعلم ذلك كله إسرارهم وما يسرونه وإعلانهم وما يعلنونه. ولو قال: (ما يسرونه وما يعلنونه) لتعينت الموصولية الاسمية ولم تحتمل المصدرية ، فلم يذكر العائد ليشمل المعنيين جميعًا. وأطلق الإسرار والإعلان ليشمل كل ما يسرون وكل ما يعلنون في كل أمر من الأمور ، فعلمه يعم الجميع ولا يخص شيئًا دون شيء.

جاء في (روح المعاني): «و(ما) موصولة والعائد محذوف ، أي نعلم الذي يسرونه من العقائد الزائغة والعداوة لك ونحو ذلك ، والذي يعلنونه من كلمات الإشراك والتكذيب ونحوها.

وَجوَّز أن تكون مصدرية ، أي نعلم إسرارهم وإعلانهم ، والمفعول محذوف ، أو الفعلان منزلان منزلة اللازم.

والمتبادر الأول وهو الأولى» (١).

وقد قَدَّم السر على الإعلان ، قيل: لأن مرتبة السِّر مقدمة على مرتبة العلن لأن السِّر يسبق الإعلان ، فهو علة لما يفعله الإنسان ، والعلة مقدمة على المعلول. وقيل: إن العلم بالسِّر يدل على الإحاطة بالمعلومات كلها. فمن كان يعلم السر فهو يعلم العلن من باب أولى. وقيل غير ذلك.

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٥٢.

جاء في (روح المعاني): «وتقديم السِّر على العلن لبيان إحاطة علمه سبحانه بحيث إن علم السِّر عنده كأنه أقدم من علم العلن. وقيل: لأن مرتبة السِّر متقدمة على مرتبة العلن، إذ ما من شيء معلن إلا وهو أو مباديه مضمر في القلب قبل ذلك. فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية حقيقة.

وقيل: للإشارة إلى الاهتمام بإصلاح الباطن فإنه ملاك الأمر، ولأنه محل الاشتباه المحتاج للبيان» [١].

والملاحظ في القرآن الكريم أنه لا يقتصر على تقديم السِّر، فهو ـ كما يقدم السِّر على الإعلان ـ قد يقدم الجهر على الإخفاء، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ [الأعلى: ٧]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٠]، وقوله ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

وهو أحيانًا يكتفي بذكر أحدهما دون الآخر، فقد يكتفي بذكر الإسرار مثلاً كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾ [محمد: ٢٦]. وقد يكتفي بذكر الأمور الظاهرة كذكر العمل والصنع ونحوهما وذلك كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٦]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠]، وكل ذلك بحسب ما يقتضيه المقام.

وقد قيل في تقديم الإخفاء على الإعلان، أو الإعلان على الإخفاء: إنه إذا تقدم الكلام على المنافقين أو الكفار قدم الإخفاء، وإذا تقدم ذكر المؤمنين قدم الإبداء، وهذا مطرد في جميع ما ورد من القرآن الكريم.

جاء في (ملاك التأويل) في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٥٢.

﴿تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾: «أما آية البقرة فلم يجر فيها ذكر النفاق ولا صفة أهله وإنما الخطاب فيها وفي آية الدَّين قبلها وفيما أعقبت به بعد للمؤمنين فيما يخصهم من الأحكام فورد فيها قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ فقدَّم فيها بادي أعمالهم بناء على سلامة بواطنهم وتنزههم عن صفة المنافقين.

ومنه قوله تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ [المائدة: ٩٩]، فتقدم ذكر ما يبدونه لأنه خطاب للمؤمنين...

وهذا جارٍ مطرد فيما يلحق بهذا الضرب كما اطرد بالبدء بالإخفاء على الإعلان حيث يتقدم ذكر أهل الكفر وينتظم الكلام بذكرهم كقوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾ [الأنعام: ٣] بعد قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، وكقوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ﴾ [التغابن: ٤]، وكقوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ [النحل: ١٩] بعد قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾ [التغابن: ٢]، وكقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ [النمل: ٧٤] وقد تقدمها قوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ﴾ [النمل: ٦٧]، فاطرد ما ذكرناه في الطرفين على رعي الإيمان والنفاق، وجاء كل على ما يجب ويناسب»[1].

وهذه ملاحظة صحيحة تتبعتها في مواطن قوله تعالى: ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ وقد وردت في أربعة مواضع في القرآن الكريم وهي: (البقرة ٧٧، هود ٥، النحل ٢٣، يس ٧٦). وهذه المواطن خاصة بذكر الكافرين.

وقد ورد قوله تعالى: ﴿مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ بالخطاب في موطنين وهما قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ [النحل: ١٩]،

---

(١) ملاك التأويل ١/ ١٣٧ ـ ١٣٨.

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [التغابن: ٤]، وهما ليسا مختصين بالكافرين، وإنما هما من المواطن العامة التي تشمل عموم بني آدم وإن كان قد جرى فيها ذكر للكافرين.

أما آية النحل فقد وقعت في سياق تعداد النعم على الإنسان وهي قوله: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ...﴾ وتستمر إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا... وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ إلى أن يقول: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل: ١٧ - ١٩].

فأنت ترى أنها ذكرت في سياق تعداد النعم.

إلا أن الملاحظ أن السياق بدأ في الكلام على المشركين والشرك، فقد بدأت السورة بقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وبدأت الآيات بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا﴾ الآيات، فهي إذن ذكرت بعد ذكر الإنسان الخصيم لربه المشرك به.

ثم يأتي في عقب ذلك مباشرة قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٠ - ٢٢]، ويستمر في الكلام على الكفار.

على هذا تكون الآية وقعت في سياق الكلام على المشركين والكافرين ولم يرد فيها ذكر للمؤمنين.

وأما آية التغابن فقد وقعت في السياق الآتي: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [التغابن: ٢ ـ ٤].

فالسياق لم يختص بالكلام على الكافرين إلا أنه جرى بعدها مباشرة ذكر الكافرين فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٦ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن: ٥ ـ ٧].

فتكون قد وقعت في سياق الكافرين سواء تقدمها ذكر الكافرين أم وقع في عقبها.

وعلى أية حال تكون الملاحظة صحيحة، فكل ما تقدم فيه السِّر على العلن كان في سياق الكلام على الكافرين سواء تقدم الآية أم كان في عقبها.

غير أنه مع هذا الخط العام للتقديم والتأخير يكون التقديم والتأخير مناسبًا للسياق الذي ترد فيه الآية.

فقوله تعالى مثلاً: ﴿ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، إنما قدم الإبداء فيه على الإخفاء لقوله تعالى: ﴿ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ فإن الحساب يكون على ما يبديه الإنسان ويفعله لا على ما يدور في نفسه من خواطر، فإن ذلك ليس بوسع الإنسان أن يمنعه، «ولهذا لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة رضي الله عنهم وخافوا منها ومن محاسبة الله لهم على جليل الأعمال وحقيرها»[1].

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٣٣٨.

وورد في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم وغيره أنه لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب وقالوا: يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، فقال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير»، فلما أقرّ بها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله في إثرها: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ إلى آخره[1].

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٠]، فإنه قدم الجهر على الكتمان وذلك لما تقدم قبلها قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ﴾ [الأنبياء: ١٠٩]، والإيذان هو الإعلام والإشهار، وذلك لا يكون إلا جهراً، وقوله: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٖۖ﴾ يعني «مستوين في الإعلام به لم يطوه عن أحد منهم وكاشف كلهم وقشر العصا عن لحائه»[2] وذلك كله جهر فناسب تقديمه.

ونحوه قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ [الأعلى: ٧]، فقد قدم الجهر وذلك لتقدم قوله تعالى: ﴿ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦]، والإقراء لا يكون إلا جهراً، بخلاف القراءة فقد تكون سرًّا وجهرًا.

فناسب تقديم الجهر.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/ ٣٣٨ ـ ٣٣٩.

(٢) الكشاف ٢/ ٣٣٩.

والمقصود أنه إضافة إلى الخط العام الذي ذكرناه في تقديم السر على العلن ، فإن السياق الذي ترد فيه الآية يقتضي ذلك أيضًا .

أما الاكتفاء بأحدهما دون الآخر فذلك ما يقتضيه المقام أيضًا وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ [محمد : ٢٦] .

وذلك لأن السياق والمقام يقتضيان ذلك ، فقد قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٦] ، ولم يقل: (وجهرهم) ذلك لأنه ذكر ما جهروا به وهو قولهم: ﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ ﴾ غير أنهم لم يذكروا الأمر الذي يطيعونهم فيه ولم يبينوه ، وإنما أسروه فقال: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ أي لا يخفى عليه ما أسروه ، فذكر ما يحتاج إليه المقام ، والله أعلم .

* * *

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس : ٧٧ ـ ٨٣] .

قيل : جاء أحد عتاة مكة ـ قيل : هو أبيّ بن خلف ، وقيل : العاص بن وائل ـ إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يفتّه ويذروه في الهواء وهو يقول : يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟

قال ﷺ : نعم يميتك الله ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار .

ونزلت هذه الآيات من آخر (يس): ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ إلى آخرهن.

وفي رواية أنه قال له بعدما فتّ العظم البالي: أيحيي الله هذا بعدما أرى؟ فأجابه رسول الله بما ذكرنا[١].

* * *

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾

المقصود هو التعجيب من حال الإنسان بعدما خلقه الله من نطفة فإذا هو مخاصم لربه معاند له، فكان جزاء نعمته عليه أن كان خصمًا لربه مظهرًا خصومته له.

وقيل: المقصود بيان قدرة الخالق وذلك أن ربه خلقه من نطفة فإذا هو ناطق مخاصم ذو حجة ولدَد مبين عما في نفسه.

جاء في (الكشاف): «قَبَّح الله عز وجل إنكارهم البعث تقبيحًا لا ترى أعجب منه وأبلغ، وأدلّ على تمادي كفر الإنسان وإفراطه في جحود المنعم وعقوق الأيادي، وتوغله في الخسة وتغلغله في القحة، حيث قرره بأن عنصره الذي خلقه منه هو أخس شيء وأمهنه، وهو النطفة المذرة... ثم عجب من حاله بأن يتصدى مثله على مهانة أصله ودناءة أوله لمخاصمة الجبار...

وقيل معنى قوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ فإذا هو بعدما كان ماء مهينًا رجل مميز منطيق قادر على الخصام مبين معرب عما في نفسه فصيح»[٢].

وجاء في (روح المعاني): «قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي

---

(١) ينظر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٨١.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٩٤ ـ ٥٩٥.

مبالغ في الخصومة والجدال الباطل ، (مبين) ظاهر متجاهر في ذلك. . .

وقيل: معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾: فإذا هو بعدما كان ماء مهيناً رجل مميز منطيق قادر على الخصام مبين معرب عما في ضميره فصيح»[١]

وجاء في (البحر المحيط): «﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ الوصف الذي آل إليه من التمييز والإدراك الذي يتأتى معه الخصام ، أي فإذا هو بعدما كان نطفة رجل مميز منطيق قادر على الخصام مبين معرب عما في نفسه»[٢].

والمعنيان مرادان مقصودان ، فالإنسان بعدما خلقه ربه من نطفة من ماء مهين وسواه رجلاً إذا هو مخاصم له يتخذ من دونه آلهة.

أولا ينظر الإنسان إلى قدرة خالقه بأن جعل من النطفة إنسانًا عاقلاً ناطقًا مخاصمًا مبينًا عن حجته؟

إن الآية تبدأ بالهمزة الدالة على الإنكار والتعجيب ، فهي تنكر عليه فعله وموقفه من ربه وتعجّب من حاله ، وذلك أن يقابل الإحسان بالإساءة ، والنعمة بالجحود ، فهو إنكار وتعجيب.

ثم جاء بالواو التي قيل فيها إنها عطف على كلام مقدر ، وقيل أيضًا: إن المقصود بها الاستدلال بالمشاهد وكثرة الوقوع كما سبق أن ذكرنا ، وقيل: هي عطف على قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾.

ثم ذكر (الإنسان) فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ مع أنه جاء بضمير الغائبين قبلها فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ ، وذلك أن الاستدلال في

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٥٣ ـ ٥٤.

(٢) البحر المحيط ٣٤٨/٧.

هذه الآية يخص كل إنسان وهو حجة على كل فرد ، فكان الأولى أن ينظر في نفسه ويتأمل فيها وفي خلقها وينظر في أصله وماذا هو الآن.

أما قوله : ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ فهو كلام على مجموعة من الناس ، فهذه الآية أعم وأشمل. جاء في (التفسير الكبير) : «قوله : ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ معناه الكافرون المنكرون التاركون عبادة الله المتخذون من دونه آلهة ، أولم يروا خلق الأنعام لهم. وعلى هذا فقوله تعالى : ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ كلام أعم من قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ ، لأنه مع جنس الإنسان وهو مع جمع منهم ، فنقول: سبب ذلك أن دليل الأنفس أشمل وأكمل وأتم وألزم ، فإن الإنسان قد يغفل عن الأنعام وخلقها عند غيبتها ولكن لا يغفل هو مع نفسه متى ما يكون وأينما يكون ، فقال: إن غاب عن الحيوان وخلقه فهو لا يغيب عن نفسه فما باله؟ أولم ير أنا خلقناه من نطفة وهو أتم نعمة؟» [(١)].

وجاء في (روح المعاني): «الهمزة للإنكار والتعجب ، والواو للعطف على جملة مقدرة هي مستتبعة للمعطوف كما مَرَّ في قوله تعالى : ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ . . . إلخ ، أي: ألم يتفكر الإنسان ولم يعلم أنا خلقناه من نطفة ، أو هي عين تلك الجملة أعيدت تأكيدًا للنكير السابق وتمهيدًا لإنكار ما هو أحق منه بالإنكار لما أن المنكر عين علمهم بما يتعلق بخلق أنفسهم . . .

ويشير كلام بعض الأجلّة إلى أن العطف على ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ السابق والجامع ابتناء كل منهما على التعكيس ، فإنه تعالى خلق للإنسان ما خلق ليشكر ، فكفر وجحد المنعم والنعم ، وخلقه سبحانه من نطفة قذرة ليكون منقادًا متذللاً فطغى وتكبّر وخاصم. وإيراد (الإنسان) مورد الضمير لأن

---

(١) التفسير الكبير ٢٣/ ٥٣.

مدار الإنكار متعلق بأحواله من حيث هو إنسان»[١].

وقال: (خلقناه) بإسناد الخلق إلى ضمير المعظم نفسه ليبين الفاعل وقدرته وإنعامه وتفضله.

وقال: (من نطفة) ليذكّر الإنسان بأصله، ويذكّره بقدرة الخَلاَّق العليم، وكيف تعهد هذه النطفة وجعل منها إنسانًا عاقلاً ناطقًا فيتطامن لخالقه.

ثم قال: (فإذا) فجاء بالفاء الدالة على التعقيب، أي: فإذا هو في عقب ذلك مباشرة خصم لربه. والفاء تفيد السبب أيضًا، فكأن إحسان خالقه إليه كان سببًا في كفره وخصومته له. وهذا أعجب شيء وأبعد شيء عن مألوف المعاملات والعادات، إذ المفروض أن يكون الإحسان سببًا إلى الشكر والاعتراف بالفضل والجميل.

أما الإنسان فكان الإحسان إليه سببًا لخصومة المنعم عليه وكفره به.

فجمع بالفاء بين معنيي التعقيب والسبب.

وجاء بـ (إذا) الدالة على المفاجأة للدلالة على أن موقفه هذا مفاجئ وهو غير متوقع أن يفعل هذا مع من أحسن إليه.

ومن جهة أخرى تدل الآية على بالغ قدرة الله، فإنه من المفاجآت العجيبة أن تصبح هذه النطفة إنسانًا عاقلاً مخاصمًا ناطقًا بالحجة مدافعًا عن نفسه مبينًا عما في ضميره، فهي مفاجأة من كل وجه.

و(الخصيم) هو المبالغ في الخصومة. واختار (الخصيم) لأن الخصيم من يخاصم غيره ويبالغ في ذلك، فدلّ بذلك على النطق والعقل والقيام بالحجة.

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٥٣.

و(المبين) هو المفصح عما في نفسه المظهر لخصومته وما يريد إظهاره ، فذكر أضعف شيء في طور خلق الإنسان وهي النطفة ، وأبلغ شيء فيه وهو الخصيم.

وجاء بالجملة اسمية للدلالة على الثبوت ، أي ثبوت هذا الأمر في الإنسان.

جاء في (التفسير الكبير): «(خصيم) أي ناطق ، وإنما ذكر الخصيم مكان الناطق لأنه أعلى أحوال الناطق فإن الناطق مع نفسه لا يبين كلامه مثلما يبينه وهو يتكلم مع غيره ، والمتكلم مع غيره إذا لم يكن خصمًا لا يبين ولا يجتهد مثلما يجتهد إذا كان كلامه مع خصمه.

وقوله: (مبين) إشارة إلى قوة عقله ، واختار الإبانة لأن العاقل عند الإفهام أعلى درجة منه عند عدمه... فقوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ إشارة إلى أدنى ما كان عليه ، وقوله: ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ إشارة إلى أعلى ما حصل عليه» [1].

وجاء في (روح المعاني): «وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ أي مبالغ في الخصومة والجدال الباطل.

(مبين): ظاهر متجاهر في ذلك ، عطف على الجملة المنفية داخل في حيز الإنكار والتعجيب ، كأنه قيل: أولم ير أنا خلقناه من أخس الأشياء وأمهنها ففاجأ خصومتنا في أمر يشهد بصحته مبدأ فطرته شهادة بينة ، وإيراد الجملة الاسمية للدلالة على استقراره في الخصومة واستمراره عليها.

وفي الحواشي الخفاجية أن تعقيب الإنكار بالفاء وإذا الفجائية على

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/١٠٨.

ما يقتضي خلافه مقوّ للتعجيب ، والمراد بالإنسان الجنس ، والخصيم إنما هو الكافر المنكر للبعث مطلقًا . . .

وقيل معنى قوله تعالى : ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ : فإذا هو بعدما كان ماء مهينًا رجل مميز منطيق قادر على الخصام مبين معرب عما في ضميره فصيح ، فهو حينئذ معطوف على (خلقناه) والتعقيب والمفاجأة ناظران إلى خلقه» [1] .

إن هذه الآية مرتبطة بما قبلها وما بعدها من الآيات أحسن ارتباط وأبلغه .

فهي مرتبطة بقوله تعالى : ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ ، وهذه خصومة ظاهرة لخالقهم .

ومرتبطة بقوله تعالى : ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وذلك أنه إذا كان الله خلق الإنسان من نطفة وأنشأه حتى سواه رجلاً ، فلا شك أنه يعلم كل ما يسر وما يعلن .

وهي مرتبطة بقوله : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ ، فإن الذي خلقه من نطفة أقدر على إعادته في الآخرة ، لأن الإعادة أيسر من الابتداء .

* * *

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾

المثَل هو ما أوردناه في مطلع تفسير هذه الآيات .

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٥٣ ـ ٥٤ .

وقوله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ من لطيف التذكير والاحتجاج ؛ فإنه لو كان ذاكرًا لم يسأل ولم يعجب.

ولم يكتف بهذا التذكير بل أجاب بحجة ظاهرة ملزمة فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ ، وهي حجة غنية عن التعليق من حيث الإلزام.

و(عليم) مبالغ (عالم) ، فلما قال: ﴿بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ اقتضى ذلك المبالغة في العلم.

«والعدول إلى الاسمية للتنبيه على أن علمه تعالى بما ذكر مستمر ليس كإنشائه للمنشآت» [(١)] .

وقد تقول: ولكنه قال في موطن آخر: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١] ، فقال: (عالمين) مع (كل شيء) ولم يقل: (عليم) مع أن كلمة (شيء) أعم من كلمة (خلق) ، فلم ذاك؟

فنقول: إن الله سبحانه وصف نفسه بكل صفات العلم وأحواله ، فوصف نفسه بأنه (يعلم) أي بالفعل الدال على الحدوث والتجدد ، ووصف نفسه بأنه (عالم) أي باسم الفاعل نحو (عالم الغيب) وهو أثبت من الفعل وأدوم ، ووصف نفسه بأنه عليم وعلاّم بالمبالغة ، فجمع لنفسه كل صفات العلم وأحواله ، إلا أنه يضع كل وصف أو لفظ في مكانه.

ولو رجعنا إلى السياق الذي ورد فيه قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ لرأينا أن هذا التعبير هو الأمثل في سياقه ، ذلك أن هذا التعبير وقع في سياق مسألة خاصة جدًّا وهي مسألة داود وسليمان إذ يحكمان في الحرث ، وتعليم داود صنعة الدروع وتسخير الريح لسليمان فقال:

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٥٥.



﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾.

وهذا من أخص الخاص ولا يقاس من حيث العموم والشمول بما ذكره في آيات (يس) من خلق الإنسان وخلق السماوات والأرض وغيرها وإحياء الموتى وبعثهم من جديد ، وذلك يشمل العلم بكل الخلق وذرات ترابهم وما تفرق من أجزائهم.

فناسب (عليم) ما ورد فيه ، و(عالمين) ما ورد فيه.

* * *

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

إن ارتباط هذه الآية بما قبلها ألطف ارتباط ، ذلك أن الكافر استبعد الإحياء بعد الموت ، فلفت نظره إلى أمر أدعى إلى الاستبعاد والعجب وهو أن جعل لهم من الشجر الأخضر نارًا يوقدون منه ، وهو أمر مستبعد في المألوف ، لأن الماء تطفئ النار ، فذكر قدرته على ما هو مستبعد في تفكيرهم مما يعرفونه ويألفونه.

والمقصود بالشجر هنا عموم الشجر ، إلا أنه أظهر ما يكون ذلك في شجرتي المرخ والعَفار فيؤخذ قضيب كالسواك من كل شجرة من هاتين الشجرتين فيسحق المرخ على العفار وهو يقطر ماء فتنقدح النار وهو ما يعرفونه ويستعملونه في الوقود ، وهو أعجب شيء وأبعده في الذهن.

جاء في (الكشاف): «ثم ذكر من بدائع خلقه انقداح النار من الشجر الأخضر مع مضادة النار الماء وانطفائها به وهي الزناد التي توري بها الأعراب وأكثرها من المرخ والعفار. وفي أمثالهم (في كُلِّ شجرٍ نارٌ واستَمْجَدَ المَرْخُ والعَفَار) ، يقطع الرجل منهما غصنين مثل السواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ وهو ذكر على العفار

وهي أنثى فتنقدح النار بإذن الله»[١].

وجاء في (البحر المحيط): «ذكر ما هو أغرب من خلق الإنسان من النطفة، وهو إبراز الشيء من ضده، وذلك أبدع شيء، وهو اقتداح النار من الشجر الأخضر، ألا ترى أن الماء يطفئ النار ومع ذلك خرجت مما هو مشتمل على الماء»[٢].

وقال: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ بالفعل ولم يقل: (موقدون) بالاسم؛ لأن هذا مما يفعلونه عند الحاجة، فجاء بما يدل على الحدوث.

* * *

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾

بدأ بالاستدلال بخلق الإنسان من نطفة، ثم استدل بما هو مستعجب مما حولهم وهو اتقاد النار من الشجر الأخضر، ثم ترقى إلى خلق السماوات والأرض وهو أعظم وأعجب؛ ذلك أنه ذكر للإنسان مبدأ خلقه منه وهو النطفة، وذكر للنار أصلاً تخرج منه وهو الشجر الأخضر، ولم يذكر للسماوات والأرض شيئًا خلقهما منه. وهذا أعظم وأعجب فإن الخلق من العدم المحض أعجب وأدل على القدرة، وعلى هذا فلا داعي لاستبعاد البعث بعد الموت فإن أجزاءهم موجودة، وإن جمعها وإعادتها أيسر من خلق شيء ليس له مادة ولا وجود ابتداء وهو خلق السماوات والأرض.

ثم قال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ﴾

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٩٥.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٤٨.

ولم يقل: (على أن يعيدهم) وذلك ليدل على أَنه قادر على ما هو أعجب وهو أن ينشئ خلقًا آخر أمثال هؤلاء من غير نطف ولا أجزاء متفرقة كما خلق السماوات والأرض ابتداء من غير شيء.

فذكر ما هو أبعد في الخلق وأعسر من الإعادة.

جاء في (البحر المحيط): «ثم ذكر ما هو أبدع وأغرب من خلق الإنسان من نطفة ومن إعادة الموتى وهو إنشاء هذه المخلوقات العظيمة الغريبة من صرف العدم إلى الوجود فقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾» (١).

وجاء في (روح المعاني): «الهمزة للإنكار والنفي، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أي: أليس الذي أنشأها أول مرة، وليس الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارًا، وليس الذي خلق السماوات والأرض مع كبر جرمهما وعظم شأنهما ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ في الصغر والحقارة بالنسبة إليهما» (٢).

لقد ذكر ههنا صفتين له سبحانه:

الأولى: صفة العلم بالمخلوقات كلها فقال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

والأخرى: صفة الخلق، فذكر أنه الخلاق العليم.

فإنه لما ذكر العظام البالية ذكر أنه بكل خلق عليم إشارة إلى أنه عليم بكل شيء، يعلم كل شيء عن كل مخلوق، وأين ذهبت ذراته، وأين استقرت في أماكن ملكه، وما ذرات العظام إلا جزء يسير من خلقه.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٤٨.

(٢) روح المعاني ٢٣/ ٥٦.

ثم قد لا يكون العلم وحده كافيًا ، فقد يعلم إنسان ما جزئيات آلة من الآلات وأماكنها ولكنه لا يستطيع تركيبها ، فذكر صفة الخلق على أبلغ حال فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ . فهو بكل خلق عليم ، وهو الخلاق العليم.

وقال: ﴿ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ ، ولم يقل: (خلاّق عليم) لئلا يشاركه في هذين الوصفين أحد ، فإن الإنسان قد يكون خالقًا على أحد معاني الخلق وهو (التقدير) وقد يوصف بأنه عليم كما قال تعالى علىٰ لسان سيدنا يوسف عليه السلام: ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٥].

ولكن لا يوصف بالخَلاّق العليم غير الله ، فجاء بالألف واللام الدالة على القصر والكمال في هاتين الصفتين.

فذكر ما به كمال الاتصاف في العلم والخلق.

وقد تقول: ولكنه وصف نفسه بأنه عليم في آية سابقة فقال: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ ولم يعرف الوصف؟

فنقول: لما قال: ﴿ بِكُلِّ خَلْقٍ ﴾ علم أن ذلك لا يكون لغير الله ، فإنه لا يكون عليمًا بكل خلق غير الله.

ثم إنه لما ذكر خلق الإنسان من نطفة وخلق السماوات والأرض قال: (الخَلاّق) للدلالة على كثرة خلقه واستمراره في الخلق والإيجاد.

والجمع بين الخلق والعلم هنا أحسن جمع ، فإن الخلق والإيجاد إن لم يكونا عن علم فلا خير فيهما ؛ لأنهما قد يكونان عبثًا وقد يكون ضررهما أكبر من نفعهما.

وقال: (بقادر) فجاء بالباء الزائدة المؤكدة ؛ لأن الموطن موطن إنكار ، فجاء بما يؤكد قدرته على خلق مثلهم وإعادتهم.

وقد تقول: لقد ختم الآية ههنا بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ، وختمها في موطن شبيه به بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩] ، وذلك قوله في (الأحقاف): ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣] ، فلم ذاك؟.

فنقول: إن ثمة اختلافًا بين الموطنين يقتضي مغايرة التعبير، وذلك أنه قال في آية (يس): ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ﴾ فناسب قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وقال في آية الأحقاف: ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ﴾ فناسب قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

* * *

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾

لقد ذكر فيما سبق من الآيات ما خلق في الماضي وهو قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ ، وقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ ، وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وهنا ذكر قدرته التي لا تحد في كل وقت، في الماضي والحال والاستقبال؛ لئلا يظن أن ذلك أمر قد انتهى فقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ، فذكر أنه إذا أراد شيئًا قال له: (كن) ، فيكون كما أمر وكما أراد سبحانه.

وجاء بالفاء فقال: (فيكون) ولم يقل: (ثم يكون) للدلالة على



التعقيب، وأنه يكون ما أراده مباشرة كما أمر وليس في ذلك تراخ أو مهلة.

* * *

﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

نَزَّه الله سبحانه من بيده الملك ـ وهو يعني ذاته العلية ـ عن كل نقص ؛ ليعلم خلقه أن هذا الخالق المقتدر والذي بيده ملكوت كل شيء هو منزه عن كل نقص. فقد يكون المالك المقتدر ظالمًا غشومًا، وقد تكون فيه صفات نقص، فنزه الله نفسه عن كل ذلك بقوله: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

والملكوت مبالغة في الملك[1]، وهو يكون بمعنى الملك مع العز والسلطان وليس مجرد الملك، ففيه مبالغة ما ليس في الملك.

جاء في (لسان العرب): «وملك الله وملكوته: سلطانه وعظمته، ولفلان ملكوت العراق، أي: عزه وسلطانه وملكه... وهو الملك والعز»[2].

وجاء في (فتح القدير): «والملكوت في كلام العرب لفظ مبالغة في الملك كالجبروت والرحموت، كأنه قال: فسبحان الذي بيده مالكية الأشياء الكلية»[3].

وجاء بالفاء في قوله: (فسبحان) للدلالة على السبب، فإنه بعدما ذكر ما أولاه من النعم على خلقه وعظيم خلقه في السماوات والأرض وقدرته التي لا تحد، استدعى ذلك تنزيه الخالق الذي بيده ملكوت كل شيء.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ١١٢، روح المعاني ٢٣/ ٥٧.

(٢) لسان العرب (ملك) ١٢/ ٣٨٢.

(٣) فتح القدير ٤/ ٣٧٣.

وقال: ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ ليدل على أنه المالك المتصرف في ملكه كما يشاء، ولئلا يظن ظان أنه خلق الخلق وتركهم كل يتصرف وحبله على غاربه ليس لله عليه قدرة ولا حكم ولا مشيئة فقال: ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي: «هو مالك كل شيء والمتصرف فيه بموجب مشيئته وقضايا حكمته»[1].

وقدم (بيده) وهو الخبر على المبتدأ ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ لإفادة القصر، فإن ملكوت كل شيء بيده هو حصرًا ليس لآخر فيه نصيب ولا بيده شيء، فإن كل يد غير يده صفر.

ثم قال: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ ليدل على أن ما ذكره من التصرف في الملكوت ليس مقصورًا في الدنيا، وإنما بيده الملكوت في الآخرة كما في الدنيا، وأنه إليه المرجع والمصير.

وقال: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فقدم الجار والمجرور على الفعل للدلالة على أن الرجوع إليه حصرًا لا إلى غيره.

جاء في (روح المعاني): «﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ تنزيه له عز وجل مما وصفوه به تعالى، وتعجيب عما قالوا في شأنه عز شأنه. والفاء جزائية، أي إذا علم ذلك فسبحان، أو سببية، لأن ما قيل سبب لتنزيهه سبحانه.

والملكوت مبالغة في الملك كالرحموت والرهبوت، فهو الملك التام، وفي تعليق (سبحان) بما في حيزه إيماء إلى أن كونه تعالى مالكًا لذلك كله قادرًا على كل شيء مقتض للتسبيح، وفسر الملكوت أيضًا بعالم الأمر والغيب. . .

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٦٩.

﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ لا إلى غيره تعالى ، هذا وعد للمقربين ووعيد للمنكرين ، فالخطاب عام للمؤمنين والمشركين» [١] .

لقد قرر في هذه الآية التوحيد والحشر ، فقوله: ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يدل على أنه واحد لا شريك له ، وقوله: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ إثبات للحشر .

لقد ذكر في هذه السورة أركان الإيمان كلها .

فذكر الإيمان بالله وتوحيده وهو ما بدأت به السورة من قوله: ﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ، وما انتهت به من قوله: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ .

وذكر الإيمان بالرسل وأنه لا يتم الإيمان بهم حتى يؤمن برسول الله ﷺ وذلك قوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ ، وقوله: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ ، وقوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ .

وذكر الإيمان بسيد كتبه وهو القرآن فأقسم به وذكر أنه تنزيله فقال: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ . . . تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ .

وذكر الإيمان بالملائكة إشارة وتصريحًا ، فإنه لما قال: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ دل على أن ثمة من أبلغه الرسالة ، ولما قال: ﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ دل على أن هناك من تنزّل به .

والتصريح هو قوله: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ .

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٥٧

وذكر الإيمان باليوم الآخر وجزاء الخلق في ذلك اليوم ، وهو ما تكرر ذكره في السورة.

وذكر القدر بقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وقوله: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

فاستوفت السورة أركان الإيمان التي وردت في الحديث: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره).

جاء في (التفسير الكبير): «ويمكن أن يقال بأن هذه السورة ليس فيها إلا تقرير الأصول الثلاثة بأقوى البراهين.

فابتداؤها بيان الرسالة بقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ، ودليلها ما قدمه عليها بقوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ، وما أخره عنها بقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ ، وانتهاؤها بيان الوحدانية والحشر بقوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ إشارة إلى التوحيد ، وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إشارة إلى الحشر ، وليس في هذه السورة إلا هذه الأصول الثلاثة ودلائله وثوابه» (١).

لقد ارتبط آخر السورة بأولها بأجمل ارتباط:

١ ـ فقد ارتبط قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ . . . أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ بما ورد في أول السورة في المعاندين وهو قوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ، وقوله: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وكأن الكلام على الأشخاص أنفسهم والمجتمع نفسه.

٢ ـ وارتبط ذكر الحياة بعد الموت في قوله تعالى في أواخر السورة: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ

(١) التفسير الكبير ٢٦/١١٣.

﴿أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ﴾ بقوله في أول السورة: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ﴾.

٣ ـ وارتبط ذكر النسيان والغفلة في قوله تعالى في أواخر السورة: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ﴾ بقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾.

فكلاهما غافل، فالأول غفل عن خلقه هو كما هم غافلون عن الإنذار. فجمع الغفلتين العظيمتين: الغفلة عن النفس، والغفلة عن الرسالة.

٤ ـ ابتدأ السورة بذكر الرسالة الخاتمة وذكر خاتم الرسل فقال: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

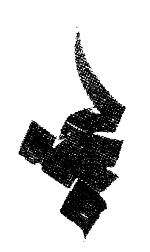
وختمها بختام الدنيا وانتهائها فقال: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

لقد بدأت السورة بالإرسال وانتهت بالرجوع إلى المرسِل فقال في الأول: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ وقال في الختام: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

فجلّ الله سبحانه قائل هذا الكلام، ونقول كما قال ربنا: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

* * *

سورة لقمان



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

* * *

بدأت السورة بالأحرف المقطعة شأن عدد من السور، وقد بينا ذلك في كتابنا (التعبير القرآني) فلا نعيد القول فيه.

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ أشار إلى الآيات ولم يشر إلى الكتاب كما في سورة البقرة، وذلك لما تردد في السورة من ذكر للآيات السمعية والكونية من مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴿٧﴾ ﴾.

وهذه من الآيات السمعية.

ومن الآيات الكونية التي ذكرها خلق السماوات بغير عمد، وإلقاء الرواسي في الأرض، وإنزال الماء وإخراج النبات، وتسخير الشمس والقمر، وغير ذلك من الآيات من مثل قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ ﴾

وقوله: ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

ووصف الكتاب بأنه (حكيم)، والحكيم يحتمل أن يكون من الحكمة؛ أي: هو ذو حكمة[1]، ويحتمل أن يكون من الحكم[2]، أي: كتاب حاكم على غيره من الكتب ومهيمن عليه، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨].

ويحتمل أن يكون فعيلاً بمعنى مفعول[3]، أي (مُحكَم)، كما قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١].

وهذه المعاني مرادة كلها، فهو ذو حكمة، وحاكم على غيره، ومُحكَم.

ومقتضى وصف الكتاب بأنه حكيم أن قائله حكيم، وقد وصف ربنا نفسه في السورة في أكثر من موضع بأنه حكيم فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾.

* * *

﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾

وصف الكتاب ههنا بأنه حكيم وبأنه هدى ورحمة للمحسنين، ووصفه في سورة البقرة بأنه هدى للمتقين، فقد قال في البقرة: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾.

فقد وصفه هنا:

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ١١٥.
(٢) ينظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ١١/ ٤٨٢، روح المعاني ٢١/ ٦٦.
(٣) ينظر روح المعاني ٢١/ ٦٦.

١ ـ بالحكيم.

٢ ـ وأنه هدى ورحمة.

٣ ـ للمحسنين.

وقال في البقرة:

١ ـ لا ريب فيه.

٢ ـ هدى.

٣ ـ للمتقين.

ولم يصفه بأنه حكيم.

أما وصفه بالحكيم في (لقمان) فهو مناسب لما ورد في السورة من نحو قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾، وما ذكر في الوصية من الحكمة، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وأما قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في البقرة فهو مناسب لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾، فقد نفى عنه الريب أولاً، ثم قال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] فأبطل دواعي الريب.

وقال في البقرة: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

وقال ههنا: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ فزاد الرحمة على ما ذكر في البقرة، وذلك أنه قال في البقرة: (للمتقين)، وقال في لقمان: (للمحسنين)، والمتقي هو الذي يحفظ نفسه، أما المحسن فهو الذي يحسن إلى نفسه وإلى غيره فلا يقتصر ذلك عليه هو. قال تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]، وقال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

فالإحسان لا يقتصر على النفس، بخلاف التقوى فإنها للنفس خاصة.

والإحسان إلى الآخرين من الرحمة، فلما رحموا الآخرين رحمهم الله، فكما زادوا في الوصف بأن أحسنوا إلى أنفسهم وإلى الآخرين زاد الله لهم الرحمة على الهدى.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن الله زاد في الجزاء للمحسنين في الآخرة فقال: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦]، فكما زاد لهم في الآخرة زاد لهم في الدنيا.

ثم إن كل تعبير مناسب لما ورد في السورة، فقوله: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ في البقرة مناسب لقوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ﴾. ومن الطريف أن هذا وارد تعقيبًا على إبطال دواعي الريب فقال: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣ ـ ٢٤].

وورد في أول السورة أيضًا بعد نفي الريب فقال: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ وهي مناسبة بديعة فقال في أول السورة: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾، وقال ثم: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ﴾.

أما قوله: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ فهو المناسب لما ورد في سورة لقمان، فقد شاع في السورة جو الهدى والرحمة والإحسان.

فمن مظاهر الهدى إرشاد لقمان لابنه وهدايته السبيل المستقيم.

ومنه قوله تعالى في المحسنين: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [لقمان: ٥].

وقوله: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۝١٥﴾ والذي يسلك السبيل إنما يريد الهداية.

ومن ذلك قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٢٠﴾ وانظر إلى وصف الكتاب بالإنارة، والإنارة إنما تكون للهداية.

أما الذي يسير في الظلام فإنما هو ضال لا يدري أين يتجه.

ومن مظاهر الهدى النكير على الضالين والمضلين وذلك نحو قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۝٦﴾، وقوله: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١١﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١]، وهؤلاء ضالون اتبعوا آباءهم الضالين، يدعوهم الشيطان فيستجيبون له حتى يوصلهم إلى عذاب السعير، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٣ - ٤]، والضلالة نقيض الهدى.

ومن مظاهر الرحمة في السورة ما ذكره من آياته الكونية والمسموعة رحمة بالإنسان، قال تعالى ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: ١٠]، فإنه ألقى الرواسي رحمة بنا لئلا تميد بنا الأرض.

ومن ذلك ما ذكره من وصية الإنسان بالوالدين ومصاحبتهما بالمعروف وذكر حمل الأم لولدها وإرضاعها له، وكل ذلك من مظاهر الرحمة.

وذكر تسخير ما في السماوات والأرض لنا وإسباغ النعم الظاهرة والباطنة علينا ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ

﴿نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] ، وهذا من أعظم الرحمة بنا ، وذكر غير ذلك من النعم.

ومن مظاهر الإحسان ما ذكره من إيتاء الزكاة في قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ، ومنها الوصية بالوالدين والإحسان إليهما ، ومن ذلك إحسان الأب إلى ابنه وإرشاده وتعليمه.

ومن ذلك قوله: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢] ، وذكر من مظاهر إحسان الله إلى خلقه ما عدد عليهم من النعم وتسخير ما في السماوات والأرض لهم وما خلقه من أجلهم. فناسبت الآية ما ورد في السورة أجمل مناسبة وارتبطت أحسن ارتباط.

جاء في (التفسير الكبير): «قال في سورة البقرة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ ولم يقل: (الحكيم) فلما زاد ذكر وصف الكتاب ، زاد ذكر أمر في أحواله فقال: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ ، وقال هناك: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

فقوله: (هدى) في مقابلة قوله: (الكتاب) ، وقوله: (رحمة) في مقابلة قوله: (الحكيم) ، ووصف الكتاب بالحكيم على معنى ذي الحكمة ، كقوله تعالى: ﴿فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي ذات رضا.

المسألة الثانية: قال هناك: (للمتقين) ، وقال ههنا: (للمحسنين) ؛ لأنه لما ذكر أنه هدى ولم يذكر شيئًا آخر قال: (للمتقين) أي يهتدي به من يتقي الشرك والعناد والتعصب ، وينظر فيه من غير عناد.

ولما زاد ههنا (رحمة) قال: (للمحسنين) أي المتقين الشرك والعناد الآتين بكلمة الإحسان.

فالمحسن هو الآتي بالإيمان ، والمتقي هو التارك للكفر ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] ، ومَنْ

جَانَبَ الكفر كان متقيًا وله الجنة. ومن أتى بحقيقة الإيمان كان محسنًا وله الزيادة لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، ولأنه لما ذكر أنه رحمة قال: (للمحسنين)؛ لأن رحمة الله قريب من المحسنين»[1].

* * *

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)﴾

ذكر إقامة الصلاة وهي أداؤها على الوجه الأتم، وهي من الإحسان إلى النفس. وذكر إيتاء الزكاة وهي من الإحسان إلى الغير.

وذكر الإيقان بالآخرة وهو مدعاة إلى الإحسان إلى النفس وإلى الآخرين فذكر جماع الإحسان.

لقد قال هنا: ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

وقال في البقرة ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]، فزاد (هم) في أول الجملة، وذلك -والله أعلم- لما تردد في السورة من ذكر الآخرة وأحوالها والتوعد بها، فقد ورد ذلك في زهاء نصف عدد آيات السورة، وذلك نحو قوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦]، ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧]، ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ [لقمان: ٨]، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ [لقمان: ٩]، ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥]، ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١]، ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ [لقمان: ٢٣]، ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]، ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا

---

[1] التفسير الكبير للرازي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان ط٢/ ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م - المجلد التاسع ١١٤ - ١١٥.



كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ﴾ [لقمان: ٣٣]، ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

ثم إن السورة بدأت بذكر الآخرة وانتهت به، فقد بدأت بقوله: ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [لقمان: ٤] وانتهت بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

فناسب زيادة (هم) في هذه السورة على ما في البقرة.

وقدم (بالآخرة) على الفعل (يوقنون) لأن الإيقان بالآخرة صعب ومقتضاه شاق، فإن الإيقان بالمشاهد يسير، بل إن قسمًا من الناس يؤمنون بالله ولا يؤمنون باليوم الآخر، ومن هؤلاء كفار مكة كما أخبر عنهم ربنا في أكثر من موطن، وذلك نحو قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ [الجاثية: ٣٢]، وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧]، وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النمل: ٦٧ ـ ٦٨].

ومع إنكارهم الآخرة كانوا يؤمنون بالله كما أخبر ربنا عنهم بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وكما أخبر عنهم في السورة نفسها فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

وقدم (هم) على الفعل (يوقنون) تعريضًا بغيرهم ممن يدعي الإيمان باليوم الآخر ولا يعمل بمقتضاه، فكأنهم وحدهم الذين يوقنون إيقانًا حقيقيًّا باليوم الآخر، وكأن من عداهم ليس بمؤمن، فكان ههنا تقديمان: تقديم الضمير على الفعل، وتقديم الجار والمجرور عليه،

وكان الأصل أن يقول: (ويوقنون بالآخرة)، ويحتمل أن تكون الواو للحال فيكون المعنى: الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة في حال إيقانهم بالآخرة، أي: يفعلون ذلك موقنين بالآخرة، فهم يقيمون الصلاة موقنين بالآخرة، ويؤتون الزكاة موقنين بالآخرة. ولو قالها على الأصل، أي (يوقنون بالآخرة) لم يفد هذا المعنى، فكانت أفعالهم طمعًا في ثوابه سبحانه وخوفًا من عذابه.

وقد تقول: وهل يصلي من لم يكن مؤمنًا باليوم الآخر؟

فنقول: نعم قد يكون ذاك، فقد أخبر ربنا عن مشركي قريش أنهم كانوا يصلون مع أنه ذكر أنهم لا يؤمنون بالآخرة فقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥].

وبناء ذلك على الجملة الاسمية وتكرار (هم) يدل على عظم شأن الإيمان باليوم الآخر، وأنه لا ينفع شيء مع عدم الإيمان به.

* * *

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾

أولئك الموصوفون بتلك الصفات على هدى من ربهم، فذكر أن الهدى إنما هو من ربهم لا من ذات أخرى.

واقتران لفظ الرب مع الهداية أحسن اقتران، ذلك أن الرب هو المربي والمعلم والمرشد، وأولى مهمات الرب التربية والهداية، ولذا كثيرًا ما يقترن لفظ الرب مع الهداية، وذلك كقوله: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقوله: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، وغير ذلك.

وإضافة (الرب) إلى ضميرهم إضافة لها دلالتها، ذلك أن الذى

يهديهم هو ربهم وفيه إخلاص الهداية ومحض النصح والتوجيه.

* * *

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

وتعريف المفلحين والمجيء بضمير الفصل يدلان على أنهم وحدهم المفلحون وليس ثمة مفلح سواهم، والإنسان يبغي الفلاح في كل أموره، فإذا كان الأمر كذلك فعليه أن يكون على هدى من ربه ولا فلاح بغير ذلك. فهذا إهابة بالناس لأن يكونوا منهم بل أن لا يكونوا إلا منهم، فمن عداهم خاسر وهم وحدهم المفلحون.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن طريق الهدى قد يكون شاقًّا مكلفًا وقد تكون عاقبته شديدة الأذى في الدنيا وينال متبعه من الضر والعنت ما يؤدي إلى العزوف عنه، فذكر ربنا أن متبعه مفلح رابح وأنه لا فلاح في سواه، فكان ذلك مدعاة إلى اتباعه وإهابة بالتمسك به، فكان ذلك أحسن تعقيب.

* * *

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾﴾

«اللهو كل باطل ألهى عن الخير وعما يعني، و(لهو الحديث) نحو السمر بالأساطير والأحاديث التي لا أصل لها والتحدث بالخرافات»[1] والغناء وقول الخنا ونحوه[2].

ومما ذكر في سبب نزول هذه الآية أنها نزلت في النضر بن الحارث

---

(١) الكشاف ٥/٦.

(٢) ينظر المحرر الوجيز ١١/ ٤٨٤ ـ ٤٨٥.

وكان يخرج تاجرًا إلى فارس فيشتري أخبار الأعاجم. وفي بعض الروايات: كتب الأعاجم، فيرويها ويحدث بها قريشًا ويقول لهم: إن محمدًا عليه الصلاة والسلام يحدثكم بحديث عاد وثمود وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة، فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن(١).

ومهما ذكر من أسباب لنزول الآية فإنها لا تخص واحدًا بعينه، بل تعم كل من ينطبق عليه الوصف.

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ أي: «يشتري بغير علم بالتجارة وبغير بصيرة بها، حيث يستبدل الضلال بالهدى والباطل بالحق» (٢).

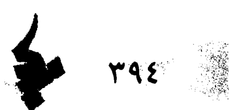
والمشتري يشتري عادة ما ينفعه وهو يعلم ماذا يشتري، أما هذا فيشتري بغير علم وهو يشتري ما يضره ولا ينفعه، وعلى هذا فقوله: (بغير علم) متعلق بالفعل (يشتري).

ويحتمل أن يكون متعلقًا بـ (يضل) فيكون الإضلال بغير علم، أي يضل الناس وهو لا يعلم كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ﴾ [الأنعام: ١١٩].

والذي يترجح عندي أنه متعلق بالفعلين (يشتري) و(يضل) فيكون من باب التنازع، فهو يشتري بغير علم ويضل بغير علم فتكون الخسارة مضاعفة، ذلك لأن من يشتري ولا يعلم ماذا يشتري خاسر، وكونه يضل بغير علم خاسر أيضًا، فإن المشتري بغير علم قد يقتصر ضرره على نفسه، أما هذا فهو يضل الآخرين فيتعدى ضرره إلى الآخرين. وكونه

---

(١) ينظر روح المعاني ٢١/ ٦٧، المحرر الوجيز ١١/ ٤٨٣، البحر المحيط ٧/ ١٧٩.
(٢) الكشاف ٥/ ٩.



يضل بغير علم لا يعفيه من المسؤولية ، لأن الأصل أن يتكلم بعلم ولا يتكلم بما ليس له به علم فيضل الناس بجهله. بل إن هذا أخسر الخاسرين ولا يعفيه جهله وإن حسب أنه مهتد ، قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤] ، وقال: ﴿ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٠] ، وقال: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٧].

لقد وردت تعبيرات في القرآن قريبة من هذا التعبير مع بعض اختلاف ، فقد يذكر السبيل مع الإضلال كما في هذه الآية ، وكما في قوله تعالى : ﴿ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الحج: ٩] ، وقوله: ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الزمر: ٨].

وأحيانًا يذكر الإضلال ولا يذكر السبيل كما في قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٤٤] ، فلم يقل: (ليضل الناس عن سبيله).

وأحيانًا يقول: (بغير علم) وأحيانًا لا يقول ذلك كما في آيتي الحج والزمر.

وقد يذكر الناس فيقول: ﴿ لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٤٤] ، وقد لا يذكرهم كما في الآيات الأخرى.

ولكل ذلك سبب.

فأما ما ذكر فيه السبيل فهو يعني دين الله وصراطه المستقيم وهو الإسلام ، بخلاف ما لم يذكر فيه السبيل وذلك كما في آية لقمان ، وكما في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ

مُّنِيرٍ ۝ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٨ ـ ٩].

فهذا مجادل في الله ليضل عن سبيله. وكما في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

بخلاف ما لم يذكر فيه السبيل نحو قوله تعالى في تحريم الجاهليين قسمًا من الأنعام: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

فلم يقل: (ليضل الناس عن سبيل الله) وذلك لأن هذه مسألة جزئية متعلقة بالذبائح والأطعمة وليست متعلقة بالدين كلاً.

وأما ذكر (بغير علم) أو عدم ذكره فلذلك سبب يقتضيه أيضًا، وذلك نحو قوله تعالى في سورة الحج: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٩] فإنه لم يقل: (بغير علم) وذلك لأنه تقدم الآية قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾ فقد نفى عنه العلم قبل هذه الآية.

ونحو ذلك ما ورد في سورة الزمر، فقد قال: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨]، ولم يقل: (بغير علم) وبقية الآية توضح سبب ذلك، فقد قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾.

فلم يقل: (بغير علم) لأنه دعا ربه منيبًا إليه واستجاب له ، فهو إذن يعلم ربه فدعاه وحده ومع ذلك جعل له أندادًا ليضل عن سبيله.

وأما ذكر (الناس) وعدم ذكرهم فله سببه أيضًا ، ذلك أن كل ما لم يذكر فيه الناس مع قوله: (ليضل) فلأنه تقدم ذكر الناس أو الإنسان ، وذلك نحو قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ .

وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾ .

وقوله: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ [يونس: ١٢].

فلا حاجة لذكر الناس.

وأما قوله: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ﴾ [الأنعام: ١٤٤] فلم يتقدم ذكر الناس بل تقدم ذكر الشيطان ، فقد تقدم الآيات قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَـٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ ﴾ [الأنعام: ١٣٧].

والشركاء هم الشياطين.

وقيل قبل آية تحريم الأنعام: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤٢].

فهذا التحريم اتباع للشيطان ، والشيطان يريد أن يضل الناس ، فلما لم يتقدم ذكر الناس وإنما تقدم ذكر الشيطان ناسب ذكر الناس لأنه عدوهم المبين.

* * *

﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ﴾

«الضمير فى (يتخذها) يحتمل أن تعود على (آيات الكتاب) المذكور

أولاً ، ويحتمل أن يعود على السبيل» (١) .

ولم يأت باللام مع المعطوف (ويتخذها) فلم يقل: (وليتخذها هزوًا) ، ذلك أن المعطوف ليس بمنزلة المعطوف عليه من حيث الغرض والتعليل ، وإنما هو يأتي بالدرجة الثانية ، فإن الغرض الأول من اشتراء لهو الحديث والأساطير هو الإضلال وصرف المستمعين عن القرآن الكريم ، أما الهزء فيأتي بالدرجة الثانية ؛ لأن الهزء إنما يمكن أن يحصل بطرائق متعددة وليس عن طريق شراء الأساطير ، فإن الغرض من شراء الأساطير إنما هو الإضلال عن سبيل الله ، فلما لم يكونا بمنزلة واحدة حذف اللام ، فإن الذكر آكد من الحذف ، فقولك: (مررت بأحمد وبمحمود) آكد من قولك: (مررت بأحمد ومحمود) ، فلما لم يكن المتعاطفان بمنزلة واحدة في الغرض حذف اللام مما هو أقل شأنًا في التعليل.

ألا ترى إلى قوله تعالى مثلاً: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [الإسراء: ١٢] كيف ذكر اللام في المعطوف والمعطوف عليه فقال: (لتبتغوا) و(لتعلموا) لأن الابتغاء من فضل الله ، ومعرفة السنين والحساب كليهما مطلوبان ، وإن معرفة السنين والحساب من ألزم الأمور لهذه الحياة فذكر اللام في المتعاطفين معًا.

* * *

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

جمع بعد الإفراد ، إذ قال أولاً: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى . . . لِيُضِلَّ . . . وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ بالإفراد ، ثم قال بعدها: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ بصيغة

---

(١) المحرر الوجيز ١١/ ٤٨٥ .

الجمع ، وذلك أنه لما قال: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كان التهديد له ولمن يضلهم ، يدلك على ذلك أنه جاء في سورة البقرة بالإفراد مع المتعاطفات فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٦].

فجاء بالإفراد فقال: ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ لأنه لم يذكر أحدًا معه.

جاء في (التحرير والتنوير): «لما كان (من يشتري لهو الحديث) صادقًا على النضر بن الحارث والذين يستمعون إلى قصصه من المشركين جيء في وعيدهم بصيغة الجميع ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾» (١).

ووصف العذاب بأنه مهين لأنه استهان بآيات الله واستهزأ بها واستكبر عنها ، والاستهزاء إهانة لمن يستهزأ به فجعل له عذابًا مهيناً.

جاء في (التفسير الكبير) في هذه الآية: «لما بين أن القرآن كتاب حكيم يشتمل على آيات حكيمة بيّن من حال الكفار أنهم يتركون ذلك ويشتغلون بغيره ، ثم إن فيه ما يبين سوء صنيعهم من وجوه:

الأول: أنَّ ترك الحكمة والاشتغال بحديث آخر قبيح.

الثاني: هو أنَّ الحديث إذا كان لهواً لا فائدة فيه كان أقبح. . .

ثم قال تعالى: (بغير علم) عائد إلى الشراء أي يشتري بغير علم ، ويتخذها هزوًا أي يتخذ السبيل هزوا» (٢).

* * *

(١) التحرير والتنوير ٢١/ ١٤٤.
(٢) التفسير الكبير ٩/ ١١٥.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾

قال: (وإذا) ولم يقل: (وإن) لأن الأمر حصل أو هو يحدث لا محالة، لأن (إذا) تستعمل لما يقع كثيرًا أو سيقع لا محالة، بخلاف (إن) فإنها تستعمل لافتراض قد يقع وقد لا يقع.

ومعنى ذلك أن التلاوة حصلت وقد ولى عنها مستكبرًا.

وقال: (تتلى) بالمضارع، ولم يقل: (تليت)؛ للدلالة على تكرار التلاوة عليه. والمفروض أن تكرار التلاوة يدعو إلى التأمل فيها. أما هذا فهو يولي عنها مستكبرًا.

وقال: (آياتنا) بإضافة الآيات إلى ضمير الله المعظم لتعظيم آياته وتشنيع فعله.

وقال: (مستكبرًا) للدلالة على أنه لم يكتف بالتولية، فقد يكون المولّي غير مستكبر، أما هذا فهو يستكبر عن آيات ربه، فوصفه بالتولي عن آيات ربه، وهو وصف قبيح، ثم وصفه بالاستكبار عنها، وهو زيادة في القبح.

وقال: ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ للدلالة على أنه يسمع وليس في أذنيه وقر، ولكن يتجاهل ما يتلى عليه.

وقد تقول: ولم قال ههنا: ﴿ كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ ولم يقل نحو ذلك في قوله: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الجاثية: ٧ ـ ٨]؟

والجواب عن ذلك: «أن آية الجاثية لما تقدم فيها قوله: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ فوصفه بسماع آيات الله لم يكن ليطابقه



ذكر الوقر في الأذن ، لأنه قد ذكر سماعه الآيات ، والوقر مانع من السماع فلم يناسب الإعلام بالسماع ذكر الوقر المانع منه . . .

ولما لم يقع ذكر سماع الآيات في آية لقمان وتقدم ذكر المشار إليه بقوله : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ وهذه زيادة مرتكب فناسبها ذكر زيادة الوقر ، مع أنه لم يرد فيها ذكر سماعه الآيات كما ورد في آية الجاثية ، فازداد ووضح التلاؤم» [(١)] .

* * *

﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

قال : (فبشره) والبشرى إنما تكون في الخير ، ولكنه قال ذلك استهزاء ، فاستهزأ به كما استهزأ بآيات الله واستكبر .

وقال : (فبشره) بضمير الإفراد ، ولم يقل : (فبشرهم) كما قال في الآية السابقة ، إذ قال فيها : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ بصيغة الجمع ، وذلك أنه في هذه الآية ذكره وحده ولم يذكر معه أحدًا ، بخلاف الآية السابقة فقد ذكر معه من يضلهم .

ووصف العذاب ههنا بأنه أليم ، ووصفه في الآية السابقة بأنه مهين ، ذلك أن كل وصف وضع بمكانه اللائق به ، فإن الإهانة غالبًا ما تكون إذا وقعت أمام الآخرين . وكلما كانت أمام جمع أكبر كان وقعها أشد على النفس ، أما إذا لم يكن ثمة أحد يشاهدها فالإهانة ليست ظاهرة ، وتكون أشد إذا كانت أمام أشخاص يعرفهم ويعرفونه .

ولما ذكر في الآية الأولى جمعًا أضلهم كان وصف العذاب بأنه مهين

---

(١) ملاك التأويل ٢/ ٧٨٩ .

أشد على النفس ؛ وذلك لأنه واقع أمام مشهد من أضل ، فكان يشهد بعضهم إهانة بعض .

أما في الآية الثانية فإنه لم يصف العذاب بأنه (مهين) ؛ لأنه ذكره بمفرده ولم يذكر معه أحدًا يشاهد تعذيبه ، فناسب وصفه بالأليم .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن في الاستهزاء جانبين :

جانب إهانة الآخرين ، وجانب إيلامهم ، فجمع له بين العذابين : المهين والمؤلم .

فقد يكون العذاب مهينًا غير مؤلم للجسد ، وقد يكون مؤلمًا غير مهين ، فجمع له بين العذابين . فكما أهان الآخرين وآلمهم باستهزائه جمع له بين الإهانة والإيلام .

وفي هذه الآية ذم للمشتري من وجوه فهو «يشتري الحديث الباطل ، والحق الصراح يأتيه مجانًا يعرض عنه . وإذا نظرت فيه فهمت حسن هذا الكلام من حيث إن المشتري يطلب المشترى مع أنه يطلبه ببذل الثمن ، ومن يأتيه الشيء لا يطلبه ولا يبذل شيئًا ، ثم إن الواجب أن يطلب العاقل الحكمة بأي شيء يجده ويشتريها ، وهم ما كانوا يطلبونها ، وإذا جاءهم مجانًا ما كانوا يسمعونها ، ثم إن فيه أيضًا مراتب :

الأولى : التولية عن الحكمة ، وهو قبيح .

والثاني : الاستكبار .

ومن يشتري حكاية رستم وبهرام ويحتاج إليها كيف يكون مستغنيًا عن الحكمة حتى يستكبر عنها . . .

الثالث : قوله تعالى : ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ شغل المتكبر الذي لا يلتفت إلى الكلام ويجعل نفسه كأنها غافلة .



الرابع: قوله: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾ أدخل في الإعراض»[(١)].

وجاء في (البحر المحيط): «وتضمنت هذه الآية ذم المشتري من وجوه: التولية عن الحكمة، ثم الاستكبار، ثم عدم الالتفات إلى سماعها كأنه غافل عنها، ثم الإيغال في الإعراض بكون أذنيه كأن فيهما صممًا يصده عن السماع»[(٢)].

* * *

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٩﴾

لما ذكر الكافرين وذكر أن لهم عذابًا مهينًا وعذابًا أليمًا ذكر بمقابل ذلك من آمن وعمل صالحًا فذكر أن لهم جنات النعيم.

وإضافة الجنات إلى النعيم أنسب إضافة، إذ هي بمقابل ما يلقاه المضل المستهزئ من عذاب مهين وعذاب أليم. ومن كان في عذاب أليم ومهين لا ينعم وإن كان في الجنات، فناسب ذلك إضافة الجنات إلى النعيم.

وتقديم الجار والمجرور (لهم) على الجنات يفيد الاختصاص، فإن جنات النعيم لا تكون إلا لمن آمن وعمل صالحًا.

ثم ذكر أنهم خالدون فيها، وأن هذا وعد منه لا يتخلف، وكيف يتخلف وهو وعد من الله العزيز الحكيم؟

والعزيز هو الذي لا يغلبه شيء فليس ثمة ما يمنعه من إنجاز وعده وتحقيق وعيده، والحكيم الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة[(٣)].

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ١١٦.

(٢) البحر المحيط ٧/ ١٨٠.

(٣) ينظر روح المعاني ٢١/ ٨١.

واختيار (العزيز الحكيم) لخاتمة الآية أنسب شيء.

فالعزيز هو الغالب الممتنع.

والحكيم يحتمل أن يكون من الحكمة أي هو ذو حكمة، ويحتمل أن يكون من الحكم أي هو حاكم.

والمعنيان مرادان معًا فهو الحاكم ذو الحكمة.

واجتماع هذين الاسمين أحسن شيء وأنسبه في هذا المكان، فإن تمام العزة أن يكون صاحبها حاكمًا وهو أعلى العزة، فإن العزة درجات والأعزة درجات، فبعضهم أعز من بعض، وأعلى العزة أن تجتمع مع الحكم، فإنه قد يكون العزيز غير حاكم، فإذا اجتمع معها الحكم كان تمام العزة.

والعزيز الحاكم إن لم يكن ذا حكمة كانت عزته وحكمه تهورًا وبطشًا وغرورًا، وكان ذلك في حقه منقصة وليس صفة كمال، فإن من ألزم صفات الكمال للعزيز الحاكم أن يكون ذا حكمة فتزداد صفاته كمالاً، فكان اجتماع هذين الوصفين أحسن اجتماع وأنسبه. وقد عَرَّف الوصفين بأل فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ولم يقل: (إنه عزيز حكيم) للدلالة على أنه المتفرد فيهما ولا يماثله في ذلك أحد. ولو قال: (عزيز حكيم) لاحتمل أن يكون هناك من يماثله ممن هو عزيز حكيم.

وقد تقول: ولم قال إذن في السورة نفسها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فلم يعرّف؟

والجواب: أن السياق مختلف، ذلك أنه في الآية الأولى قالها تعقيبًا على المستكبر الذي اتخذ آيات الله هزوًا، وبعد التهديد الذي ألحقه به وبمن يضلهم، وبعد ذكر الجزاء الذي يؤتيه أولياءه، فاقتضى تعريف العزيز الحكيم، إذ هو الذي سيفعل بكل صنف هذا الفعل لا يمنعه من

ذلك مانع ، وليس ثمة من يظن أن هناك عزيزًا حكيمًا يمنعه من ذلك .

وأما الآية الثانية فجاءت في سياق قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ فليس في السياق ذكر محارب له أو معاند ، كما لم ترد في التعقيب على نصرة أوليائه وجزائهم ، فلم يقتض ذلك ما اقتضى في الأول من التعريف ، فناسب كل تعبير موضعه .

* * *

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ ﴾

قال ههنا : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ ، وقال في مكان آخر : ﴿ رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [الرعد : ٢] ، وكل تعبير مناسبٌ لمكانه ، فإن تعبير (رفع) في الرعد أنسب من جهات :

١ ـ منها أنه قال : ﴿ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ ﴾ ، والإنزال إنما يكون من فوق أي من مكان مرتفع ، فناسب (رفع السماوات) .

٢ ـ وقال : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الرعد : ٢] ، والعرش فوق السماوات .

٣ ـ ذكر تسخير الشمس والقمر وهما من الأجرام السماوية وهي مرتفعة في السماء ، فناسب ذكر رفع السماء .

وليس في (لقمان) شيء من ذلك ، فناسب (خلق) دون (رفع) .

ثم إن قوله : (خلق السماوات) في لقمان مناسب لما ورد في الآية بعدها وهو قوله : ﴿ هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ .

* * *

﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [لقمان: ١٠].

أي كراهة أن تميد أو لئلا تميد بكم.

ومن الملاحظ أنه حين يذكر الرواسي يقول أحيانًا: ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل: ١٥]، أو ﴿ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ [الأنبياء: ٣١]، وأحيانًا لا يقول ذاك كما في [الرعد: ٣]، و[الحجر: ١٩]. و[فصلت: ١٠]، و[ق: ٧]، و[المرسلات: ٢٧]، و[النمل: ٦١].

وسبب ذلك ـ والله أعلم ـ أنه إذا أراد بيان نعمة الله على الإنسان قال: ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾، وإذا أراد بيان قدرة الله فيما صنع لا لبيان علاقة ذلك بالإنسان لم يقل ذاك.

وقال: ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ ههنا لبيان نعمة الله على الإنسان ورحمته له، وهذا أمر مرتبط بقوله: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ في أول السورة فإن عدم ميدها بهم من رحمة الله لهم.

وهو مرتبط أيضًا بقوله تعالى في الآية السابقة لها: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾، فإنه بيّن حكمة إلقاء الرواسي في الأرض، فهي مرتبطة بما قبلها من ناحيتين: من ناحية الرحمة ومن ناحية الحكمة.

وقال: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ ﴾ دون (جعل) كما في آيات أخرى[1]، وذلك لمناسبة وصفه نفسه بـ(العزيز) في الآية السابقة، فإن إلقاء الرواسي من العزة.

فقوله: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ ﴾ مناسب لاسمه (العزيز)، وقوله: ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ مناسب لاسمه (الحكيم).

واختار لفظ (الرواسي) دون الجبال مثلاً لأن المقصود بالرواسي

---

(١) انظر مثلاً الرعد ٣، الأنبياء ٣١، فصلت ١٠، النمل ٦١.

الثوابت ، وليس في لفظ الجبال ما يدل على ذلك ، ولذا لا يستعمل لفظ الرواسي حين يذكر زوالها وذهابها يوم القيامة ، لأن الرواسي من الرسو والثبات ، بل يستعمل لفظ الجبال وذلك نحو قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣] ، ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠] ، ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤] ، ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ [المرسلات: ١٠] ، وغيرها.

* * *

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾

قال: (أنزلنا) بإسناد الإنزال إلى ضمير الله سبحانه على طريق الالتفات وذلك لأهمية الماء بالنسبة للإنسان.

جاء في (التفسير الكبير): «إن إنزال الماء نعمة ظاهرة متكررة في كل زمان ، متكثرة في كل مكان ، فأسنده إلى نفسه صريحًا ليتنبه الإنسان لشكر نعمته فيزيد له من رحمته» (١).

وجاء في (التحرير والتنوير): «والالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله: (وأنزلنا) للاهتمام بهذه النعمة التي هي أكثر دورانًا عند الناس» (٢).

وكذلك أسند الإنبات إلى نفسه فقال: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ فهو المنزل وهو المنبت.

* * *

﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾

أي من كل صنف بالغ الجودة كثير الخير والمنفعة ، و(الزوج) معناه

---

(١) التفسير الكبير ٩/١١٨.

(٢) التحرير والتنوير ٢١/١٤٦.

ههنا الصنف ، قال تعالى : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً ﴾ [الواقعة: ٧] ، أي أصنافًا. وقال: ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾ [ص: ٥٨] ، أي أصناف.

وقد تقول: ولم قال ههنا: ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ فوصفه بالكرم ، وقال في (ق) والحج: ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ فوصفه بالبهجة؟.

والجواب: أنه إضافة إلى موافقة فواصل الآي في كل موضع فهناك أمر آخر حسَّن كل تعبير في مكانه.

فقد قال في (لقمان): ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ والكريم ـ كما قلنا ـ هو البالغ الجودة والنفاسة والكثير المنفعة وهو المناسب لما ذكره من حكمة لقمان التي آتاه الله إياه ، وهي بالغة الخير والنفاسة كثيرة المنفعة ، ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

أما في (ق) فالسياق سياق الزينة والجمال ، قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ . . . وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ [ق: ٦ ـ ١٠] ، فانظر كيف ناسب ذكر البهجة ذكر الزينة في السماء ، والزينة إنما تكون للبهجة. وانظر كيف قال: ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ وكل ذلك مناسب للزينة والجمال.

ونحو ذلك ما جاء في سورة الحج ، فقد قال: ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [الحج: ٥]، فقابل الهمود بالبهجة وهو المناسب.

فناسب كل تعبير موطنه.

* * *

﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾

* * *

﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾

يمكن أن يراد بالمصدر ههنا اسم المفعول ، أي مخلوقاته ، والإشارة إلى ما ذكر من خلق السماوات وغيرها.

ويمكن أن يراد به الحدث ؛ أي : هذا خلْقه ، كما تقول : (هذا صنعه) و(هذا فعله).

والإشارة تكون إلى بديع صنعه وحسن فعله ، ومن المحتمل أن يكونا مرادين معًا.

وقال : (ماذا) ولم يقل : (ما خلق الذين من دونه) للتنصيص على الاستفهام ، ولو قال : (ما) لاحتمل الموصولية والاستفهامية.

وفي الاستفهام من التعجيز والاستهزاء ما ليس في الموصول ، إذ قد يفهم من الموصولية أنهم خلقوا شيئًا فتطلب رؤيته ، فيكون المعنى : أروني الذي خلقوه ، كما تقول : انظر إلى ما صنع فلان ، وهذا ما فعل فلان ، وهذا ما رسمه ، وهذا ما كتبه ، وأرني ما كتب ، فإن كانت موصولة احتمل أنه كتب شيئًا فأراد أن يراه ، وقطعًا لهذا المعنى ولئلا يفهم أنهم خلقوا شيئًا جاء بما ينص على الاستفهام ولا يحتمل الموصول وهو (ماذا).

ومن المعلوم أن الذين من دونه لم يخلقوا شيئًا وهم يعلمون ذاك ، فهم لا يستطيعون أن يُروه شيئًا خلقه غير الله ولذا انقطعوا وسكتوا فقال هو : ﴿ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

والمشركون من الظالمين ، فهم ظالمون لأنفسهم لأنهم عبدوا ما لا يستحق العبادة ، فأذلوا أنفسهم وحقروها لأنهم عبدوا ما هو دونهم ، وهم سيدخلون أنفسهم النار فكانوا ظالمين لها .

وهم ظالمون من جهة أخرى لأنهم أعطوا ما لا يستحق شيئًا أعظم الأشياء وهو العبادة ، فالعبادة حق الله وحده وهم جعلوها لغير الله ، وهذا ظلم ، لأنك إذا صرفت الحق عن صاحبه إلى غيره كنت ظالمًا ، فهؤلاء إذن ظالمون. وهم في ضلال ظاهر مظهر لنفسه ، أي هو من الوضوح بحيث لا يخفى على عاقل .

* * *

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾

الحكمة : هي وضع الشيء في محله في القول والعمل ، وقيل : هي «عبارة عن توفيق العمل بالعلم. فكل من أوتي توفيق العمل بالعلم فقد أوتي الحكمة» [١] .

فالحكمة لها جانبان : جانب القول وجانب العمل ، ولا يكون الفرد حكيمًا حتى يحسن القول والعمل .

وقد أسند الله إيتاء الحكمة إلى نفسه (آتينا) ؛ وذلك لأن إيتاء الحكمة من الخير ، ومن الشائع في القرآن الكريم أن ربنا سبحانه يسند الإيتاء إلى نفسه في الخير ، بل يسند أفعال الخير إلى نفسه في العموم[٢] . قال تعالى : ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن : ١٠]، فأسند الخير وهو الرشد إلى نفسه فقال : ﴿ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ١١٨ .

(٢) انظر معاني النحو ٢/ ٦٩٤ وما بعدها



رَشَدًا﴾ وبنى مريد الشر للمجهول فقال: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

والواو في أول الآية «عاطفة قصة لقمان على قصة النضر بن الحارث في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ باعتبار كونها تضمنت عجيب حاله في الضلالة من عنايته بلهو الحديث ليضل عن سبيل الله ويتخذ سبيل الله هزوًا، وباعتبار كون قصة لقمان متضمنة عجيب حال لقمان في الاهتداء والحكمة، فهما حالان متضادان»[1].

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾

ذهب كثير من المفسرين إلى أنّ (أن) في الآية تفسيرية[2] فيجعلون (آتينا) متضمنًا معنى القول دون حروفه.

جاء في (التفسير الكبير): «فإنّ (أن) في مثل هذا تسمى المفسرة، فَسَّر إيتاء الله الحكمة بقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ وهو كذلك»[3].

وذهب بعضهم إلى أن قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ تفسير للحكمة لا للفعل.

جاء في (التحرير والتنوير): «و(أن) قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ تفسيرية وليست تفسيرًا لفعل (آتينا)لأنه نصب مفعوله وهو الحكمة. فتكون (أن) مفسرة للحكمة باعتبار أنّ الحكمة هنا أقوال أوحيت إليه أو إليهما فيكون في الحكمة معنى القول دون حروفه فيصلح أن تفسر بـ(أن) التفسيرية...

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/١٤٨

(٢) انظر التفسير الكبير ٩/ ١١٩، البحر المحيط ٧/ ١٨١.

(٣) التفسير الكبير ٩/ ١١٩.

وأيضًا فإن شكر الله من الحكمة» [١].

والأقرب إلى المعنى فيما يبدو لي أن يقال: إن التقدير: آتينا لقمان الحكمة وأوصيناه أن اشكر لله، فيكون المعنى أنه آتاه الحكمة وأوصاه بالشكر وأمره به.

أو بتقدير: وآتيناه أن اشكر لله.

أي آتيناه الحكمة وآتيناه أن اشكر لله، أي أوحينا إليه ذلك وألهمناه إياه، ولا يشترط ذلك أن يكون وحي نبوة بل قد يكون وحي إلهام كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]، وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٦٨]، فكما أوحى الرَّبُّ إلى أم موسى الأمر بالإرضاع، وأوحى إلى النحل الأمر بالاتخاذ، آتى لقمان وأوحى إليه الأمر بالشكر، وهذا أولى من جعل (أن) تفسيرية، وذلك لأن التفسير يجعل الحكمة هي الشكر فحسب، مع أن الشكر إنما هو من الحكمة وليس هو الحكمة كلها.

إن هذا التعبير يعني أيضًا أن من الحكمة التي أوتيها لقمان أن يشكر ربه.

فشكر الله إنما هو من الحكمة، ويعني أيضًا أن يشكر ربه على ما آتاه من الحكمة، فإن الحكمة نعمة ينبغي أن يشكر ربه عليها، كما تقول: إن من الحكمة أن تشكر ربك، وقد آتاك الله الحكمة فاشكره على ما آتاك.

فهذا التعبير يفيد عدة معان في آن واحد:

آتينا لقمان الحكمة، وآتيناه أن اشكر لله، أو: وأوصيناه به، ومن الحكمة أن تشكر ربك، واشكر ربك على ما آتاك من الحكمة.

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/١٥١ ـ ١٥٢.

وقد تقول: لِمَ لَمْ يقل: ولقد آتينا لقمان الحكمة فاشكر لله؟

فنقول: لو قال ذاك لم يفد هذه المعاني وما أفاد إلا معنى واحدًا وهو أن تكون الحكمة سببًا للشكر.

ولكان فيه ضعف في الدلالة، ذلك أن المعنى سيكون أن الذي أوتي الحكمة لقمان، والمأمور بالشكر غيره. فيكون المعنى: لقد آتينا لقمان الحكمة فاشكر أنت أيها المخاطب لله، فيكون قد طلب منه الشكر للإنعام على غيره لا عليه.

وقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ ولم يقل: (أن اشكر لنا) فالتفت ليدل على أن مؤتي الحكمة هو الله.

ومن المطرد في التعبير القرآني أنه ما عبر عن نفسه بضمير الجمع إلا ذكر بعده أو قبله ما يدل على الإفراد ليدل على أنه واحد لا شريك له، وذلك أمر مطرد في جميع القرآن لم يتخلف عنه موطن واحد وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ١ ـ ٢]، فذكر بعد ضمير الجمع في: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ﴾ الرب بصورة الإفراد فقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾. وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾، ثم قال بعد ذلك: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ فذكر الرب بعد ضمير الجمع.

* * *

﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾

جاء بفعل الشرط (يشكر) مضارعًا للدلالة على أن الشكر يتكرر، وذلك لأن كل نعمة تمر بك تشكر الله عليها وهو ينبغي أن يتكرر، وجاء بفعل الشرط في قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ ماضيًا، لأن الكفر لا يتكرر تكرر الشكر، بل قد يحصل ابتداء ويبقى صاحبه عليه إلا إذا شاء الله.

ومن الظاهر في استعمال الشرط في القرآن الكريم أنه يؤتى بفعل الشرط مضارعًا فيما يتكرر حدوثه ، ويؤتى به ماضيًا فيما لا يتكرر حدوثه ، وهذا الأمر جاء كثيرًا في القرآن الكريم[1] .

جاء في (التفسير الكبير) في هذه الآية: «قال في الشكر: ﴿وَمَن يَشْكُرْ﴾ بصيغة المستقبل، وفي الكفران: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ وإن كان الشرط يجعل الماضي والمستقبل في معنى واحد كقول القائل: من دخل داري فهو حر ، ومن يدخل داري فهو حر ، فنقول فيه إشارة إلى معنى وإرشاد إلى أمر ، وهو أنَّ الشكر ينبغي أن يتكرر في كل وقت لتكرر النعمة ، فمن شكر ينبغي أن يكرر ، والكفر ينبغي أن ينقطع ، فمن كفر ينبغي أن يترك الكفران»[2] .

ومن الملاحظ أنه قدم الشكر على الكفر في هذه الآية ، في حين قدم الكفر على العمل الصالح في آية أخرى ، قال تعالى في سورة الروم: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

وبالنظر في الآيتين نجد أكثر من اختلاف في التعبير:

١ ـ فقد قدم في آية الروم الكفر وأخر العمل الصالح ، وقدم في آية لقمان الشكر وأخر الكفر كما أشرت.

٢ ـ ذكر في الروم عاقبة كل من الفريقين فقال: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ ، في حين قال في لقمان: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ ، فذكر عاقبة الشكر ولم يذكر عاقبة الكفران.

---

(١) انظر معاني النحو ٤/ ٤٣٦ وما بعدها.

(٢) التفسير الكبير ٩/ ١١٩.



٣ ـ ذكر في الروم فعلي الشرط بالماضي فقال: ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ .

في حين ذكر في لقمان فعل الشكر بالمضارع وفعل الكفر بالماضي .

٤ ـ ذكر في لقمان مقابل (من كفر): (من يشكر) ، وذكر في الروم مقابل (من كفر): (من عمل صالحًا) .

ولكل ذلك سبب اقتضاه .

أما تقديم الكفر في الروم على العمل الصالح فذلك لأن السياق هو في ذكر الكافرين ومآلهم ، فقد قال قبل هذه الآية: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤١ ـ ٤٤] .

فالسياق في ذكر الكافرين فقدمهم .

وأما آية لقمان فوقعت في سياق الأمر بالشكر ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ﴾ ، فناسب تقديم الشكر .

جاء في (التفسير الكبير): «قال تعالى هنا: ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ﴾ ، بتقديم الشكر على الكفران . وقال في سورة الروم: ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ .

فنقول: هناك كان الذكر للترهيب لقوله تعالى من قبل: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ . وههنا الذكر للترغيب ؛ لأن وعظ الأب للابن يكون بطريق اللطف والوعد»[1] .

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ١١٩ .

وأما ذكر عاقبة الكفر في الروم فلما تقدم من ذكر عاقبة من كفر في الدنيا وعاقبة ذلك في الآخرة ، فقد قال فيمن أظهر الفساد في البر والبحر : ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ ، وقال : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ، فوجهنا للنظر في عاقبة الكافرين .

ثم هدد بما سينالهم في الآخرة ، ولذا ناسب ذكر عاقبة من كفر فقال : ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ﴾ ولم يذكر شيئًا من ذلك في لقمان فاكتفى بقوله : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

وبالنسبة إلى اختلاف فعلي الشرط في المضارع والمضي فإن آية لقمان فيمن هو في الدنيا ، فذكر فعل الشرط بالمضارع لأن الشكر يتكرر ، وذكر الكفر بالماضي لأنه لا يتكرر تكرر الشكر كما أسلفنا .

وأما آية الروم فهي في الآخرة ، قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا . . . ﴾ [الروم: ٤٣ ـ ٤٤] ، فذكر الكفر والعمل الصالح بالماضي ؛ لأنه ليس عمل ثَمّ ، وإنما هو جزاء على ما قدم من عمل .

وأما ذكر الكفر بمقابل الشكر في لقمان فلأنه ذكر الشاكرين أولاً فقال : ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

وأما في سورة الروم فقد ذكر الكافرين والمشركين فناسب ذكر من آمن وعمل صالحاً فقال : ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الروم: ٤٤ ـ ٤٥] ، فناسب كل تعبير موطنه .

وقال : ﴿ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ فجاء بـ (إنما) للدلالة على أن الشكر لا ينفع إلا صاحبه حصرًا ولا يفيد الله سبحانه ، فإن الشكر ينفع صاحبه



في الدنيا والآخرة. وقد قضى ربنا بأن يزيد الشاكر من نعمه، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ لا ينفعه شكر ولا يضره كفر، فهو الغني المحمود في غناه.

والحميد هو الذي يستحق الحمد على الدوام.

والجمع بين الغني وكونه محمودًا أحسن جمع وألطفه، فقد يكون الشخص غنيًّا غير محمود، أو محمودًا غير غني، فربنا غني محمود على الدوام.

وقد تقول: لقد جاء في سورة إبراهيم. ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٨]، فأكد الجملة بإن واللام، فقال: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ ﴾، في حين أكدها في آية لقمان بـ (إن) وحدها فقال: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ فما الفرق؟.

والجواب: أن كل تعبير مناسب لما ورد فيه، فقد قال في لقمان: ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾، فقد قسم العباد إلى من يشكر ومن كفر.

أما في سورة إبراهيم فافترض كفر أهل الأرض جميعًا فقال: ﴿ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾، فالاختلاف في التعبير من ثلاث نواح:

١ ـ أنه في آية لقمان جرى على التبعيض، وجرى في سورة إبراهيم على الشمول.

٢ ـ أنه قال في لقمان: ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ فجعل فعل الشرط ماضيًا، وقال في سورة إبراهيم: ﴿ إِن تَكْفُرُوٓاْ ﴾ بالمضارع للدلالة على تكرر الكفر

وتجدده ، أي إن تستمروا على الكفر وتداوموا عليه .

٣ ـ وأكد ذلك بالحال المؤكدة فقال : (جميعًا) .

فاقتضى ذلك زيادة التأكيد في آية إبراهيم .

وقد تقول : لقد قال في آية أخرى في سورة لقمان : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [لقمان: ٢٦] ، فعرف الوصفين وجاء بضمير الفصل ، في حين قال في هذه الآية : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ من دون تعريف ولا فصل . فما الفرق؟

والجواب واضح في سياق كل منهما .

فقد قال في آية لقمان الأولى : ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ ، فلم يذكر سبحانه له ملكًا .

والمعنى : فإن الله غني عن شكره . وهو كما يقول الشخص ولله المثل الأعلى : أنا غني عنك وغني عن مدحك وثنائك ، ولا يعني أنه ذو مال أو ثروة ، ونحوه ما قال الخليل :

أبلغ سليمان أني عنه في جدة وفي غنى غير أني لست ذا مال

أما في الآية الثانية فقد قال : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ فقد ذكر ملكه وهو ما في السماوات والأرض .

ومن المعلوم أن الغني فيما تعارف عليه الناس من يملك الأموال . ثم إن الأغنياء يتفاوتون ، فمن يملك ثروة أكبر كان أغنى . وقد ذكر ربنا أن له ما في السماوات والأرض فلا ملك أكبر ولا أوسع من ملكه ، فعرّف وجاء بضمير الفصل للدلالة على أنه هو الغني دون سواه .

ومن المعلوم أن قولك : (فلان هو الغني) أدلّ على الغنى من قولك : (فلان غني) ؛ لأن قولك : (فلان غني) يعني أنه أحد الأغنياء ، وأن هناك



أغنياء آخرين. أما قولك: (فلان هو الغني) فيدل على أنه لا غني في الحقيقة سواه. ولا شك أن من له ما في السماوات والأرض هو الغني الذي لا غنيَّ سواه.

* * *

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾

الواو عطفت هذه العبارة على قوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ ﴾ ، أي آتيناه الحكمة في شكره لله وفي وعظه لابنه ، فإن وعظ الأبناء من الحكمة.

وفي هذا توجيه للآباء أن يتعاهدوا أبناءهم بالموعظة والإرشاد ، وأن لا يتركوهم للشوارع والطرقات ومعلمي السوء والجهال يأخذون عنهم ما سقط من القول والفعل ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم.

جاء في (التفسير الكبير) أن قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ . . . ﴾ «عطف على معنى ما سبق ، وتقديره: آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكرًا في نفسه ، وحين جعلناه واعظاً لغيره. وهذا لأن علو مرتبة الإنسان بأن يكون كاملاً في نفسه ومكملاً لغيره ، فقوله: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ ﴾ إشارة إلى الكمال ، وقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ ﴾ إشارة إلى التكميل»[(١)] .

وجاء في (التحرير والتنوير) أن قوله سبحانه هذا «عطف على جملة ﴿ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ لأن الواو نائبة مناب الفعل ، فمضمون هذه الجملة يفسر بعض الحكمة التي أوتيها لقمان. والتقدير: وآتيناه الحكمة إذ قال لابنه ، فهو في وقت قوله ذلك لابنه قد أوتي حكمة فكان ذلك القول من

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ١١٩ .

الحكمة لا محالة ، وكل حالة تصدر عنه فيها حكمة هو فيها قد أوتي حكمة.

و(إذ) ظرف متعلق بالفعل المقدر الذي دلت عليه واو العطف ، أي والتقدير: وأتيناه الحكمة إذ قال لابنه . . .

ويجوز أن يكون (إذ قال) ظرفًا متعلقًا بفعل (اذكر) محذوفًا» [1] .

لقد جاءت موعظة لقمان بعد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ وكان من الممكن أن يبدأ بالموعظة من دون هذا التصدير ، فيقول بعد قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ : ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ. . .﴾

ولكن هذا التصدير له أكثر من غرض:

من ذلك أنه يتبين منه أن الحكمة يتعلق جانب منها بإصلاح النفس وجانب بإصلاح الآخرين ، وأن أولى موجبات الحكمة أن يُعَلِّم الأب أبناءه ويوجههم ويرشدهم ، هذا إضافة إلى ما قاله لقمان من الحكمة.

ثم إن الحكمة ـ كما أسلفنا ـ إحسان القول والعمل ، أو وضع الشيء في محله في القول والعمل ، فلما قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ دَلَّ ذلك أن لقمان أوتي الحكمة في قوله وعمله ، وأنه كان يطبق ما يقول على نفسه ، إذ ليس من الحكمة أن تناقض أقوال الشخص أفعاله وإلا كان قوله ساقطاً ولو نطق بأعلى الحكمة. وفيه توجيه للدعاة والواعظين أن يبدؤوا بأنفسهم قبل وعظ الآخرين.

* * *

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/ ١٥٣ ـ ١٥٤.



﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾

الواو في قوله: ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ تحتمل أن تكون للحال، أي: قال لقمان لابنه واعظاً له، وتحتمل أن تكون للاستئناف، أي وهذا شأنه، أي من شأن لقمان أن يعظ ابنه.

فقوله: ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ يفيد أنه قال ذلك واعظاً لابنه، وأن من شأن لقمان أن يعظ ابنه فلا يترك توجيهه. ولو قال: (وإذ قال لقمان لابنه واعظًا) لم يفد إلا معنى واحدًا.

* * *

﴿يَٰبُنَيَّ﴾

بدأ وعظه بمناداة ابنه مناداة تحبيب ورفق وتلطف ولين (يا بنيّ) بالتصغير والإضافة إلى النفس ليعطف قلبه، وليزيل كل حجاب مانع من قبول التوجيه بينه وبينه. واللين في القول يفتح القلوب المقفلة والأبواب الموصدة ويلين النفوس العصيّة وهو أدعى إلى الاستجابة والقبول.

وهو توجيه للآباء والواعظين أن يرفقوا في القول وأن يمزجوا كلماتهم بالرحمة والحنان، فتؤثر الرحمة ولين القول ما لا يؤثر القول نفسه. وقد أمر ربنا موسى وأخاه عليهما السلام أن يقولا لفرعون قولاً لينًا فقال: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣ ـ ٤٤].

جاء في (التحرير والتنوير) في قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾: «والتصغير فيه لتنزيل المخاطب الكبير منزلة الصغير كناية عن الشفقة به والتحبب له، وهو في مقام الموعظة والنصيحة إيماء وكناية عن إمحاض النصح وحب الخير، ففيه حث على الامتثال للموعظة»[1].

* * *

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/ ١٥٥.

﴿ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ﴾

بدأ النصح بالنهي عن الشرك لأنه رأس الإيمان ورأس الدين ، ولأن أول ما ينبغي أن يغرس في النفوس هو التوحيد لأنه أساس صلاحها ونجاتها .

ومن الملاحظ أنه نهاه عن الشرك قبل أن يأمره بالعبادة وذلك لأكثر من سبب :

منها : أن عدم الشرك مقدم على العبادة ، فلا تنفع عبادة مع الشرك ، فبدأ بما هو أهم .

ولأن النهي عن الشرك يعم الصغير والكبير ، أما العبادة فيكون التكليف بها بعد البلوغ ، فبدأ بما هو أعم .

ثم إن الانتهاء عن الشرك أيسر من القيام بالعبادات والطاعات ، ولذا نجد كثيرًا من الناس موحدين ، غير أنهم لا يأتون بالعبادات من صلاة وصيام وغيرهما .

فبدأ بما هو أهم وأعم وأيسر ، حتى إذا قام بغرس العقيدة وتصحيحها أمره بعد ذلك بالعبادات .

* * *

﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

كون الشرك ظلمًا لأنه يسوي بين القادر والعاجز ، والعالم والجاهل ، والخالق والمخلوق ، والمنعم المتفضل والمحتاج إلى النعمة . وهذا ظلم عظيم ، فإنك في الحياة لو سويت بين هؤلاء كنت ظالمًا ظلمًا عظيمًا ، فإنه لو تقدم مثلاً جماعة الى طلب عمل فأجرى لهم

اختبار فكان منهم من يحسن كل جزئيات ذلك العمل بأدق تفاصيله على أكمل وجه وأحسنه، يخبر عن ذلك بأبلغ الكلام وأحسنه، ومنهم من لا يحسن شيئًا، ولا يعلم شيئًا، في عِيّ وقصور فهم وإدراك ولا يحسن النطق أيضًا، وكنت سويت بينهم كنت ولا شك ظالمًا ظلمًا عظيمًا.

فإن الشرك بالله أعظم بكثير من هذا الظلم، فإن التفاوت بين الخالق والمخلوق لا يصح فيه قياس.

جاء في (روح المعاني): «وكون الشرك ظلمًا لما فيه من وضع الشيء في غير موضعه، وكونه عظيمًا لما فيه من التسوية بين من لا نعمة إلا منه سبحانه ومن لا نعمة له» [١].

ثم إن الشرك كما سبق أن ذكرنا ظلم للنفس من جهة أن المشرك يعبد من هو أقل منه شأنًا، أو من لا يستحق العبادة البتة، فيكون ظالمًا لنفسه حاطًّا من قدرها وقد كرّمه الله سبحانه.

ثم إنه ظلم للنفس من ناحية أخرى، ذلك أنه يوردها موارد الهلكة، فإن الشرك يورد صاحبه النار خالدًا مخلدًا فيها.

ولذا وصف هذا الظلم بأنه عظيم، وأكد ذلك بإنّ واللام فقال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾.

ثم إن اختيار وصف الشرك بالظلم اختيار له دلالته من ناحية أخرى، ذلك أن فطرة الإنسان تكره الظلم والظالمين، وحتى لو كان الشخص ظالمًا فإنه يسيغه لنفسه ولا يسيغه من غيره، ولذا تجد عموم الناس يكرهون الظالم وينتصرون نفسيًّا للمظلوم حتى في التمثيل، فوصف الشرك بما تكرهه النفوس ولا تنحاز إلى صاحبه لينأى عنه ويتركه.

---

(١) روح المعاني ٢١/ ٨٥.



ولعل من المفيد أن نذكر أيضًا أن قوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ﴾ فيه تعليل للنهي عن الشرك، وهو إشارة إلى أن الناصح والموجه ينبغي أن يعلل كلامه ويذكر السبب الموجب، وألا يذكر الأمور من دون تعليل، وذلك ليقتنع السامع ويسلّم له عقله ونفسه، والله أعلم.

* * *

﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾

هذا الكلام كلام رب العالمين وضعه بين كلام لقمان؛ وذلك لأنه أراد أن يأمر هو بوصية الوالدين ومصاحبتهما بالمعروف، لا أن يقول الأب ذلك، وذلك لعظم منزلة الأبوين عند الله، فالذي وصى بالوالدين هو الله.

ولئلا يذهب ذهن الابن إلى أن الأب إنما يأمره بطاعته وحسن صحبته لأنه يريد أن يستفيد منه وأن يجعله تابعًا له، فالله هو الذي أوصى ولا مصلحة له في هذا.

وقد تقول: ولمَ لم يدعْ لقمان يتم كلامه ثم يذكر الله وصيته بالوالدين بعد ذلك؟

والجواب: أنه وضع الوصية بالوالدين بعد الشرك بالله وذلك لعظيم منزلتهما عند الله، فهو لا يريد أن يضعهما في آخر الوصايا بعد قوله: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ﴾ فإن منزلتهما تأتي بعد توحيد الله والأمر بعبادته. وهذا شأن القرآن في الوصية بالوالدين، فإنه يجعل ذلك بعد الشرك بالله والأمر بعبادته، قال تعالى: ﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ

بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [النساء: ٣٦] ، وقال: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ﴾ [الإسراء: ٢٣].

* * *

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾

من الملاحظ في هذه الآية:

١ ـ أنه استعمل الفعل (وصّى) بتشديد الصاد لا (أوصى)، وذلك للتشديد على الوصية والمبالغة فيها. ومن الملاحظ أن القرآن يستعمل الفعل (وصّى) في أمور الدين والأمور المعنوية، وأما (أوصى) فيستعمله للأمور المادية، قال تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟﴾ [النساء: ١٣١].

في حين قال: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾ [النساء: ١١]، وهي في المواريث.

وقال: ﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ﴾ [النساء: ١١]، وهي في الأمور المادية.

ولم يرد (أوصى) في القرآن الكريم للأمور المعنوية إلا في موطن واحد اقترن فيه بأمر مادي وهو قوله تعالى على لسان السيد المسيح: ﴿ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١]، فإنه قال: (أوصاني) لما اقترنت الصلاة بالزكاة، والزكاة أمر مادي يتعلق بالأموال[١].

ولعل ذلك يعود أيضًا إلى أن المسيح عليه السلام كان لا يزال في

---

(١) انظر التعبير القرآني ١٩.

المهد غير مكلف عمليًّا بعبادة فاستعمل أخف الفعلين ، والله أعلم.

٢ ـ ثم إنه أسند التوصية إلى الله سبحانه فقال: (ووصينا) ، والله إنما يسند الأفعال إلى نفسه في أمور الخير وفي الأفعال المهمة ، فإسناد ذلك إلى الله يدل على عظم شأن هذه التوصية ، وقد أسند هذا الفعل إلى ضمير الجمع للتعظيم ثم أفرد بعد ذلك فقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ ، ولم يقل: (أن اشكر لنا . . . وإلينا) وقد ذكرنا أن هذه طريقة التعبير في القرآن ، فإنه يفرد قبل أو بعد ضمير الجمع المعظم للدلالة على أنه واحد لا شريك له.

وقد يكون ههنا مع ذلك أمر آخر وهو أن هذه الوصية أمر الله بها سبحانه ، ونزل بها الملك ، وبلغها الرسل ، فجاء الفعل بضمير الجمع لذلك أيضًا ، والله أعلم.

٣ ـ وقال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ ولم يقل بـ (أبويه) لأكثر من سبب ، فإن كلمة (الوالدين) تثنية الوالد والوالدة وغلبت فيها لفظ الوالد ولذا ثنيت بالتذكير. وإن كلمة (الأبوين) تثنية الأب والأم وغلب فيها لفظ الأب ولذا قيل الأبوين ، ومع أن الكلمتين فيهما تغليب للمذكر إلا أن لفظ (الوالدين) مأخوذ من الولادة ، والولادة في الحقيقة تقوم بها المرأة إلا أنه غلب فيها لفظ الوالد في التثنية.

وههنا أكثر من مناسبة تدعو إلى اختيار لفظ الوالدين على الأبوين ، منها: أنه ذكر الحمل والفصال وهو الفطام من الرضاع فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ ، وقال: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ﴾ وبين الحمل والإرضاع الولادة.

وفيه تذكير الإنسان بولادته ومجيئه إلى الدنيا عاجزًا ضعيفًا، وقد رباه والداه وحمياه وأحسنا إليه، مما يدعو إلى رد الجميل والاحسان إليهما.



وفيه إلماح إلى إحسان الصحبة إلى الأم أكثر من الأب لما ذكر من لفظ الوالدين وذكر حمل الأم والإرضاع.

ولذا كان في القرآن خط عام لا يتخلف وهو أنه حين يذكر الإحسان إلى الأب والأم والبرّ بهما يذكر ذلك بلفظ (الوالدين) ولا يذكره بلفظ الأبوين تذكيرًا للإنسان بأمر الولادة، فلم يقل مرة واحدة: (وبالأبوين إحسانًا) بل إن كل مواطن الأمر بالمصاحبة بالمعروف والإحسان إليهما والبر بهما والدعاء لهما يأتي بلفظ الوالدين. وفيه إلماح إلى أن الأم لها النصيب الأوفى في ذلك.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣].

وقال: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [النساء: ٣٦].

وقال: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقال: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ ﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقال: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤].

وقال: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤].

وقال: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ﴾ [العنكبوت: ٨].

وقال: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

وقال: ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤].

وقال: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ [إبراهيم: ٤١].

وقال: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ [نوح: ٢٨].

وغير ذلك وغيره.

قد يأتي لفظ (الأبوين) في المواريث ونحوها مما لم يكن فيه ما ذكرنا من الأمر بالإحسان ونحوه، ولعل ذلك لأن نصيب الأب أكثر من نصيب الأم في الميراث.

وقد يأتي لفظ الأبوين لمثنى الجدّ كما قال تعالى: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [يوسف: ٦].

وقد يأتي لفظ الأبوين لآدم وحواء، إذ هما أبوا البشر، قال تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧].

قد تظن أن ذلك تخلّف في قصة يوسف وذلك في قوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ [يوسف: ٩٩]، وقوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠]، فإنه استعمل لفظ الأبوين في موطن الإكرام والإحسان ولم يستعمل لفظ الوالدين.

والحق أنه لم يتخلف، بل إن استعمال لفظ (الأبوين) في قصة يوسف هو المناسب وهو أيضًا يتفق مع الخط القرآني.

ذلك أنه جاء بلفظ (الأبوين) لأنه في هذه القصة لم يرد ذكر لأم يوسف ولا وصف لحالتها، بل كلها تدور حول الأب وأبنائه ويوسف عليهما السلام، فالأب هو المحزون الكظيم، وهو الذي فقد بصره حزنًا وأسفًا كما قال تعالى: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤]، وهو الدائم الذكر له حتى خشي عليه الهلاك كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥]، فكان من المناسب تغليب الأب ههنا لا تغليب الوالد.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن قوله : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ فيه إلماح إلى إكرام الأم ، ذلك أن السجود للشخص إعظام له فاختار لفظ الأب على الوالد ، فإن الابن هو الذي يعظم أبويه في العادة ، وهنا عظم الأبوان ولدهما بالسجود له وهو خلاف المألوف والمعتاد ، فغلب لفظ الأب الذي هو دون الأم في حق حسن الصحبة .

ولعله إلماح إلى شيء آخر وهو أن العرش إنما ينبغي للرجال لا للنساء فغلب ذكر الأب ، والله أعلم .

وربما يحسن الاستطراد هنا قليلاً ، فقد تقول : ألم يدرك الحزن أم يوسف فلم لم يرد لها ذكر؟

والجواب : ـ والله أعلم ـ أن يعقوب هو أبوهم كلهم ، أما أم يوسف فليست أمهم ، وإنما هي أم يوسف وأخيه ، فلا تستطيع أن تؤنبهم وتذكر ذلك لهم على الدوام لما في ذلك من الحساسية ، فربما أسمعوها ما لا ترضى من القول ولا يكون كلامها بتلك المنزلة عندهم . وهذا من حسن تقديرها لما هي فيه ، ولذا لم يرد لها ذكر في القصة ، والله أعلم .

٤ ـ ذكر الأم في هذه التوصية ولم يذكر الأب فقال : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾ وهو إشارة إلى أنها أولى بحسن الصحبة .

٥ ـ قال : ﴿ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ فذكر الضعف المستمر المتزايد ، ولم يقل : (وهنًا) فقط ليدل على أن الوهن ليس على وتيرة واحدة ، بل هو يثقل عليها دائمًا ويوهنها باستمرار .

٦ ـ ذكر مدة الفصال فقال : ﴿ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾ ولم يذكر مدة الحمل ، ذلك أن الفصال بيد المرأة وهو توجيه إلى تمام مدة الإرضاع . أما الحمل فليس بيد المرأة . ثم إن مدة الحمل قد تتفاوت كما هو معلوم ، فقد تكون ستة أشهر أو سبعة أشهر أو تزيد على ذلك .

٧ ـ وصاه بالشكر للمنعم الأول وهو الخالق الذي أوجده من العدم ، وهيأ له أسباب الوجود ، وهيأ له من يحمله ويرضعه ويتعاهده وهو ضعيف عاجز .

ثم وصاه بالشكر لوالديه لما علم من أمرهما .

ثم أشار إلى أن الحياة لا تنتهي في الدنيا وإنما المصير إلى الله سبحانه ، وهو إشارة إلى الحياة الآخرة .

وقد قدم الخبر الجار والمجرور على المبتدأ فقال: ﴿ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ للدلالة على الحصر ، فإن المصير إليه حصرًا لا إلى غيره. وفي هذا إبطال لعقيدة الشرك فإن المصير إليه وحده لا إلى غيره .

* * *

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

أي وإن بذلا جهدهما لحملك على أن تشرك بالله فلا تطعهما .

وقال: (بي) بضمير الإفراد ، ولم يقل: (بنا) ؛ لأن الموطن موطن توحيد ونفي الشرك .

وفي مثل هذا الموطن لا يستعمل إلا ضمير الإفراد .

وقوله: ﴿ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ أبطل الشرك من جميع نواحيه ، ذلك أن الأشياء على قسمين: إما أن يكون له بها علم أو لا يكون له بها علم ، فالذي يعلم أنه لا يصلح أن يكون شريكًا له هو قد علم به ، وعلم أنه لا يكون لله شريكًا .

وأما الذي ليس له به علم فقد نهى عن اتخاذه شريكًا لله ، وبذا يكون

قد نهى عما له به علم ، وعما ليس له به علم .

﴿ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

* * *

﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾

المصاحبة بالمعروف إنما هي في الدنيا ، أي في الحياة الدنيا ، وقيل : إن المصاحبة بالمعروف إنما هي في أمور الدنيا لا في أمور الدين .

جاء في (روح المعاني) : «﴿ فِي الدُّنْيَا ﴾ . . . قيل : للإشارة إلى أن الرفق بهما في الأمور الدنيوية دون الدينية» (١) .

وقال : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ ولم يقل : بمعروف أو بالمعروف ، كما قال في الأزواج مثلاً : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [البقرة : ٢٣١] ، ذلك أنه أراد أن تكون المصاحبة هي المعروف بعينه وليست مصاحبة للمعروف أو بمعيته . وفي هذا من المبالغة في التوصية بهما ما فيه ، فإن المرء قد يزجر زوجته أو ينهرها أو يضربها أو يعضلها مما لا يصح بحال من الأحوال أن يكون مع الوالدين ، فقال فيهما : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ أي مصاحبة هي المعروف بعينه .

وقد تقول : لم يرد هذا الأمر فيما يبدو شبيهًا بهذا الموطن وهو قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٨] .

وقوله : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ [الأحقاف : ١٥] .

---

(١) روح المعاني ٢١/ ٨٧ .

فلم يرد في هاتين الآيتين قوله: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ فما السبب؟

فنقول: لقد ورد ذلك بتعبير آخر لم يرد في آية لقمان، فقد قال في آية العنكبوت: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾، وقال في الأحقاف: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، ولم يرد مثل ذلك في لقمان، فذكر في كل موطن ما لم يذكره في الآخر، فذكر المصاحبة بالمعروف في لقمان، وذكر التوصية بالحسن والإحسان في آيتي العنكبوت والأحقاف.

وكل تعبير هو المناسب فيما ورد فيه.

فقوله: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أنسب في آية لقمان؛ ذلك لأن السياق في قصة لقمان في المصاحبة والمعاشرة ومعاملات الناس، فقد بدأت الوصية بمصاحبة الأب لابنه وحسن معاشرته وتوجيهه، ثم في أصول معاشرة الناس ومصاحبتهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعدم التكبر عليهم والفخر عليهم والاختيال مما يبغضه الناس من الصفات والأفعال.

لقد شملت هذه الوصية حسن المصاحبة والمعاملة في عموم المجتمع: مصاحبة الأب لابنه، ومصاحبة الابن لوالديه، ومصاحبته للآخرين ممن يعيش معهم.

ولم يرد مثل ذلك في سياق آيتي العنكبوت والأحقاف، فكان الأمر بمصاحبة الوالدين بالمعروف هنا أنسب.

وذكرُ الحسن والإحسان في آيتي العنكبوت والأحقاف أنسب، بل إن ذكر كل لفظة في مكانها أنسب، فذكر الحُسْن في آية العنكبوت أنسب، وذكر الإحسان فى آية الأحقاف أنسب.

ذلك أنه ذكر في آية لقمان افتراض أن أبويه يجاهدانه على أن يشرك بالله فلم يذكر الإحسان أو الحسن.

وقد تقول: لقد قال في العنكبوت ذلك أيضًا، فإنه قال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ﴾ [العنكبوت: ٨]، فما الفرق؟

والجواب: أن المجاهدة في قوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى﴾ أشد منها في قوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى﴾، فإن في قولنا: (جاهده على أن يفعل) معنى الحمل على الشيء وشدة المجاهدة، وهي أقوى من قولنا: (جاهده ليفعل).

ونحوه أن تقول: (أنفقت عليه لينجح) و(أنفقت عليه على أن ينجح) فإن الجملة الأولى تفيد أنه أنفق عليه لغرض النجاح، أما الثانية فإنها تفيد أنه أنفق عليه باشتراط النجاح، فإن النجاح شرط للإنفاق.

ونحوه أن تقول: (زوجتك ابنتي لتعينني) و(زوجتك ابنتي على أن تعينني)، فإن الجملة الأولى تفيد أنه زوجه ابنته لغرض إعانته وليس ذلك اشتراطاً عليه. أما الجملة الثانية فإنها تفيد أنه زوّج ابنته بشرط أن يعينه. ونحوه قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ﴾ [القصص: ٢٧].

جاء في (التحرير والتنوير): «قال هنا: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى﴾ وقال في سورة العنكبوت: ﴿لِتُشْرِكَ بِى﴾ فأما حرف (على) فهو أدلّ على تمكن المجاهدة، أي مجاهدة قوية للإشراك، والمجاهدة شدة السعي والإلحاح»[1].

فذكر الحسن في آية العنكبوت ولم يذكره في لقمان وإنما ذكر ما هو أنسب.

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/ ١٦٠.

وقد تقول: ولم قال في آية الأحقاف: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾؟ فما الفرق بين آيتي العنكبوت والأحقاف حتى ذكر الحسن في إحداهما، والإحسان في الأخرى؟

والجواب: أَن الأمر ظاهر في سبب الاختلاف بينهما، فإن (الإحسان) أمكن في الإكرام من (الحسن) ذلك أن الإحسان مصدر (أحسن).

تقول: أحسن إليه إحسانًا، والحُسْن مصدر (حسُنَ الشيء) أي حسن في نفسه. فالإحسان يتعدى خيره إلى الآخرين، تقول: (أحسنت إليه) يعني فعلت له خيرًا.

أما (الحُسن) فلا يتعدى خيره إلى الآخرين بل هو حسن في نفسه، فتقول: (عاملته حُسْنًا) أي معاملة حسنة من كلام جميل ولقاء حسن.

أما الإحسان فأن تفعل له خيرًا، فالإحسان أمكن من الحُسْن في فعل الخير ونفع الآخرين، فما في الأحقاف أكثر إكرامًا وأكبر نفعًا للوالدين، وذلك لأكثر من سبب:

١ ـ منها أنه قال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ فذكر الحمل والوضع وكلاهما كره. فقد يحمل الإنسان شيئًا كرهًا ويضعه هينًا بيسر، أما ههنا فكان الحمل كرهًا والوضع كرهًا. ولا تخفى آلام الوضع عند الولادة.

أما في آية لقمان فإنه ذكر الحمل وقال: إنه وهن على وهن، ولم يذكر الوضع ومشقته، فما في الأحقاف أشد، فإنه ذكر كره الحمل وكره الوضع.

وأما في العنكبوت فلم يشر إلى ذلك.



٢ ـ الوالدان في الأحقاف مؤمنان ، بدليل قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ ﴾ [الأحقاف : ١٥] .

والآية وقعت في سياق الأبوين المؤمنين ، فقد قال بعد هذه الآية : ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ [الأحقاف : ١٧] ، فالأبوان هنا مؤمنان يعدانه بالبعث ويدعوانه إلى الإيمان ، بخلاف آيتي لقمان والعنكبوت من مجاهدتهما له على الشرك .

ولذا لم يذكر في آية الأحقاف : ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى ﴾ .

جاء في (ملاك التأويل): أنه لم يرد في سورة الأحقاف : (وإن جاهداك لتشرك بي) أو ﴿ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى ﴾ «لأن آية الأحقاف فيمن كان مؤمنًا ، ألا ترى قوله : ﴿ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ إلى ما بعد هذا ، ولا مدخل هنا للشرك» (١) .

فناسب ذكر الإحسان في آية الأحقاف وليس مجرد الحسن .

ثم إن ذكر الحسن والإحسان في آيتي العنكبوت والأحقاف أنسب من جهة أخرى ، ذلك أنهما ذُكرا في سياق الحسن من الأعمال ، فقد قال قبل آية العنكبوت : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٧ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ [العنكبوت : ٧ ـ ٨] .

وقال بعد آية الأحقاف : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الأحقاف : ١٦] ، فناسب حسن معاملة الوالدين

---

(١) ملاك التأويل ٢/ ٧٦٤ .

ما حسن من الأعمال ، ولم يرد مثل ذلك في سورة لقمان .

فناسب كل تعبير موطنه من كل وجه ، والله أعلم .

* * *

﴿ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ﴾ لا سبيلهما .

* * *

﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ لا ترجعون إلى غيري . وتقديم الخبر هنا كتقديمه في ﴿ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ للحصر ، وفيه إبطال للشرك . وقد جمع الضمير في (مرجعكم) لأنه ذكر الابن والوالدين ومن أناب إليه .

* * *

﴿ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي أخبركم بأعمالكم .

وقال : (أنبئكم بما كنتم تعملون) ولم يقل : (فأجزيكم) ؛ لأنه قد ينبّئ الإنسان بما عمل ثم يغفر له . ثم إن المؤمن يجزيه ربه بخير مما عمل ، كما قال تعالى : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ [النمل : ٨٩] ، وقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [العنكبوت : ٧] ، ألا ترى أنه عندما ذكر الذين كفروا في آية أخرى من السورة لم يكتف بأن يذكر أنه ينبئهم بما عملوا ، بل ذكر أنه يعذبهم بذلك فقال : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴾ [لقمان : ٢٣ ـ ٢٤] .

وجاء بضمائر المتكلم في الآية بالإفراد ﴿أَن تُشۡرِكَ بِي . . . سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم﴾ ؛ لأن الموطن موطن نفي الشرك وإثبات التوحيد ، فلا يجمع الضمير في مثل هذه المواطن . ونحوه قوله تعالى :



﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٨].

وهو قد يأتي بضمير المتكلم مجموعًا للتعظيم في غير هذا الموطن وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ٢٣]، وقوله: ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ [يونس: ٤٦]، وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس: ٦٩ ـ ٧٠].

* * *

﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾

عاد الآن إلى وصية لقمان لابنه بعد أن اعترض كلامه بوصيته سبحانه بالوالدين فقال: ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ . . . ﴾ فكرر نداءه بقوله: (يا بنيّ) ليعطف قلبه ويصغي إلى ما يقول. ثم ضرب له مثلاً يبين فيه قدرة الله وإحاطته بالأشياء فلا يند شيء عنه وعن قدرته بمثقال حبة من خردل يأتي بها الله أينما كانت، في السماوات أو في الأرض. والخردل نبات معروف حبه أصغر من السمسم يضرب مثلاً في الصغر.

لقد قال: ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ بحذف النون من (تكن)، ثم قال بعد ذلك (فتكن) بإثبات النون، ولعل من أسباب ذلك أنه قال: ﴿ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ فلم يعين مكانها ثم عين مكانها فيما بعد فقال: ﴿ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ، فإن الأولى أبعد في الوجود، أي هباءة تائهة لا مكان لها فحذف النون،

بخلاف الثانية فإنه عيّن مكانها فأثبت النون ، والله أعلم[١] .

جاء في (البرهان) للزركشي أن قوله : ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ﴾ [النساء : ٤٠] ، حذفت النون من (تكن) : «تنبيهًا على أنها وإن كانت صغيرة المقدار حقيرة في الاعتبار فإن إليه ترتيبها وتضاعيفها ، ومثلها : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ »[٢] .

ثم إن ثمة قراءة هي (فتكنّ) بكسر الكاف وشدة النون وفتحها ، وثمة قراءة أخرى وهي (فتكِنْ) بفتح التاء وكسر الكاف وسكون النون من (وكن يكن)[٣] وكلتا القراءتين فيها معنى الاستتار ، ذلك أن معنى (كنّ يكنّ) استتر. ومعنى (وكن الطائر) دخل عشه ، والوكن : هو عش الطائر ، فيكون المعنى : أنها إن تك مثقال حبة من خردل فتستتر في صخرة .

وهذا مما يفسر ثبوت النون في (تكن) وذلك لتعطي معنى الاستتار أيضًا ، والله أعلم .

وقال : ﴿ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ ﴾ مع أن الصخرة لا بد أن تكون في السماوات أو في الأرض ، وذلك لأن استخلاص الشيء من باطن الصخرة عسير في العادة .

من المعلوم أنه إذا أراد شخص أن يحفظ شيئًا ويصونه من الضياع لا يكتفي أن يضعه في ساحة الدار ، بل يضعه في غرفة من غرف الدار ويضعه في صندوق أو محفظة ، وقد يضع المحفظة داخل صندوق أو خزانة ، وقد يضع المحفظة داخل محفظة .

---

(١) انظر معاني النحو ١/ ٢٥٢ .

(٢) البرهان ١/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨ .

(٣) ينظر البحر المحيط ٧/ ١٨٢ .

فالصخرة مثلها مثل المحفظة الصغيرة التي يحفظ بها الشيء.

وإذا أردت المبالغة في حفظ الشيء تعمل للمحفظة قفلاً يصعب فتحه، وكلما كان الشيء ثمينًا أو مهمًّا بالغت في حفظه وعدم الوصول إليه. والناس يتفننون في حفظ الأشياء وعدم الوصول إليها. وأمكن شيء في الحفظ أن يودع في مكان أمين ليس له مفتاح ولا يمكن الوصول إليه. وعند ذلك يكون استخراجه عسيرًا أو مستحيلاً إلا بإتلاف المحفظة.

وقد ضرب الله مثلاً لذلك بمثقال حبة من خردل في صخرة، والصخرة ليس لها مفتاح، وربنا يستخرج هذه الحبة من الصخرة مع أنها ليس لها مفتاح من دون أن يحطم الصخرة.

وقال: ﴿فِى صَخْرَةٍ﴾ ولم يقل: (على صخرة) للدلالة على خفائها وأنها في داخلها.

وقال: (في الأرض) ولم يقل: (على الأرض) ليدل على أنها في باطن الأرض.

ثم قال: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ ولم يقل: (يعلمها الله) لأن مجرد العلم لا يدل على القدرة، فقد تعلم أنّ شيئًا داخل صندوق أو خزانة ولكنك لا تقدر على فتحه، فقوله: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ يدل على العلم وبالغ القدرة.

وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي يتوصل إلى الأشياء الخفية بأمر خفي فلا يحتاج إلى تحطيم الصخرة أو تكسيرها، بل يخرجها من داخلها بلطفه وخبرته. والإتيان بالشيء من مثل هذا الحفظ يحتاج إلى خبرة وإلى لطف بحيث يستخرجها من داخلها والصخرة كما هي.

جاء في (التفسير الكبير): «لو قيل: إن الصخرة لا بد من أن تكون في السماوات أو في الأرض فما الفائدة من ذكرها؟ . . .

خفاء الشيء يكون بطرق ، منها أن يكون في غاية الصغر ، ومنها أن يكون بعيدًا ، ومنها أن يكون في ظلمة ، ومنها أن يكون من وراء حجاب.

فإن انتفت الأمور بأسرها بأن يكون كبيرًا قريبًا في ضوء من غير حجاب فلا يخفى في العادة. فأثبت الله الرؤية والعلم مع انتفاء الشرائط.

فقوله: ﴿ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ﴾ إشارة إلى الصغر.

وقوله: ﴿ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ﴾ إشارة إلى الحجاب.

وقوله: ﴿ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إشارة إلى البعد ، فإنها أبعد الأبعاد.

وقوله: ﴿ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إشارة إلى الظلمات ، فإن جوف الأرض أظلم الأماكن.

وقوله: ﴿ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾ أبلغ من قول القائل: (يعلمها الله) ، لأن من يظهر له الشيء ولا يقدر على إظهاره لغيره يكون حاله في العلم دون حال من يظهر له الشيء ويظهره لغيره ، فقوله: ﴿ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾ أي يظهرها للإشهاد.

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ أي نافذ القدرة.

﴿ خَبِيرٞ﴾ : أي عالم ببواطن الأمور»[1].

إن ضرب هذا المثل بعد قوله: ﴿ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ﴾ أنسب شيء ؛ لأنه إذا كان الله يأتي بمثقال حبة الخردل من السماوات أو الأرض ومن كل مكان فماذا يفعل الشريك؟ وأين ملكه؟ وما قوته؟ وما قدرته إذا كان لا يستطيع أن يمنع استخلاص هذا الجزء الحقير اليسير؟ ولم الشرك؟!.

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ١٢١.



وهذا من أظهر الحجج على إبطال الشرك وانتفاء الشريك.

لقد جاء لقمان بهذا المثل لابنه ليبين له أنه لا يصح أن يكون لله شريك، ولم يكتف بمجرد النهي وذلك ليقتنع ابنه بما يقول، وفي هذا توجيه للآباء والمرشدين أن لا يوغلوا في الأوامر والنواهي من دون ذكر حجة أو دليل أو تعليل، والله أعلم.

قد تقول: لقد قال هنا: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

وقال في مكان آخر: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

فكان بينهما بعض اختلاف في التعبير، من ذلك:

١ ـ إن فعل الشرط وجوابه في لقمان مضارعان، وفي الأنبياء ماضيان.

٢ ـ وإن فعل الكينونة وفي لقمان مسند إلى مؤنث ﴿إِن تَكُ﴾. وفي الأنبياء مسند إلى مذكر: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ﴾.

٣ ـ ذكر أماكن وجود مثقال الحبة في لقمان ولم يذكرها في الأنبياء.

٤ ـ كما اختلفت خاتمة كل من الآيتين.

فما السبب؟

والجواب: أن سياق كل من الآيتين يوضح ذلك.

أما سياقها في لقمان فهو واضح.

وأما في سورة الأنبياء فالآية في الكلام على اليوم الآخر، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

فاتضح بذلك سبب الاختلاف:

١ ـ أما من حيث الاختلاف في فعل الشرط وجوابه فإن آية لقمان فيما يفعله الإنسان في الدنيا. والدنيا لا تزال باقية والأفعال فيها مستمرة، فكان فعل الشرط وجوابه مضارعين.

وأما آية الأنبياء فالكلام فيها على موقف من مواقف القيامة وهو موقف الحساب ووزن الأعمال، وقد انقطعت الأعمال وأحضرت للوزن فعبر عن ذلك بالماضي فقال: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾.

٢ ـ وأما الاختلاف في إسناد فعلي الكينونة فإنه قال في آية لقمان: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ﴾ فكان اسم (إن) ضميرًا مؤنثًا، أي الفعلة أو «الخصلة من الإساءة والإحسان لفهمها من السياق»[1] أو ضمير القصة[2]. فكان الفعل مسندًا إلى مؤنث. في حين كان الكلام في الأنبياء على المذكر قال: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ﴾ أي الشيء، فأسند الفعل إلى المذكر.

٣ ـ وأما ذكر أماكن وجود مثقال الحبة في لقمان فذلك لبيان قدرة الله وشمولها ليعرّف لقمان ابنه بذلك ويبطل عقيدة الشرك.

وأما في الأنبياء فالسياق مختلف، وهو سياق الحساب ووزن الأعمال وليس ذكر أماكنها.

٤ ـ وأما اختلاف خاتمة كل من الآيتين فسببه واضح أيضًا، ذلك أن آية الأنبياء في الحساب فقال: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾.

---

(١) روح المعاني ٢١/ ٨٨.

(٢) انظر البحر المحيط ٧/ ١٨٢.

وفي لقمان في استخلاص مثقال الحبة من أماكن وجودها الخفية فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾.

فناسب كل تعبير موطنه.

وقد تقول: كيف جرى التقديم والتأخير في هذه الآية، فقد ذكر الصخرة أولاً ثم ذكر السماوات بعدها ثم ذكر الأرض، فما سبب ذلك؟.

والجواب: أنه ذكر الصخرة أولاً، والصخرة قد تكون في السماء، وقد تكون في الأرض، فقد تكون في الأجرام السماوية صخور كالقمر والمشتري وغيرهما، وقد تكون صخور سابحة في الفضاء. فذكر الصخرة التي يشترك وجودها في السماء والأرض.

ثم ذكر السماوات وقدمها على الأرض، وهو الخط الجاري في السورة، فحيث اقترنت السماوات بالأرض قدم السماوات وذلك في أكثر من موطن:

قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ ﴾ [لقمان: ١٠].

وقال: ﴿ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [لقمان: ١٦].

وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [لقمان: ٢٠].

وقال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [لقمان: ٢٥].

وقال: ﴿ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [لقمان: ٢٦].

وحيث قَدَّم السماوات وأَخَّر الأرض في السورة ذكر بجنب الأرض أمورًا تتعلق بالأرض أو بسكان الأرض وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ . . . ﴾ [لقمان: ١٠].

وقوله: ﴿ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ . . . يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ . . . ﴾ [لقمان: ١٦ ـ ١٧].

وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ . . . ﴾ [لقمان: ٢٠].

وقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [لقمان: ٢٥].

وقوله: ﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ (٢٦) وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ﴾ [لقمان: ٢٦ ـ ٢٧].

فكان تقديم السماوات على الأرض في الآية جاريًا على نسق ما ورد في السورة.

* * *

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ (١٧) ﴾

بعد أن نهى لقمان ابنه عن الشرك وبين له أسس العقيدة السليمة، أمره بالعبادات، وبدأ بأهم العبادات وأوجبها وهي الصلاة، وهي العبادة التي لا تسقط عن المكلف بحال من الأحوال، وهي أول ما يسأل عنه المرء يوم القيامة، وكرر نداءه المحبب (يا بنيّ) لأن ذلك مظنة الاستجابة.

وقال له: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ولم يقل له: (صلّ) ذلك لأن إقامة الصلاة تعني الإتيان بها على أتم حال وأكمله من قيام وركوع وسجود وخشوع وقراءة قرآن وذكر.

ثم أمره بعد إقامة الصلاة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فأمره بنوعين من العبادات: ما يتعلق بالنفس وما يتعلق بالمجتمع.

فالصلاة تكميل للنفس ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تكميل للمجتمع. ذلك أن من حق المجتمع على الفرد أن يحفظه ويرسي فيه قواعد الخير والقوة ، ويجتث منه عناصر الهدم والفساد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أبرز ما يؤدي إلى ذلك.

ثم قال له: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ لأنه يعلم أن من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر تعرض للأذى والمكاره ، فأمره بالصبر على ما يلقى.

ومن حكمة لقمان أن أمر ابنه بذلك مع علمه أنه قد يصيبه من جراء ذلك أذى ليس بالقليل ، وهذا خلاف المعهود من عموم الآباء ، فإن الآباء عادة يخشون على أبنائهم ويطلبون منهم عدم التعرض للناس من أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، لأنه قد يلحقهم من جراء ذلك أذى يرهقهم. أما لقمان فأدرك بثاقب حكمته أن بقاء المجتمع وحفظه وصيانته من عوامل التخريب أولى من راحة ابنه وسلامته ، فحث ابنه ليقوم بهذه المهمة على حبه له ، وأوصاه بالصبر على ما يصيبه من المكاره. وفي هذا توجيه للآباء عظيم لأن يوجهوا أبناءهم للقيام بهذه المهمة الشاقة ويحثوهم عليها مهما لقوا في سبيل ذلك من عنت وأذى ، فإن الخير الذي يعود عليهم وعلى المجتمع من القيام بذلك أعظم بكثير من الأذى الذي قد يلحقهم منه.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي من الأمور الواجبة المقطوعة التي لا ينبغي أن يتراخى المرء فيها أو يتهاون.

جاء في (التفسير الكبير): «يعني أن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يؤذى فأمره بالصبر عليه.

وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي من الأمور الواجبة المعزومة، أي المقطوعة» [١].

وقد تقول: لقد قال هنا: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ فأكده بإنَّ، وقال في موطن آخر: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣] فأكده بإن واللام فما الفرق؟

والجواب: أن المقامين مختلفان، ذلك أنه قال في لقمان: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾، فأمره بالصبر.

وقال في الشورى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ فأضاف المغفرة إلى الصبر، أي أن تصبر على ما أصابك وتغفر لمن أساء إليك. وهذا أشق على النفس من مجرد الصبر، فاحتاج إلى زيادة التوكيد فقال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [٢].

* * *

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾

«انتقل لقمان بابنه إلى الآداب في معاملة الناس فنهاه عن احتقار الناس وعن التفخر عليهم، وهذا يقتضي أمره بإظهار مساواته مع الناس وعدّ نفسه كواحد منهم» [٣].

فنهاه عن التكبر عليهم والإعراض عنهم.

ومعنى تصعير الخد إمالته عنهم تكبرًا وإعراضًا.

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ١٢١ ـ ١٢٢.

(٢) انظر التعبير القرآني ٢٠١.

(٣) التحرير والتنوير ٢١/ ١٦٦.

والمرح هو النشاط مع الزهو والخيلاء «فالمرح مختال في مشيته»[1].

والاختيال: «من الخيلاء، وهو التبختر في المشي كبرًا»[2].

و(مختال) مفتعل من (خالَ) يقال: خال الرجل واختال إذا تكبّر.

والمختال: الصلف المتباهي الجهول المعجب بنفسه[3].

و(اختال) أبلغ من (خال) في التكبر والإعجاب بالنفس؛ لأنه على وزن (افتعل).

وإن من معاني (افتعل) المبالغة في معنى الفعل. فالمختال هو المبالغ في التكبر والتباهي والإعجاب بالنفس وفي سائر معاني الوصف. و(الفخور) من الفخر، وهو تعداد ما أعطي من مال أو نسب أو غير ذلك والمباهاة في ذلك.

جاء في (روح المعاني): «الفخور من الفخر، وهو المباهاة في الأشياء الخارجة عن الإنسان كالمال والجاه، ويدخل في ذلك تعداد الشخص ما أعطاه لظهور أنه مباهاة بالمال»[4].

وجاء في (المحرر الوجيز): «قال مجاهد: الفخور هو الذي يعدد ما أعطى ولا يشكر الله تبارك وتعالى، قال: وفي اللفظ الفخر بالنسب وغير ذلك»[5].

والفخور على زنة فعول، وهو من صيغ المبالغة للدلالة على الإكثار

---

(١) المحرر الوجيز ١١/ ٥٠٣.

(٢) روح المعاني ٢١/ ٩٠.

(٣) ينظر لسان العرب (خول) ١١/ ٢٢٦ ـ ٢٢٨.

(٤) روح المعاني ٢١/ ٩٠.

(٥) المحرر الوجيز ١١/ ٥٠٣.

من إظهار ذلك والمبالغة فيه.

وقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ولم يقل: (على الأرض) كما قال في وصف عباد الرحمن: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، ذلك أن (في) تفيد الظرفية، أي كأنه يريد أن يخرق الأرض برجليه من شدة مرحه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

وأما (على) فتفيد الاستعلاء فقال: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ وذلك لأنه قال: (هونًا) أي على مهل بسكينة ووقار، فناسب كل حرف موضعه.

إن الأبنية التي وردت في الآية كلها تفيد المبالغة:

فقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ يدل على المبالغة في المرح، ذلك أنه جاء بالحال مصدرًا وهو يدل على المبالغة.

وقوله: (مختال) يدل على المبالغة في الوصف، لأن صيغة مفتعل تفيد المبالغة.

وقوله: (فخور) يدل على المبالغة في الفخر.

وقد تقول: ولم جاء بالوصفين على المبالغة، أفترى أن الذي لا يبالغ في الوصف لا يشمله انتفاء الحب؟

والجواب: أنه ليس الأمر على ما توهمت، فإخباره أن الله لا يحب المبالغة في الوصف السيّء لا يعني أنه يحب غير المبالغ، وإنما هو إخبار عن الوصف في المقام الذي ورد فيه.

فقولك: (أنا لا أحب الكذوب) لا يعني أنك تحب الكاذب. وقولك: (إني أحب الصدوق) لا يعني أنك لا تحب الصادق.

فقد تقول في مقام: (أنا لا أحب الكذوب)، وقد تقول في مقام

آخر: (أنا لا أحب الكاذب). وقد تقول في مقام: (أنا أحب الصدوق)، وقد تقول في مقام آخر: (أنا أحب الصادق) بحسب ما يقتضيه المقام.

والبلاغة ـ كما هو معلوم ـ إنما هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال. ولذا قال الله مرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧]، بصيغة المبالغة ﴿خَوَّانًا﴾، وقال مرة أخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]، بصيغة اسم الفاعل لا بصيغة المبالغة.

وأخبر الله عن نفسه مرة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٢٣]. فقال: (شكور) بصيغة المبالغة، وقال مرة أخرى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨]، بصيغة اسم الفاعل بحسب المقام الذي اقتضى كلاً منهما.

فإنه قال في سورة النساء: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧] فقال: (يختانون) بوزن (يفتعلون) الذي يفيد المبالغة في الخيانة فقال: (خوّانًا) بصيغة المبالغة.

ثم ذكر صفات هؤلاء الخوانين بقوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٠٨ ـ ١١٢].

فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ ولم يقل: (خائنًا) لأن هؤلاء خوانون، أي مبالغون في الخيانة.

في حين قال تعالى في الأنفال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ

عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨] ، فلم يذكر أنهم خانوا وإنما خيفت منهم الخيانة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ ولم يقل: (إنه لا يحب الخوانين) فإنهم لم يخونوا أصلاً ، فإذا خان هؤلاء فسيكونون خائنين ، والله لا يحب الخائنين.

فصفات السوء بعضها أشد من بعض والله يبغضها جميعًا ، ولكن يبغض المبالغ فيها أشد.

وصفات الخير بعضها أشد من بعض والله يحبها جميعًا ، ولكنه يحب المكثر منها أشد.

فالذي يصعّر خده للناس ويمشي في الأرض مرحًا هو مبالغ في الصفات المذمومة ، فأخبر أن الله لا يحب المبالغين في الصفات المذمومة ، ولو قال: (إن الله لا يحب كل خائن فاخر) لم يفهم أن من تقدم مبالغ في الصفات المذمومة. ونحو ذلك أنه قد يبالغ إنسان في الكذب ، ويكذب مرة بعد مرة فنقول له: (أنا لا أحب الكذّاب) إشارة إلى أنه كثير الكذب.

وتقول: (أنا لا أحب الكاذب) لمن كذب مرة ولم يعتد الكذب.

لقد جمع الله في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾ بين وصفين أحدهما في السلوك وهو المختال ، والآخر في القول وهو الفخور.

فأخبر بذلك أنه يبغض الذميم من الفعل والقول.

وهذا جاء بعد قوله: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ ذلك لأن الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر عليه قبل غيره أن يكون متواضعًا حسن القول والفعل لا يختال ولا يفخر ، وهذا من ألزم الأشياء للدعاة والمرشدين.

إن هذا لازم على كل فرد ، وهو على الدعاة ألزم وأوجب .

قد تقول لقد قال هنا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ فأكد الجملة بإنّ ، وقال في سورة الحديد : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد : ٢٣] من دون توكيد ، فما الفرق؟

والجواب : أن المقام مختلف ، فإن المقام في لقمان في بيان آداب المعاملات وحسن التصرف مع الناس فقال : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [لقمان : ١٨ ـ ١٩] .

فنهاه عن الكبر وعن المشي في الأرض مرحًا وطلب منه القصد في المشي وعدم رفع الصوت فناسب ذلك قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ بالتوكيد .

وأما في سورة الحديد فليس الكلام على ذلك ، فهو ليس في بيان آداب المعاملة ولا في العلاقات بين الناس فلم يؤكد ذلك ، قال تعالى : ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد : ٢٣] .

ألا ترى أنه لما كان الكلام في سورة النساء على العلاقات بين الناس وإحسان المعاملة لهم أكد التعبير بإنّ كما أكده في لقمان فقال : ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء : ٣٦] .

فأمرنا بإحسان المعاملة مع من ذكر من الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين وإحسان المعاملة إلى الجار حتى انتهى إلى ملك اليمين

فناسب أن يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ بالتوكيد.

فناسب كل تعبير مكانه. والله أعلم.

* * *

﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ أي توسط في المشي بين الإسراع والإبطاء.

والمشي إنما يكون بقدر الحاجة، فإن احتجت إلى الإسراع أسرعت، وإلا فتوسّط في مشيك، ولا يكن سمتك التماوت في المشي فإنه مذموم.

﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أي اخفض منه، وقال: (اغضض من صوتك) ولم يقل: (اغضض صوتك) لأنه ليس المطلوب أن يخفض صوته كله فلا يسمع، وإنما المطلوب منه بقدر ما يحتاج إليه السامعون، فلا يكون أعلى من ذلك فيزعجهم، ولا يكون أقرب إلى الهمس فلا يسمعون.

وهذا كما ترى إشارة إلى التوسط والاعتدال فيما ذكر.

جاء في (التفسير الكبير): «لما قال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ وعدم ذلك قد يكون بضده، وهو الذي يخالف غاية الاختلاف، وهو مشي المتماوت الذي يري من نفسه الضعف تزهدًا فقال: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ أي كن وسطاً بين الطرفين المذمومين...

﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ إشارة إلى التوسط في الأفعال والأقوال»[1].

﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ أي أقبحها، فذكّر من يرفع صوته

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ١٢٢ ـ ١٢٣.

أكثر مما ينبغي بصوت الحمار ونُكْره في النفوس ليغض منه.

«فإن قلت: لم وحَدَّ صوت الحمير ولم يجمع؟.

قلت: ليس المراد أن يذكر صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع، وإنما المراد أن كل جنس من الحيوان غير الناطق له صوت، وأنكر أصوات هذه الأجناس صوت هذا الجنس، فوجب توحيده» (١).

فإن قلت: ولم قال هنا: (لصوت الحمير) ولم يقل: (لصوت الحُمُر) وكلاهما جمع الحمار، مع أنه قال في موطن آخر: ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾ [المدثر: ٥٠]، فجمع على الحُمُر؟

فنقول: إن القرآن استعمل (الحمير) جمعًا للحمار الأهلي، واستعمل (الحُمُر) جمعًا للحمار الوحشي فقال: ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ [النحل: ٨].

وما عرفه عموم الناس من الأصوات المنكرة صوت الحمر الأهلية وهي التي تعيش معهم فجمعه على الحمير. هذا علاوة على فواصل الآي، والله أعلم.

* * *

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) ﴾

انتهت وصية لقمان لابنه وبدأ الآن كلام آخر وهو كلام الله يخاطب عباده قائلاً: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم... ﴾ وهذا الكلام متصل بكلامه سبحانه قبل الوصية وهو قوله: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا... هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ... ﴾.

---

(١) الكشاف ٥/١٨.

فذكر هناك خلق السماوات وإلقاء الرواسي في الأرض وبث الدواب وغير ذلك ، وذكر هنا النعم التي أنعمها الله علينا في السماوات والأرض بتسخير ما فيهما لنا وإسباغ النعم علينا فهو الخالق وهو المسخر وهو المفيض بالنعم.

وكان المظنون والمتوقع أن معرفة هذا الأمر تدعو الناس إلى عبادته وطاعته سبحانه ، لكن قسمًا من الناس مع ذلك كله يجادلون في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

إن هذه الآية مرتبطة بأول السورة ، ذلك أنه قال في أول السورة: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ فوصف الكتاب بأنه حكيم ، وذكر أنه هدى ورحمة للمحسنين ، وذكر أن هؤلاء يجادلون بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

فقوله: ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يقابل وصف الكتاب بأنه حكيم.

وقوله: ﴿ وَلَا هُدًى﴾ يقابل وصف الكتاب بأنه هدى.

وقوله: ﴿ وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ نفى وجود الكتاب المنير عندهم ، وقد أثبته في الابتداء وأشار إلى آياته فقال: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

وقال: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ وهؤلاء لم يحسنوا في الجدال لأنهم جادلوا بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

وأما الرحمة المذكورة في أول السورة فتقابلها رحمته سبحانه بخلقه في تسخيره لهم ما في السماوات وما في الأرض وإسباغ النعم الظاهرة والباطنة عليهم.

ثم لنلاحظ التعبير فى هذه الآية فإنه جاءَ بأحسن ترتيب.



فقد قال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ والخطاب لعموم العقلاء من الخلق ، ولم يقل (ألم تر) بخطاب المفرد.

وقال: ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾ فذكر نعمته بالتسخير لعموم الخلق.

وقال: ﴿مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فشمل عموم ما فيهما ، وهذا أعم تسخير وأشمله ، فلم يقل كما قال في مواطن: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ ، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ ، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ .

وقال: (أسبغ) والإسباغ هو الإفاضة في العطاء وغيره ، والزيادة في ذلك ، وليس مجرد العطاء.

وقال: (نعمه) فجاء بجمع الكثرة ، ولم يقل: (أنْعُمه) وذلك للدلالة على كثرة النعم.

وقال: (ظاهرة وباطنة) للدلالة على شمول النعم بكافة أنواعها. وهو أوسع شمول وأعمه.

وقال: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ فأفاض في ذكر مركب الجهل وعناصره.

فأوسع وأفاض في المسخَّر لهم وهم عموم الخلق بقوله: (لكم).

وأوسع وأفاض فيما سخره لهم وهو ما في السماوات وما في الأرض.

وأوسع وأفاض في الفعل بقوله: (أسبغ).

وأوسع وأفاض في النعم بقوله: (نِعَمه).

وأوسع في الشمول والعموم وهو قوله: (ظاهرة وباطنة).

وأوسع وأفاض في ذكر عناصر الجهل وهو قوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾.

ثم إن عناصر الجهل هذه تشمل عناصر الجهل الباطن والظاهر.

فقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نفى عنهم العلم، والعلم إنما هو في النفوس، وهو لا يظهر للرائي وإنما تظهر آثاره أو بعض آثاره، فأنت لا تعلم ماذا يحمله الشخص من علم ولا مقدار من مجرد رؤيته، فهو من الأمور الباطنة.

وقوله: (ولا هدى) نفى عنهم الهدى، والهدى يكون ظاهرًا وباطنًا.

فمن الهدى الظاهر الكتب، ولذلك سمى القرآن كتاب الله هدى، فقد قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

ومن الهدى الظاهر أَدلاَّء الطريق وعلاماته، ومنه قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠].

وذكر القرآن النجوم والجبال والسبل للهداية فقال: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، وقال: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥].

ومن الهدى الباطن توفيق الله للإنسان لاتباع الحق بما يقذفه في قلبه من نور وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، وقوله: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ﴾ [مريم: ٧٦]، وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣]، وقوله: ﴿إِنَّكَ

لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] ، فهذا توفيق من الله ونور يقذفه في قلب من يشاء من عباده فيهتدي أو يزداد هدى.

وقوله: ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ نفى وجود الكتاب المنير عندهم والكتاب ظاهر مقروء.

فنفى عنهم كل عناصر العلم والهداية ما ظهر منها وما بطن.

وقد تدرج في ذكر العناصر من الباطن إلى المشترك إلى الظاهر.

ثم وصف الكتاب بأنه منير؛ لأن هؤلاء قد يرجعون إلى كتب غير منيرة مثل ذلك الذي يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله، أو يرجعون إلى الكتب المحرفة، فهذه الكتب لا تهدي الضال.

جاء في (التفسير الكبير): «قال في الكتاب: ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ لأن المجادل منه من كان يجادل من كتاب ولكنه محرف مثل التوراة بعد التحريف، فلو قال: (ولا كتاب) لكان القائل أن يقول: لا يجادل من غير كتاب، فإن بعض ما يقولون فهو في كتابهم ولأن المجوس والنصارى يقولون بالتثنية والتثليث من كتابهم، ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ فإن ذلك الكتاب مظلم» [1].

إن المجادلة في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير أنكر المجادلات، وهي منكرة في العقول كإنكار صوت الحمير في الآذان أو أشد نكرًا. ومن لطيف الموافقات أن تكون هذه الآية بعد قوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾.

* * *

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ١٢٤.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾

أراد أن يبين ضلالهم وجهلهم وقلة فهمهم وإدراكهم فلم يقل: (وإذا قيل لهم اتبعوا سبيلنا) أو ما عندنا أو كتابنا لئلا تأخذهم العزة بالإثم ، بل قال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ الله الذي خلقهم وسخر لهم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليهم نعمه.

وقال: (إذا قيل لهم) ولم يذكر فاعلاً معينًا لأنه لا يتعلق غرض بذكره ، ولئلا يظن أن رفضهم بسبب هذا القائل ، ولو كان القائل غيره لم يكن جوابهم كذلك ، بل يكون هذا جوابهم أيًا كان القائل.

قالوا: ﴿ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ ﴾ فجعلوا آباءهم بإزاء الله سبحانه.

إنهم لم يقولوا: (لو نعلم أن هذا أنزله الله لاتبعناه) ، ولو قالوا ذلك لكان معهم حديث آخر ولعذرهم السامع حتى يقيم عليهم الحجة ، ولكنهم آثروا اتباع آبائهم على ما أنزل الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

ثم قال تعالى: ﴿ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾

وهذا السؤال تعجيب من حالهم ، ذلك أن كل معتنق فكرة أو دعوة أو عقيدة يبتغي بذلك عاقبة حسنة ومآلاً سعيدًا. وقد ذكر أمرين كل واحد منهما ينبغي الفرار منه.

فقد ذكر أن الشيطان هو الذي يدعوهم إلى ذلك ، وأن عاقبة من اتبعه عذاب السعير ، فكيف يتبعونه ولا يتبعون ما أنزل الله؟.

وهذا إهابة بكل عاقل لأن ينجو بجلده مما هو عليه ويفر منه إلى الله ويسلم وجهه إليه سبحانه.

* * *

﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾

أكثر ما وردت متصرفات الفعل (أسلم) في القرآن الكريم متعدية باللام نحو قوله: ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٣١] ، وقوله: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر: ٦٦] ، وقوله: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴾ [الزمر: ٥٤] ، ولم يرد متعديًا بإلى إلا في آية لقمان هذه.

وقيل في الفرق بين قولنا: (أسلمت إليه) و(أسملت له) ، أن (أسلم إليه) يأتي بمعنى الإعطاء وبمعنى التفويض، تقول: (أسلمت إليه الشيء) أي دفعته إليه ، وتقول: (أسلمت وجهي إليه) أي فوضت أمري إليه.

وأما: (أسلم له) فمعناه انقاد له واستسلم له ، ومعناه أيضًا جعل نفسه سالمًا له ، أي خالصًا له.

جاء في (لسان العرب): «أسلم إليه الشيء: دفعه. . .

الإسلام والاستسلام: الانقياد. . . يقال: فلان مسلم ، وفيه قولان: أحدهما: هو المستسلم لأمر الله ، والثاني: هو المخلص لله العبادة» (١) .

وجاء في (الكشاف): «فإن قلت: ما له عدّى بإلى ، وقد عدّى باللام في قوله: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾؟.

قلت: معناه مع اللام أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالمًا لله ، أي خالصًا له.

ومعناه مع (إلى) أنه سلم إليه نفسه كما يسلّم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه. والمراد التوكل عليه والتفويض إليه» (٢) .

---

(١) لسان العرب (سلم).

(٢) الكشاف ١٩/٥.

وجاء في (روح المعاني): «﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بأن فوض إليه تعالى جميع أموره، وأقبل عليه سبحانه بقلبه وقالبه. فالإسلام كالتسليم التفويض. و(الوجه) الذات. والكلام كناية عما أشرنا إليه من تسليم الأمور جميعها إليه تعالى والإقبال التام عليه عز وجل، وقد يعدى (الإسلام) باللام قصدًا لمعنى الإخلاص»(١).

وعلى هذا يكون معنى:

أسلم إليه الشيء: دفعه إليه. وأسلم إليه الأمر، أي فوّضه إليه. ومعنى (أسلم له) انقاد له واستسلم له وأخلص له.

وورد الفعل (أسلم) مع (إلى) متعديًا إلى مفعول به. قال تعالى: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ والظاهر أن الأصل في نحو هذا الاستعمال أن يتعدى إلى مفعول به.

وأما مع اللام فقد جاء متعديًا إلى مفعول به وغير متعدّ إلى مفعول به كقوله تعالى في المتعدي: ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وقوله في غير المتعدي: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر: ٦٦]، وقوله: ﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤].

وقد يرد الفعل وحده من دون حرف جر ولا مفعول به كقوله تعالى: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا﴾ [الحجرات: ١٤]، وقوله: ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٤].

وقد ورد الفعل (يسلم) في آية لقمان مُعدًّى بإلى دون اللام لأكثر من سبب:

من ذلك أن هذه الآية جاءت بعد قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ

---

(١) روح المعاني ٢١/ ٩٥.

أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ والاتّباع معناه في الأصل السير خلف المُتَّبَع. فقولك: (اتبعت فلانًا) أي سرت خلفه مقتديًا به. فمن اتبع شخصًا فكأنه يسلم إليه قياده ويدفعه إليه.

فالكفرة أسلموا إلى الشيطان قيادهم واتبعوا آباءهم.

والمؤمنون أسلموا إلى الله وجوههم، أي أنفسهم كما يدفع القياد إلى من يقود.

والوجه معناه الذات والنفس. وذكر الوجه لأن الوجه أكرم شيء ظاهر في الجسم.

هذا وجه.

والوجه الآخر أن (أسلم إليه) بمعنى فوّض الأمر إليه وتوكل عليه، ذلك أن الإنسان أكثر ما يشعر بالحاجة إلى تفويض أمره إلى الله عند الشدائد والنوازل، فإنه يخشى أن تعصف به العواصف وتغرقه سيول النوازل فيشعر بالحاجة الملحة إلى عاصم يحفظه وإلى الاستمساك بما يثبته فقال: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾.

وأما مآل هذه الأمور التي يخشاها وما تنكشف عنه فإلى الله أمرها وحسبه أن يستمسك بالعروة الوثقى إلى أن يستبين قضاء الله فيها ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

فقوله تعالى في الآية السابقة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ اقتضى أن يقول: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بمعنى تسليم النفس إليه.

وقوله: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ اقتضى أن يقول: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بمعنى تفويض الأمر إليه.

فقد اقتضى هذا الفعل من وجهين والله أعلم.

وقد تقول: لقد قال في سورة البقرة: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢]، فعدَّىٰ الفعل (أسلم) باللام، وعدَّاه في لقمان بإلى كما علمنا فما الفرق؟

فنقول: هناك أكثر من سؤال في هاتين الآيتين وليس هذا السؤال وحده، من ذلك:

١ ـ أنه قال في لقمان: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ﴾ بالمضارع.

وقال في البقرة: ﴿مَنْ أَسْلَمَ﴾ بالماضي.

٢ ـ وقال في لقمان: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ بالتعدية بإلى.

وقال في البقرة: ﴿لِلَّهِ﴾ بالتعدية باللام.

٣ ـ وقال في لقمان: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾.

ولم يقل مثل ذلك في آية البقرة.

٤ ـ وقال في لقمان: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

وقال في البقرة: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فلم ذلك؟

فنقول إن كلاًّ من هذه السؤالات يحتاج إلى جواب:

أما ذكر الفعل مضارعًا في لقمان وماضيًا في البقرة فذلك أن معنى الفعل في لقمان ـ كما ذكرنا ـ تسليم الوجه إلى الله وتسليم القياد إلى من أمر الله باتباعه ودفعه إليه.

ومعناه أيضًا تفويض أموره إليه.

والأمور التي تحتاج إلى الاتباع متعددة متجددة، والأمور التي تشعر

بالحاجة إلى تفويضها إلى الله متعددة متجددة ، فجاء بالفعل مضارعًا كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ﴾ وذلك أن فعل الشرط يأتي غالبًا في القرآن ماضيًا فيما يقل تكراره أو مظنة أنه مرة واحدة ، ويؤتى به مضارعًا فيما يتكرر وقوعه.

أما في البقرة فقد جاءت ردًّا على قول اليهود والنصارى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١] ، فقال تعالى ردًّا عليهم: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١١ ـ ١١٢] ، أي بلى يدخلها المسلم ، فالدخول في الإسلام يحصل مرة ولا يتكرر كل يوم ، وإنما تتكرر الأعمال التي يقوم بها المسلم ، فإذا شهد المرء بالشهادتين دخل الإسلام وقد أسلم.

أما الأحداث التي يفوضها المرء إلى الله فهي متكررة متجددة مستمرة ، فجاء بالفعل مضارعًا في لقمان وماضيًا في البقرة.

وأما التعدية بإلى واللام فقد ذكرنا معناهما وذكرنا الفرق بينهما ، فمعنى ﴿يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾: يفوض أمره إلى الله ويتوكل عليه ، ولذا كان جواب الشرط ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

ومعنى (أسلم وجهه لله): دخل في الإسلام ، ومعناه أيضًا: استسلم لأمر الله وانقاد له وجعل نفسه سالمًا لله ، أي خالصًا له ، ولذا كان جواب الشرط: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فـ (أسلمت لله) أعلى من (أسلمت إلى الله) لأنه جعل نفسه سالمًا ، أي خالصًا له لم يترك من نفسه شيئًا لغير الله ، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: ٢٩] ، أي خالصًا له من الشراكة.

ولذا ـ والله أعلم ـ أخبر الله عن نبيه وخليله إبراهيم حين قال له ربه أسلمْ أنه قال: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] باللام. وقال الله لخاتم الرسل والنبيين: ﴿۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٦]، وأمره أيضًا أن يقول: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١]، وأمره مرة أخرى أن يقول: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وقالت ملكة سبأ: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]، كل ذلك باللام.

فما كان الفعل (أسلم له) أتم وأكمل كان الجواب أعلى وأتم، فقال: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

جاء في (التفسير الكبير) أن «(من أسلم لله) أعلى درجة ممن يسلم إلى الله. لأن (إلى) للغاية واللام للاختصاص، يقول القائل: أسلمت وجهي إليك، أي توجهت نحوك، وينبئ هذا عن عدم الوصول؛ لأن التوجه إلى الشيء قبل الوصول. وقوله: (أسلمت وجهي لك) يفيد الاختصاص ولا ينبئ عن الغاية التي تدل على المسافة وقطعها للوصول. إذا علم هذا فنقول: في البقرة قالت اليهود والنصارى: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ قال الله ردًّا عليهم: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾، ثم بين فساد قولهم بقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]»[1].

وقد تقول: لقد أَخَّر الجار والمجرور عن الفعل (أسلم) في مواطن وقدمهما على الفعل في بعض المواطن، فقد قال تعالى في سورة الزمر مثلاً: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤]، فأخر الجار والمجرور

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ١٢٥.

عن الفعل (أسلموا). في حين قال في سورة الحج: ﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾ [الحج: ٣٤]، بتقديم الجار والمجرور على الفعل، فما السبب؟

والجواب: أن للتقديم والتأخير ولا شك سببًا يدعو إليه. ونحن هنا لا نريد أن نستقصي كل الآيات التي ورد فيها الفعل (أسلم) لبيان ذلك، ولكن أقول بإيجاز: إن قسمًا من الآيات لا يصح فيها التقديم وذلك كما في قوله: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وقوله: ﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١]، لما فيه من تقديم الصلة على الموصول، فلا يصح أن نقول: (وأمرت لرب العالمين أن أسلم) لما فيه من تقديم الجار والمجرور على (أن)، وما تعلق به متأخر عنها، فلا يصح أن يعمل ما بعد (أن) فيما قبلها.

وكذلك القول في ﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ﴾ فإنه على تقدير (أن).

وأما فيما يجوز فيه التقديم والتأخير فنقول: إنه في مقام التوحيد يقدم الجار والمجرور على الفعل لقصد الحصر، أما في غير مقام التوحيد فيؤخره إلا إذا اقتضى غير ذلك سبب آخر. وأضرب لك مثلاً يوضح ذلك في آيتي الحج والزمر اللتين ذكرناهما:

قال تعالى في سورة الحج: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

وقال في الزمر: ﴿۞قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٣ ـ ٥٤].

فقدم الجار والمجرور (فله) على الفعل (أسلموا) في آية الحج لأنه في مقام التوحيد، فقد قال: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ فقدم الجار والمجرور لحصر الإسلام له.

وليس كذلك الأمر في الزمر ، فإنه ليس في مقام ذكر التوحيد ، ولكن السياق في ذكر المسرفين في الذنوب ومغفرة الله لها ، فلم يقدم الجار والمجرور لأن المقام لا يقتضي ذاك ، والله أعلم.

﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾

أي من يسلم وجهه إلى الله في حالة اتصافه بالإحسان فقد استمسك بالعروة الوثقى.

فهذا الأمر ينطبق على من هو متصف بالإحسان دون من لم يتصف به كما قال رسول الله ﷺ : (تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة).

قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦] ، وقال : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وقد تقول : لقد قال الله في آية لقمان : ﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ ، وقال في البقرة : ﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ، فزاد في البقرة ﴿ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ على ما في لقمان فما السبب؟

والجواب : أن سياق كل آية من الآيتين يوضح السبب ، فقد قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فذكر في آية البقرة الكفر بالطاغوت. والكفر بالطاغوت قد يلحق صاحبه الأذى والعنت ، فإن (الطاغوت) هو المبالغ في الطغيان والتعدي ، والطاغوت كل رأس في الضلال والإضلال من الشياطين والإنس والأصنام فقال : ﴿ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ مبالغة في حفظ من يستمسك

بها ، وليس السياق في مثل ذلك في لقمان ، فلم يحتج إلى مثل ما ذكر في آية البقرة. فكل تعبير مناسب لما ورد فيه .

وقال : ﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ ﴾ ولم يقل : (استمسك) من دون (فقد) ، أي لم يقل : (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن استمسك) ذلك أن (قد) للتحقيق ، والمعنى أنه تحقق استمساكه بالعروة الوثقى وحصل. ولو لم يأت بـ (قد) لاحتمل أن يكون ذلك في المستقبل ، ذلك أن الفعل الماضي إذا وقع فعلاً للشرط أو جوابًا له فالغالب أن يكون للاستقبال وذلك نحو قولك : (إن درست نجحت) فإن ذلك للاستقبال ، وكقولك : (من يكفر بالله أدخله النار) فالفعل (أدخله النار) يفيد الاستقبال مع أنه ماض ، فجاء بـ (قد) للدلالة على أن الاستمساك بالعروة الوثقى قد حصل لمن يسلم وجهه إلى الله .

وقال : (استمسك) ولم يقل : (أمسك) للدلالة على المبالغة في الإمساك .

ووصف العروة بأنها (الوثقى) ولم يقل : (الوثيقة) للدلالة على أنها أوثق العرى وليس ثمة عروة أوثق منها .

﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾

قدم الجار والمجرور للحصر لأن عاقبة الأمور إليه وحده .

جاء في (روح المعاني) : «وتقديم (إلى الله) للحصر ردًّا على الكفرة في زعمهم مرجعية آلهتهم لبعض الأمور» [١] .

* * *

---

(١) روح المعاني ٢١/ ٩٥ .

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ ﴾

نود أن نذكر طرفًا من الملاحظات التعبيرية في هذه الآية.

١ ـ قال تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ فجاء بفعل الشرط ماضيًا بعد قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ ﴾ وقد كان فعل الشرط مضارعًا.

وهذا التعبير نظير قوله تعالى في آية سابقة ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ فجاء بفعل الشرط الأول مضارعًا (يشكر)، وجاء بفعل الشرط الثاني وهو قوله: (كفر) ماضيًا، وقد ذكرنا سبب مجيء الفعل في قوله: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ ﴾ مضارعًا. أما قوله: (من كفر) فهو نظير ما ذكرناه في قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ فلا نعيد القول فيه.

٢ ـ قال: ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ﴾ فجعل الكفر فاعلاً والمخاطب مفعولاً به، والمعنى: لا تحزن لكفره. وقد جاء بالتعبير على هذه الصورة لأكثر من سبب:

من ذلك أنه نهى الكفر أن يحزن رسول الله، فكأن الكفر يريد أن يحزن رسول الله فنهاه الله أن يفعل ذلك رأفة برسوله وإشفاقًا عليه، فكأنه قال: أيها الكفر لا تحزن رسولي، وذلك أن المنهي إنما هو الفاعل، تقول: (لا يضربْ أخوك خالدًا) فالمنهي عن الضرب أخوك.

هذا إضافة إلى ما فيه من التعبير المجازي، فكأن الكفر ذات عاقلة تريد أن تحزن رسول الله فنهاه الله عن ذلك.

ولو قال: (لا تحزن لكفره) لم يؤد هذا المعنى.

٣ ـ جاء بالفاء في قوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ ، وهذه الفاء هي الرابطة لجواب الشرط ، وقد جاء بها تنصيصًا على أن (من) في قوله: (من كفر) اسم شرط ، ولو لم يأت بالفاء لاحتمل أن تكون (من) اسمًا موصولاً.

فأفاد مجيء الفاء العموم ، أي كل من كفر ؛ لأن أسماء الشرط تفيد العموم. أما الاسم الموصول فهو من المعارف ، وقد يراد به شخص معين أو أشخاص بأعيانهم فلا يشمل العموم ، تقول: (من زارني أكرمته) ، و(زارني من أحبه) ، وقد يراد به الجنس أحيانًا.

أما اسم الشرط فيراد به العموم ، فجاء بالفاء للدلالة على ذلك.

٤ ـ قال: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ بضمير الجمع الذي يفيد التعظيم في (إلينا) ، وقد قال في آية سابقة من السورة: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ بضمير الإفراد ، ذلك أن الآية السابقة في موطن النهي عن الشرك: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ. . . وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي. . .﴾ فأفرد للدلالة على الوحدانية ، في حين لم يكن المقام ههنا كذلك فجاء بضمير التعظيم.

وقد قدم الجار والمجرور (إلينا) الذي هو الخبر على المبتدأ لإفادة الحصر ، أي إلينا مرجعهم لا إلى غيرنا.

٥ ـ قال: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ ولم يقل: (ثم إلينا مرجعهم) كما قال في آية سابقة من السورة وهو قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وذلك لإرادة تقريب المرجع إليه سبحانه ، وذلك أن (ثم) تفيد المهلة والتراخي فلم يذكرها هنا.

وقد قال في الآية السابقة: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ فجاء بـ (ثم) لأكثر من سبب:

من ذلك أنه قال: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ والمجاهدة قد تستغرق وقتًا طويلاً.

وقال: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ فأمر بمصاحبتهما بالمعروف وإن امتدت الحياة بهما.

وقال: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ فأمر بذلك مهما امتدت الحياة وطالت.

فناسب ذلك ذكر (ثم).

وليس السياق في مثل ذلك ههنا.

٦ - قال: (فننبئهم) بضمير الجمع للتعظيم، وقال في آية سابقة: (فأنبئكم) بضمير الإفراد لما ذكرناه من أن الموطن السابق موطن النهي عن الشرك.

وقال: (فننبئهم) بالفاء، ولم يقل: (ثم ننبئهم) لإرادة التعقيب بالتنبيء من دون مهلة وأنه يكون بعد الرجوع إلى الله، ولعله إشارة إلى حساب القبر.

وقد تقول: ولكنه قال في مواطن أخرى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠].

وقال: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقال: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

وغيره. فلم ذاك؟

والجواب: أن ذلك بحسب السياق، فقد يقتضي المقام ذكر (ثم) وقد يقتضي ذكر الفاء.

أما قوله: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ فذلك أن سياق الكلام في



الدنيا ، ولم يذكر رجوعهم إلى الله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٩] ، فأمهل التنبيء .

وأما قوله : ﴿ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة : ١٤] ، فالكلام أيضاً على من هو في الدنيا ولا تزال مدة طويلة بينهم وبين التنبيء .

قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة : ١٤] .

فقد قال : ﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ ﴾ وهذه مدة طويلة تستغرق عمر الدنيا كلها فجاء بـ (سوف) .

وأما قوله : ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ٦٠] فالسياق مبني على الإمهال والتأخير وعدم الاستعجال ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓۚ ﴾ [الأنعام : ٥٧] .

وقال : ﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۗ ﴾ [الأنعام : ٥٨] .

وقال : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ ﴾ [الأنعام : ٦١ ـ ٦٢] .

فإنه ذكر مدة وإمهالاً بين مجيء الموت وردّهم إلى الله . فبعد أن قال : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ قال : ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ولم يقل : (فرُدّوا إلى الله) .

فالسياق مبني على الإمهال ، فناسب ذكر (ثم) دون الفاء .

٧ ـ قال : ﴿ بِمَا عَمِلُوٓاْۚ ﴾ بالماضي المنقطع ، وقال في آية سابقة من

السورة: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالماضي المستمر؛ وذلك لأن السياق في الآية السابقة في الاستمرار: استمرار المجاهدة وتطاولها، واستمرار المصاحبة بالمعروف، واستمرار الاتباع لسبيل المنيبين إلى الله.

هذا علاوة على أنه قال في الآية السابقة: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾.

و(ثم) تفيد المهلة والتراخي، وفي ذلك استمرار العمل. فناسب كل ذلك استمرار العمل في الماضي.

في حين قال في هذه الآية: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ . . . ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ فليس فيها استمرار، فناسب الماضي المنقطع.

٨ ـ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ﴾ ولم يقل: (إننا نعلم) ونحوه كما قال في (إلينا) و(فننبئهم) فرجع إلى المفرد بعد الجمع. وهذا شأن التعبير في القرآن، فإنه حيث ذكر ضميره تعالى بلفظ الجمع للتعظيم لا بد أن يذكر قبل ذلك أو بعده ما يدل على الإفراد حتى يُعلم أنه واحد.

٩ ـ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ولم يقل: (ومن كفر فإن الله عليم به) وذلك لإفادة الشمول. ولو قال: (فإن الله عليم به) لقصر علمه على من كفر، فلما قال: (عليم بذات الصدور) أطلق شمول علمه بالنفوس عامة، فدخل في علمه هؤلاء وغيرهم.

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى أن (ذات الصدور) تعني خفايا النفوس فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ليشمل الخفايا. ولو قال: (عليم به) لم يدل على أنه يعلم الخفايا.

وقال: (بذات الصدور) ولم يقل: (بذات صدورهم) ليشمل علمه ما في النفوس عمومًا وليس ما في نفوسهم خاصة.

١٠ ـ إن قوله: ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾ يشمل العلم بالأعمال الظاهرة، وقوله: ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ يشمل خفايا النفوس.

فشمل علمه ماظهر وما خفي.

١١ ـ قال: (عليم) ولم يقل: (عالم) للدلالة على المبالغة في علمه بما في النفوس.

١٢ ـ وأكد ذلك بـ (إن) للدلالة على تأكيد هذا العلم الواسع، والله أعلم.

* * *

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾

قوله: (قليلاً) يحتمل أنه وصف للمصدر المحذوف، أي مفعول مطلق بمعنى نمتعهم تمتيعًا قليلاً، ويحتمل أنه وصف للزمان المحذوف، أي ظرف زمان بمعنى نمتعهم زمانًا قليلاً، وقد حذف الموصوف ليشمل المعنيين، أي نمتعهم تمتيعًا قليلاً زمانًا قليلاً، وهو من التوسع في المعنى، فلو قال: (نمتعهم تمتيعًا قليلاً) لانحصرت القلة في التمتيع، ولو قال: (نمتعهم زمانًا قليلاً) لانحصرت القلة في الزمان، فحذف الموصوف ليشمل المعنيين جميعًا، والله أعلم.

﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾

وصف العذاب بأنه غليظ تنزيلاً للعذاب في منزلة الأشياء الملموسة، وهو مجاز.

وقد تقول: لقد قال في البقرة: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وبين التعبيرين أوجه اختلاف منها:

١ ـ أنه قال في لقمان: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ بضمير الجمع للكفرة ، وهو المفعول به (هم) في الفعلين.

وقال في البقرة: ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ بضمير الإفراد وهو الهاء في الفعلين ، مع أنه قال في الآيتين: (ومن كفر).

٢ ـ أسند الفعل في لقمان إلى ضمير الجمع المستتر وهو الفاعل ، وتقديره (نحن) في الفعلين.

وأسنده في البقرة إلى الفاعل المفرد فقال: ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ وهو ضمير مستتر تقديره (أنا) في الفعلين.

فيكون كل من الفاعل والمفعول به جمعًا في لقمان، ومفردًا في البقرة.

٣ ـ قال في لقمان: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ولم يقل مثل ذلك في البقرة.

٤ ـ جعل جواب الشرط في لقمان: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ. . .﴾.

وجعل جواب الشرط في البقرة: ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾.

٥ ـ قال في لقمان: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

وقال في البقرة: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

فما سبب هذا الاختلاف؟

فنقول: إن سياق كل من الآيتين يوضح سبب ذلك.

أما آية لقمان فقد ذكرنا سياقها.

وأما آية البقرة فهي: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

فنقول الآن: أما التعبير عن الكفرة بضمير الإفراد في البقرة وبضمير الجمع في لقمان، وأعني بذلك المفعول به في الفعلين، فذلك أن الكلام في البقرة على أهل بلد واحد وهو مكة، وذلك أن إبراهيم عليه السلام دعا لأهل مكة بقوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم. . .﴾ فالكلام على من كفر من أهل مكة خاصة.

وأما في لقمان فالكلام عام.

ومن كفر من أهل مكة بالقياس إلى الكفار في عموم أهل الأرض قلة جدًّا، فعبر عن القلة بضمير المفرد وعن الكثرة بضمير الجمع. وهناك سبب آخر نذكره في موضعه.

وأما إسناد الفعل في البقرة إلى ضمير الإفراد، وفي لقمان إلى ضمير الجمع، وأعني بذلك الضمير المستتر في الفعلين وهو الفاعل فذلك لما ذكرناه من أن ضمير التعظيم يسبقه أو يليه ضمير الإفراد، فكان ما في البقرة واقعًا بعد ضمير الجمع للتعظيم ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ. . . وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ فناسب الإفراد بعده.

أما في لقمان فقد وقع بعد الإفراد ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ. . . ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ. . . وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ فجاء بضمير الجمع للتعظيم.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه أضاف البيت إلى نفسه فقال: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ. . .﴾ فناسب أن يتولى بنفسه أهل بيته وحرمه فعبر عن ذلك بضمير الإفراد.

وهناك سبب آخر نذكره في موطنه.

وأما أنه لم يقل في البقرة كما قال في لقمان: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا

عَمِلُوٓاْۚ﴾ ، وإنما قال مباشرة: ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ فذلك لأن ذلك جواب عن دعوة إبراهيم عليه السلام ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ فالأمر يتعلق بالرزق وليس بالتبليغ ، ولذا جعل الجواب التمتيع .

أما في لقمان فإنه جعل الجواب: ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ﴾ لأنه في التبليغ ، ومن ناحية أخرى أن الكفار حاضرون في زمن الرسول معاندون له فقال: ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ﴾ .

وأما المذكورون لإبراهيم بقوله: (ومن كفر) فإنهم لم يخلقوا بعد فلا يناسب أن يقول: ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ﴾ .

وأما قوله في لقمان: ﴿ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ، وقوله في البقرة: ﴿ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فذلك أنه ذكر العذاب في البقرة لمن كفر من أهل بلد الله الحرام ، والسيئة في الحرم تتضاعف كما أن الحسنة فيه تتضاعف ، فالذي يكفر وهو في بلد الله الحرام ليس كمن يكفر خارج البلد الحرام ، والذي يعصي ربه في البلد الحرام ليس كمن يعصيه في مكان آخر ، ولذلك قال فيمن كفر من أهل البلد الحرام: ﴿ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ والتصريح بالتعذيب بالنار أشد من التهديد بالعذاب الغليظ. فإنك قد تقول: سأعذبك عذابًا غليظًا ولا تعني أنك ستحرقه بالنار حتمًا.

ومما يدل على ذلك أيضًا إسناد الفعل إليه بضمير الإفراد (أمتع . . . أضطره) فإن التهديد بذلك أشد من قوله: (نمتع ، نضطر) وذلك لأنه كأنه يتولاه بنفسه.

ومما يدل على ذلك أيضًا أنه ذكر الكافر بضمير الإفراد وهو الهاء ، والتعبير بالإفراد أشد تهديدًا ووعيدًا من تهديد الجمع ؛ لأنه يعني أنه يتولى من كفر واحدًا واحدًا فيعذبه ، والوحدة فى نفسها عذاب وقد

أضاف إليها عذاب النار.

فالتهديد والتعذيب لمن كفر في البلد الحرام أشد من عدة نواح، منها:

١ ـ أنه أسند ذلك إلى نفسه بضمير الإفراد فكأنه يتولى التعذيب بنفسه.

٢ ـ أنه صرح بعذابهم في النار وبئس المصير.

٣ ـ وأنه ذكر الكفار بضمير الإفراد، فكأنه يعذب كل واحد بمفرده فلا يرى معه أحدًا فيكون التعذيب بالنار والوحدة، نعوذ بالله من ذلك جميعًا، والله أعلم.

* * *

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ باللام الموطئة للقسم، ولم يقل: (وإن سألتهم)، ويؤتى بهذه اللام للدلالة على التوكيد وأن الكلام معها بمنزلة القسم، بل هو قسم عند النحاة.

وهذا يدل على أنهم يعلمون يقينًا أن الذي خلق السماوات والأرض إنما هو الله لا يشكّون في ذلك ولا يترددون في الإجابة، ولذا أجاب بما يجاب به القسم ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ باللام ونون التوكيد.

وقال: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ والتقدير (ليقولن خلقهن الله) غير أنه لم يذكر الفعل (خلقهن) إيجازًا.

إن كل الآيات التي سألهم فيها: من خلق السماوات والأرض أو من خلقهم قال الله فيها: (ليقولن الله) من دون أن يقول: (خلقهن الله) أو

(خلقنا الله) إلا آية واحدة ذكر فيها الفعل وهي قوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩].

فقال: ﴿ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾.

إن المعنى معلوم سواء ذكر الفعل أم لم يذكر لتقدم ما يدل عليه، غير أنه يحذف إذا أراد الإيجاز ويذكر إذا أراد أن يتوسع في الكلام ويؤكد.

وقد ذكر الفعل في آية الزخرف؛ لأنه أراد أن يتوسع في الكلام على الخلق فقال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ [الزخرف: ٩ ـ ١٣].

فذكر الفعل (خلقهن) لأنه ذكر بعده ما يتعلق بالخلق.

أما الآيات التي لم يذكر فيها الفعل (خلق) في الجواب فإنه لم يتحدث عن الخلق بعدها، وقد لا يقول غير (الحمد لله)، وإليك بيان ذلك:

قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦١]، ولم يذكر شيئًا عن الخلق، وقال بعدها: ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [العنكبوت: ٦٢]، فذكر بعدها ما يتعلق بالرزق لا بالخلق.

وقال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [لقمان: ٢٥]، وانتقل بعدها إلى أمر آخر غير الخلق فقال: ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [لقمان: ٢٦]، فذكر الملك ولم يذكر الخلق، وليس من اللازم أن يكون المالك خالقًا،

فقد يملك الشخص أشياء ليس هو خالقها أو صانعها.

وقال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر: ٣٧]، ولم يذكر بعدها شيئًا يتعلق بالخلق، وإنما انتقل إلى ما يعبدونه من دون الله فقال: ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨].

وقال في موطن آخر من سورة الزخرف: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ولم يذكر شيئًا يتعلق بالخلق، وإنما قال بعدها: ﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٨].

فناسب ذكر (خلقهن) في آية الزخرف التاسعة دون بقية الآيات، والله أعلم.

* * *

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾

لأن الحجة قامت عليهم ولزمتهم وأبرأت نفسك أمام الله، وقل الحمد لله الذي هدانا للحق ولم نكن مثلهم فنكون ممن يدعوهم الشيطان إلى عذاب السعير. وقل الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض، فهو مستحق الحمد كله ومستحق العبادة وحده.

* * *

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

لا يعلمون أن الذي خلق السماوات والأرض هو وحده المستحق للعبادة وأنه لا شريك له.

إنهم يعلمون شيئًا مهمًا وهو أن الله هو الذي خلق السماوات والأرض

ولكن لا يعلمون ماذا ينبني على هذا العلم. إنهم كمن يعلم البديهيات ولا يعلم ما ينبني عليها.

مثلهم في ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ مثل من يعرف أباه، وأنه هو الذي رباه وأنفق عليه وأغدق عليه النعم وأنه لا يزال يتعهده وينفق عليه ولكنه مع ذلك لا يعلم أن عليه أن يطيعه ويشكره، فيطيع ويشكر من لا فضل له ولا منّة ولا نعمة، بل هو يطيع عدوه وعدو والده، وقد ذكّره أبوه بما يعلم وماذا عليه من الحقوق تجاهه فأبى عليه مع كل ذلك.

فأيّ جحود هذا وما قيمة العلم بفضل أبيه عليه؟!.

جاء في (روح المعاني): «﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إلزامهم وإلجائهم إلى الاعتراف بما يوجب بطلان ما هم عليه من إشراك غيره تعالى به جل شأنه في العبادة التي لا يستحقها غير الخالق والمنعم الحقيقي...

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك يلزمهم، وفيه إيغال حسن، كأنه قال سبحانه: وإن جهلهم انتهى إلى أن لا يعلموا أن الحمد لله» (١).

قد تقول: لقد قال في لقمان: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فنفى عنهم العلم.

وقال في سورة العنكبوت: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، فنفى عنهم العقل، والذم بعدم العقل أشد من الذم بعدم العلم، ذلك أن نفي العقل يعني المساواة بالبهائم. فإن ذا العقل يتعلم، أما فاقد العقل فلن يتعلم، فما سبب هذا الاختلاف؟.

والجواب: أن السياق في كل من الموطنين يوضح ذلك:

---

(١) روح المعاني ٢١/ ٩٦.



قال في لقمان: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقال في العنكبوت: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١ ـ ٦٣].

ومن النظر في النصين نرى أنه سألهم في لقمان سؤالاً واحدًا وهو: من خلق السماوات والأرض؟

وسألهم في العنكبوت عدة سؤالات: من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر؟ ومن نَزَّل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها؟.

وأجابوا عن كل ذلك أنه الله.

فمعرفتهم بكل ذلك مع إيمانهم بوحدانيته تعالى دليل على عدم عقلهم. فإنهم يؤمنون بكل المسلمات الأساسية للتوحيد ومع ذلك لم يستطيعوا الإيمان به، أي بالتوحيد.

ومعنى هذا أنه ليس عندهم من العقل ما يترقون به من المسلمات إلى النتائج الظاهرة، ولو كان عندهم شيء من العقل لأدركوا أن من يفعل ذلك كله هو المستحق بأن يفرد بالعبادة منزهًا عن الشريك.

أما في لقمان فإن السؤال الذي سألهم إياه هو أحد السؤالات التي سألها في العنكبوت فكان الأمر أيسر، فرماهم بما هو أيسر وهو نفي العلم دون العقل، والله أعلم.

* * *

﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾

قدم الجار والمجرور (لله) الذي هو الخبر على المبتدأ وهو قوله: (ما في السماوات) للحصر: أي أن ما في السماوات والأرض لله حصرًا وليس لغيره.

لقد ذكر هنا أن له ما في السماوات والأرض، وقد ذكر قبل هذه الآية أنه خلق السماوات والأرض فقال: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ . . . ﴾، وقال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ ﴾ فدل ذلك على أن له السماوات والأرض وما فيهن، فإنه قد يملك الإنسان ما في الظرف ولا يملك الظرف، والعكس صحيح، فقد يملك الظرف ولا يملك ما فيه، فذكر في هذه الآية والتي قبلها أن له الظرف وما فيه، أي له السماوات والأرض وما فيهن.

لقد دلّ بهذه الآية وما قبلها أن الله مالك السماوات والأرض ومالك ما فيهما.

ودل قوله: ﴿ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، وقوله: ﴿ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ ﴾ على أنه المتصرف فيهما، فدل على أنه المالك لهما ولما فيهما والمتصرف فيهما فهو الغني الحميد.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾

ذكر هذا بعد قوله: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾، وقوله: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓۚ ﴾، وهذا نظير ما مَرَّ من قوله: ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾.

فإن قوله: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ نظير قوله:

﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ﴾ نظير قوله : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

و(الحميد) كما ذكرنا معناه المحمود على جهة الثبوت ، فهو المحمود في غناه والمحمود في كل شيء. وهو مناسب لقوله: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ ، فمن له الحمد هو الحميد.

إن قوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ ، وقوله : ﴿ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ مناسبان لاسمه (الغني) .

وقوله: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ مناسبان لاسمه (الحميد) .

فارتبط ذلك بما سبق أجل ارتباط وأحسنه .

جاء في (التفسير الكبير): «إن السماوات وما فيها والأرض وما فيها إذا كانت لله ومخلوقة فالكل محتاجون ، فلا غني إلا الله فهو الغني المطلق ، وكل محتاج فهو حامد لاحتياجه إلى من يدفع حاجته ، فلا يكون الحميد المطلق إلا الغني المطلق فهو الحميد ، وعلى هذا يكون الحميد بمعنى المحمود» [١] .

وقد تقول: لقد قال ههنا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾

وقال في سورة الحج : ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ ، فزاد اللام وأدخلها على ضمير الفصل فقال: ﴿ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ﴾ فما سبب ذلك؟ .

والجواب: أنه فصّل في الملك في سورة الحج ما لم يفصل في لقمان فقال: ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فذكر (ما) مع السماوات ومع الأرض ، وليس التعبير كذلك في لقمان فإنه لم يكرر (ما) ، والتكرار

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ١٢٧ .

يفيد التوكيد والتوسع في الكلام فأكد التعبير ووسعه بزيادة اللام في الحج.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه قال في لقمان: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ فجعل ملكه للسماوات والأرض دليلاً على غناه.

وأما في الحج فقال: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ فجاء بالواو فاصلة بين الغنى والملك، فذكر أن له ما في السماوات وما في الأرض وزاد عليه وصف الغني، فلو زالت السماء والأرض لكان غنيًّا حميدًا بغيرهما بل لكان هو الغني الحميد.

وهو كما تقول: (فلان يملك مائة دار وألف بستان إنه غني) فجعلت غناه في ذلك، أو جعلت ذلك دليلاً على غناه.

وتقول: (فلان يملك مائة دار وألف بستان وإنه غني) أي هو غني من دون ما ذكرت من الملك، فلو ذهبت مائة الدار وألف البستان لم يؤثر ذلك في غناه.

فذكر في الحج ما هو أوسع وأدل على الغنى فناسب زيادة اللام.

قد تقول: لقد يقول الله أحيانًا: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ [آل عمران: ١٨٩]، [المائدة: ١٧، ١٨] أو ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّۚ﴾ [المائدة: ١٢٠].

ويقول أحيانًا أخرى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ فما الفرق؟

والجواب: أن قوله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يفيد أنه الملك والحاكم والمسخر لهن، فإن (المُلك) بضم الميم من الحكم، قال الله على لسان فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓۖ﴾ [الزخرف: ٥١].

وأما قوله: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ فيفيد التملك، فهي مملوكة له وهو المالك لهنّ، فدلّ ذلك، أي قوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾، وقوله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ على أنه المالك والملك، كما قال تعالى: ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ فهو مالكهما وملكهما لا مالك غيره ولا ملك سواء فهو الغني الحميد.

* * *

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

لما ذكر أن الله له ما في السماوات والأرض لربما ظن ظان أن هذا جميع ملكه، فجاء بعده بما يدل على أنه لا حدود لملكه وخزائنه وقدرته فقال: لو أن كل شجرة في الأرض بريت أقلامًا، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر يكتب بها، ما نفدت كلمات الله وعجائب قدرته.

جاء في (التفسير الكبير): «لما قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ وكان ذلك موهمًا لتناهي ملكه لانحصار ما في السماوات وما في الأرض فيهما، وحكم العقل الصريح بتناهيهما بين أن في قدرته وعلمه عجائب لا نهاية لها فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ ويكتب بها والأبحر مداد لا تفنى عجائب صنع الله»[(١)].

وجاء في (الكشاف): «فإن قلت: لم قيل: (من شجرة) على التوحيد دون اسم الجنس الذي هو شجر؟

قلت: أريد تفصيل الشجر وتعقبها شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة إلا قد بريت أقلامًا.

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ١٢٧.

فإن قلت: الكلمات جمع قلة ، والموضع موضع التكثير لا التقليل ؛ فهلا قيل: كلم الله؟

قلتُ: معناه أن كلماته لا تفي بكتبتها البحار فكيف بكلمه؟» [١] .

وجاء في (البحر المحيط): «وفي هذا الكلام من المبالغة في تكثير الأقلام والمداد ما ينبغي أن يتأمل ، وذلك أن الأشجار مشتمل كل واحدة منها على الأغصان الكثيرة ، وتلك الأغصان كل غصن منها يقطع على قدر القلم فيبلغ عدد الأقلام في التناهي إلى ما لا يعلم به ولا يحيط إلا الله تعالى» [٢] .

* * *

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

إنه عزيز بقدرته التي لا تُحَدّ ، وعلمه الذي لا ينتهي ، وخزائنه التي لا تنفد ، حكيم لا يصدر فعله إلا عن حكمة.

وقد تقول: لقد قال ههنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وقال في آية سابقة من السورة: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ بتعريف الاسمين الكريمين فلم ذاك؟

والجواب: أن الآية السابقة إنما هي في الآخرة ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [لقمان: ٨ ـ ٩] ، ومن المعلوم أنه لا يبقى آنذاك عزيز إلا هو ولا حاكم إلا هو.

لقد كان الناس في الدنيا يرون أشخاصًا أعزة ويرون ملوكًا وحكامًا يتداولون الملك والحكم ، أما في الآخرة فيرى الخلق جميعًا مؤمنهم

---

(١) الكشاف ٥/ ٢١ ـ ٢٢.

(٢) البحر المحيط ٧/ ١٨٧.



وكافرهم أن لا عزيز إلا هو ولا ملك إلا هو كما قال تعالى: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الحج: ٥٦]، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي لا عزيز غيره ولا حكيم فناسب التعريف.

وقد تقول: ولمَ لم يؤكد ذلك بإن فيقول: (إنه هو العزيز الحكيم) كما أكده في الآية هذه؟

فنقول: ليس في ذلك الوقت أحد يشك أو ينكر عزة الله وحكمه وحكمته، بل كلهم يرى ذلك ويسلم به فلا حاجة إلى التوكيد، بخلاف ما في الدنيا، فناسب كل تعبير موضعه، والله أعلم.

* * *

﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝٢٨﴾

ارتبطت هذه الآية بما قبلها وبما بعدها أحسن ارتباط وأوثقه.

فإنّ خلق الناس من كلمات الله.

وإن بعثهم من كلمات الله.

وإن خلقهم كنفس واحدة من كلمات الله.

وإن بعثهم كنفس واحدة من كلمات الله التي لا تنفد.

كما ارتبطت بخاتمة الآية السابقة.

فإن الخالق عزيز حكيم، ذلك أن الخالق له العزة، فالمخلوقات كلها من صنعه، وأنها طائعة لأمره، فارتبط ذلك باسم العزيز.

والخالق حكيم، حكيم في خلقه وصنعه. وهو خلقهم لحكمة أرادها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [الملك: ٢]، فارتبط باسمه الحكيم، فهو خلقهم بحكمة وخلقهم لحكمة، فهو حكيم في

الصنع وحكيم في الغرض الذي خلقهم من أجله.

والذي يبعث الخلائق للحساب والجزاء عزيز حكيم.

فإنه عزيز لأنه يجازي ويعاقب ويعذب ولا رادّ لأمره.

وهو حكيم بمعنى الحكمة وبمعنى الحكم، فإن البعث ومحاسبة الخلائق كل ذلك لحكمة واضحة بينة، فإنه ليس من الحكمة أن يترك عباده هملاً من دون حساب، تعالى الله عن ذلك، كما قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٥ ـ ١١٦].

وهو حكيم بمعنى الحكم؛ لأنه سيحاكمهم ويحكم بينهم كما قال تعالى: ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦].

وقد ارتبطت الآية بما بعدها وهو قوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩]، وهذا الأجل المسمى هو الذي يبعث الله الخلائق فيه، وهم يجرون كجري الشمس والقمر إلى ذلك اليوم.

كما ارتبطت بجو السورة التي شاع فيها ذكر الخلق والبعث.

فقد قال: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [لقمان: ١٠]، وقال: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١]، وقال: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

هذا في الخلق.

وأما البعث فهو شائع في السورة من أولها إلى آخرها كما سبق أن ذكرنا. فقد قال في أول السورة: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، وقال في آخرها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ... إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾.



وارتبطت بمقاصد السورة وهي عبادة الله وتثبيت عقيدة اليوم الآخر وآداب السلوك وإحسان العمل.

فالذي يخلق يستحق العبادة دون من سواه ، وإذا كان يخلق الخلق كنفس واحدة كانت العبادة له ألزم.

والذي يبعث الخلق يستحق العبادة دون من سواه ، وإذا كان يبعثهم كنفس واحدة كانت العبادة له ألزم.

والغرض من الخلق إنما هو العبادة وإحسان العمل ، وإحسان العمل من العبادة كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢].

والبعث إنما هو للجزاء على العمل.

* * *

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾

قد تقول: أليس من الأولى أن يقال ههنا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾؟

فنقول: إن الآية التي تساق قد تحتمل أكثر من خاتمة ، فيمكن أن تجعل (إن الله على كل شيء قدير) خاتمة لكثير من الآيات في السورة ، فكان من الممكن أن تجعل خاتمة لقوله: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا . . . ﴾ ، وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ . . . ﴾ ، وقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ . . . ﴾ وغيرها. وقد تحتمل خواتيم أخرى ، وكذلك الأمر في السور الأخرى. ولكن اختيار الخاتمة ينبغي أن يكون مناسبًا للسياق الذي وردت فيه الآية والغرض الذي ذكرت من أجله. والآية ينبغي ألا تؤخذ بمفردها بل ينبغي أن توضع في سياقها الذي وردت

فيه لتفهم مقاصدها واختيار ألفاظها وتعابيرها .

فينبغي أن ننظر مثلاً هل الآية واردة في سياق بيان القدرة الإلهية وسعتها ، أو هي واردة في بيان الحكمة ، أو في بيان التفضل والنعمة ، أو في بيان الغنى ، أو لبيان الصفات الإلهية الأخرى ، أو في بيان موقف الإنسان من ذلك ، إلى غير ذلك من الأغراض .

ولأضرب مثلاً على ذلك بإنزال الماء من السماء وإخراج الزرع والفواكه والحبوب به .

فهذا يمكن أن يساق في بيان قدرة الله ، ويمكن أن يساق في بيان نعمة الله على الإنسان والحيوان ، ويمكن أن يساق في بيان الاستدلال على البعث والنشور ، ويمكن أن يساق في بيان جحود الإنسان لنعمة ربه ، واختيار الخاتمة ينبغي أن يكون موافقًا للغرض الذي وردت من أجله الآية .

وهذا يجري في حياتنا اليومية كثيرًا فقد تذكر أمرًا واحدًا لكن الغرض من ذكره يختلف ، فقد تذكر مثلاً حادثة غريبة تدل على كسل شخص ، ولكن قد تذكر الحادثة لبيان صفة هذا الشخص أو للتندر منه أو لبيان أن هذا الشخص لا ينبغي أن يكون في المكان الذي عهد به إليه أو أنه سيفرط في المسألة التي أنيطت به أو غير ذلك ، ثم يكون التعقيب بعد ذلك مناسبًا للغرض الذي أوردت من أجله الحادثة .

وهكذا ينبغي أن نتأمل في خواتيم الآي وسبب ورودها على هذا النحو دون ذاك ، فإن ذلك يهدينا إلى مقاصد التعبير وأغراضه في القرآن الكريم ، وستنكشف لنا أمور في غاية الدقة وحسن الاختيار[١] .

وقد ارتبطت خاتمة الآية ههنا بسياق الآية أحسن ارتباط وأوثقه ، فإن

---

(١) انظر مبحث (فواصل الآي) في كتابنا (التعبير القرآني) .



الآية هي ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ .

فابتدأت بالخلق والبعث وختمت بالسمع والبصر .

والخالق لا بد أن يكون سميعًا بصيرًا .

والذي يبعث الخلائق من مدافنها لا بد أن يكون سميعًا بصيرًا .

والخالق الذي يخلق عباده ليعبدوه وليبلوهم أيهم أحسن عملاً لا بد أن يكون سميعًا لأقوالهم بصيرًا بأعمالهم .

والذي يبعثهم ليحاسبهم على أقوالهم وأفعالهم لا بد أن يكون سميعًا لما قالوه في الدنيا ولما يحتجون به في الآخرة ، بصيرًا بهم وبأعمالهم وبما أعدّ لهم ، وأنه لا يندّ عنه من الخلائق أحد فلا يبقى أحد من دون بعث ولا حساب .

ثم إن أعمال الإنسان منها ما يسمع ومنها ما يبصر ومنها ما يضمر .

فقال ههنا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ فشمل ما يسمع وما يبصر وما يضمر .

ذلك أن (البصير) ههنا يحتمل أن يكون من معنى الرؤية ، ويحتمل أن يكون من معنى البصيرة كما قال تعالى: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴾ [القيامة: ١٤] ، وقوله: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٤] ، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

فقوله: (سميع) يشمل ما يسمع .

وقوله: (بصير) يشمل ما يبصر وما يضمر . هذا إضافة إلى أنه قال في آية سابقة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ فذكر ما يضمر تنصيصًا ، فشمل كل ما يسمع ويبصر ويضمر .

لقد قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ ولم يقل: (إن الله هو السميع البصير) ذلك أن معنى (هو السميع البصير) المتفرد بالسمع والبصر، غير أنه قد أثبت السمع والبصر لخلقه. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ...﴾، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ...﴾.

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾.

فأثبت الرؤية لهم.

وقال: ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ فأثبت له السمع لكنه يعمل نفسه كأنه لم يسمعها، وقد وضع الله الأذنين للسمع.

وقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ...﴾ وهذا إثبات للسمع، فالمجادل يسمع ولا شك.

وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ وهذا إثبات للسمع أيضًا، فإنهم ردوا على القول.

وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

فأجابوا عن السؤال.

وكل هذا إثبات للسمع.

فأثبت الرؤية والسمع لخلقه، فكان ما قاله أولى.

ثم إنه قدم السمع على البصر وهو شأن أكثر ماورد في القرآن الكريم، وقد ذكرنا تعليلاً لذلك في كتابنا (التعبير القرآني) فلا نعيد القول فيه[١].

* * *

---

(١) انظر التعبير القرآني باب (التقديم والتأخير).



﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

ذكر في السورة أولاً خلق السماوات ، وذكر ما يتعلق بالأرض من إلقاء الرواسي وغيرها فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ. . .﴾

ثم ذكر تسخير ما فيهما على العموم فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ .

ثم ذكر في هذه الآية وما بعدها تسخير بعض ما فيهما فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ ، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ. . .﴾ .

جاء في (التفسير الكبير): «يحتمل أن يقال: إن وجه الترتيب هو أن الله تعالى لما قال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ على وجه العموم ذكر منها بعض ما هو فيهما على وجه الخصوص بقوله: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ ، وقوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ إشارة إلى ما في السماوات ، وقوله بعد هذا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ. . .﴾ إشارة إلى ما في الأرض»[1] .

لقد قال ههنا: (ألم تر) بخطاب المفرد ، وقال في آية التسخير الأولى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم﴾ بخطاب الجمع ، ذلك أن سياق الكلام في الآية الأولى في خطاب الجمع ، فقد قال: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ فقال: (ترونها) ، ثم قال: (بكم) على خطاب الجمع ، ثم قال: ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ١٢٩ .

﴿دُونِهِۦٓ﴾ فقال: (أروني) بخطاب الجمع، فناسب فيها خطاب الجمع.

أما هذه الآية، أعني ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ . . .﴾، فقد جاءت في سياق خطاب المفرد، فقد قال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ فقال: (فلا يحزنك) بخطاب المفرد، ثم قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فقال: (سألتهم) بخطاب المفرد، ثم قال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فقال: (قل) بخطاب المفرد، فناسب خطاب الإفراد، واستمر في خطاب المفرد بعد ذلك فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ﴾.

وقد تقول: ولكنه خاطب الجمع قبل هذه الآية فقال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾.

فنقول: لا يصح هنا خطاب المفرد، فلا يصح أن يقال: (ما خلقك ولا بعثك إلا كنفس واحدة) فإنه نفس واحدة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه لما ذكر ما في السماوات وما في الأرض على العموم خاطب العموم فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ولما ذكر بعض ما فيهما خاطب المفرد فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ . . .﴾ فناسب العموم العموم، وناسب التخصيص الإفراد، والله أعلم.

* * *

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾

بدأ بالليل لأن الليل أقدم وأسبق من النهار، ذلك أنه قبل خلق الشمس لم يك نهار. وقدم الشمس على القمر لأنها أقدم وأسبق من القمر، والله أعلم.

وجاء بالفعل (يولج) مضارعًا لأن ذلك يتجدد في كل لحظة، وجاء



بالفعل (سخر) ماضيًا لأن ذلك لا يتجدد تجدد الإيلاج.

جاء في (التفسير الكبير): «قال: (يولج) بصيغة المستقبل، وقال في الشمس والقمر: (سخر) بصيغة الماضي؛ لأن إيلاج الليل في النهار أمر يتجدد كل فصل بل كل يوم، وتسخير الشمس والقمر أمر مستمر»[1].

وجاء في (روح المعاني): «وعطف قوله سبحانه: (سخر) على قوله: (يولج)، والاختلاف بينهما صيغة لما أن إيلاج أحد الملوين في الآخر متجدد في كل حين، وأما التسخير فأمر لا تعدد فيه ولا تجدد، وإنما التعدد والتجدد في آثاره»[2].

وقال: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ ولم يقل: (وسخر لكم) كما في الآية الأولى لأنه ليس المقام ههنا مقام تعداد النعم كما في الآية الأولى، وإنما في بيان آيات الله، كما قال تعالى: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾.

ثم إنه من ناحية أخرى قال: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ فذكر أن لهما أجلاً مسمى، ولا يناسب ذلك ذكر النعم، فإن من تمام النعمة الدوام وهنا ذكر الانقطاع، ولذا حيث قال: (سخر لكم) لم يقل: (إلى أجل مسمى)[3].

* * *

﴿كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾

قال ههنا: ﴿يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ﴾ فعَدَّى الفعل (يجري) بإلى، وقال في آيات أخرى: ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ فعداه باللام[4].

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ١٣٠.

(٢) روح المعاني ٢١/ ١٠٢.

(٣) انظر على سبيل المثال سورة إبراهيم ٣٣، النحل ١٢.

(٤) انظر سورة الرعد ٢، فاطر ١٣، الزمر ٥.

ومما ذكر في الفرق بينهما أن (إلى) تفيد انتهاء الغاية ، واللام تفيد الاختصاص وتفيد التعليل ، فمعنى (يجري لأجل) أنه يجري لهذه الغاية ، أي لإدراك الأجل المسمى ، كما تقول: يجري لغرض وصول الهدف وبلوغه .

ومعنى (يجري إلى أجل) أنه يجري إلى أن يبلغ الأجل المسمى .

ومجيء (إلى) في هذه الآية أنسب لأنها جاءت في سياق الآيات المنبهة على الحشر والإعادة. جاء في (درة التنزيل): «للسائل أن يسأل عن اختصاص ما في سورة لقمان بقوله: ﴿ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وما سواه إنما هو يجري لأجل مسمى .

والجواب أن يقال: إن معنى قوله: ﴿ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يجري لبلوغ أجل مسمى ، وقوله: ﴿ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ ﴾ معناه: لا يزال جاريًا حتى ينتهي إلى آخر وقت جريه المسمى له .

وإنما خصّ ما في سورة لقمان بـ (إلى) التي للانتهاء واللام تؤدي نحو معناها لأنها تدل على أن جريها لبلوغ الأجل المسمى ؛ لأن الآيات التي تكتنفها آيات منبهة على النهاية والحشر والإعادة ، فقبلها: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ ، وبعدها ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ ﴾ ؛ فكان المعنى: كل يجري إلى ذلك الوقت وهو الوقت الذي تكوّر فيه الشمس وتنكدر فيه النجوم كما أخبر الله تعالى .

وسائر المواضع التي ذكرت فيها اللام إنما هي في الإخبار عن ابتداء الخلق وهو قوله: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ۝٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾

فالآيات التي تكتنفها في ذكر ابتداء خلق السماوات والأرض وابتداء جري الكواكب وهي إذ ذاك تجري لبلوغ الغاية، وكذلك قوله في سورة الملائكة إنما هو في ذكر النعم التي بدأ بها في البر والبحر، إذ يقول: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾.

فاختص ما عند ذكر النهاية بحرفها، واختص ما عند الابتداء بالحرف الدال على العلة التي يقع الفعل من أجلها»[(١)].

وقال: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ولم يقل: (إلى أجل) ليدل على أن مدة جريها محددة مسبقًا.

وقال بعد ذلك: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ إلماحًا إلى أن هذا الأجل المسمى هو وقت النظر في الأعمال والمحاسبة عليها، فارتبط قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ بقوله: ﴿كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

وارتبط أيضًا بقوله: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وقوله: ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾، وارتبط أيضًا بما بعده من التحذير من اليوم الآخر.

وقدَّم الجار والمجرور (بما تعملون) على (خبير) للاهتمام بالعمل. وناسب هذا الاهتمام ما تردد في السورة من ذكر الأعمال والتنبيء بها ومآل أصحابها، والله أعلم.

* * *

---

(١) درة التنزيل ٣٧٤ ـ ٣٧٥، وانظر معاني النحو ٣/ ٦٢.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٣٠ ﴾

أي ما ذكره من إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل وتسخير الشمس والقمر وغير ذلك مما ذكر ؛ إنما كان بسبب أن الله هو الحق الخالق الموجد القادر وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ؛ لأنها عاجزة عن أي شيء.

وأن ما أمر به أو نهى عنه إنما يجب طاعته فيه لأنه الحق ، فكل ما ذكره عنه من صفات الكمال والقدرة إنما هو بسبب أنه الحق.

وكل أوامره ونواهيه لازمة بسبب أنه الحق.

فقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ تعليل لكل أفعاله وصفاته وتعليل للزوم طاعة كل أوامره ونواهيه.

ثم إنه لم يقل: (ذلك بأن الله حق) فيجعله من جملة ما هو حق ، وإنما قال: (هو الحق) للدلالة على أنه لا حق سواه ، فإنه لولا الله لم يكن شيء في الوجود أصلاً ، فإن الله هو الحق الأول والآخر ، وهو الحق الذي لولاه لم يكن هناك حق أصلاً ، ولكان كل شيء باطلاً غير موجود.

قد تقول: ولكن هناك أشياء أخرى توصف بأنها حق ، فإن الجنة حق ، وإن النار حق ، وإن النبيين حق ، وإن الملائكة حق كما قال ﷺ.

فنقول: ومن ينكر ذلك؟

ولكن كل ما ذكرته وما لم تذكره مما هو حق إنما هو حق بإيجاد الله له وهو يكتسب هذا الحق من الله ، فلو لم يكن الله موجودًا لم يكن شيء مما ذكرت ولا غيره ، فإن الله هو الحق الأول وهو الذي يحق الحق ويبطل الباطل.

جاء في (التفسير الكبير): «ما معنى قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ وأي تعلق له بما تقدم؟.

الجواب فيه وجهان:

أحدهما: أن المراد أن ذلك الوصف الذي تقدم ذكره من القدرة على هذه الأمور إنما حصل لأجل أن الله هو الحق، أي هو الموجود الواجب لذاته الذي يمتنع عليه التغيير والزوال فلا جرم أتى بالوعد والوعيد.

ثانيهما: أن ما يفعل من عبادته هو الحق وما يفعل من عبادة غيره فهو الباطل كما قال: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾» (١).

وجاء في (الكشاف): «ذلك الذي وصف من عجائب قدرته وحكمته التي يعجز عنها الأحياء القادرون العالمون، فكيف بالجماد الذي تدعونه من دون الله، إنما هو بسب أنه هو الحق الثابت إلهيته وأن من دونه باطل الإلهية» (٢).

وقال: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ بتكرار (أنّ) لتوكيد بطلان ما يدعون من دونه، فإنه كان من الممكن أن يقول: (وما يدعون من دونه الباطل) من دون تكرار لـ (أن) فيكون أقل توكيدًا.

ثم إنه عرّف الباطل وكان من الممكن أن يقول: (وأن ما يدعون من دونه باطل) فيجعل ما يدعون من دونه من جملة ما هو باطل. وما ذكره أولى، ذلك أنه لم يذكر مسألة ثانوية أو جزئية مما توصف بالبطلان، كأن تقول: أنت أخذت مني درهمًا وهذا باطل. أو تقول: أنت ذكرت أن ذلك الشيء البعيد حيوان مع أنه شجرة وهذا باطل. ولكنه ذكر أعظم المسائل

---

(١) التفسير الكبير ٨/ ٢٤٦.
(٢) الكشاف ٥/ ٢٣.

على الإطلاق وهي مسألة العبادة ، فهؤلاء المعنيّون اتخذوا من دون الله آلهة ، وهذا أكبر من الشرك ، فإن الشرك أن تتخذ مع الله إلهًا ، وهؤلاء اتخذوا من دونه آلهة ، وهذا أبطل الباطل. فإن كان الله هو الحق فما يدعون من دونه هو الباطل.

وعَرَّف الباطل للدلالة على أنه أظهر الباطل وأتمه ، فهو الباطل الظاهر التام.

وقال: (ما يدعون) دون (من يدعون) لإظهار شناعة فعلهم ، وذلك أن (ما) لغير العاقل ، فهم يدعون ما لا يعقل أصلاً وهو من أظهر الباطل.

وقد تقول: لقد قال ههنا: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ من دون ضمير فصل ، وقال في سورة الحج: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢] ، فجاء بضمير الفصل مع الباطل فقال: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ فما السبب؟.

فنقول: إن سياق كل من الآيتين يوضح سبب ذلك ، «فآية الحج واقعة في سياق الصراع مع أهل الباطل ومجاهدتهم أشق أنواع الجهاد. ويبدأ الصراع بعد ذكر الأمم السالفة وتكذيبهم لرسلهم بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الحج: ٥١] ، إلى أن يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الحج: ٥٨].

وهذا من نتائج الصراع: الهجرة من الديار والأرض والقتل والموت، فهنا أنصار الباطل ساعون لإطفاء نور الله معاجزون معاندون.

ولا تجد مثل هذا في سورة (لقمان) ، وإنما هو عرض لأصحاب الباطل من وجه آخر ليس فيه هذا الصراع ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١].

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٣ ـ ٢٥].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٢٩ ـ ٣٠].

فأنت ترى أن السياق مع أهل الباطل هنا يختلف. فهم في الصورة الأولى معاجزون معاندون مصارعون متمكنون في الأرض، نتيجته هجرة المؤمنين أو قتلهم أو موتهم، فاحتاج الأمر إلى زيادة تثبيت المؤمنين وعدم افتتانهم بسلطة أصحاب الباطل وتمكينهم من رقاب الناس، فإن للسلطان فتنة ورهبة، فاقتضى السياق توكيد أن ما هم عليه هو الباطل.

وأما الآية الثانية ففي سياق الجدل العقلي والمحاجّة بين الفريقين، وليس فيها ذكر لصولة الباطل وبطشه.

فلم يقتض السياق ما اقتضاه في الآية الأولى من التوكيد.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه لَمَّا تقدم في سورة الحج ذكر ما يدعون من دون الله من المعبودات الباطلة فقال: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١٢ ـ ١٣]، ولم يتقدم مثل ذلك في (لقمان) أكد ذلك في الحج.

جاء في (ملاك التأويل): «إن سورة الحج ورد فيها ما يستدعي هذا التأكيد بالضمير المنفصل ويناسبه وهو تكرر الإشارة إلى آلهتهم والإفصاح بذكرها تعريفًا بوهن مرتكبهم وشنيع حالهم ، وأوضح هذا التكرر وأشده ملاءمة الإتيان بهذا الضمير المعتد فصلاً أو متبدأ قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] ، وقوله في آخر السورة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: ٧٣] ، هذه الآية والتي ذكرنا قبلها أنسب شيء لقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]» [١] .

وجاء في (روح المعاني): «وكأنه إنما قيل هنا: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ بدون ضمير الفصل ، وفي سورة الحج ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ بتوسيط ضمير الفصل لما أن الحط على المشركين وآلهتهم في هذه السورة دون الحط عليهم في تلك السورة» [٢] .

وجاء في أيضاً أن زيادة (هو) في آية الحج دون آية لقمان لأن ما في الحج إنما «وقع بين عشر آيات كل آية مؤكدة مرة أو مرتين ، ولهذا أيضًا زيدت اللام في قوله تعالى الآتي: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ دون نظيره في تلك السورة.

ويمكن أن يقال: تقدم في هذه السورة ذكر الشيطان فلهذا ذكرت هذه المؤكدات، بخلاف سورة (لقمان) فإنه لم يتقدم ذكر الشيطان هناك» [٣] .

---

(١) التعبير القرآني ١٧٢ ـ ١٧٤ ، وانظر ملاك التأويل ٢/ ٧٢٤.

(٢) روح المعاني ٢١/ ١٠٤ .

(٣) [illegible] ١٧/ ١٥١



وقال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ ، فكرر (أنّ) وجاء بضمير الفصل وعرّف الخبر والصفة لحصر العلو والكبر فيه سبحانه ولبيان أنه لا عليّ ولا كبير غيره على الحقيقة ، فهو العلي القاهر كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨] ، وهو الكبير السلطان العظيم الشأن.

وقد ذكر هذين الاسمين الكريمين بعد أن وصف نفسه بالحق ووصف ما يدعونه بالباطل لبيان أن الحق عالٍ على وجه الثبوت والدوام ، وأنه يعلو الباطل ويزهقه ، فالحق عال ظاهر والباطل سافل مهين ، والحق كبير والباطل صغير صغارًا وصِغَرًا. فمهما انتفش وانتفخ فإنه قميء ذليل حقير.

وقد ذكر هذين الاسمين تطمينًا وتثبيتًا لأهل الحق ، وإنذارًا وتحذيرًا لأهل الباطل.

جاء في (التفسير الكبير): «أيّ تعلق لقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ بما تقدم؟.

والجواب: معنى العلي: القاهر المقتدر الذي لا يغلب ، فنبه بذلك على أنه القادر على الضر والنفع دون سائر من يعبد مرغبًا بذلك في عبادته زاجرًا عن عبادة غيره.

فأما الكبير فهو العظيم في قدرته وسلطانه ، وذلك أيضًا يفيد كمال القدرة» [(١)].

* * *

(١) التفسير الكبير ٢٣/ ٦١.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ ﴾

لما ذكر تسخير بعض ما في السماوات في آية سابقة ، ذكر في هذه الآية تسخير بعض ما في الأرض وهي الفلك .

فذكر هناك جري الشمس والقمر ، وذكر هنا جري الفلك .

ولما قال : ﴿ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ ﴾ ، وقال : ﴿ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ﴾ علمنا أن الله هو مُجريها ومسيّرها فأغنى ذلك عن أن يقول : (ألم تر أن الله يُجري الفلك) أو نحو ذلك .

وقوله : ﴿ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ ﴾ يفيد معنيين :

الأول : أنها تجري بسبب نعمة الله وهو تسخيرها وتسخير البحر ، فمن نعمة الله أنه سخر الفلك لنا كما قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [إبراهيم : ٣٢] ، وأنه سخر البحر لتجري فيه الفلك كما قال تعالى : ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [الجاثية : ١٢] .

والمعنى الآخر : أنها تجري بنعمة الله ، أي بما تحمله من البضائع مما أنعم الله به على الإنسان .

والمعنيان مرادان ، فهي تجري بنعمة التسخير ، وهي تجري بما تحمله من النعم .

* * *

﴿ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ﴾

وهي آيات عظيمة ، منها آيات في التسخير ، ومنها آيات في أسرار البحار وما أودع فيها من العجائب ، ومنها آيات في ضعف الإنسان وخوفه



وعجزه وإنابته إلى ربه حين يركب البحر ، وكيف يعود إلى ما كان عليه حين ينجيه إلى البر ، ومنها آيات في أهوال البحر وعجيب قدرة الله إذا شاء أن ينجي المرء بعد أن انقطعت به الأسباب . وغير ذلك من الآيات .

* * *

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

صبّار على طاعة الله وعلى ما يصيبه من الشدائد ، شكور على ما أفاض عليه من النعم أو على ما يمنّ عليه من النجاة .

فالصبر إما أن يكون صبرًا على الطاعة أو صبرًا على الشدة ، فالطاعات تحتاج إلى الصبر ، فالصلاة مثلاً تحتاج إلى الصبر كما قال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه : ١٣٢] ، والصوم يحتاج إلى الصبر ، بل إنه نصف الصبر كما قال ﷺ ، والجهاد يحتاج إلى الصبر . والطاعات كلها تحتاج إلى الصبر .

والشدائد تحتاج إلى الصبر كما هو معلوم .

والشكر يكون على النعمة ، ولذا كثيرًا ما تقترن النعمة بطلب الشكر في القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [النحل : ١١٤] ، وقال : ﴿ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة : ٦] . وقال في إبراهيم عليه السلام : ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ [النحل : ١٢١] .

وقد يكون الشكر على النجاة من الشدة كما قال تعالى على لسان راكبي البحر : ﴿ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [يونس : ٢٢] .

وقال ههنا لكل صبار شكور فذكر الشكر لما ذكر نعمته فقال : ﴿ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ ﴾ [لقمان : ٣١] ، وذكر الصبر لما قال بعد ذلك : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ ﴾ .

جاء في (البحر المحيط): «ولما تقدم ذكر جري الفلك في البحر وكان في ذلك ما لا يخفى على راكبه من الخوف، وتقدم ذكر النعمة، ناسب الختم بالصبر على ما يحذر، وبالشكر على ما أنعم به تعالى»(١).

وقد اقترن وصف (الصبّار) بالشكور دومًا في القرآن، فلم ترد كلمة (صبار) إلا وقال معها: (شكور).

وقد جاء بهذين الوصفين على صيغة المبالغة للدلالة على أن الإنسان يحتاج إلى الصبر على وجه الدوام، ويحتاج إلى الشكر على وجه الدوام.

فالإنسان تلزمه طاعة ربه على الدوام، فيحتاج إلى الصبر على الطاعة.

وهو عرضة لما يكره فيحتاج إلى الصبر على ما يكره.

ويحتاج إلى الشكر على الدوام؛ لأن نعم الله عليه دائمة مستفيضة.

ومن الملاحظ في التعبير القرآني أنه إذا ذكر تهديدًا في البحر أو خوفًا فيه قرن ذكر الصبر بالشكر، فإن لم يذكر التخويف والتحذير ذكر الشكر وحده ولم يذكر الصبر، ولما قال في هذه الآية: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ ذكر الصبر فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

ومثله ما جاء في سورة الشورى وهو قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٢ ـ ٣٤].

فإنه لما هددهم بالإغراق وإهلاكهم في البحر بقوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ ذكر الصبر فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ١٨٨.

فإن لم يذكر التهديد ذكر الشكر وحده ولم يذكر الصبر كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦].

وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢].

وقوله: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢].

فإنه لما ذكر النعم عليهم ولم يذكر تهديدًا أو تخويفًا ذكر الشكر ولم يذكر الصبر، والله أعلم.

* * *

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾

هذه آية عظيمة من آيات الله في الإنسان، فقد فطره الله على الإيمان به وتوحيده، ولكن الإنسان قد تغطي فطرته أتربة الحياة وركامها فينكر وجود الله أو يشرك به، فإذا وقع في مهلكة أو أصابه مرض وبيل وانقطعت به أسباب الرجاء وأيقن بالهلاك وخاب أمله في كل من كان يرجو منه العون وعجز الجميع عن تنجيته والأخذ بيده، انزاح عن فطرته ما كان قد غطاها من الأتربة والركام وظهرت الفطرة التي فطره الله عليها على

حقيقتها مستغيثة بالواحد الأحد ، وهي آية من آيات الله عظيمة لو كان الناس يفقهون.

* * *

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ ﴾

الظلل: جمع ظُلّة ، وهي الجبل أو السحاب أو كل ما أظلّك ، والمعنى: إذا جاءهم الموج كالجبال وغطاهم وقد أيقنوا بالهلاك دعوا الله عند ذلك مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البَرِّ كان منهم المقتصد.

والمقتصدون أقسام: فمنهم المقتصد في الإخلاص ، أي لم يكن على إخلاصه الذي كان عليه حين دعا ربه فقد قَلّ إخلاصه ، ومنهم المقتصد في الكفر ، أي لم يبق على غلوائه في الكفر والبغي فقد انزجر بعض الانزجار.

* * *

﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾

الجحود: إنكار ما تعلم من الحق ، فإن الإنسان إذا علم شيئًا وأنكره كان جاحدًا. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤].

وهؤلاء الذين أنجاهم الله من مخالب الموت واستخلصهم من بين أسنانه ثم جحدوا بآياته ليسوا إلا غادرين للعهد الذي أخذوه على أنفسهم بالإخلاص لله ، كافرين بنعمه.

فإنه كان عليهم أن يفوا بما عاهدوا الله عليه ولكنهم ختروا ، أي غدروا ونكثوا. وكان عليهم أن يشكروا نعمة الله ولكنهم كفروا وجحدوا. والختر أشد الغدر والخيانة.

جاء في (الكشاف): «يرتفع الموج ويتراكب فيعود مثل الظلل، والظلة كل ما أظلك من جبل أو سحاب أو غيرهما. . .

﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ متوسط في الكفر والظلم، خفض من غلوائه، وانزجر بعض الانزجار، أو مقتصد في الإخلاص الذي كان عليه في البحر، يعني أن ذلك الإخلاص الحادث عند الخوف لا يبقى لأحد قط، والمقتصد قليل نادر، وقيل: مؤمن قد ثبت على ما عاهد عليه الله في البحر. والختر: أشد الغدر» (١).

وجاء في (المحرر الوجيز): «الخَتَّار: القبيح الغدر، وذلك أن نعم الله تعالى على العباد كأنها عهود ومنن يلزم عنها أداء شكرها والعبادة لمسديها، فمن كفر بذلك وجحد به فكأنه ختر وخان» (٢).

وقد تقول: لقد قال هنا: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾، وقال في العنكبوت: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ فما السبب؟.

والجواب: أن سياق كل آية يوضح السبب.

فقد قال في لقمان: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].

وقال في العنكبوت: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

فأنت ترى أن الخطر في آية لقمان أعظم والهول أكبر، ذلك أن الموج غشيهم كالظلل. أما في آية العنكبوت فلم يذكر هولاً ولا خطرًا، فإنه

---

(١) الكشاف ٥/ ٢٣.

(٢) المحرر الوجيز ١١/ ٥١٨.

قال: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾ وهو خوف يعتري راكب البحر.

فلما كان الهول في آية لقمان أكبر وأعظم وكانوا من الموت بمنزلة من ضغمه الأسد ونجا، أو بمنزلة من استخلص من فم التمساح، انزجروا بعض الشيء فاقتصدوا في الذنوب بعد أن كانوا مسرفين فيها، أو اقتصدوا في الطاعة بعد أن كانوا منها بعد المشرقين.

وليس الأمر كذلك في العنكبوت.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن سياق الكلام في العنكبوت على المشركين. قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ . . . وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ . . . فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١ ـ ٦٧].

فقد قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يعني المشركين، ثم يستمر الكلام عليهم إلى أن ذكر الآية ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ ثم قال بعدها: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾.

فسياق الكلام ـ كما ترى ـ إنما هو على المشركين فقال: إنهم إذا ركبوا البحر أخلصوا دينهم لله، فلما نجاهم إلى البر عادوا إلى شركهم فجأة، ولذا جاء بإذا الفجائية للدلالة على ذلك.

أما السياق في لقمان فيختلف، إذ هو ليس في الكلام على المشركين. قال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ



ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٢٨ ـ ٣٣] إلى آخر السورة.

فاختلف السياقان فناسب كل تعبير مكانه الذي ورد فيه.

جاء في (التفسير الكبير): «قال في العنكبوت: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾، ثم قال: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقال ههنا: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ فنقول:

لما ذكر ههنا أمرًا عظيمًا وهو الموج الذي كالجبال بقي أثر ذلك في قلوبهم فخرج منهم مقتصد أي في الكفر وهو الذي انزجر بعض الانزجار، أو مقتصد في الإخلاص فبقي معه شيء منه ولم يبق على ما كان عليه من الإخلاص، وهناك لم يذكر مع ركوب البحر معاينة مثل ذلك الأمر فذكر إشراكهم حيث لم يبق عنده أثر»[1].

لقد ذكر في هذه الآية والتي قبلها أصناف الناس ممن يركبون البحر، فذكر الصَّبَّار الشكور، وذكر المقتصد، وذكر الخَتَّار الكفور.

ثم نادى الناس جميعًا بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ...﴾.

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ١٣٢.

وهناك ملاحظة نود أن نشير إليها في هذه الآية ، وهي أنه قَدَّم الجار والمجرور (له) على (الدِّين) فقال: ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ وهذا هو الشأن في كثير من الآيات نظائرها ، فإنه يقدم الجار والمجرور على الدين ، إلا في آية واحدة قدم الدين وأخر الجار والمجرور وهي قوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء: ١٤٦] ، فإنه قال: ﴿ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ ولم يقل: (وأخلصوا لله دينهم) فما السر في هذا الاختلاف؟

من المعلوم أن التقديم والتأخير إنما يكون بحسب ما يقتضيه السياق ، والسياق في سورة النساء في الكلام على المنافقين ، فقدم ما يتعلق بهم وهو (دينهم) أي الدين مضافًا إلى ضميرهم ، وأما الآيات الأخرى فالكلام على الله سبحانه فقدم ما يتعلق به وهو ضميره المجرور.

وإيضاح ذلك أن الكلام على المنافقين في سورة النساء بدأ من قوله تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٣٨] ، إلى الآية (١٤٦) ، فقال لذلك: ﴿ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ ، والضمير في (دينهم) يعود على المنافقين ، فقدم ما تعلق بهم.

أما الآيات الأخرى فالكلام فيها على الله سبحانه ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر: ١ ـ ٣].

ويستمر الكلام على الله إلى أن يقول: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٢ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ [الزمر: ١١ ـ ١٥].

فقَدَّم الجار والمجرور (له) وفيه الضمير الذي يعود على الله في ثلاثة مواضع لما ذكرنا.

ونحوه قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥] ، فقدم الجار والمجرور وذلك لأن الكلام على الله ، وذلك ابتداء من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] إلى الآية (٧٧) بل يستمر الكلام على الله إلى نهاية السورة وهي الآية الخامسة والثمانون ، فناسب تقديم الضمير الذي يعود عليه ، والله أعلم.

* * *

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾

لقد أمر الله الناس أن يتقوا ربهم فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ ، وقال: (ربكم) بإفراد الرب وإضافته إليهم ليدل على أن لهم ربًّا واحدًا ، فليس ثمة أرباب ولا هو رب فئة دون فئة أو شعب دون شعب ، وإنما هو رب الناس جميعًا.

واختيار لفظ الرب ههنا له دلالته ، ذلك أن الرب هو المربي والمالك والسيد والمنعم والقيّم ، وهذا يعني أن بيده النفع والضر ، فعلى الناس أن يتقوا من بيده ذاك لئلا يمسك نفعه عنهم ويوقع بهم الضر. والناس عادة يحذرون من بيده نفعهم أو يمكن أن يضرهم ، بخلاف من لا يملك شيئًا إزاءهم ، فذكّرهم بربوبيته لهم لأن ذلك من موجبات الاتقاء.

واختيار لفظ الرب مناسب أيضًا لذكر الوالد والولد بعده ، ذلك أن الرب هو المربي والمعلم والمرشد والقيم ، وكذلك الوالد مع ولده فإنه القيم عليه والموجه له والمربي ، فهو تناسب لطيف.

* * *

﴿ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾

معنى (لا يجزي): لا يقضي، والمعنى لا ينفعه بشيء ولا يدفع عنه شيئًا[1].

لقد قال ههنا: ﴿ لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ ﴾، والتقدير (لا يجزي فيه)، غير أنه لم يذكر الجار والمجرور، فلم يقل: (لا يجزي فيه). بخلاف آيات أخرى فإنه ذكر الجار والمجرور فيها، فقد قال: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وقال: ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ [النور: ٣٧ ـ ٣٨].

والسبب ـ والله أعلم ـ أن الحذف يفيد الإطلاق، ذلك أن النفع والدفع في قوله: ﴿ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ . . . ﴾ لا يختص بذلك اليوم فقط، فإنه إذا جزى أحد عن أحد فإنه لا يقتصر أثر ذلك على ذلك اليوم، بل سيمتد إلى الأبد لأنه سيكون في الجنة، ولو قال: (فيه) لربما أفهم أن أثر ذلك مقتصر على ذلك اليوم.

ولذا حيث قال: (لا تجزي) لم يقل: (فيه) وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة: ٤٨]، وقوله ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة: ١٢٣].

بخلاف قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨١]، فإن ذلك مختص بيوم الحساب، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾.

---

(١) انظر المحرر الوجيز ١١/٥١٩، روح المعاني ٢١/١٠٣.

ويوم الرجوع إلى الله وتوفية الحساب هو يوم القيامة ، فذكر (فيه) للتخصيص.

ونحوه قوله تعالى: ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ [النور: ٣٧ ـ ٣٨] ، فإن ذلك مختص بيوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار وهو يوم الجزاء فذكر (فيه) لذلك ، والله أعلم.

وقال ههنا: ﴿ لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ ﴾ فذكر الوالد والولد ، وقال في البقرة: ﴿ لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ فذكر عموم النفس وذلك لأكثر من مناسبة. فقد ذكر في السورة الوالدين والوصية بهما ومصاحبتهما بالمعروف، فبين بقوله: ﴿ لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ . . . ﴾ أن الإحسان إليهما ومصاحبتهما بالمعروف إنما هو مختص في الدنيا ولا يمتد إلى الآخرة.

ثم من ناحية أخرى أنه لما ذكر الرب بقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾ ذكر أنه لا يجزي الوالد عن ولده ، لأن الوالد مربٌّ لابنه ، فناسب ذكر الرب ذكر الوالد والولد، ولم يرد مثل ذلك في البقرة، فذكر عموم النفس.

وقدم الوالد على الولد فقال: ﴿ لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ لأن الأب أكثر شفقة على الولد وأحرص على الدفع عنه فَقدَّمه لذلك.

جاء في (البحر المحيط): «لما كان الوالد أكثر شفقة على الولد من الولد على أبيه بدأ به أولاً»[(١)].

وجاء في (التحرير والتنوير): «وابتدئ بالوالد لأنه أشد شفقة على ابنه

---

(١) البحر المحيط ٧/ ١٨٩.

فلا يجد له مخلصًا من سوء إلا فعله»[١].

وقال في الوالد: ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ﴾ بالفعل، وقال في الولد: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ﴾ بالاسم، ذلك أن الله وصى الإنسان بوالديه إحسانًا، وهو مكلف بذلك على جهة الدوام والثبوت، بخلاف الوالد فإنه غير مكلف بولده بعد البلوغ، وإنما يدفع عنه أو ينفعه بدافع الشفقة، ففرق بين الجزاءين، فجعل المكلف بالصيغة الاسمية وجعل غير المكلف بالصيغة الفعلية؛ لأن الاسم يدل على الثبوت، وهو أثبت وأدوم من الفعل.

ثم إنه لما مَرَّ في السورة توصية الإنسان بوالديه ومصاحبتهما بالمعروف ولم يذكر مثل ذلك في معاملة الآباء للأبناء ذكر جزاء الوالدين بالصيغة الاسمية الدالة على الثبوت.

جاء في (التفسير الكبير): «الابن من شأنه أن يكون جازيًا عن والده لما له عليه من الحقوق، والوالد يجزي لما فيه من الشفقة وليس بواجب عليه ذلك، فقال في الوالد: (لا يجزي) وقال في الولد: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ﴾»[٢].

وقال أحمد بن المنيّر في (الانتصاف من الكشاف): «إن الله تعالى لما أكد الوصية على الآباء وقرن شكرهم بوجوب شكره عز وجل، وأوجب على الولد أن يكفي والده ما يسؤوه بحسب نهاية إمكانه، قطع ههنا وهم الوالد في أن يكون الولد في القيامة مجزيه بحقه عليه. ويكفيه ما يلقاه من أهوال القيامة كما أوجب الله عليه في الدنيا ذلك في حقه. فلما كان إجزاء الولد عن الوالد مظنون الوقوع لأن الله حضه عليه في الدنيا كان جديرًا

---

(١) التحرير والتنوير ١٢/ ١٩٣.

(٢) التفسير الكبير ٩/ ١٣٣.

بتأكيد النفي لإزالة هذا الوهم ، ولا كذلك العكس»[١] .

وعبر عن الولد بالمولود في قوله: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ ، قيل: لأن الولد يقع على الولد وولد الولد ، بخلاف المولود فإنه من ولد منك ، فإن «الواحد منهم لو شفع للأب الأدنى الذي ولد منه لم تقبل شفاعته ، فضلاً أن يشفع لمن فوقه من أجداده»[٢] .

وقيل: إنه عبر بمولود دون (ولد) «لإشعار (مولود) بالمعنى الاشتقاقي دون (ولد) الذي هو اسم بمنزلة الجوامد لقصد التنبيه على أن تلك الصلة الرقيقة لا تخول صاحبها التعرض لنفع أبيه المشرك في الآخرة وفاء له بما تومئُ إليه المولودية من تجشم المشقة من تربيته، فلعله يتجشم الإلحاح في الجزاء عنه في الآخرة حسمًا لطمعه في الجزاء عنه»[٣] .

وقوله: (شيئًا) يحتمل معنيين: المصدرية ، أي لا يجزي الولد عن والده شيئًا من الجزاء ، ويحتمل المفعولية ، أي لا يجزي عنه شيئًا من الأشياء. والمعنيان مرادان ، فهو لا يجزي عنه شيئًا من الجزاء ولا شيئًا من الأشياء.

* * *

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾

يدخل فيه كل وعد وعد به ، ومنه ما وعد به عباده في الآخرة.

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فتنسوا الآخرة وتشتغلوا بالدنيا. وقد أسند الفعل إلى الحياة الدنيا ، والمعنى: لا تغتروا بالحياة الدنيا إهابة بهم

---

(١) الانتصاف من الكشاف بحاشية الكشاف ٥/ ٢٤ .
(٢) انظر الكشاف ٥/ ٢٤ ـ ٢٥ .
(٣) التحرير والتنوير ٢١/ ١٩٤ .

إلى أن يأخذوا حذرهم منها ، هذا إضافة إلى ما في ذلك من المجاز ، فكأن الحياة تنصب الشرك لِغَرِّ الناس.

* * *

﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾

الغَرور : صيغة مبالغة ، وقد وصف بها الشيطان لكثرة غرّه الناس. وقد اختار (الغرور) على (الشيطان) ليشمل كل ما يغرّ وأول ذلك الشيطان.

وقد أكد الفعلين بالنون الثقيلة لتوكيد النهي ، ولتوكيد أن الدنيا والشيطان مما يغران الناس غرورًا مؤكدًا ، بل هما أكبر مدعاتين إلى الغرور ، والله أعلم.

وقدم الحياة الدنيا على الشيطان لأنها هي مبتغى الإنسان وهي همه ومطلبه ، وهو يكدح من أَجلها. ولأن الشيطان قد يغرهم بها ويجعلها شرك الغرور.

وقال : (الحياة الدنيا) ولم يقل : (الدنيا) لأن الحياة هي المطلب الأول للإنسان ومراده ، والله أعلم.

* * *

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾

ذكرت هذه الآية مفاتح الغيب.

فبدأت بعلم الساعة وهو أمر اختص الله به فلم يطلع عليه أحدًا كما قال تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب : ٦٣].

وقال : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا

هُوَۚ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةًۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٤٢ ـ ٤٤].

لقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ فقدم الخبر (عنده) على المبتدأ (علم الساعة)، وهذا التقديم يفيد الاختصاص، أي لا يعلمها إلا هو، وقد أكد ذلك بإنَّ.

ثم قال: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ فعطف على جملة الخبر، والمعنى: وأن الله ينزل الغيث. فجعل الخبر جملة فعلية مسندة للاسم، وهذا يفيد الاختصاص أيضًا.

لقد قال: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ فذكر تنزيل الغيث، ولم يقل: (ويعلم نزول الغيث) أو نحو ذلك؛ لأن تنزيل الغيث هو الذي يعني الخلق، إذ به تبدأ حياتهم وبه تتم مصالحهم. فاختار ما هو أدل على النعمة.

وقال: (ينزّل) بالمضارع؛ لأن ذلك يتكرر ويتجدد.

ثم قال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِۖ﴾ وهذا العلم عام يشمل الجنس وغير ذلك من نحو كونه تامًّا أو ناقصًا، وذكيًّا أو بليدًا، وطويلاً أو قصيرًا، وبعلم استعداده الجسمي والنفسي وكل ما يتعلق بأحواله، فلا يختصّ العلم بالجنس.

وهذا يعم جميع ما في الأرحام على مدى الدهر. وجاء بالفعل المضارع للدلالة على تكرار هذا العلم واستمراره.

جاء في (روح المعاني): «﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِۖ﴾ أي أذكر أم أنثى، أتام أم ناقص، وكذلك ما سوى ذلك من الأحوال... وخولف بين

﴿عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ وبين هذا ، ليدل في الأول على مزيد الاختصاص اعتناء بأمر الساعة ودلالة على شدة خفائها ، وفي هذا على استمرار تجدد التعلقات بحسب تجدد المتعلقات مع الاختصاص ، ولم يراع هذا الأسلوب فيما قبله ، بأن يقال : ويعلم الغيث مثلاً إشارة بإسناد التنزيل إلى الاسم الجليل صريحًا إلى عظم شأنه لما فيه من كثرة المنافع لأجناس الخلائق وشيوع الاستدلال بما يترتب عليه من إحياء الأرض على صحة البعث المشار إليه بالساعة في الكتاب العظيم» [١] .

وجاء في (التحرير والتنوير) : «وفي كلمة (عنده) إشارة إلى اختصاصه تعالى بذلك العلم ؛ لأن العندية شأنها الاستئثار ، وتقديم (عنده) وهو ظرف مسند على المسند إليه يفيد التخصيص . . .

وجملة ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ عطف على جملة الخبر ، والتقدير : وإن الله ينزل الغيث ، فيفيد التخصيص بتنزيل الغيث . . . وفي اختيار الفعل المضارع إفادة إلى أنه يجدد إنزال الغيث المرة بعد المرة عند احتياج الأرض . . . وإذ قد جاء هذا نسقًا في عداد الحصر كان الإتيان بالمسند فعلاً خبرًا عن مسند إليه مقدم مفيدًا للاختصاص بالقرينة . . .

وعطف عليه : ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي ينفرد بعلم جميع أطواره . . . وجيء بالمضارع لإفادة تكرر العلم بتبدل تلك الأطوار والأحوال» [٢] .

* * *

ثم قال : ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ .

فذكر الغد لينفي القياس على كسب يومه فلا يقول : سأكسب غدًا مثل

---

(١) روح المعاني ١٠٩/٢١ .
(٢) التحرير والتنوير ١٩٦/٢١ ـ ١٩٧ .

كسب اليوم ، فإن قسمًا من أصحاب الأجور الثابتة قد يظن أن كسبه غدًا ككسبه اليوم وهو لا يعلم ماذا يخبئُ له الغد.

ثم إن الكسب لا يتعلق بأمور المعاش فقط ، وإنما هو عام في عموم ما يكسب ، فقد يكون الكسب في أمور المعاش وما يتعلق به ، وقد يكون في الأعمال من الحسنات والسيئات فذلك كله كسب. وقد سمى الله الحسنات والسيئات كسبًا ، قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ، وقال: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [البقرة: ٨١].

والكسب قد يكون للقلب وقد يكون لغيره ، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥] فأثبت الكسب للقلب ، وقال: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] فأثبته لغيره.

فمن يعلم ماذا يكسب غدًا؟!

* * *

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾

وهذا مما لا يعلمه أحد إلا الله ، فإنه حتى المريض على فراشه قد ينتقل إلى الحمام فيموت ، وقد ينتقل من مكان إلى آخر داخل البيت فيموت. فلا يعلم بأي أرض يموت ، فكيف بالصحيح الذي لا يدري أيموت في بيته أم في مكان عمله أم في الطريق أم خارج بلده.

ثم لننظر الآية من حيث التقديم والتأخير ، فإنه بدأ بذكر الساعة وهي رأس المغيبات وقد جعلها بعد قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ﴾ وهو يوم القيامة فناسب ذكرها ما سبق.

ثم ذكر بعدها تنزيل الغيث ، وهو أسبق المذكورات بعده وجودًا ، فنزول الغيث يسبق في الوجود ما في الأرحام فإنه به يتحصل المشروب والمطعوم لما في الأرحام.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه كثيرًا ما يستدل القرآن بنزول الغيث على الساعة والنشور ، قال تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ [ق: ٩ - ١١] ، فجعله بعد الكلام على الساعة.

ثم ذكر بعد ذلك ما في الأرحام وهو ما قبل الولادة ، فقوله: ﴿ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾ له ارتباط بذكر الساعة قبله وارتباط بما في الأرحام بعده.

ثم ذكر بعده الكسب وهو فيما بعد الولادة ، فإن الكاسب لا يكسب إلا بعد الولادة.

ثم ذكر الموت آخرًا.

فرتبها بحسب الأسبقية.

ثم لننظر من ناحية أخرى في هذه الآية ، فإن فيها إثباتًا لعلم الله ونفيًا لعلم من عداه ، فقد قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ ﴾ وهو إثبات لعلم الله وقدرته.

ثم قال: ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ ﴾ وهذا نفي لعلم المخلوقات.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ فأثبت له العلم والخبرة ، وهذا يتناسب مع ذكر علمه بمفاتيح الغيب.

واجتماع العلم والخبرة من كمال الاتصاف ، فإن من تمام العلم وكماله أن تكون معه الخبرة.

وقد ذكر الوصفين بصيغة المبالغة للدلالة على كثرة علمه وخبرته وسعتهما.

* * *



مَرَاجِعُ الكِتَابِ

- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ـ ط٣/ ١٣٧٠ ـ ١٩٥١م ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر .

- أدب الكاتب لابن قتيبة ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط٤/ ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٣م .

- أساس البلاغة لجار الله الزمخشري ـ مطابع الشعب ١٩٦٠م .

- أنوار التنزيل للقاضي البيضاوي ـ المطبعة العثمانية ١٣٠٥هـ .

- البحر المحيط لأبي حيان ـ ط١ سنة ١٣٢٨هـ ، مطبعة السعادة بمصر .

- البرهان في علوم القرآن للزركشي ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ط١/ ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م ، دار إحياء الكتب العربية .

- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ـ الدكتور فاضل صالح السامرائي ـ دار ابن كثير ـ سوريا ـ الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م

- تاج العروس شرح القاموس لمحمد مرتضى الزبيدي ـ منشورات مكتبة الحياة ـ بيروت ـ تصوير على الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٠٦هـ .

- التبيان في أقسام القرآن لابن القيم - دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٢م - ١٤٠٢هـ.

- التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور - الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م.

- التعبير القرآني للدكتور فاضل صالح السامرائي - دار ابن كثير - سوريا - الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

- التفسير القيم لابن القيم - جمع محمد أويس الندوي - مطبعة السنة المحمدية ١٣٨٦هـ - ١٩٧٣م.

- التفسير الكبير لفخر الدين الرازي - المطبعة البهية - مصر.

- تفسير ابن كثير - طبع دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه.

- الجملة العربية تأليفها وأقسامها للدكتور فاضل صالح السامرائي - مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، بغداد ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

- الخصائص لابن جني - تحقيق محمد علي النجار - مطبعة دار الكتب المصرية.

- درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي - منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت ط١/ ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

- روح المعاني في تفسير القرآن الكريم لشهاب الدين السيد محمود الآلوسي - إدارة الطباعة المنيرية - دار إحياء التراث العربي.

- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك - دار إحياء الكتب العربية.

- شرح الشافية لرضي الدين الإستراباذي - تحقيق محمد محيي الدين وجماعة - مطبعة حجازي بالقاهرة.



ـ شرح الكافية لرضي الدين الإستراباذي ـ مطبعة الشركة الصحافية العثمانية سنة ١٣١٠هـ.

ـ شرح مفصل الزمخشري لموفق الدين ابن يعيش ـ طبع ونشر إدارة الطباعة المنيرية.

ـ فتح القدير للشوكاني ـ ط١ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٤٩هـ.

ـ فقه اللغة لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ـ مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م.

ـ في ظلال القرآن لسيد قطب ـ الطبعة الأولى.

ـ القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزابادي ـ ط٥/ ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م ـ شركة فن الطباعة.

ـ الكتاب لسيبويه ـ مصور على طبعة بولاق ـ نشر مكتبة المثنى ببغداد.

ـ الكشاف عن حقائق التنزيل لجار الله الزمخشري ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م.

ـ لباب النقول في أسباب النزول للواحدي.

ـ لسان العرب لابن منظور ـ مصور عن طبعة بولاق.

ـ لمسات بيانية في نصوص من التنزيل للدكتور فاضل السامرائي ـ دار ابن كثير ـ سوريا ـ الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م.

ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ـ ط١ ـ الدوحة ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م.

ـ المصباح المنير للفيومي ـ المكتبة العلمية ـ بيروت.

ـ معاني الأبنية في العربية: للدكتور فاضل صالح السامرائي ـ دار

ابن كثير ـ سوريا ـ الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م.

ـ معاني القرآن للفراء ـ تحقيق الأستاذ محمد علي النجار ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة.

ـ معاني النحو للدكتور فاضل صالح السامرائي ـ مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر ـ الموصل ط١/ ١٩٩١م.

ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

ـ المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ـ طهران.

ـ ملاك التأويل لأبي جعفر أحمد بن الزبير ـ تحقيق الدكتور محمود كامل أحمد ـ دار النهضة العربية للطباعة والنشر ـ بيروت ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

ـ النشر في القراءات العشر لابن الجزري ـ مطبعة مصطفى محمد ـ مصر.

ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

ـ النكت في تفسير كتاب سيبويه للأعلم الشنتمري ـ ط١/ الكويت ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

ـ نيل الأوطار للشوكاني.

ـ همع الهوامع شرح جمع الجوامع لجلال الدين السيوطي ـ ط١ سنة ١٣٢٧هـ، مطبعة السعادة بمصر.

* * *



فهرست الكتاب

الرقم	النص القرآني	الصفحة
	سُورَةُ يسٓ	
١	﴿يسٓ﴾	٥
٢	﴿وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ﴾	٦
٥	﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾	١٥
٦	﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾	٢١
٧	﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾	٢٤
٨	﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾	٣١
٩	﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾	٣٣
١٠	﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾	٤٠
١١	﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِىَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾	٤١
١٢	﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾	٥٥
١٣	﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾	٦٧
١٤	﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا. . .﴾	٧١

سورة لقمان